
بينيلوب توسن
الدخول في اللعبة
قصة النساء الغربيات في الجزيرة العربية
ترجمة: عبدالله جرادات

نبذة عن المؤلفة:

مؤرخة وموظفة أرشيف، عملت في المكتبة البريطانية قيمة على أرشيف الشرق الأوسط في مجموعات وزارة الهند والاستشراق، ورئيسة لوحدة أبحاث الشرق الأوسط، وهي الآن تدير مكتب استشارات بحثية تاريخية خاص بها. وتشمل منشوراتها الكتب التالية: «بنات الملكة»، ومختارات من كتابات نسائية فكتورية حول الهند، وبعض الكتب التاريخية التوثيقية للمملكة العربية السعودية، وقطر، والإمارات العربية المتحدة.

نبذة عن المترجم:

أستاذ اللغويات المساعد في قسم اللغة الإنجليزية في الجامعة الهاشمية، الأردن. حصل على درجة الدكتوراه في اللغويات، ولاسيما علم الدلالة من جامعة كانساس، أمريكا عام ٢٠٠٧م، مع مرتبة الشرف. تتركز اهتماماته البحثية في توثيق التراث والأمثال بشكل خاص، والبحث في علل استدامتها وبقائها، ومساهمة التركيب اللغوي في خلق هذه الاستدامة.



الدخول في اللعبة

يتناول هذا الكتاب بالبحث حياة بعض النسوة اللواتي عاصرن منطقة الخليج العربي، وما مرت به من تطورات وتغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية من وجهات نظر متباينة. فبعضهن كن زوجات موظفين بريطانيين تم تعيينهم في هذه المنطقة، ولهذا كن «منسجمات» مع المشروع الإمبريالي، و بعضهن اتخذن من انقيادهن للمشروع الإمبريالي وسيلة لتحقيق مآربهن بالسفر والترحال وولوج مناطق عدت قصية بل و محرمة أمام الأجانب. وبعضهن كن جامحات ، فلم يكن يلبي رغباتهن بالسفر والترحال سوى خرق التعليمات والأنظمة .

ورغم تباين قصص هؤلاء النسوة ، واختلاف مضمونها ، إلا أنها تعد تأريخاً مغايراً لجميع التواريخ السابقة، التي تم عبرها طمس دور المرأة كلياً في تلك المنطقة.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

789948 016144

الدخول في اللعبة

قصة النساء الغربيات في الجزيرة العربية

بينيلوب توسن

ترجمة: د. عبدالله جرادات

مراجعة: د. أحمد خريس

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م

الدخول في اللعبة/ قصة النساء الغربيات في الجزيرة العربية
بينيلوب توسن

HQ1729.5 .T8712 2010
Tuson, Penelope
الدخول في اللعبة : قصة النساء الغربيات في الجزيرة العربية / تأليف بينيلوب توسن؛ ترجمة عبد الله جرادات ؛ مراجعة أحمد خريس.- أبوظبي : هيئة أبو ظبي للثقافة و التراث، كلمة، 2010.
ص 365 : 17×24 سم.
ترجمة كتاب: Playing the Game:Western Women in Arabia
تدمك: 978-9948-01-614-4
1 - المرأة-دول الخليج العربية 2 - المرأة العاملة-دول الخليج العربية. أ- جرادات، عبد الله. ب- خريس، أحمد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Penelope Tuson
Playing the Game: Western Women in Arabia

Published by arrangement WITH I.B.Tauris & Co Ltd, London

كلمة KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+

أبوظبي للثقافة والتراث ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.cultural.org.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

الدخول في اللعبة

المحتويات

تمهيد.......................................7
خريطة.......................................21
المقدمة: المطالبة بمكان:
النساء والسياسة الإمبريالية قبل الحرب العالمية الأولى............43
الفصل الأول:
صون كرامة الإمبراطورية: جولة نائب الملك في الخليج عام 1903.............85
الفصل الثاني:
زوجة الوكيل السياسي إيميلي أوفرند لوريمير في البحرين 1911–1912...........131
الفصل الثالث:
قصص نظيرة: المبشرون الأمريكيون في الخليج.........................171
الفصل الرابع:
العمل الحربي لصالح الإمبراطورية: نساء غربيات في بلاد ما بين النهرين والخليج 1914–1918.......................................217
الفصل الخامس:
النساء والنظام العالمي الجديد: المنظور الإنجلوأمريكي حول الاستعمار 1918–1926 ... .257
الفصل السادس:
نساء يُدعين جامحات: رحالات ومستشرقات خلال سنوات الحرب............297
الفصل السابع:
حادثة بيجاما الشاطئ 1933: النفط ومسار الخليج العربي الجوي وانفتاح الساحل.... 337
خاتمة: تتمة القصة.......................................337
المراجع 343

تمهيد

يتحدث هذا الكتاب عن نساء غربيات عِشْنَ، وعملن، وسافرن في شبه الجزيرة العربيّة، ومنطقة الخليج العربي في الفترة الواقعة بين تسعينيات القرن التاسع عشر، وثلاثينيات القرن العشرين. ويستعرض الكتاب بشكل خاص دور هؤلاء النسوة المتغير والمعقد في شؤون الإمبراطورية البريطانية في فترة أوجها نهاية القرن التاسع عشر، وحتى زوالها قبيل بدايات الحرب العالمية الثانية. وسواء بدت هؤلاء النسوة استثنائيات وغير تقليديات، أو محافظات مسايرات، فإنهن على غرار حكاياتهن، كُنّ مجهولاتٍ تماماً. وإذا استثنينا جهود مجموعة من النساء الرَّحالات المشهورات مثل غيرترود بيل وفريا ستارك، يمكننا القول أن سِيَر هؤلاء النسوة قد بقيت حبيسة الأرشيف، ناهيك عن إفساح المجال أمام العامة لقراءة تاريخهن. ولعلَّ ما يجمع بين هؤلاء النسوة رغبتهن أن يصبحْنَ بطريقة أو بأخرى، جزءاً لا يتجزأ من الحياة الإمبريالية البريطانية. على أن بعضهن كنَّ في أتم الاستعداد للتوافق مع الآخر ولعب الدور، في حين رفضَ بعضهن الآخر ذلك بشكل قاطع. وما يقوم به الكتاب، بالإضافة إلى تَتَبُّعِ سير حياة هولاء النسوة، هو استعراض السبل التي سعت النسوة من خلالها إلى تداول السلطة والمكانة أو الاقتراب منها في المشروع الإمبريالي. وكيف أنّ هذه السلطة وذاك التدخل قد تغير وجهاهما مع مرور الوقت؟ ويدرس الكتاب الطرق التي تغيرت من خلالها أدوار المرأة العربية التقليدية وفقاً لآراء الرجل، ووفقاً لتراتبية الثقافة والسلطة الإمبرياليتين. ويناقش الكتاب مدى اشتراك النساء الفاعل في صياغة هذه الأدوار، والتواطؤ السلبي معها في بعض الأحيان، أو جعلها أدوارا قائمة على بثِّ الفتنة في أحيان أخرى؛ كل هذا في إطار نشاطاتهنّ اليومية وفي تصويرهنّ لأنفسهنّ.

أشارت المؤرخة النسويّة، كلير ميجلي، في مقدمة مجموعة من الكتابات حول الجنوسة والإمبريالية، نشرت عام 1998، إلى الطرق التي تطور خلالها تأريخ الجنوسة والتأريخ الإمبريالي التقليدي بمعزلٍ عن بعضهما البعض. فلقد نُظر إلى التأريخ الإمبريالي وكتب عنه على الدوام «كتأريخ صنائع الذكور، سواء أكانوا واضعي سياسات، أم قادة عسكريين،

أم مستكشفين، أم مبشرين، في حين كان تأريخ المرأة وعلاقتها بالإمبريالية- حتى فترة قريبة- ذا أهمية ثانوية، فهو موضوع ذو أهمية خاصة يستحق تركه للمؤرخات للبحث فيه[1]. بيدَ أنَّ كلمة كلير مجلي ما زالت صحيحة حين نتحدث عن شبه جزيرة العرب. فعلى الرغم من ظهور بعض الاختلافات الرئيسية في دراسة الجنوسة في الهند الإمبريالية وإفريقيا الاستعمارية، إلا أن قصة التدخل الغربي في جزيرة العرب والخليج، ما زالت تُدرْس من منظورٍ يقتصر على الرؤى المحليّة للعلاقات السياسية والدولية. فعناوين كـ«بريطانيا والخليج العربي» و«بريطانيا الهند والعرب»، و«الصراع من أجل السلطة في جزيرة العرب»، و«السياسة في الواحة العربية»، قد استحوذت على مبيعات السوق منذ سبعينيات القرن العشرين وما زالت كذلك[2]. وأفضل ما يوضح هذه القضية الأكاديمية الحالية، مثالٌ لسردٍ مفصلٍ وعلمي حديث، للعلاقات البريطانية مع الإمارات البحريّة في أدنى الخليج في بداياتِ القرن التاسع عشر، فَضّل فيه الكاتب ضمنياً تصنيف جميع

---

(1) Clare Midgley, 'Gender and Imperialism: mapping the connections', in Midgley(ed.) Gender and Imperialism (Manchester: Manchester University Press, 1998),pp1-2

(2) تضم قائمة التواريخ الإمبريالية التقليدية للمنطقة، التي تدل عناوينها على موقفها الكتب التالية:

J.B. Kelly, Britian and the Persian Gulf,1795-1880,(Oxford:Oxford University Press,1968); Briton Cooper Busch, Britain and the Persian Gulf,1894-1914 (Berkeley and Los Angeles: University of California Press,1967); Briton Cooper Busch, Britain, India and the Arabs,1914-1921, (Berkeley: University of California Press,1967); Mahdi Al-Tajir, Bahrain 1920-1945, Britain, the Shaikh and (the Aminstration (London: Croom Helm, 1987

أما الكتب التي نشرت حديثا لتأريخ المنطقة، فلقد كانت ذات طابع سياسي و «ذكوري»، على الرغم من أنَّ عددا كبيرا منها قد خطته مؤرخات أكاديميات، ومن هذه الكتب: Madawi Al-Rasheed, Politics in an Arabian Oasis: the Rashidi Tribal Dynesty (London: I.B. Tauris,1991); Moudi M.Abdul-Aziz, King Abdul-Aziz and the Kuwait Conference, 1923-1924 (London: Echoes, 1993); Haifa, Alangari, The struggle for Power in Arabia: Ibn Saud, Hussein and Great Britain, 1914-1924(Reading: Ithaca Press, 1998); Salwa Alghanim, The reign of Mubarak Al-Sabah, Shaikh of Kuwait, 1896-1915 (London: (I.B.Tauris,1998

أشكال الوجود الأنثوي، مع استبعاد بعضها، تحت مدخل فهرسي ضخم هو «نساء»[1]. وباختصار، لم يتلق اشتراك المرأة الغربية في أواخر القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين في المشروع الإمبريالي الأوروبي والأمريكي في المنطقة أي انتباه يذكر من المؤرخين، إلا في نطاق الحديث الأدبي– التاريخي المتعلق بالسفر والكتابات عنه، فضلا عن الاستشراق، و هناك في هذا المجال–على الأقل– بعض الكتب المبدعة المثيرة للتحدي حول حياة النساء ومواقفهن، على الرغم من أن معظمها ركز على الشهيرات القلائل منهن[2].

ولقد تم إسكات النساء بدرجات متفاوتة عبر طرق كتابة التأريخ الاستعماري والإمبريالي التقليدية، ويقع اللوم فيما يتعلق بالوجود البريطاني في جزيرة العرب، إلى حدٍ ما على حقيقة أنَّ المنطقة تقع على أطراف الإدارة الإمبريالية في الهند، ولهذا فهي تشكل محطة مهمة على الطريق إلى شبه القارة الهندية، وفي المحافظة على السلطة البريطانية هناك، لكنها كانت –وفي الوقت نفسه– جزءاً مما كان يسمى بـ «تخوم» الإمبراطورية. ولم تكن المراكز السياسيّة الصغيرة التي اختلقها البريطانيون للمحافظة على سلطتهم ولحمايّة مصالحهم، على أية حال من الأحوال مراكز تجمع بريطانية كبيرة، كما هي الحال في بعض مناطق الهند، أو في مجتمعات المحتل الأبيض الاستعمارية في إفريقيا. فلقد كانت

(1) Charles L.Davies, The Blood-Red Flag: An Investigation into Qasimi Piracy, 1797-1820 (Exeter: Universtiy of Exeter press, 1997)

(2) تمحور الاهتمام الأكاديمي بالمرأة الغربية في شبه الجزيرة العربية والخليج –وما زال يتمحور– حول «الاستشراق» و السفر و كتابات السفر. انظر على سبيل المثال: Sara Mills, Discourses of Difference: an Analysis of Women's Travel Wrting and Colonialism (London: and New Yor: Routledge, 1991); Mary Louise Pratt, Imperial Eyes: Travel Wrting and Transculturation (London and New York: Routledge, 1992); Billie Milman, Women's Orients: English Women and the Middle East, 1718-1918 (Basingstoke: Macmillan, 1992) أما أشهر الرحّالات في المنطقة خلال القرن العشرين فهما غيرترود بيل وفريا ستارك، اللتان كانت حياتهما موضوعاً لكثير من السير، أحدثها: Janet Wallach, Desert Queen: The Extraordinary Life of Gertrude Bell (New York: Doubleday,1996) Jane Fletcher Geniesse, Passionate Nomad: The Life of Fraya Stark (New York: Random House,1999)

هذه المراكز ثغوراً يُنظر إليها كمحميات ذكورية و«أماكن غير مناسبة للنساء». فلم تكن هناك شبكة اجتماعية متبادلة ومعترفٌ بها من الخاتونات أو جلسات الشاي والتنس. كان يُنظر الى الخليج، عند مقارنته بالهند- وهي المكان، الذي تركزت فيه معظم التعيينات العسكرية، مكاناً منعزلاً، وقاسياً، ويفتقد لكل مظاهر البنية التحتية المتوافرة في مجتمع «الراج» البريطاني. وكان عدد النساء الغربيات الموجودات في المنطقة، إبان السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى قليلاً جداً. فقد وصلت أول مبشرة أمريكية تدعى آمي ويكليز زويمر، إلى المنطقة وتحديداً إلى البصرة في عام 1896.

لم تكن زوجات الوكلاء السياسيين البريطانيين المتمركزين في بوشهر، والبحرين، والكويت ومسقط يُنْصَحْنَ بالمكوث الدائم مع أزواجهن، وكُنَّ يفضلن الرجوع إلى الهند خلال صيف الخليج الحار الخانق. لكنْ مع ازدياد المصالح الاستراتيجية، والاقتصادية البريطانية في المنطقة تدريجيا ، أخذ المزيد من الموظفين العسكريين والسياسيين والإداريين، ورجال الأعمال وأصحاب المهن والنساء، بالتوافد إلى المنطقة بهدف إنشاء مجتمعات غربيّة صغيرة في إمارات الخليج الساحليّة. كما أخذت المنطقة، مع تطور صناعة النفط، والطرق الجوية الخليجية العربية في ثلاثينيات القرن العشرين، تشد أنظار الغربيين، وبدأوا ينظرون إليها كمنطقة منفتحة، على الرغم من حقيقة أن المجتمعات المغتربة الموجودة بقيت حتى عام 1939 صغيرة جداً، بمعناها الواسع وعند مقارنتها مع المجتمعات في الهند.

أما فيما يتعلق بالدليل التاريخي، فمشاكل البحث حول النساء في هذا السياق السياسي والجغرافي جمة، بسبب طبيعة المجتمع شبه المتحضر وشبه البدوي في الخليج معاً، ولاسيما قبل نشوء اقتصاديات النفط، ونتيجة لهيمنة نمط التأريخ الشفهي لا المكتوب، إذ لم تكن هناك مصادر محلية مكتوبة ذات علاقة بالموضوع.

لهذا، كانت الدلائل المباشرة من المصادر المحليّة شحيحة، خاصة حول الفترة المبكرة جداً. وبناءً عليه، فلقد بقيت الأراشيف الاستعمارية والإمبريالية البريطانية المصدر الرئيسي المتوفر حول تأريخ الخليج. وللوهلة الأولى، بدت الأراشيف تكاد لا تحوي كثيراً من المعلومات حول النساء، سواء أكُن إمبرياليات أم استعماريات. وسواء كُنّ مستعمِرات

أم مستعمَرات. ويعكس محتوى الأراشيف وتصنيفها وترتيبها أولويات الرجال ووجهات نظرهم، فهم من أوجد هذه الأراشيف وحفظها. كما كانت النساء بشكل عام في شبه جزيرة العرب غائبات ببساطة تامة عن التيار الأرشيفي السائد للتأريخ الإمبريالي، إلا إذا كُنّ من بين الأفراد الذين عينوا لفترة قصيرة في السلك الحكومي كغيرترود بيل وفريا ستارك، أو كُنَّ من أولئك اللواتي كانت أعمالهن تزعج أو تشوّه الوجه السائد للدبلوماسية الإمبريالية، كروزيتا فوربس وبعض المبشرات الأمريكيات. لهذا كان البحث في حياتهن ووجهات نظرهن نضالا له عواقبه، ويتطلب التحري، والمثابرة والإحباط والغضب والسعادة من حين لآخر. وهو عملٌ حاولت به على الصعيدين البدني والفكري أن «أتلمّس هوامش التأريخ»(1).

ولحسن الحظ، لم تكن الأراشيف الحكومية هي المصادر الغربية الوحيدة. فيتوافر الآن في المكتبات والأراشيف والمجموعات الخاصة البريطانية والأمريكية، عدد كبير من المفكرات والرسائل والمذكّرات غير المنشورة والسير الذاتية لعددٍ من الرّحالات الغربيات، والمبشرات والطبيبات والخاتونات. ولقد تم اكتشاف الكثير من هذه المراجع حديثاً ثم استثماره، فلهذه المصادر دور كبير في جسر بعض الفجوات، وفي تقديم رؤى جديدة حول قصة النساء والإمبراطورية. لا تُستمد سرديات هذا الكتاب من الأراشيف الحكومية للإدارات البريطانية في الخليج فحسب، بل تستند إلى أوراقٍ شخصية وأعمالٍ مطبوعة لنساء بريطانيات كُن قد عشن وسافرن في المنطقة، ومن تقاريرٍ وقصص مبشّرات أمريكيات عشن فيها.

ولعل أشهر الكتابات النسائية حول هذا الجزء من الشرق الأوسط مراسلات غيرترود بيل وفريا ستارك وكتبهما. ولقد شهدت المنطقة وجود رحالة مستقلة لا يكبح لها جماح، تدعى روزيتا فوربس. كانت روزيتا كاتبة غزيرة للرسائل، وصحفية نشرت العديد من

(1) Gayatri Chakravorty Spivak, A Critique of Postcolonial Reason: Toward a History of the Vanishing Present (Cambridge MA and London: Harvard Unversity Press, 1999) ch.3.

في هذا الفصل، تعاود سبيفاك تناول إحدى مقالاتها السابقة الموسومة بـ «Rani Sirmur» المنشورة (1985) ووصف الصمت و نقاط الحذف في مصادر وزارة الهند التي رجعت إليها.

الكتب التي سردت بها تجاربها في جزيرة العرب وشمال إفريقيا. رغم ذلك، بقيت حياة من أطلق عليهن «النساء الاعتياديات» مخفية في التأريخ بشكل مخيب للآمال، خاصة أولئك اللواتي كُنَّ يلقبنَ بالزوجات المندمجات، ورُسمت هواياتهن وفقاً لوظيفة أزواجهن ومكانتهم[1].

ولهذا تُعد أوراق إيميلي أوفيرند لوريمير غير المنشورة، التي لم يتم البحث فيها سابقاً، أحد المصادر الرئيسية المهمة حول تأريخ المرأة الغربية في الخليج والمناطق المجاورة، وهي محفوظة حالياً في المكتبة البريطانية. كانت إيميلي لوريمير زوجة ضابط سياسي بريطاني تم تعيينه في البحرين عام 1911. ولقد خطت إيميلي لوريمير رسائل مفصلة ودوريّة بعثت بها إلى عائلتها ما يقرب من الثلاثين عاماً، بدءاً من حياتها المبكرة في جامعة أكسفورد، ثم ما يخص تجاربها اللاحقة في البحرين، والبصرة والواجهة الشمالية الغربية للهند، وانتهاء بتقاعدها في مدينة ويلوين غاردن. ولا تعدو أوراقها أن تكون تسجيلا لمجموعة كبيرة من الوقائع حول أعمالها اليومية، ومواقفها ووجهات نظرها كخاتون. وتقدم أوراقها أيضاً– بتفصيل غير اعتيادي– آراءها المتغيرة المتفاوتة في البلدان، والناس المحيطين بها، وهويتها، ودورها في المشهد الإمبريالي العالمي. لكن لم تترك غيرها من الخاتونات، خاصة بيلا كوكس، التي كان زوجها مقيماً سياسيا في الخليج ومفوضاً سامياً في العراق لاحقا على امتداد فترة من الزمن بدأت في تسعينيات القرن التاسع عشر وانتهت في عشرينيات القرن العشرين، توثيقا منْ أيَّ نوع لحياتهن. غير أننا نستطيع أن نستجمع حياة بيلا كوكس من خلال سرديات معاصريها وأصدقائها. ورغم هذا، كانت بيلا كوكس شخصية قوية ومحبوبة في عائلة كوكس، وبؤرة الحياة الاجتماعية والمنزلية للسلطة البريطانية في الخليج.

ومع أن الأوراق الشخصية والكتابات حول السفر، قد قطعت شوطاً كبيراً في تعويض سكوت الأراشيف الرسمية بتقديمها وجهة نظر بديلة، قد تكون في معظم الأحيان مغايرة، إلا أنها قد جلبت معها متاعاً ثقافياً مميزاً، فهناك قدر وافر من النظريات الأكاديمية حول

(1) Hillay Callan and Shirley Ardener (eds), The Incorporated Wife (Beckenham: Croom Helm, 1984).
انظر الفصل الثاني.

الهيكلة الشخصية للذات أو «قصة الذات»[1].

لا تعدو مواد السير الذاتية، بطبيعتها، أن تكون رسماً شخصياً للذات، وفي معظم الأحيان لا يسعها إلا أن تحجب أو تؤكد، سواء بوعي أو دون وعي، بعض الأحداث والآراء، اعتماداً على منظور المؤلف الآني وجمهوره المتوقع. وكما قال أحد النقاد، فإنّ الهُويات في ترجمات الحياة الذاتية وغيرها لا تُسْتكشف وإنما «يبنيها الأفراد بعناية»[2]. فضلاً عن ذلك، وكما نبّه معظم الأكاديميين النقاد، فلقد قام كثير من كتاب «السير» أو مؤرخي حياة النساء، بمن فيهم النساء أنفسهن، بحجب الحقيقة حول التجارب النسائية في سبيل جعل «الحياة المكتوبة» انعكاسا لتوقعات المجتمع لصور الحياة المرجوّة[3]. كما تعكس محتويات الرسائل الشخصية غير المطبوعة قراراً واعياً اتخذه المؤلف في التعبير عن رأي، وتوفير معلومات مختارة، حتى وإن كان ذلك لنطاقٍ ضيقٍ من القرّاء. لقد عَرضتُ في هذا الكتاب السبل المختلفة التي انطلقت منها مجموعات مختلفة من النساء (الخاتونات البريطانيات والمبشرات الأمريكيات) وشخصيات نسائية متباينة (إيميلي لوريمير، وغيرترود بيل، وروزيتا فوربس، وفيوليت ديسكون) لبناء هوياتهن الذاتية بطرقٍ متمايزة، وفي بعض الأحيان متناقضة، وبدرجاتٍ متفاوتةٍ من الارتباط بالإمبراطورية. بيدَ أنَّ ما يجمع بين هذه المجموعات وتلك الشخصيات، هو تلك المعرفة بالمشروع الإمبريالي، والتطلع للقيام بدور ما فيه. وإلى جانب كتابات البريطانيات، هناك مذكرات

(1) حول كتابات السفر النسائية، انظر الملاحظة 4 أعلاه. وحول السير والسير الذاتية انظر: Liz James, 'This is me!': Autobiography and the construction of identities' in Liz Stanley (ed.) 'Lives and Works: Auto/biographical occasions,' Auto/Biography, no 3 (1994), pp.71-82; Liz Stanley, The Auto/Biographical1: The theory and Practice of Feminist Auto/biography (Manchester: Manchester Unviversity press, 1992).
وتضم المطبوعات الحديثة: Pauline Polky (ed), Women's Lives into Print: The Theory, Practice and Writing of Feminist Auto/biography (Basingstoke: Macmillan, 1999); Alison Donnell and Pauline Polky (eds), Representing Lives: Women and Auto/biography (Basingstoke: Macmillan, 2000).

(2) James, « This is me!» p.71.

(3) هذه النقطة ذكرتها كارولين هيلبرون في: Carolyn Heilbrun, Writing a Woman's Life, (New York: Ballantine books).

وتقارير كتبها مبشرون ومبشرات الإرسالية التبشيرية الأمريكية إلى جزيرة العرب في أثناء وجودهم المحدود أحياناً، وطويل الأمد أحياناً أخرى في الخليج، وتضم التقارير الميدانية المُعَدّة لداعمي البعثات التبشيرية في الوطن معلومات مفصلة متميزة، حول الحياة اليومية في الخليج. وبدا جلياً أن التزام الكتّاب بقضية التبشير قد أثّر في أسلوب تقديمهم للخبر وطريقة تسجيلهم للحقائق والأحداث. إن تحيزهم ومنظورهم العامين، ومنطلقهم الأمريكي والبروتستانتي الديني، لهي أمور واضحة للقارئ العام. فعنوان التقارير الميدانية ذاته، «جزيرة العرب المهملة»، لهو أكبر مؤشر على طريقة تعاملهم ثقافياً مع المنطقة. وعلى الرغم من هذا، فإن هذه التقارير تقدم نوعاً مفصلاً ضرورياً من التوازن المضاد للروايات البريطانية حول التدخل الإمبريالي، وتقدم أيضاً سرداً مباشراً للتأريخ المحلي، خاصة تأريخ النساء الغربيات (الأمريكيات) وإدراكهن لأدوارهن المنزلية والعامة، وتراتبية العلاقات الثقافية والاجتماعية بين مجموعات مختلفة من النساء الغربيات والعرب.

لقد بدأ المؤرخون ونقاد الأدب خلال العقدين الأخيرين، يتفحصون التأريخ الإمبريالي، والاستعماري، وعلم التأريخ بشكل عام، ويعيدون تقييمه وكتابته. كما حاول المؤرخون النسائيون، على سبيل المثال، أن يواجهوا حالات الصمت في التأريخ الغربي التقليدي، عبر إيجاد مواد غير مكتشفة سابقاً، لأفراد ومجموعات من النساء خارج مراكز السلطة السياسيّة، والاقتصادية، والبحث فيها. وبشكل عام، حاول المؤرخون وواضعو نظريات ما بعد الاستعمار أن يعالجوا مشاكل التحيز والاستثناء في المصادر الأرشيفية والأدبية الرئيسيّة المتعلقة بالتأريخ الإمبريالي والاستعماري[1].

(1) فهرس الأبحاث والكتابات المعاصرة حول التأريخ الإمبريالي والاستعماري والنظرية ما بعد الاستعمارية زاخر جداً. وتم ذكر أكثر المراجع صلة بالموضوع وأبرزها في المراجع. لكن على أيّ كتاب، حول التدخل الغربي في الشرق الأوسط الحديث، أن يقر بأهمية عمل إدوارد سعيد، الذي يعد كتابه الفذ «الاستشراق» (لندن ونيويورك: روتلج وكيغان بول المحدودة) المنشور عام 1978، الكتاب الذي بدأ الجدال. كما استمرت أعمال إدوارد سعيد اللاحقة في تشكيل العمل و التأثير فيه. ومن الكتب المؤثرة الأخرى وخاصة في حقل الدراسات النسائية، كتاب سبيفاك الأحدث: Gayatrai Chakravorty Spivak, A Critique of Postcolonial Reason: Toward a History of the Vanishing Present (Cambridge MA and London: Harvard Unversity Press, 1999)

لقد أخذت الأعمال المتعلقة بمشاركة المرأة في الحياة الإمبريالية والاستعمارية بالازدياد، ابتداءً من السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين عندما أخذت ما كانت تسمى بكتابات «إحياء الراج» لبان برات ومارغريت ماكميلان، مثلا على عاتقها مهمة إنقاذ أو استعادة المرأة الغربية من النسيان، أو من الصورة النمطية، لما أسماه المؤرخون النسويون «بأسطورة الأنثى المدمرة في التأريخ الاستعماري»(1). وتبع هذه الكتابات المبكرة انفجار من البحث، وأعمال دَلّت على التعافي بإشارتها إلى تنوع أوجه مشاركة المرأة، وهو الأمر، الذي بقي طي الكتمان عبر الخطابات الذكورية التقليدية للإمبراطورية(2). ومهدت هذه الأعمال الطريق لتفحص المزيد من المصادر البديلة المكتوبة على يد إناث. وفي الوقت نفسه، قادت هذه الأعمال إلى جدالٍ تأريخي وأثارت نقاشاً محتدماً حول العلاقة بين الجنوسة والإمبريالية أو الاستعمارية. وعلى وجه الخصوص، قاد التركيز البيّن على النساء البيضاوات القادمات من الطبقة الوسطى، إلى نقود من بعض الكتّاب أمثال جين هاجيز، التي أثارت عَبْرَ مراجعة ألقتها عام 1990، جدلاً أكاديمياً عندما جزمت «بأن التركيز على المرأة البيضاء ... يؤدي في الواقع إلى عدم جنسنة الشعب المُسْتَعمر، ويسهم في إسكات المرأة المُسْتَعمرة»(3). ويختزل كتاب نوبور تشودري ومارغريت ستروبيل الموسوم بـ

(1) Midgley, 'Gender and Imperialism' p 7. Margret Strobel, European Women and the Second British Empire (Bloomington and Indianapolis:Indiana University Press, 1991) Ch.1.; Par Pratt, The Memsahibs (London: Hamish Hamilton, 1967); Margret Macmmillan, Women of the Raj (London: Thames and Hudson, 1988).

(2) Midgley, 'Gender and Imperialism'p.7. انظر Callan and Ardener, The Incorporated Wife; Claudia Knapman, White Women in Fiji, 1835-1930: The Ruin of Empire? (Sydney: Allen and Unwin, 1986); Hellen Callaway, Gender, Culture and Empire: European Women in Colonial Nigeria (London: Macmillan, 1987); Strobel, European Women and the Second British Empire.

(3) Jane Haggis, 'Gendering colonialism or colonizing gender? Recent women's studies approaches to white women and the history of British colonialism', Women's Studies International Foruml 13 (1990),pp.105-15 وفي دراسة أحدث، أكدت هاجيز رأيها بأن التأريخ المتعافي بشكل أساسي للنساء البيضاوات يجازف باستعمار الجنسوية للرجال و النساء البيضاوات عوضا عن جنسنة الاستعمار كعملية تاريخية: Jane haggis, 'White Women and Colonialism: towards a non-recuperative history' in Midgley (ed.) Gender and Imperialism, pp.45-75.

«النساء الغربيات والإمبريالية: التواطؤ والمقاومة» الصادر عام 1992 في عنوانه، المتاهات التي واجهت الباحثين الحاليين حول موضوع المرأة الغربية والإمبريالية(1).

لقد أصبحت خلال ما يزيد عن 20 عاماً قضيتها قيّمة لأراشيف الشرق الأوسط، في مجموعات وزارة الهند، والاستشراق في المكتبة البريطانية، أكثر وعياً وإدراكاً للخطابات الإمبريالية التي تهيمن عليها الصبغة الذكورية لأراشيف الخليج العربي والتأريخ؛ كما غدوت أكثر وعياً بالصعوبات المشابهة المتعلقة بالبحث في تواريخ النساء الخفيّة. ولا يعدو هذا الكتاب عن كونه محاولة لاسترجاع جزء صغير من هذه التواريخ. ليس الهدف من بحثي هذا، كتابة تأريخ لنساء الخليج العربي، ذلك أن استكشاف هذا الموضوع يحتاج إلى مصادر إضافية، ومسارات لغوية لا أجد سبيلاً إليها. إن وجهة نظري حول هذا الأمر لا تعدو أن تكون انعكاساً لوجهة نظر مؤرخة نسائية غربية متعلمة بيضاء، وموضوعي هو التأريخ أو لأكن أكثر دقة، التواريخ المتنوعة للنساء الغربيات في منطقة صغيرة من الشرق الأوسط خلال خمسين عاماً. فحين أكتب عن النساء الغربيات، لا أرمي من وراء هذا التآمر لإسكات النساء العربيات، واختياري للموضوع لا يهدف إطلاقاً إلى إصدار أحكام تراتبية حول المصالح النسبية، أو قيمة قصص النساء الغربيات، وعلاقاتها مع قصص النساء العربيات. بل على العكس، وانما أرمي بكلامي هذا إلى إظهار الكم الكبير من الأدلة التي تنتظر من يستكشفها، والعدد الكبير من القصص التي تحتاج إلى من يرويها.

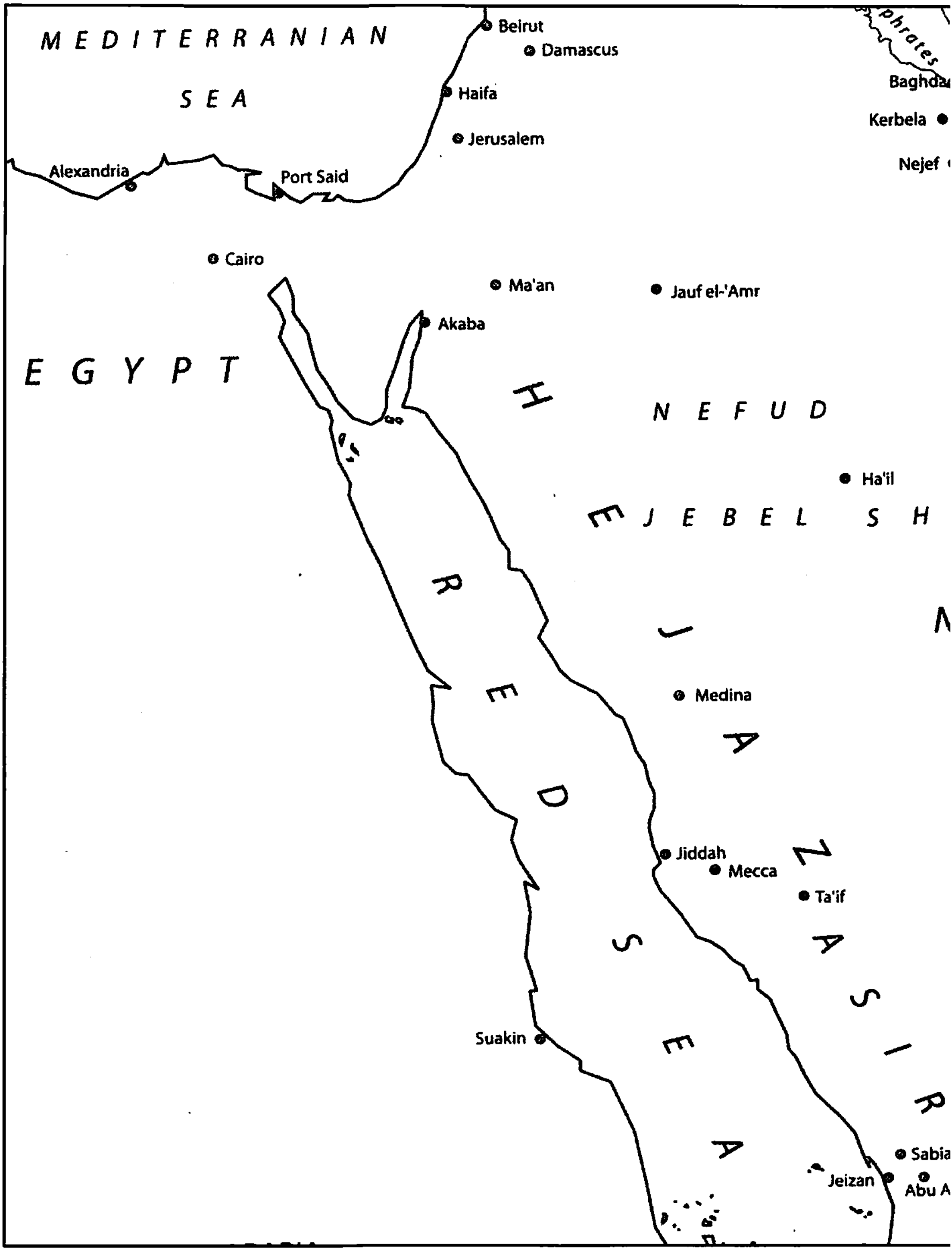
إن المنظور التاريخي والأدبي والفني الغربي تجاه الشرق الأوسط،،الذي نفضل أن نطلق عليه مصطلح «الاستشراق» كان وما يزال، موضوع العديد من الدراسات منذ نشر إدوارد سعيد كتابه الفذ. ولقد أبديت في هذا الكتاب إعجابي بالطرق التي رأت المرأة الغربية من خلالها «الشرق»، لكنني لم أحاول أن أدرس تأريخ الخليج كما رأته النساء الغربيات. فاهتمامي ينصب على تصورهن للخليج، بالمدى الذي تصورنه لأنفسهن وحددن أنفسهن من خلاله، وذلك عبر بنائهن لمجتمعات محلية، ووضعهن أنفسهن في الإطار

Nupur Chaudhury and Margret Strobel (eds), Western Women and Imperialism: Complicity and (1) .(Resisitance (Bloomington:Indiana University press, 1992

العام لتراتبية الإدارة والسلطة الإمبرياليتين. كما لا يرمي هذا الكتاب إلى التقليل من شأن التأريخ المحلي، أو تأريخ المنطقة أو تجاهلهما، فهذه الدراسة ليست تأريخاً لجزيرة العرب، وإنما هي سرد حول النساء الغربيات في جزيرة العرب. فما زالت هناك حاجة مستمرة إلى محاولة استكشاف تواريخ النساء، سواء أكُن مستعمِرات أم مستعمَرات بعيداً عن العوائق الخانقة للتراتبية التاريخية والسياسية المنافسة. وكما قدمت كلير مجلي بشكل مقنع، فعندما نقوم بتقليب المسلمات ورسم علاقات جديدة، وتشرّب ملامح النظريات النقدية النسائية وما بعد الاستعمارية، وإبطال الاعتقاد السائد الخاطئ بوجود صنفين مستعمِر ومستعمَر، وعند الاعتراف بأن كليهما شكلا مجموعات منسجمة: حينها سنكون قادرين «بأن نتطلع شوقاً لنقول الحقيقة حول تأريخ الإمبريالية»[1].

Midgley, 'Gender and Imperialism', pp.5-6 (1)


Tigris
siriyah
P E R S I A
Basra
Mohammerah
Umm Qasr
Koweit
Bushire
M A R
Quatif
Bahrein Islands
EL QATAR
Dohah
Hofuf
E J D
Riyadh
Ras el-Kheimah
Sharjah
Dibai
Abu Dhabi
TRUCIAL OMAN
Muscat
R U B A ' E L - K H A L I
DHOFAR
N E J R A N
Terim
Shibam
Seyyun
A M A U T


MEDITERRANIAN
SEA
Beirut
Damascus
Haifa
Jerusalem
Alexandria
Port Said
Cairo
Ma'an
Jauf el-'Amr
Akaba
EGYPT
HEJAZ
NEFUD
Ha'il
JEBEL SH
RED SEA
Medina
Jiddah
Mecca
Ta'if
ASIR
Suakin
Jeizan
Baghda
Kerbela
Nejef

المقدمة

المطالبة بمكان: النساء والسياسة الإمبريالية قبل الحرب العالمية الأولى

وصلت إيميلي لوريمير إلى البحرين في شهر مارس من عام 1911، لتبدأ عملها زوجة وكيل سياسي بريطاني تم تعيينه مؤخراً في الإمارة الخليجية الصغيرة. غادرت وزوجها بريطانيا بعد زواجهما في شهر ديسمبر من عام 1910 بفترة وجيزة. وسافر الزوجان عبر روما وأثينا إلى مصر والبحر الأحمر فعدن فمومباي. ومن هناك أبحرا إلى الخليج العربي حيث توقفا لبرهة في مسقط لمقابلة موظفين بريطانيين آخرين، وبعد رحلة هادئة على طول الساحل، حلت رحالهما في البحرين في يوم ربيعي دافئ. وفوراً أرسلت إيميلي رسالة موجزة إلى أمها قائلةً: «وصلنا أمس، إنه مكان جميل جداً، وثمة الكثير من الأشجار الخضراء، والمساكن فخمة وجميلة، إننا فرحون جداً بما يحيط بنا وبتوقعاتنا»[1].

كانت وكالة البحرين لا تعدو أن تكون محطة صغيرة جداً على أطراف الإمبراطورية البريطانية الضخمة في الهند، وكانت في نظر العديد من الناس مكاناً منعزلاً، كونها تفتقر إلى الكثير من بهاء دلهي أو بومباي وتقدمهما. لكنها أصبحت مع غيرها من الإمارات العربية المجاورة، في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى، أماكن بالغة الأهمية على الساحة العالمية، ذلك لسعي بريطانيا الدؤوب إلى حماية مصالحها الاقتصادية والسياسية العالمية من خطر منافسيها الأوروبيين والأتراك الأشداء.

بدأ اهتمام إيميلي أوفيرند بالإمبراطورية، كما هي حال بنات جيلها، قبل رحلتها بوقت طويل. إذ قابلت إيميلي زوجها عام 1909 في جامعة أكسفورد، حيث كانت تعمل مدرسة لعلم فقه اللغات الجرمانية في كلية سومرفيل. لقد ولدت ماري في دبلن في عام 1881، ووصفت ماري فيما بعد سلالتها «أنها مزيج من الإسكتلنديين غير الموالين والإنجليز». وكان والدها توماس جورج أوفيريند، محامي أراض وقيود متميزاً،

(1) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 11 مارس 1991، مجموعة إيميلي أوفيرند لوريمير، المكتبة البريطانية (مجموعات وزارة الاستشراق والهند)، المخطوطات الأوروبية ف 177/4.

وكان أيضاً كاتب محكمة، وقاضي محكمة مقاطعة لندن ديري[1]، تلقت إيميلي تعليمها في مدرسة أليكساندر وكلية دبلن. وفي عام 1904 حصلت على درجتها الجامعية الأولى في اللغات الحديثة من كلية ترينيتي، ثم التحقت بسومرفيل لتَدْرُسَ اللغة الألمانية. وحصلت إيميلي على درجة متفوقة في امتحاناتها النهائية عام 1901، على الرغم من أن نساء جيلها -كما تروي إيميلي لاحقاً- لم يكنَّ يُمنحنَ الدرجات قبل الحرب العالمية الأولى[2]. وبعد ذلك قضت إيميلي سنة في جامعة ميونيخ، فقد اكتسبت اهتماماً استمر مدى حياتها باللغات، والثقافات الأسيوية. قبل عودتها إلى سومرفيل للتدريس، استقالت إيميلي عام 1910، وكان عمرها حينئذ تسعة وعشرين عاماً، لتتزوج من دايفيد لوكهارت روبرتسون لوريمير (لوك) الضابط الإنجليزي ابن الرابعة والثلاثين، الذي تم تعيينه لاحقاً في السلك السياسي الهندي، وكان يخدم حينها قنصلاً بريطانياً في الأهواز جنوبي إيران.

ولد لوريمير عام 1876 لكاهن بريسبيتاري إسكتلندي هو المبجل روبرت لوريمير؛ كاهن مانز وستراثمارتين القريبة من دندي، ولأم إسكتلندية تدعى إزبيلا لوكهارت روبرتسون، التي عملت عائلتها في الهند لخمسة أجيال[3]. كما التحق لوك بعد إنهاء تدريبه العسكري في ساندهيرست عام 1898، بالجيش الهندي فخدم على الواجهة الشمالية الغربية. وفي عام 1903 تم اختياره للانتقال إلى السلك السياسي الهندي حين أُرسل إلى الأهواز. كان أخوه غوردون وكيلاً سياسيا في بغداد، وأخوه الآخر بيرت يعمل في الشرطة الهندية. أما أخته هيلدا فلقد كانت مدرسة آداب كلاسيكية في سومرفيل، معاصرة لإميلي وزميلة لها.

شرعت إيميلي بعد وصولها مع زوجها إلى البحرين بفترة وجيزة، بكتابة رسائل مطولة

(1) إيميلي لوريمير إلى والد ووالدة زوج ابنتها المستقبلي السيد والسيدة منرو، 6 أغسطس 1940، المخطوطات الأوروبية ف 46/177.

(2) تم منح الدرجات أخيراً في سومرفيل عام 1920، كما أشارت إيميلي في مشهد تشريحي لعائلة لوريمير كتبتها بنفسها حول عام 1947، إلى أنها قد تقدمت للامتحانات النهائية في 1906، (لم تكن النساء حينها يمنحن درجات في أكسفورد). وبعد عشرين عاماً، نالت درجة الماجستير من جامعة أكسفورد. انظر «عائلة جايمس أوفيرند من تاندراجي، مقاطعة أرماغ، إيرلندا الشمالية، المخطوطات الأوروبية ف 92/177.

(3) إيميلي لوريمير إلى السيد والسيدة مونرو، 6 أغسطس، 1940، المخطوطات الأوروبية ف 46/177.

إلى والديها وأختها إيديث؛ لتخبرهم عن بيتها الجديد في الخليج العربي. كما سردت لهم في رسائلها روايات مفعمة بالحيوية عن الوجود البريطاني الإمبريالي في البحرين، وعن جمال الحياة الاجتماعية للمجتمع الغربي الصغير، وعن الطقوس المهيبة المرافقة للاجتماعات الدبلوماسية وحفلات الاستقبال. وفي إحدى رسائلها كتبت لأختها قائلة «إنها أصبحت تدرك .. سمو مكانة وكيل صاحبة الجلالة البريطانية ومكانة زوجته وفقاً لذلك». وأضافت، مع بعض التخوف والكثير من التفاؤل، أنها تأمل أن تتمكن من «إتقان اللعبة» وأن تصون كرامة الإمبراطورية بشكل لائق. وقالت أيضاً: «سأبذل قصارى جهدي؛ فعلى الرغم من أن الدور جديد بالنسبة إلي، فإنه ممتع ومسل»[1].

كانت عائلة لوريمر محبة للعلم، وكان جلياً أن حياة أفرادها في الخارج ستتشكل وفق معايير مغايرة لتلك التي كان يعرفها معاصروهم، إلا أن ارتباط إيميلي الصريح والقوي بالإمبراطورية، كان ببساطة تامة يعكس آراء ومواقف نساء جيلها من الطبقتين الوسطى والعليا، اللواتي ارتفع عدد الراغبات منهن في المشاركة بطريقة أو بأخرى في المشروع الإمبريالي. لقد أثارت طبيعة مشاركة النساء في الحياة الإمبريالية نقاشاً ساخناً في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى، وكانت الآراء والمواقف حول هذا الموضوع ذات ارتباط وثيق بالجدل المحتدم حينها حول منح المرأة حق الانتخاب، وتغيّر مكانة المرأة في الحياة العامة في بريطانيا[2].

فالنساء المتعلمات من أمثال إيميلي لوريمر، اللواتي تزوجن من موظفين مدنيين أو

(1) رسالة غير مؤرخة، نهاية مارس 1911، إلى أختها إيديث. الصفحات الأربعة الأولى مفقودة لكن مذيلة من قبل إيميلي لوريمر، 15 مارس، 1948، المخطوطات الأوروبية ف 5/177.

(2) تشير الدراسات الحديثة التي أجراها المؤرخون المختصون بالحركة النسائية إلى ارتباط مواقف النساء تجاه الإمبراطوريّة، في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى بتغير مفاهيم أدوارهنّ الجنوسية المنزلية. انظر، على سبيل المثال:
Burton, Antoinette, The white womans burden: British feminists and the Indian Woman, 1865-1915, in Chaudhuri and Strobel (eds), Western Women and Imperialism: Complicity and Resistance, Bloomington : Indiana University Press, 1992. Burdens of History: British Feminists, Indian Women and Imperial Culture, 1865-1915, Chapel Hill and London : University of North Carolina, 1994. Bush, Julia, Edwardian Ladies and Imperial Power, London: Leicester University Press, 2000.

عسكريين، كنّ يعتقدن أنه ليس هناك ضير من الانتقال، من الحياة الأكاديمية أو العملية المستقلة إلى دور الخاتون الإمبريالية أو الاستعمارية. فعلى سبيل المثال، قامت إحدى معاصرات إيميلي -وهي زوجة الحاكم العام المستقبلي لنيجيريا وتدعى الليدي فلورا لوغارد- بالاستغناء عن عملها الناجح كصحفية بعيد زواجها، وانتقالها هي وزوجها إلى إفريقيا، وأصبحت تحت اسم فلورا شو روائيّة ناجحة، هذا إلى جانب عملها مراسلة خاصة لمجلة «التايمز» في جنوب إفريقيا (مما مكنها لاحقاً أن تصبح رئيسة القسم المتكفل بمتابعة شؤون الاستعمار). كرست فلورا مواهبها الزاخرة بعد زواجها، في سبيل تعزيز الحياة العامة لزوجها[1]. كانت فلورا لوغارد وإيميلي لوريمر وغيرهما من النساء يرين أن دورهن لا ينحصر في كونهن زوجات، أو حتى أمهات في المستقبل، بل يتعداه إلى دور وطني أيضاً. فعندما سافرن للخارج كان يرجى منهن دعم أزواجهن ورعايتهم في الواجبات المهنيّة الموكولة إليهم، وأن يقمن بدورهن في الوقت نفسه في تركيبة المشهد الاجتماعي الإمبريالي، وفي إيصال رسالة أوروبا الحضارية إلى بقية أرجاء العالم. وعلى الرغم من خلفياتهن الأكاديمية الواسعة، إلا أن بعض النسوة لم يتوانين عن تقمص هذا الدور، وفي الوقت نفسه لم تتوان النسوة اللواتي لم يسافرن، عن المطالبة بحقوقهن في المشاركة بشكل أوسع في وضع لبنات الإمبراطورية.

أصبح موضوع مشاركة النساء في الرسالة الإمبريالية منذ أواخر القرن التاسع عشر موضع نقاش حاد بشكل لم يسبق له مثيل. فعلى سبيل المثال، تم في السنوات التي تلت عام 1870 تشكيل عدة جمعيات ذات طابع استعماري، سيطرت عليها النساء. كانت أبرزها جمعية أصدقاء الفتيات، واتحاد نساء بريطانيا للهجرة، واتحاد زهرة

(1) تزوجت شو من السيد فريدريك لوغارد عام 1902، عندما كان مفوضاً سامياً لشمال نيجيريا، انظر: Callaway, Helen and Dorothy O.Helly, 'Crusader for the Empire: Flora Shaw/ Lady Lugard in Chaudhuri and Strobel (eds), Western Women and Imperialism: Complicity and Resistance.p 79-97. Callaway, Helen, Gender, Culture and Empire: European Women in Colonial Nigeria, London: Macmillan,1987. p166-7 وبه وصفت إي. إم بيل السيدة لوغارد أنها قد «تخلت عن كونها امرأة صاحبة وظيفة» ذلك عندما لم «تعد تُسَمّى فلوراشو». إي. أم بيل، فلوراشو (ليدي لوغارد: DBE: لندن، كونستابل، 1947) ص 250.

الربيع، وتبعها في عام 1901 اتحاد فكتوريا، الذي تأسس على خلفية حرب جنوب إفريقيا، وإحياء لذكرى الملكة الراحلة التي كانت بإدارتها المطلقة لشؤون الإمبراطورية مصدر إلهام، ودافع لاشتراك المزيد من النساء[1]. أبدت الملكة اهتماماً شديداً برعاياها من الهنديات. فقد ساهمت عام 1885 بشكل كبير في إنشاء الجمعية الوطنية لتوفير عناية طبية نسائية لنساء الهند» وذلك استجابة لدعوة «مهاراتي بونا» في «لوكناو» واصفاً فيها نقص الرعاية الصحية لنساء الهند. وقد ورد عن الملكة أنها قالت: «لا بد من عمل شيء لهولاء المسكينات»[2].

وصف القائمون على اتحاد فكتوريا الاتحاد أنه «جمعية نساء الجزر البريطانية اللواتي يتعاطفن مع الأهداف الإمبريالية، والراغبات في توطيد عُرى الوحدة بين أجزاء الإمبراطورية المختلفة»[3]. وكان إنشاء اتحاد فكتوريا وغيره من المنظمات المماثلة، يرتكز على وجهة النظر التي ترى أنّ للنساء دوراً خاصا وحيويا في بناء مشروع الإمبراطورية. وعلى الرغم من سيطرة فئة نخبوية محافظة سياسياً، وذات نفوذ اجتماعي على معظم هذه الهيئات، إلا أن نشاطات هذه الهيئات عكست معنىً جديداً لدور فريد للمرأة، لا تحاول فيه خرق بعض المسلمات في حينها، كقيادة الرجل للمجتمع وتراتبية السياسة والإدارة، لكنها وعبر إثبات وجودها، قامت بتحدي «احتكار الرجل للقوة الإمبريالية»[4]. وفي هذه الأثناء، أخذت مؤيدات حملة منح المرأة حق الإنتخاب يطالبن بشكل متزامن مع النشاطات الأخرى أو متعاقب عليها، وفي بعض الأحيان متضارب معها، بدور نسائي محض أكثر فاعلية في الإمبراطورية، وأشرن بشكل خاص إلى الطابع الرحيم للإمبراطورية،

(1) Bush, Julia, Edwardian Ladies and Imperial Power, London: Leicester University Press, 2000. British Women's Imperial Politics and the South African War (1899-1902)', Women's History Notebooks 7 (2), Summer 2000, pp.2-9.

(2) فرانسيس اليزابيث هوغن، نساء طبيات للهند (بريستول، 1882)، في بينيلوب توسن: بنات الملكة: مختارات من الكتابات النسائية الفكتورية حول الهند 1857–1900 (ريدنغ: مطبة إيثيكا، 1995)، ص 122.

(3) Gordon, Peter and David Doughan, Dictionary of British Women's Organistions 1825-1960, London Woburn Press, 2001.

(4) Bush, Julia, Edwardian Ladies and Imperial Power.

وذلك في سبيل تعزيز مكانتهن كعضوات متحررات ومدركات ومشاركات في وضع السياسة الإمبريالية والمحلية. وكان وراء سعيهن للحصول على السلطة عَبْرَ الانتخاب، إيمان قوي عميق بسمو الثقافة الغربيّة وواجب النساء الغربيات بجلب الحضارة والراحة لشقيقاتهن الشرقيات. وعلى سبيل المثال، ربطت المُصلِحة الاجتماعية العظمية جوزفين بتلر عام 1895، بشكل صريح بين نجاح الحملات المناهضة لتشريعات الأمراض المعديّة خلال الستينات من القرن التاسع عشر، وعملها اللاحق مع المؤسسات في الهند، وبين قضية منح المرأة حق الانتخاب، قائلة: «كم مرة في تأريخ إصلاحاتنا، تمنينا نحن في إنكلترا أن نمتلك حق الانتخاب. لا بد أن امتلاكنا إياه كان سيحفظنا من كثير من المشاكل في الماضي»[1].

و لقد تحول الجدل المحتدم حول منح المرأة حق الانتخاب خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى، إلى ساحة قتال تم فيها طرق كل موضوع ذي صلة بالإمبراطوريّة والجنسويّة. ففي حزيران من عام 1889 نشرت المجلة الشهرية «القرن التاسع عشر» «عريضة مناهضة لمنح المرأة حق الانتخاب» قامت بإعدادها ماري وارد، التي كانت تعرف باسم السيدة همفري وارد الروائيّة والمصلِحّة الاجتماعية وإحدى مؤسسات كلية سومرفيل، التي كانت ماري لوريمير قد التحقت بها في جامعة أكسفورد. ووقّع على تلك العريضة مائة وأربع نساء، كان أكثرهن من الطبقة الأرستقراطية، وللعديد منهن علاقة وثيقة بالحكم الإمبريالي والدراسات الاستشراقية[2]. ركزت العريضة على الرغبة الجلية في تطوير «قدرات النساء وطاقاتهن والارتقاء بمستواهن التعليمي أيضاً»، مشيرة إلى أن عمل المرأة للدولة ينبغي أن يكون مختلفاً تماماً عن عمل الرجل، فمهام الرجل ينبغي أن تمتد

(1) رسالة إلى محرر نجم أوكلاند، 3 مايو 1895، اقتبستها انطوانيت بيرتن: أعباء التاريخ، ص 168.

(2) «عريضة مناهضة لمنح المرأة حق الانتخاب» القرن التاسع عشر: عرض شهري: المجلد 25، يناير – يونيو 1889، ص 781–788. وتشمل قائمة الموقعين، على سبيل المثال، السيدة كورتني إلبرت، زوجة محامي معروف وعضو مجلس الحاكم العام للهند، وجورجينا ماكس مولر، رحّالة ومؤلفة رسائل من القسطنطينية (لندن: 1897) وزوجة فريدريك ماكس مولر، المختص في السنسكريتيّة وبرفسور تيلوري في اللغات الأوروبية الحديثة في جامعة أكسفورد. انظر أيضاً بريان هاريسون: الأكوان المنفصلة، المعارضة لمنح المرأة حق الانتخاب في بريطانيا (لندن: كرون هيلر 1978) ص 115–117.

لتشمل السياسة الوطنية، والعلاقة مع العالم الخارجي، بينما عمل المرأة ينبغي أن ينحصر في المجتمع المحلي، والمهام التقليدية الرحيمة: كالتعليم ومساعدة الفقراء والعناية بالمرضى. وفيما يتعلق بمسائل السياسة الخارجيّة أو الإمبريالية، فليس لدى النساء من تجارب وخبرات تمكنهنّ من إصدار أحكام وقرارات صائبة، كتلك الخبرات المتاحة للرجال. وبناءً على ذلك، ينبغي أن يكون المجال مفتوحاً أمام مشاركة فاعلة للنساء في الحقول التي تتطلب «فكراً، وضميراً وبعداً أخلاقياً» على ألا ينتقلن للعمل في المجالات المتعارف عليها على أنها ذكوريّة: كالإدارة، والشؤون العسكرية أو المالية[1].

ولم يمض سوى شهر واحد حتى جاء الرد على العريضة، على لسان ميليسنت غارييت فاوسيت رئيسة الاتحاد الوطني للجمعيات، المؤيدة لمنح المرأة حق الانتخاب إذ قالت: إنه ليس هناك من حاجة لدعوة نساء للانضمام إلى منظمات، كاتحاد زهرة الربيع إن كُنّ يعتقدن أن النساء لَسْنَ قادرات على اتخاذ قرارات سياسية صائبة. واستطردت ميليسنت إلى حد توبيخ الموقعات على العريضة بوصفها إيّاهن «أنهن نساء لا يرين مباهج في الحياة». وذلك لأنهن لم يبذلن قصارى جهدهن لصالح الحركة المحلية المتنامية المطالبة بالإصلاح الاجتماعي[2]. لكنها، وعلى الرغم من امتعاضها الشديد من العريضة، لم تَجِدْ بُداً من الإشارة إلى أن «أصدقاء منح المرأة حق الانتخاب» يحترمون «أنوثة المرأة» بقدر ما يحترمها موقعو العريضة[3]. لقد استمدت فاوسيت معرفتها الغزيرة بشؤون الإمبراطورية من خبرتها كناسخة لزوجها -المغالي في التطرف- هنري فاوسيت عضو البرلمان، الذي أكسبه اهتمامه الشديد بشبه القارة الهندية لقب «ممثل الهند». وبعد وفاته عام 1884، واصلت فاوسيت اهتمامها بقضايا الإصلاح في الإمبراطورية، فوقفت ضد زواج الأطفال، الإناث وقتلهنْ، وأصبحت بعد ذلك إحدى المؤيدات الأوائل لاتحاد فكتوريا. وكانت فاوسيت تضرب دائماً بفلورنس نايتنغال، وماري كاربنتر مثالاً على النساء اللواتي

(1) «عريضة مناهضة لمنح المرأة حق الانتخاب» ص 782.

(2) ميليسنت غاريت فاوسيت «عريضة مناهضة لمنح المرأة حق الانتخاب: الرد» القرن التاسع عشر، المجلد 26، يوليو، 1889، ص 86–96.

(3) Tuson, The Queens Daughters,p217-19; Bush, Julia, Edwardian Ladies and Imperial Power, p 171

بذلن جهوداً مضنية في عملية الإصلاح الاجتماعي، داعية النساء إلى الاحتذاء بهن، لكنها تختم قائلة: «إنها لا تريد للنساء أن يقلدن الرجال تقليداً أعمى»، ولا أن تُلْغي الفروق بين الرجال والنساء، «فمطالبة النساء بالوصول إلى قبة البرلمان تتخذ من الفروق بين الجنسين نقطة ارتكاز لا يمكن تجاهلها، والخدمة التي يمكن أن تقدمها النساء للدولة تختلف عن تلك التي يؤديها الرجال عادة. فلتكن هذه الحقيقة جلية في أذهان ممثلي النظام في البلد؛ لتلقى الاهتمام الذي تستحقه[1]. وبحلول شهر يوليو من عام 1889، كان قد وقع على عريضة «عدم منح المرأة حق الانتخاب» ما يقارب من ألفي امرأة، ولقد ضمت التوقيعات أسماء نساء ذوات صلة بالإدارة الإمبريالية، وأخريات مستقلات لهنّ اهتمام كبير بالإمبراطورية كالصحفية ماري فرنسيس بيلينغتون، التي التحقت عام 1890 بجريدة «الدالي غرافيك» مراسلةً مختصة في شؤون المرأة. لقد قامت ماري بالتجوال في الهند؛ مؤلفة سلسلة من المقالات للجريدة جمعتها، فيما بعد في كتاب تحت عنوان «نساء في الهند»[2].

وشكلت واقعتا العريضة والرد عليها عام 1889 مثالاً على الكثير من السجالات اللاذعة التي احتدمت بين مؤيدي تحرير المرأة، ومعارضيه في العقدين اللاحقين. وكان السجال منصباً حول العثرات، والتناقضات التي من الممكن حدوثها إذا أصبح هناك سياسة نسائية، وكانت أبرز رائدات هذه السجالات الداعية إلى انتخاب المرأة ميليسنت فاوست، التي كانت تنادي عبر إيمانها العميق بسمو المؤسسات البريطانية بضرورة إصلاح التشريع البريطاني. ركيزة أساسية لاستئصال الظلم، الذي طال النساء. وكانت من أبرز رائدات هذه السجالات أيضاً ماري بيلينغتون المعارضة لمنح المرأة حق الانتخاب، والتي كان يساورها كثيراً من الشك حول مواقف الغرب «المشرِّفة» تجاه الثقافة الهندية[3]. لكن، وعلى الرغم من البون الشاسع في تعريف كلتيهما لماهية مشاركة المرأة في الحياة السياسية

(1) فاوسيت، «عريضة مناهضة لمنح المرأة حق الانتخاب». الرد، ص 96.

(2) Billington, Mary, Woman in India, London: Chapman & Hall, 1895.

الموقعون على العريضة المناهضة لمنح المرأة حق الانتخاب «القرن التاسع عشر»، المجلد 26، يوليو، 1889، ص 86–96.

(3) Tuson, The Queens Daughters,p217-19 and 289-319

الإمبريالية والوطنية التي احتكرها الرجل، والبون الشاسع لتحديد كل منهما أُطر هذه المشاركة، إلا أنهما اتفقتا على أن للنساء مهمة خاصة تجاه الإمبراطورية تتمثل في كونهن مساعدات للحكام وأخوات للمواطنين «الآخرين».

كانت مارغريت جايلد فيلير- كونتيسة جيرسي- إحدى أبرز المؤيدين لإشراك النساء في الشؤون الإمبريالية، كما كانت الكونتسية -لكثرة ترحالها- على معرفة غزيرة بالإمبراطورية، وبعد زيارة قامت بها إلى الهند عام 1888، سردت روايات سفرها في المجلد ذاته، الذي نُشرت فيه العريضة. كتبت قائلة: «في الهند سحرٌ يعجز أي منا إدراك كنهه. نعيش بين قصور، ورجالٍ ومذاهب لم تتغير لقرون، كل هذا والرائي منا يدرك الحكم المتين لشعب متحضر منتصر يقوم بتنظيم الإمبراطورية التي آلت إليه»(1). انتقلت الليدي جيرسي بين عامي 1891—1893 للعيش في أستراليا، بعد تعيين زوجها حاكماً لنيوساوث والز. أصبحت الليدي بعد عودتها إلى إنجلترا عام 1901، إحدى مؤسسات اتحاد فكتوريا، وبقيت رئيسة له ستة وعشرين عاماً. كانت الليدي جيرسي إحدى أبرز المعارضات لمنح المرأة حق الانتخاب. وهذا ما دفعها لاحقاً إلى تأسيس الاتحاد الوطني المعارض لمنح المرأة حق الانتخاب. وفي جلسة الاتحاد الافتتاحية التي عُقدت تحت رعاية الليدي جيرسي في فندق قصر وستمنستر، في الحادي والعشرين من يوليو من عام 1908، تم انتخاب لجنة تنفيذية تضم في عضويتها السيدة همفري (ماري) وارد، والليدي جورج هاميلتون زوجة وزير الدولة السابق لشؤون الهند، وغيرترود بيل، إحدى أبرز الرحّالات في الشرق الأوسط. وضمت اللجنة أيضاً جانيت هوغارث إحدى صديقات بيل، وشقيقه دافيد هوغارث المستعرب في جامعة أكسفورد، الذي اشتهر لاحقاً لإدارته للمكتب العربي في القاهرة خلال الحرب العالمية الأولى. وفي اليوم اللاحق ليوم الافتتاح، تم تعيين غيرترود بيل أمينة سر فخريّة. وفي غضون شهور قليلة أُنشئت فروع للاتحاد في المدن الإقليمية، كانت أحدها في أكسفورد عقب اجتماع عُقِد في الثاني والعشرين من أكتوبر، في منزل العالمة الإمبريالية

(1) Jersey, M.E., 'The Hindu at Home', The Nineteenth Centruy: a Monthly Review 25, January/June 1889, pp. 653-66.

والرحالة جورجينا ماكس مولر. لكن لم يرد في رسائل إيملي أوفيرند إن كانت قد حضرت الاجتماع أم لا. وقد كان معروفاً لدى الجميع أن كلية سومرفيل مركز للنشاط المؤيد لمنح المرأة حق الانتخاب، على الرغم من آراء راعية الكلية ماري وارد المعارضة الصريحة. فمديرة الكلية إيديث بنروز ومعظم مدرسيها، كانوا من مؤيدي منح المرأة حق الانتخاب، ناهيك عن أن 75 طالبة من أصل 94 طالبة، كنّ يشكلن الهيكل الطلابي عام 1910، كنّ عضوات جمعية سومرفيل الداعمة لمنح المرأة حق الانتخاب[1]. غير أن إيميلي أوفيرند لم تكن ترى، كغيرها من بنات صفها وطبقتها الموهوبات والناجحات أكاديمياً كغيرترود بيل، أن هناك ظلماً سياسيا قد طال النساء، وخاصة فيما يتعلق بشح الفرص المتاحة لهُنَّ. بل وتبنّت بعد بضع سنوات الرأي القائل بأنه كلما أصبحت حملة دعم انتخاب المرأة أكثر فوضوية، فأنها ستغدو ضد المجتمع والأهداف الإمبريالية. كتبت إيميلي إلى والديها عام 1914، «أنَّ مؤيدات منح المرأة حق الانتخاب «كن غاية في السوء»»، «ومن الصعب علينا أن نرى كيف يقنعن أنفسهن بأنَّ قضيتهن، بغض النظر عن قداستها تجيز لهن نسف مكاتب البريد وإشعال النيران في المسارح والتلذذ بتدمير الممتلكات»[2].

وفي العدد الأول من مجلة الاتحاد الوطني المناهض لمنح المرأة حق الانتخاب، والمسماة «مجلة رفض منح المرأة حق الانتخاب»، أكدت ماري وارد في افتتاحيتها، بعض المسلمات التي تم وضعها في «العريضة المناهضة لمنح المرأة حق الانتخاب»، مشيرة إلى أن منح المرأة حق الوصول إلى البرلمان سيتضمَّن «الإيكال إليها بنشاطات ومسؤوليات لا تنسجم مع طبيعتها، ومهامها المناسبة لها في المجتمع:

الرجال هم مَن بنى الدولة ومَن سيقومون بقوتهم الجسدية بحمايتها، عبر السبل الصعبة للحياة السياسية الحزبية، أما النساء فهن كما الرجال تماماً، لكن بشكل أكثر سموا ورقة، رعايا هذه الدولة. إنَّ التقدم الذي حصلت عليه المرأة، في نصف القرن الأخير

(1) Adams, Pauline, Somerville for Women: an Oxford College, 1879-1993, Oxford University Press, 1996.pp78-9 أنا شاكرة جداً لبولين أدامز، موظفة مكتبة سومرفيل للبحث في أراشيف سومرفيل عن معلومات حول آراء إيميلي المرتبطة بمنح النساء حق الانتخاب.

(2) إيميلي، لوريمير إلى والدها ووالدتها، 21 مايو، 1913، المخطوطات الأوروبية، ف 10/177.

على الصعيد الأخلاقي والفكري، إنما حصل بلا تصويت ولا انتخاب، والمهام التي تقع على عاتق المرأة وتنتظرها الأمة منها بشغف لا تمت للانتخابات السياسية والحزبيّة بصلة. وهي أكبر مما تستطيع المرأة أن تتحمله، فإقحامها في سبل الأحزاب الوعرة سيعيق عملها، وسيخدش صورتها الجميلة[1].

وأشارت وارد إلى «السلوك الشائن» للاتحاد النسائي السياسي، والاجتماعي، تحت قيادة بانكهيرست، محذرة من أن ازدياد النشاطات المسلحة للمؤيدات لمنح المرأة حق الانتخاب، سيفقدهن كل الدعم والمؤازرة التي استطاعت ميليسنت فاوست حشده بطرقها المتعدلة. وأضافت وارد أن هذه الأعمال الفظيعة تثبت بشكل «لا يدع مجالاً للريب» أن النساء لا يصلحن «لخوض غمار الحياة السياسيّة» وأن التوسع في إشراك النساء، سيؤدي «إلى تأزم الحياة السياسية وتوليد مشاعر جنسية وأخرى مضادة، قد تجعل النقاش الهادئ العميق لبعض القضايا مستحيلاً، فهذه المشاعر قد تُعَدُّ وبالاً على المرأة بشكل خاص، وعلى إنجلترا بشكل عام». وفي حين أن الاتحاد الوطني المناهض لمنح المرأة حق الانتخاب سيواصل تأييده؛ لمنح المرأة المزيد من الصلاحيات في الحكومة المحلية، فإنّه سوف يبذل ما في وسعه:

لمنع انتشار الحركة المؤيدة لمنح المرأة حق الانتخاب، التي قد يؤدي نجاحها إلى إضعاف بلدنا في عيون العالم المتمدن وإلى استنفاد مخزوننا من الحنكة، والحكمة السياسية. المرتكزة على الخبرة السياسية، التي ساهمت في تنوعها بين نجاح، وفشل في بناء إنجلترا، وبناء الإمبراطوريّة.

وفي اجتماع آخر عُقد في بيرمنغهام، بثت الليدي لاي الخواطر ذاتها، مشيرة إلى أن للمرأة دورها المتميز الحيوي في العالم –ذلك الدور– الذي يغنيها عن إضافة عبء الحياة السياسية الثقيل على كاهلها، ورأت «أنه من المستحيل أن يتوافر لدى المرأة الوقت والتفكير اللازمين؛ لدراسة تلك المسائل الإمبريالية العظيمة، التي تُطرح بشكل دوري

(1) الافتتاحية التي كتبتها أم. أ. دبليو (ماري وارد) في المجلة المناهضة لمنح المرأة حق الانتخاب. العدد الأول، ديسمبر، 1908.

أمام ناخبي الأمة»[1].

كانت آراء الليدي جيرسي، والاتحاد النسائي حول الإمبراطورية، والأكوان المنعزلة المرتبطة بالإمبريالية، تجسد التأويل الرئيسي الواسع القبول حول الدور الإمبريالي البريطاني. ولقد جسدت تلك الأدوار -أيضاً- في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى، قلقاً متزايداً حول المخاطر التي تحيط بالإمبراطورية، والحاجة الملحة لتحديد أُطر مشاركة النساء وجوانبها في الحياة السياسية. كما لاقت مقالة الليدي جيرسي، التي كتبتها عام 1889، صدىً واسعاً لدى نائب الملك في الهند اللورد جورج نثانيل كورزون في نهاية القرن، الذي كتب إلى السياسي المتحرر ووزير الدولة المستقبلي لشؤون الهند قائلاً إنه لا يستطيع أن تصور أنّ:

هناك رجلاً إنجليزياً سيعجز عند مقارنة وضع الهند الآن بما كانت عليه، وكيف ستؤول إليه؟ إذا كانت تحت سيطرة غير إنجليزية، عن إدراك أننا الإنجليز لم نقدم إلى هذه البلاد، ولم نمكث بها بدافع أعمى أو حتى متقلب، بل قدِمْنَا إلى هذه البلاد ومكثنا بها انسياقاً وراء ما يسميه بعضهم -بما فيهم أنا- الإرادة الربانيّة أو قانون القدر وفي كلتا الحالتين فإنَّ ذلك لمصلحة ملايين من الجنس البشري[2].

لقد بقي كورزون حاكماً للهند من عام 1898 حتى عام 1905، وكانت وظيفته وآراؤه ذات ارتباط وثيق بالجدل المحتدم حينها حول الجنسوية، والإمبراطورية، والهند والخليج العربي. ولكثرة ترحاله في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى -ولكونه مرجعاً علمياً موثوقاً ومطّلِعاً- أصبح كورزون، خلال جولته في المنطقة في أثناء حكمه للهند، مهندس سياسة التدخل في المنطقة. وغدا كورزون في السنوات التي تلت مغادرته الهند -سبقت الحرب العالميّة الأولى- منظّراً جاداً ومجاهداً في سبيل قضايا المرأة. وفي غضون خمسة شهور من انعقاد الاجتماع الافتتاحي لاتحاد الليدي جيرسي النسائي، أصبح كورزون عضواً

(1) المجلة المناهضة لمنح المرأة حق الانتخاب، العدد الأول، ديسمبر، 1908.

(2) كورزون إلى مورلي، 17 تموز 1900، مجموعة كورزون، المكتبة البريطانية (مجموعات وزارة الهند والاستشراق)، ف 181/111، ودايفيد غيلمور، كورزون (لندن: جون موراي، 1994) ص 165-166.

مؤسساً في الاتحاد، وأحد جامعي أموال الاتحاد البارزين وداعيا إلى إنشاء «جمعية الرجال المعارضين لمنح المرأة حق الانتخاب»، التي كانت تضم في عضويتها شخصيات بارزة كان لدى معظمهم -كما زوجاتهم- خبرات مباشرة طويلة في الحكم الإمبريالي. وكان أبرز أعضاء الجمعية كورزون نفسه والإيرل كرومر الوكيل البريطاني والقنصل العام في مصر لعشرين عاما مضت[1]، وهما أفضل من جسّد مبادئ وممارسات الحكم الإمبريالي. ومن المؤيدين البارزين أيضاً أوستن شامبرلين، ورُود يارد كيبلنغ، والسير إدوارد إيلجر، والسير ألفرد لايل، والسير هيو بل -الصناعي الشمالي- ووالد غيرترود. اندمجت الجمعية في عام 1910 مع اتحاد النساء، على الرغم من بعض الخلافات القديمة المتوقعة حول القيادة والسياسة، لتشكيل الاتحاد الوطني المناهض لمنح المرأة حق الانتخاب.

جسدت آراء جورج كورزون المعقدة حول النساء في أغلبها، مواقف الرجال المعارضين، وأحياناً تقلباتهم لمنح المرأة حق الانتخاب. في السنوات التي سبقت الحرب، وكانت هذه الآراء منسجمة، بصورة غير متكاملة مع آراء النساء المعارضات. كان كورزون قد انتُخبَ قبل عام من تأسيس جمعية الرجال، رئيساً لجامعة أكسفورد، حين فاجأ المجتمع الأكاديمي بحماسه الإصلاحي. ونصَّت أحد مقترحاته العديدة على أن تقوم الجامعة بوضع حد للعرف القائم على مفارقة تجيز للمرأة حضور المحاضرات وتقديم الامتحانات من غير أن تحصل على درجة جامعية[2].

وفي خطابه، الذي أعلن فيه افتتاح مبنىً جديد في ليدي مارغريت هول عام 1910، بث كورزون آراءه حول ما يجب أن تصبو إليه المرأة المتعلمة من أهداف، واقترح على طالبات ليدي مارغريت هول أن يقتصر اهتمامهن على مجموعة منّوعة من الوظائف: تشمل الصحافة والعمل الأدبي، والبستنة وعزف الأورغن، وتزيين البيت (وهي إحدى مُتَعه)، وعلم الآثار، والبحث في التاريخ، وأضاف أن هناك شواغر كثيرة لهن في المستعمرات

(1) شَغل إيفلين بارينغ، إيرل كرومر، أول منصب قنصل عام في مصر منذ 1883 وحتى 1907، كان كرومر أيضاً السكرتير الخاص لنائب ملك الهند، (1872–1876).

(2) Gilmour, David, Curzon, London: John Murrray, 1994 p 366

كسكرتيرات، ومدبرات منازل وغيرها.

تشهد الهند أيضاً، على الرغم من أنها ما زالت تستفيق من سباتها العميق، حركة تهدف إلى تحرير المرأة الهندية حتى وإن كانت في خِدْرِها. فعندما سيتمكن من تحرير أنفسهن من قيود تقاليد مجتمعهن وعاداته البالية، ستكون هؤلاء النسوة بحاجة إلى معلمات وسيدات إنجليزيات يشرفَنَ على بيوتهن ويعلمن أطفالهن. فلقد عرفت الكثير من السيدات اللواتي قدّمن مساعدات جليلة ذات قيمة في هذا المجال، أدعوكم من مكاني هذا إلى إبقاء الهند نصب أعينكنْ[1].

وفي سياق حديثه أكد كورزون أن أكسفورد هي المكان، الذي يجب أن ينطلق منه الصوت البريطاني إلى جميع أصقاع الأرض، وهي المكان الذي ينبغي أن تنطلق منه لغتنا إلى نهايات العالم، وأخبر مستمعيه أنه يتساءل دوما «لماذا لا تشارك النساء الرجال في حمل هذه الرسالة؟»، وختم خطابه بتحذير وأمل:

على نساء أكسفورد ألا ينسين في سعيهن الدؤوب للحصول على عمل، وعند ارتقائهن في درجاتهن، الحقيقة الفضلى، أن صورة المرأة الأكثر كمالا تكمن في بيتها.

لا تنكر إيميلي لوريمير عند مغادرتها أكسفورد إلى منطقة الخليج العربي، أنها قد تأثرت كثيراً بكلمات نائب الملك السابق البراقة.

كان كورزون في مساندته للأعمال الرامية إلى تحرير المرأة الهندية، وحيداً مع غريماته اللدودات في حركة منح المرأة حق الانتخاب؛ الحركة التي طالما أكدت مجلاتها، ودورياتها دور المرأة الغربية المميز في نقل التعليم، والإصلاح الاجتماعي لشقيقاتهن الإمبرياليات الأقل حظاً. وفي عام 1913، لخصت هيلنا سوانويك –محررة الدورية المؤيدة لمنح المرأة حق الانتخاب «كومن كوز»– مواقف النساء الوثيقة بالمشروع الإمبريالي قائلة إنَّ «على النساء في بريطانيا العظمى أن يطالبن بحقهن الانتخابي» حتى لو كان هذا من أجل الهند فقط.

(1) «عمل النساء» خطاب ألقاه كورزون عندما كان رئيساً لجامعة أوكسفود، في 22 أكتوبر 1910، عندما افتتح مبنىً جديداً في الليدي مارغريت هُول. في: جورج نثانيل، ماركيز كورزون من كيدلسترن: مواضيع اليوم: كونها خطبا وكتابات مختارة»، تحرير ديزموند إم. تشابمن هستن (لندن: جورج ألين وأنون، 1915)، ص 150–154.

واستطردت بقولها إنَّ «مسؤوليات الإمبراطورية لا تقتصر على الرجال فحسب، لكنها تمتد إلى النساء أيضا». فالنساء حين يطالبن بالمشاركة في هذه المسؤوليات، لا يستحقرن تلك المسؤوليات أو يستخففن بها، وإنما «يدفعهنّ إلى ذلك شعورهنْ المُلزم بالمسؤوليّة»، وسواء أعجبتهم مطالبنا أم لا، عليهم الاعتراف أن النساء «جزءٌ لا يتجزأ من إمبراطورية لا شك أنها ستترك بصمة مميزة في التاريخ، عبر امتدادها الشاسع أو من خلال أمجادها»[1].

وكما كان كورزون داعماً لتقدم المرأة التعليمي، كان أيضاً القوة الضاغطة في اتخاذ قرار قبول النساء في الجمعية الملكية الجغرافية، بعد أن أصبح رئيسها عام 1911، وقد دافع عن قراره قائلاً إنّ أهداف الجمعية «ليست مثيرة للجدل والمشاكل، لترتقي بجزءٍ محددٍ من المعرفة البشرية دون غيره». فقبول النساء في الجمعية لا يعني بأية حال من الأحوال منحهن حصة في سيادة البلد والإمبراطورية. فهو رافض لقضية إشراك المرأة في الحياة السياسية، ومتعنت وغير مطواع[2]. وفي خطاب مشهور له حول انتخاب المرأة، ألقاه في الاتحاد الوطني المنعقد في غلاسكو في شهر نوفمبر من عام 1912، صرح كورزون: أنه في ظل الظروف السياسية الراهنة التي يشوبها الكثير من التوتر المتزايد، يرى أن دور المرأة، يجب أن يقتصر على القضايا المحلية، والبيئية التي تليق بالنساء:

قد تتأزم في بعض الأحيان القضايا ذات الرأي العام كقضايا الحرب والسلام، والمعاهدات، والائتلافات، وطرق التعامل مع المستعمرات، والمناطق الموالية، إنَّ قراراً طائشاً أو عاطفياً حول هذه القضايا سيقود الإمبراطورية إلى حالة فوضى أو حتى إلى دمارها[3].

وتابع كورزون قوله إنَّ أخبار منح المرأة حق الانتخاب، إذا وصلت للهند، لن تكون

---

(1) هيلينا سوانويك «الإمبريالية الجديدة» كومون كوز ، 30 مايو 1913، ص 116 اقتبسها بيرتن، أعباء التاريخ، ص 172.

(2) Gilmour, David, Curzon, London: John Murrray, 1994 p94 على أيّة حال، غيّر كورزون رأيه فيما يتعلق بعضوية الجمعية الجغرافية الملكية –وقبل ذلك ببضع سنوات– كان قد تحامل ضد قبول النساء على أساس أنهن سيغرّدن خارج السرب العلمي المعتاد.

(3) «منح المرأة حق الانتخاب»، خطاب في الاتحاد الوطني المعارض لمنح المرأة حق الانتخاب، اجتماع في غلاسكو، 1 نوفمبر، 1912، في كورزون، مواضيع اليوم، ص 296–308، ص 302.

غربية فحسب، بل ستقابل بكثير من الاستهجان؛ لأنَّ حكومات الولايات الإمبراطورية البعيدة تؤمن بقدرات الرجل العقلية، لا بمثيلتها عند المرأة. تحتاج الهند إلى من يحكمها بعطف لا بعاطفة، وبشعور لا بمشاعر، وفوق كل هذا فإن المعرفة والخبرة مطلوبة. وأي دور ستقوم به المرأة إذا حدثت أزمة أخرى كثورة 1857، واضطر الإنجليز إلى استخدام السلاح؛ لحماية مناطقهم، وحماية «مجد شعبنا وصالح الجنس البشري. هل ستتمسك المرأة بالهند؟ بالطبع لا، فالرجال هم مَن ظفروا بالهند وهم من سيحافظون عليها»[1].

وعلى الرغم من هذا، أخبر كورزون مستمعيه أنه لا ينكر على النساء حقهن المناسب لمكانتهن في الإمبراطورية، فالإمبراطورية إرث لهن كما هي للرجال تماما، و«الهند حق مكتسب، بل مجدٌ لهن حق مشاركة الرجال فيه». لا يقتصر دور النساء في حياتهن اليومية على أدوار نسائية محضة، كزوجات وأُمهات، وممرضات، ومعلمات بل يتعداه إلى حقهن بالدفاع عن المثل العليا التي تقوم عليها الإمبراطورية. لقد ربط كورزون، بفصاحة تفيض بعواطف تماثل تلك التي وضعها الفكتوريون الكلاسيكيون والإدوارديون حول حياة النساء، وجود قوة نسائية «بالضمير العالمي للإنسان»، وقال مخاطباً الطالبات «ليس لَكُنَّ الحق بالمطالبة بحق الانتخاب؛ للدفاع عن مكتسبات قد حققتها المرأة في ظل الإمبراطورية فعلاً، فللمرأة دور مميز في صون ما هو أهم من الإمبراطورية نفسها، عليها صون أنثوية المرأة، بما تمتاز به من مهمات ومُثل وهبات روحيّة»[2].

امتدت السجالات المحتدمة بين مؤمن بحق منح المرأة حق الانتخاب، ومعارض له إلى المجتمع البريطاني في الهند، وفي السنة اللاحقة، عقد في ماسووري اجتماع عام حول منح المرأة حق الانتخاب، نجم عنه تشكيل فدرالية الهند للاتحادات الوطنية، المناهضة لمنح المرأة حق الانتخاب. كتبت رئيسة الفدرالية السيدة غراس والتون إلى المقر الرئيسي للاتحاد في لندن، قائلةً إنها –وكثيراً من معارفها– «يُعارضون بشكل قاطع انتقال الحركة النسائية إلى الهند». و«توسلت الشعب» بشدة للانضمام إلى الاتحاد المعارض و«لمواجهة

(1) المرجع السابق، ص 302.

(2) المرجع السابق، ص 304–305.

شر قد نعده إحدى مهلكات الإمبراطورية». وخط كورزون مسودة حث فيها الناس على عدم منح المرأة حق الانتخاب، مكرراً رأيه أن حق انتخاب المرأة «سيحطُّ من قدر المرأة الأوروبية في الشرق» و«سيضعف النسيج الاجتماعي في الهند، وسيؤثر على سمعة الإمبراطورية لسبب بسيط جدا، فالهنود لن يقبلوا أن تحكمهم امرأة»[1].

تشير مراسلات كورزون، والصحف، والمجلات الدعائية المضادة، التي نظمتها منظمات مناهضة لمنح المرأة حق الانتخاب -وبشكل لا يدع مجالاً للشك- إلى الارتباط الوثيق بين مستقبل الإمبراطورية والنسيج الاجتماعي الإمبريالي، حتى أنَّ بعض الهيئات الإمبريالية قد ربطت استمرار الإمبراطورية بالمحافظة على التراتبية ذاتها، وعلى الأدوار الجنسوية المحددة. وهكذا لم تلق آراء كورزون حول منح المرأة حق الانتخاب، وحول الإمبراطورية، ترحيباً لدى الجميع. وكان هذا جلياً من خلال الخطب، والأعمال الأدبية، ونشاطات المنظمات المؤيدة لمنح المرأة حق الانتخاب. فعلى سبيل المثال، لم تلق دعوة كورزون المالية، التي بدأها عام 1910 لصالح حركة مناهضة منح المرأة حق الانتخاب، رداً إيجابياً موحداً، بل إن بعض ردود رفاقه المرتقبة في المؤسسة كانت تفتقد إلى كثيرٍ من الحماس.

لقد تلقى كورزون «تعاطفاً كاملاً من اللورد أستور مُرفقاً بتذكيرٍ «أن الخطر الوشيك، الذي يحيط بالإمبراطورية، هو الحركة الاشتراكية لا منح المرأة حق الانتخاب»»، ومن اللورد لامبتون تلقى كورزون شيكاً بقيمة 500 جنيه إسترليني، بالإضافة إلى التزام بـ «أن ذكور عائلة لامبتون لن يتوانوا عن الإدلاء بآراء صريحة حول النساء». وامتازت آراء الرجال الأخرى بكثير من التحفظ، بل إن بعضهم كآرثر ساسون اعترف أن زوجاتهم، لن تسمح لهم بدعم هذه العريضة[2]. ومن مُواد أرنكليف سينيت -المؤيدة البارزة لمنح المرأة حق الانتخاب- تلقّى كورزون رسالة شديدة اللهجة مكررة فيها حُجَجَ ميليسنت

(1) السيدة غراس، ج. والتون، ماسوري، إلى الاتحاد الوطني المناهض لمنح المرأة حق الانتخاب في 1 يوليو 1913، ومسودة ردٍّ من كورزون 28 سبتمبر 1913، المخطوطات الأوروبية، ف 36/112.

(2) رسائل كورزون من دبليو. دبليو. آستور، 9 يوليو، 1910، وإيرل لامبتون، 13، يوليو، 1910، وآرثرستسون، المخطوطات الأوروبية، ف 32/112.

فاوسيت، ومشيرة إلى أن دعوى كورزون، التي تم نشرها في مجلة «التايمز»، كان قد وقّعها عدد كبير وغير متناسب من الطبقة الأرستقراطية فقط، مما دفعها إلى القول إنَّ حركة معارضة منح المرأة حق الانتخاب ترتكز بشكل لا يدع مجالاً للشك إلى التمييز الطبقي. وقد ساءها هذا كثيراً كونها ابنة مهاجر إيطالي، وتدير مصنع حلويات العائلة، الذي يؤمِّن رزق ما يزيد عن 100 عامل.

واستطردت برسالتها قائلة إنَّ الليدي جيرسي قد تدّعي معرفتها بشؤون الإمبراطورية، لكنها لا تعلم شيئاً عن نساء الطبقة العاملة، اللواتي يقبعن «بلا أمان –ذلك الأمان– الذي يفتقدنه لفقدان المال والسلطة، أو لحرمانهن حق الانتخاب».

أنت محق فالنساء يرغبن بالحصول على حقوقهن الإنسانية وصون كرامتهن، إن تلك الحقوق وهذه الكرامة وصلتا، في المراكز الصناعية الكبرى، وبين الطبقات الفقيرة إلى الحضيض. أقول من هنا إن المعارضة التي يشنها الأرستقراطيون وبعض النساء، ككونتيسة جيرسي، الذين لم تمكنهم طبيعة حياتهم ومراكزهم الاجتماعية من إدراك فضاعة حياة الطبقات الدنيا، قد تستنهض ردة فعل قد تكون وبالاً على مركزهم[1].

وتلقّى نائب الملك السابق أيضاً رسالة غير موقعة، من مركز الشحن البلطيقي موبخة إياه، ومتحدية، بشكل مباشر، آراءه:

أعتقد أنك كثيراً ما تعجز عن رؤية الحقيقة؛ كونك محاطا بحقراء ليس لهم من عمل إلا مدح أعمالك، لكنني أود ان أخبرك، أنه فيما يتعلق بالحركة النسائية –إنّ عدداً كبيراً من الرجال– قد يفوق توقعاتك، لا يؤمن بالسخافات التي تتكلم عليها، إن نقاطك الخمس عشرة حول انتخاب المرأة غير منطقية تماماً، حتى إن بعضهم يتساءل كيف تسنى لك أن تصبح نائبا للملك في الهند؟[2].

(1) رسالة إلى كورزون من مواد أرنكليف سينيت، وج سبارغنابان وشركاه «أقدم مصنعين لموالح عيد الميلاد وزينة كعكة حفلات الزواج في المملكة المتحدة» أبرونسونغر راو، الشارع القديم، 21 يوليو 1910، المخطوطات الأوروبية ف 33/112. ولدت مواد سبارغنابان، وأدارت عند زواجها هي وزوجها شركة جلوبل العالمية: إليزابيث كرافورد، حركة منح المرأة حق الانتخاب: دليل مرجعي 1866–1928، (لندن: روتليج، 1999)، ص 623–624.

(2) رسالة إلى كورزون موقعة بالحروف الاستهلالية للاسم، مركز الشحن البلطيقي، 14 مايو 1910، المخطوطات=

وبحلول عام 1910 –وهو العام ذاته– الذي قررت فيه إيميلي أوفيرند السفر إلى أرجاء الإمبراطورية المترامية، تَصاعد الجدل حول منح المرأة حق الانتخاب –وبشكل كامل غير مسبوق– واتسع ليشمل قضايا متعددة كالثقافة والطبقة والسياسة، وأصبحت السجالات حول منح المرأة حق الانتخاب وتحديد أطر مشاركة المرأة في الحياة الوطنية، والإمبريالية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً، مع القضايا الوطنية والعالمية ذات الصلة بالموضوع: كالإصلاح الاجتماعي، والتجارة الحرة، وإدارة البيت والدفاع الإمبريالي، والحكم الذاتي للمناطق الإمبريالية والاستعمارية، والمنافسة التجارية والعسكرية. وفي مجال النشاط النسائي، لم تكن الخطوط العريضة جلية بشكل دائم. وكما أثبت مؤرخو الحركة النسائية، فلقد كان هناك إمبرياليات ونسويّون إمبرياليون، إذ لم يكن جميع المطالبين بحقوق المرأة في الانتخاب يقفون إلى جانب الإصلاح الإمبريالي، ولم يكن كل المعارضين إمبرياليين[1].

كانت آراء جورج كورزون، ومؤيديه من النساء، لا تتعدى كونها ممثلة لجانب واحد في ساحة الإدارة الإمبريالية في الهند، ومنذ انتهاء حكمه نائباً للملك، بدأت قضايا الإصلاح والحكم الذاتي، تأخذ مكانها في المشهد السياسي. أما في الخليج العربي، فلقد كانت سمعته، وذكريات تورطه الاستباقي في الشؤون المحلية، ذات تأثير كبير على الموظفين البريطانيين، الذين دائماً ما يستذكرون نشاطه ودعمه لأعمالهم السياسية على الحدود العربيّة للإمبراطورية[2]. كما كان الاشتراك في اللعبة، في السنوات التي سبقت الحرب

=الأوروبية، ف 33/112.

(1) Bush, Julia, Edwardian Ladies and Imperial Power; Burton, Burdens of History.
أثبت بوش أن ما يقرب من نصف السيدات الإدواردیات المحافظات دوماً، اللواتي كُنّ على صلة بالمؤسسات الإمبريالية، مؤيدات لمنح المرأة حق الانتخاب، والنصف الآخر كُنّ معارضات لمنح المرأة هذا الحق. (ص 171، والملحق 2).

(2) على سبيل المثال، خطَّ دايفيد لوريمر رسالة بعث بها إلى والد زوجته ليشكره على «هديته المبهجة»، التي كانت كتاب جورج لوفات فرازر: الهند في أثناء حكم كورزون وما تلاه (لندن: وليم هينمان، 1911) كما عد لوريمر الكتاب «أكثر إيضاحاً» للمحرك البشري» الرائع. وأضاف أن الخليج قد فَقَدَ صديقاً له، عندما تمت تنحية كورزون من منصبه. ونحن الآن نعيش سنوات بؤس في ظل حكومة هدفها الرئيس خفض الإنفاق، فهم مستعدون من أجل توفير ما لا يقل عن 3333 جنيه إسترليني، لتقليص جميع مناصب الخليج إلى دولة عديمة الفاعلية. «لوريمر إلى والد إيميلي لوريمر، 3 مارس، 1912، المخطوطات الأوروبية ف 7/177.

العالمية الأولى، ذا دلالات متباينة لدى فئات مختلفة من الناس، شملت مدى دائم التغير من الآراء حول مشاركة النساء في الإمبراطورية. لكن، وعلى الرغم من أن القضايا كانت ذات امتداد واسع، ورغم عدم وجود رد متوافق معها، إلا أنها كانت تدور بمجملها حول مغزىً واحد. فالمدافعون عن حقوق النساء والمعارضون لها، ومؤيدو منح المرأة حق الانتخاب والمعارضون له، كانوا يدّعون حقهم المشروع بالمشاركة في المشروع الإمبريالي، وكانوا جميعا يؤمنون بمحامد الحكم الإمبريالي، وأهمية دور المرأة «العملي» للإمبراطورية. كما كانت تطلعات إيميلي لوريمير إلى «صون كرامة الإمبراطورية بشكل لائق»، لا تتعدى كونها انعكاساً لشعور خامر حينها عقول جميع أفراد الأمة، تلك الأمة؛ التي تؤمن عميقاً بحقها، وواجبها في إرشاد منهجيات مهمتها وأهدافها، وحمايتها، وإدارتها حتى عند الاختلاف حول الكيفية التي يتم بها ذلك.

الفصل الأول

صون كرامة الإمبراطورية: جولة نائب الملك في الخليج عام 1903

إنّ أول ما يلاحظه المسافرون إلى الخليج هذه الأيام هو ألسنة اللهب البرتقالية الضخمة، المنبعثة من منشآت الغاز والبترول بعيداً عن الشاطئ. يحطّ المسافرون في مدن ضخمة من الفولاذ والزجاج، تكيل إعلانات السفر الغربيّة والنشرات ترويجيّة المديح إلى الفنادق الفخمة والرياضات المائية والشاطئية، والغولف، والرحلات الصحراوية، والتسوق المعفى من الضرائب. ومن الصعب علينا أن نتخيل أنّ أبوظبي ودبي، والكويت، وغيرها من المدن الرئيسية في دول المنطقة الحديثة، كانت قبل مائة عام قرى ساحلية صغيرة، قد لا يتعدى بعضها كونه حِصونا صغيرة، وكان البريطانيون يعدونها ثغوراً لإمبراطوريتهم في الهند. لقد كان اقتصاد المنطقة المتواضع يعتمد كلياً على التمور، وصيد الأسماك، ونقل البضائع عبر الخليج على نطاق ضيق، والبحث عن اللؤلؤ. وعلى الرغم من أنَّ عدداً من أغنياء العرب، وبعض التجار الأجانب، كوَّنوا ثروات طائلة من مرابح صناعة اللؤلؤ، إلا أن البدو في المناطق التي تبعد عن الشاطئ كانوا يقتاتون على موارد شحيحة في الصحراء القاحلة[1].

وقبل ما يزيد عن قرنٍ من الآن، وتحديداً في شتاء عام 1903، قام نائب ملك الهند اللورد جورج نثانيل كورزون وزوجته الليدي ماري كورزون، بجولة في الخليج العربي على متن سفينة الهند الملكية (الهاردنج)، ورافقه في جولته أسطول بحري كبير، كان الغاية منه إظهار هيبة الإمبراطورية البريطانية، وتأكيد سيطرتها على سواحل الخليج ومياهه. ولقد رافق نائب الملك وزوجته عدد من موظفي السلك السياسي البريطاني في الهند، بمن فيهم

(1) يذكر إدوارد هندرسن في مذكرات حياته في الإمارات وعُمان، أنه في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين كان البدو في المناطق النائية يعتمدون على التمر وحليب الجمال كغذاء، وأن الرز واللحم كانا شحيحين. Henderson, Edward, This Strange Eventful History: Memoirs of Earlier Days in the UAE and Oman, London: Quarter Books,1988. Chaps one & two



(اللورد والليدي كورزون على سطح السفينة خلال جولتهما في الخليج، 1903)

أخ زوج إيميلي لوريمر –جون غوردن لوريمر– وكان القصد من زيارته توثيق الأحداث للأجيال القادمة، فضلا عن جمع معلومات لكتاب مرجعي حول المنطقة. وكان نتاج بحث لوريمر كتاباً يُعدُّ واحداً من أعظم الكتب على الإطلاق حول الجزيرة العربيّة، وحمل عنوانه اسم (المعجم الجغرافي للخليج العربي، وعُمان ووسط الجزيرة العربية). تحدث لوريمر، في ملحق الكتاب عن جولة نائب الملك والعلاقات البريطانية مع الحكام المحليين ورعاياهم. وكان حديث لوريمر مثالاً حياً للسرد التقليدي «للتأريخ الإمبريالي»، الذي كان يعكس بشكل غير واعٍ، ضيق أفق المؤلف الذكر تجاه وجود بريطانيا في الخليج[1].

(1) كان جون غوردن لوريمر، شقيق دايفيد لوريمر موظفاً في السلك الهندي السياسي، وقد أوكل له مهمة خاصة تتمثل في جمع المعجم الجغرافي، الذي يقدم للحكومة الهندية البريطانية معلوماتٍ أفضل حول منطقة الخليج. وضم العمل عند انتهائه والموسوم بـ «معجم الخليج العربي وعُمان ووسط جزيرة العرب» 5000 صفحة. (كالكتا مطبوعات سوبرانتدنت)، وأصبح المعجم رغم أهدافه السياسية ومنطلقاته، عملاً ضخماً شمل خدمة معلومات مفصلةً حول المنطقة لم يسبق لها مثيل. ويقع سرد الجولة الملكية في الجزء الثاني من المجلد الأول ص 2626–2662، وفي الملحق: «الجولة البحرية لصاحب السعادة اللورد كورزون نائب الملك والحاكم العام للهند في الخليج العربي».

كانت محطتهم الأولى في جولتهم خارج الخليج العربي مدينة مسقط، التي تقع على المحيط الهندي، حيث أقيم لهم حفل استقبال أو دربار على متن أفخم سفينة –سفينة صاحبة الجلالة– أرقنوت، حضره السلطان سيد فيصل بن تركي البو سعيد [1]. ولقد زار نائب الملك وصحبه في أثناء إبحارهم عبر مضيق هرمز، الشاطئ العربي الضئيل لإمارة الشارقة، ثم عبروا الخليج إلى ميناء بندر عباس، وغيره من الموانئ. وفي نهاية المطاف عبروا الخليج العربي مرة أخرى عائدين إلى البحرين والكويت. وحسب روايات لوريمر، كان نائب الملك يستقبل الحكام المحليين والتجار ويلقي خطباً حماسية مشيداً فيها بقوة الإمبراطورية البريطانية وبأمجادها. وفي مسقط أقام نائب الملك حفل عشاء على سطح السفينة تبعه عرض للألعاب النارية التي «ازدانت بها السفن البريطانية بألوان آخاذة على امتداد السماء الزرقاء، مما أعطى العرض بهاءً فوق بهائه». وكتب لوريمر واصفاً المشهد بقوله «كان المشهد مهيباً وجميلاً بشكل منقطع النظير حتى إنه أثار حفيظة كل عربي ساكن الجوارح»[2].

واجتمع كورزون خلال زيارته للشارقة في الحادي والعشرين من نوفمبر بحكام أبوظبي، والشارقة، ودبي وغيرهم من حكام المناطق المتصالحة. وتحدث لهم عن تأريخ علاقاتهم مع بريطانيا وعن فوائد تلك العلاقة، وأعلن قائلاً: جُئت هنا:

ممثلاً للسلطة البريطانية في إمبراطورية الهند العظمى، تلك السلطة التي عرفتموها أنتم وآباؤكم وتعاملتم معها أكثر من مائة عام، وهدفي هنا أن أؤكد لكم أنّ الحكومة لم تنسكم قطٌّ على الرغم من حقيقة أنكم تقطنون في أماكن قصيّة عن شواطئ الهند.

كنا هنا قبل قدوم أية قوة أخرى إلى هذه المياه، كابدنا لكننا أوجدنا نظاماً، فإمبراطورية الهند –التي من واجبنا حمايتها– تقبع خلف معابركم. لقد فتحنا البحار للسفن من مختلف الأمم، وسمحنا لأعلامهم أن ترفرف بسلام، نحن لم نقم باحتلال أراضيكم أو

(1) «دربار» كلمة فارسية تعني حفل استقبال مبكر، والكلمة لا تعدو كونها واحدة من الكلمات أو التقاليد التي تبناها واستعملها البريطانيون من اللغات، والعادات المحلية للمناطق الهندية الإمبريالية، وغيرها من المناطق الاستعمارية.

(2) لوريمر، معجم الخليج العربي وعُمان ووسط جزيرة العرب، ص 2632.

حتى السيطرة عليها، ولم نخدش استقلالكم بل صُنّاه، ولن نتخلى عن مائة عام من الإنجازات والانتصارات الباهظة الثمن. لن نسمح بأن نمحو هذه الصفحة المليئة بمساعدة الآخرين من التاريخ. يجب أن تبقى هذه المياه آمنة، واستقلالكم راسخا وسيطرة الحكومة البريطانية هي الأسمى[1].

تم منح كل شيخ في ذلك الحفل سيفاً، وساعة وسلسلة ذهبية، بالإضافة إلى بندقية صيد. كما وصل نائب الملك وصحبه في 26 نوفمبر إلى البحرين، حيث استقبلهم الحاكم الشيخ عيسى بن علي آل خليفة وأبناؤه الثلاثة. وبعد يومين، وصل الموكب إلى الكويت، حيث أقيمت حفلات استقبال مشابهة لتلك التي أقيمت في مسقط والبحرين، وحضر نائب الملك عرضاً لركوب الجمال والخيول، شارك فيه ما يزيد عن 200 خَيّال و20 راكب جمل، وأربعة آلاف حامل بندقية ماشين على أقدامهم، واصل لوريمير وصفه للمشهد بلغة بليغة:

بدأ المشهد مثيراً، إلى حدٍ صارخ، كان الموكب يزدهي بألوان زاهية، فحبالهم ذات الألوان البرتقالية والحمراء والبنية الذهبية، كانت تتطاير في الهواء عندما كانوا ينطلقون بسرعة على خيولهم العربية الأصيلة. كانت جموع المشاهدين تنتقل مشياً على الأقدام، وبتثاقل من مكان لاخر، وكان الرجال القادمون من المدن البعيدة، وذوو الأجسام الممتلئة يضعون أزهى حللهم. ولوحظ أيضاً وجود عرب الصحراء بأجسامهم الضئيلة ، وكانوا يلبسون عباءات على أكتافهم وكانت النساء المتخمرات يضعن عباءات داكنة على رؤوسهن، ويلبسن تنانير قطنية طويلة تجر وراءهن، وكان هناك أطفال حنطيو البشرة ذوو عيون سوداء.

وخلف الخيام السوداء للتجمع البدوي الضخم، كانت جدران المدينة البيضاء وسقوفها المستوية تزدهي بالأعلام، وبعيداً في مياه الخليج العربي الزرقاء المحاطة بالصحراء الذهبية

(1) المرجع السابق. ص 2638–2639. و Curzon, George Nathaniel, Lord Curzon in India. Being a Selection from His Speeches as Viceroy and Governor – General of India, 1898-1905, London: Macmillan & Co.,1906,p 500-03

اللون، كان الأسطول راسيا شاحبا ومتجهماً. وكانت الهاردنغ بلونها الأبيض الكامل تزدهي ببهائها بين السفن. قاد نائب الملك سيارته عبر المدينة إلى مركز إقامة الشيخ على البحر، وعند وصوله أطلقت البنادق 21 طلقة تحية له، وتمت مقابلة نائب الملك في غرفة من الغرف العلوية المزخرفة لهذه الغاية، برسومات زاهية لملك وملكة إنجلترا وللملكة الراحلة فكتوريا[1].

وكما يورد لوريمر في تقريره، كان نائب الملك لا يتوانى في اللقاءات الخاصة، عن نصح الحكام. فعلى سبيل المثال، تم نصح أمير الكويت الشيخ مبارك آل صباح بألاَّ يتدخل في شؤون وسط جزيرة العرب، وقبلها بأيام نصح نائب الملك حاكم البحرين وبشكل جلي بأن يقوم بإعادة ترتيب إدارة الجمارك لديه[2]. ورغم هذا، أخبر كورزون الحكومة البريطانية أن سلطان مسقط «كان متواضعاً ولديه ثقة كبيرة بي» وقال أيضاً إنَّ زيارته قد جعلت أمير الكويت «يشعر بالبهجة والسعادة الغامرتين»، وقال كورزون مخبراً وزير الدولة لشؤون الهند: «كان دخولي الكويت بعربة مع الشيخ؛ وهي العربة الوحيدة في المنطقة، محاطين بموكب من الخيالة والجَمّالة المسرعين والصارخين، مارين بآلاف المواطنين المصطفين على الطرق ومجموعات من النساء اللواتي، كُن يطلقنَ أصواتاً حادة، واحداً من أكثر المواقف بهجة وجمالاً في الجولة»[3].

كانت لغة كورزون ولوريمر وخيالهما ورموزهما في وصفهما لفخامة بعض الأحداث وبهائها، تجسد تماماً ما أسماه المؤرخون «بالتقليد المصطنع»، أو ما سُمّي أخيراً بـ «زخرفة الحكم الإمبريالي في أوجه»[4]. وفي المقابل عكست توصيفاتهما لحفلات الاستقبال التي

(1) لوريمر، معجم الخليج العربي وعُمان ووسط جزيرة العرب. ص 2647.

(2) المرجع السابق، ص 2645–2647.

(3) كورزون إلى السير تشارلز هاردنغ، وزارة الخارجية 21 نوفمبر 1903، المخطوطات الأوروبية ف 182/111، كورزون إلى وليم إس. تِ. جَ. برودريك، وزير الدولة لشؤون الهند. 17 ديسمبر، 1903، سجلات وزارة الهند: أر/15/508.

(4) Hobsbawm, Eric, and Terence Ranger (eds), The Inventions of Tradition, Cambridge: Cambridge University Press,1983.; Cohn, Bernard s., 'Representing authority in Victorian India' Hobsbawm and Ranger (eds), The Invention of Tradition,p165-210; Cannadine, David, Ornamentalism: How the British Saw their Empire, London; Allen Lane, 2001.

كان يعدها الشيوخ، ونقلهم الصورة لشعبٍ قيد التطور لكنه رغم ذلك شاكر. وتؤكد سرديات تلك الفترة التفرد الذكوري في المشروع الإمبريالي، فعلى سبيل المثال، جاء لوريمير على ذكر زوجة نائب الملك في الإجراءات مرة واحدة فقط، ففي كتاباته قال: إنه في 29 نوفمبر كان الملك قد أبحر لتفقد بعض الموانئ المحليّة مُخلّفاً وراءه بعض المرافقين، الذين قاموا باستكشاف المدينة وبعض ضواحيها. «وقامت الليدي كورزون، وبعض الموظفين بجولة في الخليج العربي على متن قارب بخاري»[1].

تناول مؤرخو سيرة السيدة كورزون ومؤرخو السيد كورزون، سواء بسواء البحث في علاقة السيدة كورزون بزوجها[2]. و قد ضمَّنَ السيد كورزون خُطبِه وكتاباته، ولا سيما تلك التي تدور حول حق المرأة في الانتخاب، كثيراً من آرائه حول النساء، ومكانتهن، ودورهن في الشؤون المحلية والإمبراطورية، لكنَّ حياته الخاصة كانت أكثر تعقيداً، فلقد كشفت رسائله الخاصة عن حب عميق لزوجته، وعن اعتماده عليها صديقةً، عقب إرساله إلى الهند. وأشار مراسل مجلة «التايمز» فالنتين شيرول، الذي رافق الجولة في الخليج إلى أنَّ كورزون أخبره خلال الجولة، أنه ما كان سيحتمل عُزلة منصبه نائباً للملك، لولا وقوف ماري إلى جانبه ومشاركتها إياه «كل أفكاره، وأماله ومخاوفه»[3]. لكن لم يكن ذلك الاعتماد، الذي تحدث عنه كورزون ليتجاوز صورة الخنوع والولاء الأنثويين للرجل، التي حُددت أُطرهما في العصر الفكتوري، وتضمن ألاّ يشوب ذلك الاعتماد وُلوج المرأة إلى سبل الحياة السياسية الوعرة القاسية، أو الشؤون التجارية، وألا تقف عقبة أمام طموح الرجل وواجباته العامة. أصر كورزون قبل زواجهما -بشكل غريب- على سرية خطوبتهما التي استمرت لسنتين، وكانا نادراً ما يلتقيان خلالهما؛ لأنَّ كورزون واصل تجواله في آسيا. كما حددت طبيعة علاقتهما في أثناء الخطوبة مستقبل علاقتهما

(1) لوريمير، معجم الخليج العربي وعُمان ووسط جزيرة العرب، ص 2648.

(2) Nicolson, Nigel, Mary Curzon, London: Weidenfeld & Nicolson, 1977; Gilmour, David, Curzon, London: John Murrray, 1994

(3) Gilmour، David، Curzon، London: John Murrray، 1994، p 360.

خلال الزواج[1]. وافترض كورزون بعد زواجهما، وعقب تعيينه في الهند، أن زوجته ستشغل نفسها في بعض الإجراءات المنزلية والاجتماعية، باستثناء بعض المناسبات التي تُحَتِّم ظهورها إلى جانبه[2]. وخلال تلك المناسبات كان متوقعاً من زوجة نائب الملك، أن تلعب دوراً محدداً، ملحوظ بوضوح.

بدت ماري كورزون -لعدة أسباب- الشخص غير المناسب لهذه المهمة. فهي أمريكية ولدت عام 1870 في شيكاغو تحت اسم ماري ليتر، لعائلة تجاريّة ميسورة حققت ثراءها بذاتها. تزوجت ماري من كورزون عام 1895، في بداية الأمر كانت ترى المجتمع اللندني بغيضاً، لكنها سرعان ما أخبرت والديها عقب زواجها أن طريقها كانت «مفروشة بالزهور»، على الرغم من أن «النساء الحاقدات» بَدون «كأشواك»[3]. وفي عام 1898، وعندما أوصى اللورد سالزبري الملكة فيكتوريا بتعيين كورزون نائباً للملك، أجابت الملكة أن لديها تحفظين حول هذا التعيين: أولهما، أنَّ عائلة كورزون سيعاملون الهنود برفق، وذلك «لأن عليهم، أي الهنود، أن يدركوا بأننا أسيادهم، لكن ينبغي أن يتم ذلك بلطف ودون تهجم». وثاني هذه التحفظات هو: «هل السيدة كورزون، وهي أمريكية، جديرة بأن تكون نائبة للملكة؟»[4]. عبرت ماري كورزون في رسالة خطتها إلى والديها عن آمالها المشوبة بالشكوك، وطلبت من والدها أن يحفظ سرها، الذي باحت به حول إمكانية تعيين جورج «نائباً للملك في الهند، حالما يجتمع مجلس العموم». اعترفت ماري قائلة إنها لم تصدق نفسها:

فهذا المنصب هو الأعلى في إنجلترا بعد الملكة ورئيس الوزراء ... أعظم منصب تحتله، أمريكية خارج أمريكا. الله فقط يعلم كيف سأؤدِّي هذه المهمة، لكني سأبذل قصارى جهدي لأكون عوناً لجورج، ومفخرة لك ولأمي. سأضع ثقتي في العناية الإلهية وآمل أن

(1) المرجع السابق، ص 114-116.

(2) Nicolson, Nigel, Mary Curzon,p 93-4

(3) المرجع السابق، ص 89. يشير نيكلسون إلى أنّ زواج كورزون من أمريكية قد لاقى امتعاضاً من طبقته الاجتماعية.

(4) الملكة فكتوريا إلى سالزبري، بالمورال في 29 مايو من عام 1898، وكان مرفقاً رسالة من سالزبري إلى كورزون في 24 يونيو من عام 1898. المخطوطات الأوروبية ت 1/112 و المرجع السابق، ص 103.

أتعلم كيف أكون ملكة منذ الآن[1].

وبدا جلياً أن السيدة كورزون قد ارتقت إلى مستوى دورها الجديد، بل لعبته بحماس، وفي أثناء لزومها الفراش بعد ولادة طفلتها الثانية –سنثيا في سبتمبر عام 1898– درست تأريخ الهند وجغرافيتها، وعقب ثلاثة شهور، انطلقت مع المولودة الجديدة وابنتها الأخرى التي كانت قد بلغت الثانية من العمر، في رحلة إلى شبه القارة دامت ثلاثة أسابيع. أعدت ماري كورزون نفسها لأداء دورها في الحياة العامة قبل وصولها. كانت ماري مفتونة بكرامة زوجها ورفعته وقوة منصبه، وحالهما هنا مماثل لحال إيملي لوريمير بعد عقد من الزمان في البحرين. بعثت ماري كورزون فور وصولها كلكتا برسالة، من بيت الحاكم إلى أمها وأخواتها مخبرة إياهم أنه تم تعيين جورج نائبا للملك.

وفي يوم الأحد، الذي سبق رسالة ماري، توجهت عائلة كورزون إلى الكاتدرائية، الأمر الذي عدته ماري «محنة». كان مقعد نائب الملك عبارة عن صندوق غريب محاط بكرسيين ضخمين. ولقد وضع الكرسي على مرمى أعين المحتشدين، ولأن الجميع قد أمضوا وقتاً «محدقين» في عائلة كورزون، مرّ الوقت «طويلاً وعصيباً». تكونت الصلاة من «أناشيد طويلة وأنواع مختلفة من الموسيقى الصاخبة المختارة بعناية»، مما أنهك نائب الملك ونائبته. بدت ماري سعيدة جداً لمغادرة الكاتدرائية حتى «إنها كادت ترتكب جُرماً مشهوداً بركوبها العربة قبل جورج». قالت إنها تجد الأمر صعباً أن تتذكر السماح لجورج بولوج الباب قبلها، علماً أن جورج لم يفكر بهذا الأمر من قبل، لكنها تحاول أن تبقي هذا الأمر نصب عينيها، وأضافت أيضاً أن العادة تقتضي أن يمشي نائب الملك جنباً إلى جنب مع زوجته، لكنها كانت ترتأي أن يسبقها إذا اقتضى الأمر أن يمشيا في غرف كبيرة مزدحمة[2]. وبعد أسبوع كتبت إلى والدها لتخبره أنها:

أصبحت تعتاد الحياة الجديدة، وأنها بمجملها حياة جميلة جداً، وأن جورج يتلقى

(1) ماري كورزون إلى والدها، غير مؤرخة (يوليو 1898)، مجموعة ماري كورزون، المكتبة البريطانية (مجموعات وزارة الهند والاستشراق)، المخطوطات الأوروبية ت 8/306. والمرجع السابق ص 103–104.

(2) ماري كورزون إلى والدتها وأخواتها دازي ونانسي، 12 يناير 1899، المخطوطات الأوروبية ت 43/306.

معاملة السيد المطلق تماماً فالكل ينحني ويحييّه -ويسبقه عادة مرافقوه- وما يميز جورج عن غيره من الملوك أنه يتمتع بسلطةٍ غير متاحة للكثير منهم، فحكم الهند ليس بالعمل الهين، ولنائب الملك الحرية بأن يصبح قوة ضاربة أو حتى عديم القيمة. وثمة أعمال عظيمة تقع على عاتق جورج[1].

وفي فقرة من سيرة كورزون المكتوبة عام 1977، استدعت ناجيل نيكلسون -كاتبة السيرة- بعض الصور النمطية لأدوار إنسانية منزليّة فكتورية واستشراقية، وقدمت الكاتبة وصفاً ملائماً للصور العامة السائدة آنذاك للزيجات بين أفراد الطبقة الحاكمة الإمبريالية. ولقد:

عانت ماري الأمرين بسبب مقتنياتها الشخصية مدركة، أنه عليها أن تضع ما يماثل فخامة مجوهرات مضيفها ومضيفتها، وعمائمهما وأثوابهما، وأن تجعل نصب عينها أهمية المظهر الخارجي لدى الشرقيين. إن عليها أن تجسد الأنوثة بأسمى صورها في الظروف التي تتجلى بها رجولة الرجل بأكمل حالاتها. وعليها باتباعها النمط الهندي، ألا تتسبب بإهانة لأي كان، وحريٌ بها أن تشيد بهذا النمط بتلميحات موجزة توحي من خلالها، معرفتها به ... وكانت قد حققت نجاحاً باهراً في مهمتها، فلقد أدركت بغريزتها أن لديها دورين عليها القيام بهما، الأول: يتمثل في تأمين الراحة لزوجها ومساندته، والثاني: تخليص نفوس الناس من الخوف والإزعاج، اللذين قد سببهما زوجها[2].

لم يكن هناك شك لدى الحكام والإداريين البريطانيين، أن للمظهر الخارجي أهمية كبرى في الحفاظ على السلطة، على الرغم من أن بعض الموظفين حاول تبرير ذلك بكونه «ارتداء ما يليق بالإمبراطورية» وأكد البعض أنه إساءة «استشراقية». كان كورزون صريحاً بهذا الشأن، فلقد كان يؤمن بأن للباس دورا مهما في عملهم، فقبل إنطلاقه في رحلته إلى أفغانستان عام 1894، وتجهيزاً لمقابلة أمير كابول، قام كورزون بزيارة مصمم ملابس مسرحي في لندن، واستئجار هداب كتف ذهبية، إلى جانب العديد من الزخرفات الغريبة

(1) ماري كورزون إلى والدها، 17 يناير 1899، المخطوطات الأوروبية ت 9/306.

(2) Nicolson, Nigel, Mary Curzon,p 138-9.

اللامعة، واستكمل زيه عند وصوله بومباي باستعارة سيف ضخم من القائد العام[1].

لعبت النساء دوراً مميزاً، وفي الوقت نفسه مسانداً في عروض الفخامة هذه. فلقد جسدت ماري كورزون قبل إنطلاقها في جولتها إلى الخليج –الدور النسائي في السلطة الإمبريالية– وذلك في اثناء احتفالات التتويج في دلهي، التي أقيمت في يناير من عام 1903[2]. كما وصفت غيرترود بيل في أثناء وجودها في الهند، إحدى محطات جولتها حول العالم مع أختها، فخامة موكب زوجة نائب الملك، الذي استمر ما يقارب الساعة. كتبت تقول: «في البداية جاء الجنود، وتبعهم الحارس الشخصي لزوجة نائب الملك، وبعض الخيالة، وطلاب المدرسة العسكريّة. ثم جاء دور نائب الملك والسيدة كورزون، وأخيراً أخ إدوارد السابع –دوق كونوت– وكان جميعهم يعتلون الفيلة، كما لحقتهم بعد برهة من الزمن «فرقة تضم بضع مئات من الراجا على فيلة. بَدا الراجا كما لو كانوا كتلة من الذهب والجواهر، فلقد كانوا يرتدون قلائد من اللؤلؤ والزمرد، تمتد من رقابهم إلى خصورهم، مع حبال من اللؤلؤ ملقاة على أكتافهم، وقلائد من اللؤلؤ تتدلى على عمائمهم. كانت ملابسهم مصنوعة من قماش مذهب أو مخمل مهدب بذهب، وكانت قلائد الجواهر تتدلى من آذان الفيلة». وحسب رأي بيل، «كان هذا الموكب أجمل عرض يمكن للمرء أن يتصوره على الرغم من أنه خلال ومضة من التطرف السياسي، الذي قادها لاحقاً إلى المواجهة مع المؤسسة الإمبريالية البريطانية، تساءلت «إذا كان حفل الاستقبال قد لامس الواقع أم كان ضرباً من الخيال. وقالت إنها كانت، على الدوام، تسمع الراجات يتذمرون من التكاليف البالغة التي تكلفوها ... وبعضهم كان لديه اعتقاد لا يساوره شك أنهم لم يتلقوا الاحترام الذي يستحقونه»[3].

---

(1) Gilmour, David, Curzon, p97-8.

(2) كان حفل استقبال 1903، الذي أقيم في دلهي احتفالاً عاماً لتولي إدوارد السابع العرش، وناب عن الملك في ذلك الحفل أخوه، دوق كونوت ونائب الملك.

(3) Burgoyne, Elizabeth, Gertrud Bell: from her Personal Papers, 2 vols, London: Ernest Benn, 1948-61, p139-41.

كان حضور ماري كورزون، في الهند، للغايات الحكومية «إلزامياً»[1]، وكان يتوقع منها أن تكون المضيفة في حفلات الحدائق، والموائد الرسميّة والرقصات المُعدّة لأفراد الطبقتين البريطانيتين الحاكمة والإدارية، بالإضافة إلى الوجهاء من الزوار. وكان يطلب منها أيضاً أن ترافق نائب الملك في جولاته في الولايات الأميرية، حيث كانت تجتمع بالأمراء أنفسهم وعلى انفراد بزوجاتهم، وغيرهن من أفراد الأسر الملكية. ووثّقت ماري في مذكراتها لشتاء عام 1902، أنها قامت بزيارة إلى جود بور، حيث استقبلتها المهراني التي صعدت بها إلى إحدى قاعات القصر الرخامية الجميلة «في بيتها، الذي تغطيه الرمال في الأسفل». وجدت ماري المهراني امرأة جميلة «تضع ملابس خلابة» تفوق تصور أي شخص. «كان فستانها من المخمل وقماش الذهب لا يتعدى كونه كتلة من التطريز، وكانت المجوهرات تتدلى من رقبتها حتى قدميها، والخلاخيل ذات الأوزان الضخمة تصلصل مع خطواتها. كانت الزمردات، وكلٌ منها بحجم البيضة، مرصوفة بقلائد تحيط برقبتها». ولقد قاسمت المهراجا في السلطة «وذلك لحنكتها البالغة، ولأنها أنجبت منه ولداً». وبينما كان الاجتماع مستمراً، جلس جورج منتظراً خروجها على شرفة رخامية جميلة أكثر خلالها من تأمل المشهد الخارجي. تذكر ماري:

إن المفارقة بين حالي وأنا واقفة إلى جانب جورج على شُرَف الأسوار، وبين حال تلك المرأة المثقلة بالجواهر، التي عليها كلما اقترب منها زوجها القصير أن تضع وجهها على قدمه، تلك المفارقة هي الحد الفاصل بين الشرق والغرب، أحزنتنا زيارتنا إلى الحصن، وتقاذفتنا الأفكار هنا وهناك أثناء عبورنا الصحراء[2].

كشفت ماري بصراحة عن هويتها كامرأة أمريكية متحررة تشارك زوجها مهامه، وكغيرها من المواطنات المعاصرات –وخاصة المبشرات البروتستنتيات اللواتي أخذن يسافرن إلى الخليج في نهاية القرن الماضي– وتأكدت هذه الصورة بمقارنة وضعها بوضع

(1) Nicolson, Nigel, Mary Curzon,p 117-20.

(2) ماري كورزون إلى والدها، وأختها نانسي وأخيها جو، 22 نوفمبر 1902، مكتوبة على شكل مفكرة. المخطوطات الأوروبية ت 43/306.

زوجات أمراء الولايات اللواتي يضعن الخلاخل دوماً. وعلى النقيض من ظهورها الرسمي الإلزامي في الهند، مكثت ماري على سطح السفينة خلال جولتها في الخليج. كان الحكام والوجهاء يلقون الخطب ويرسلون لها تحيات رسمية في غيابها. وقد أخبرت ماري أمها أنها، وكانت حينها حاملا للمرة الثالثة، كانت تجلس في كرسيها لتقرأ، في حين ذهب الآخرون إلى الشاطئ لمشاهدة المناظر، فلقد كان من الصعب عليها صعود القوارب الصغيرة والنزول منها، لكن الهواء في الكويت كان «عليلاً، خليطا من البحر والصحراء» وكانت تشعر «بصحة جيدة»[1].

حدّد دور نائبة الملكة ومكانتها، ناهيك عن شخصيتها الرسمية في التراتبية الإمبريالية الحاكمة، وفق علاقتها مع زوجها، ووفق منصبه نائباً للملك وحاكماً للهند. وحسب هيلاري كالن وشيرلي أردنر، كانت ماري أفضل من جَسَّد ما أسمتاه «الزوجة المندمجة»، لأن «دورها الاجتماعي» المكتسب، «يكمن في دعم زوجها في عمله واستيعاب ثقافته»، وقادها هذا الوقوف إلى جانب زوجها في عمله نحو نكران ذاتها وطمس شخصيتها[2].

كان نعت ماري كورزون بهذه الأوصاف مفاجئاً، خاصة إذا أدركنا أنها قد ولدت ونشأت في أمريكا، وأنها قد انخرطت، بشكل متأخر لكن متسق، في الطبقة الإمبريالية الحاكمة. ويمكن القول إنَّ روحها الأمريكية، وهي «العنصر الخارجي»، زودتها بالقدرة والوسيلة لتحافظ على شخصية منفصلة غير تقليدية. وكما هي حال غيرها من الخاتونات، كان من الصعب أن نميز بين تمثيل دور نسائي وبين «حقيقة» هذا الدور، وعادة ما كان يشعر المؤرخون الساعون لاستكشاف حياة بعض النساء، أنهم في متاهة، لإدراكهم بعد حين أن دور النساء في الروايات الإمبريالية لا يتعدى عن كونه تتمة لأزواجهن. وقليلاً ما تتوافر أكثر من رواية قد يتعامل المؤرخون معها، فلم يكن هناك من طريقة للتفريق بين العام والخاص، وبين قصص وضعها رجال، وأُخرى سردتها نساء.

(1) ماري كورزون إلى أمها وأبيها، 1 ديسمبر 1903، المخطوطات الأوروبية ت 46/306. ورسالة إلى والدتها في 25 نوفمبر 1903، في جون برادلي (محرر). هند السيدة كورزون: رسائل زوجة نائب الملك، (لندن: وادنفيلد ونيكلسون، 1985)، ص 144.

Callan, Hilary and Shirley Ardener (eds), The Incorporated Wife, Beckenham: Croom Helm, 1984 (2)

وفي تأريخ العلاقات البريطانية السياسية المعتدلة مع الخليج، بقيت جولة كورزون مما يُشار إليه في سياق الحديث عن التوسع الإمبريالي، وبقي معجم لوريمير الجغرافي ورسائل كورزون الشخصية المصدرين الوحيدين للتوصيفات اللاحقة للأحداث[1]. احتفظت ماري كورزون بمذكراتها اليومية، وعلى الرغم من أن مؤرخي المنطقة لم يسترشدوا بها من قبل، إلا أن المذكرات قد ضمت قصصاً، أكدت مع بعض التغييرات المزعجة سير الآخرين عبر الخليج[2]. وفي معظم الأحيان، كان قد تم استثناء زوجة نائب الملكة، وهي من المفترض أن تكون أقوى امرأة في الإمبراطورية، أو أنها استثنت نفسها من المشاركة في المناسبات العامة. فعلى سبيل المثال، عندما اعتلى سلطان مسقط سطح السفينة، «استرقت ماري النظر إليه خلال أهداب الحمالات الذهبية لنائب الملك، ومن زاوية غير مرئية في الخلف»[3].

كانت معظم السرديات في يوميات ماري روايات منقولة أخبرها بها كورزون بنفسه، وضمنتها إشارات إلى أدق تفاصيل الدبلوماسية الإمبريالية، وكانت من حين إلى آخر تشير إلى غيابها مع التركيز على شخصيتها الرمزية. وأشارت أيضاً إلى أن سلطان مسقط قد ضمن خطبته -في اثناء مكوثهم هناك- إشارة إليها ووصفها باللؤلؤة. كما أجاب جورج «بكياسة مستعرضاً الحقيقة المهمة أن بريطانيا العظمى قصدت الحفاظ على وجودها الأسمى في هذه المناطق، بقصد حماية تجارتها ورعاياها الكُثر من الهنود، الذين يتاجرون في الخليج ومسقط»[4]. وفي سياق وصفها لحفل الاستقبال في الشارقة، جاء حديثها

(1) انظر على سبيل المثال: Zahlan, Rosemarie Said, The Origins of the United Arab Emirates: a Political and Social History of the Trucial States, London: Macmillan, 1978,p18; Busch, Briton Cooper, Britain and the Persian Gulf, 1894-1914, Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1967, p257-262.

(2) رسائل تذكارية من ماري كورزون إلى عائلتها، نوفمبر 1903، المخطوطات الأوروبية ت 43/306، ونشرت أيضاً «كيوميات ماري كورزون حول الخليج العربي» في Bradley, John (ed.), Lady Curzon's India: Letters of a Vicereine, p145-153

(3) المرجع السابق، 16 نوفمبر 1903.

(4) المرجع السابق، 19 نوفمبر 1903.

مطابقاً بشكل لا إرادي لحديث لوريمير إلى حد النقل:

هاج البحر ليلاً وارتفعت أمواجه عندما وصلنا إلى الشارقة، فقد خطط جورج لإقامة حفل استقبال للشيوخ العرب. جمع كيمبل جميع الشيوخ، وصعد الجميع إلى سطح سفينة صغيرة وقيل إنهم أصيبوا بدوار البحر. كان الكثير من مرافقينا يشعرون بالضعف، وعندما أدرك الجميع أن وصول القوارب إلى أرقونوت كان ضرباً من المستحيل، تقرّر تأجيل حفل الاستقبال حتى العصر آملين بأن يسكن البحر، وأن تتحسن حالة الشيوخ. تمكن عددٌ محدود من الرجال الشجعان من ركوب قواربهم وعباراتهم ومن الوصول إلى آرقونوت، لكن لم يكن بحسبان أي منا أن يصاب بدوار البحر وهو بكامل زيّه الرسمي. كانت مناظر الناس وهم يركبون القوارب، وقد أصابهم البلل حتى أخمص أقدامهم، مبهجة لنا إلى حد ما، وعندما دقت الساعة الثالثة والنصف ولما يكن البحر قد سكن بعد، قضيت أنا وموشيه [ملازمة ماري كورزون] وقتاً ممتعاً. ونحن نتتبع مظاهر البؤس على الطاقم في ثياب حمراء، وهم قابعين في أسفل سلم المرافقة، منتظرين اللحظة المناسبة ليقفزوا إلى العبارة المتأرجحة. استغرق الأمر 40 دقيقة لانطلاق أول مركب، وانطلقت صرخات تثير الشفقة، عندما غمرت الأمواج قدمي الكابتنين كُويلي وويغرام، وطارت قبعاتهما ذات الريش عندما قفزا في الهواء آملين أن يستقرا في العبارة. تأرجحت العبارات بحمولتها من الجنود ذوي الوجوه الخضراء فوق الأمواج، وفي لحظة، ظهرت بارجتان محملتان بالشيوخ. التقطت صوراً للبارجتين عندما مرتا بنا. كان جورج آخر مَن تحرك. كان زيه الرسمي الكامل بياقته الذهبية التي تحمل نجمة الهند يتناقض، وبشكل غريب، مع جهوده في الصعود إلى سطح العبارة المتأرجحة. ولحسن الحظ، لم يكن هناك من منغصات سوى سقوط أحد مرافقي الشيخ في البحر. بدت الآرقنوت ثابتة إلى حد ما. ألقى جورج خطبته على الشيوخ، الذين كان أحدهم يبدو مريضاً. سيبقى حفل الشارقة فريداً لكثرة الشيوخ المتواجدين فيه، ولهيجان البحر وكثرة أفراد الطاقم ذوي الوجوه الخضراء[1].

(1) Bradley, John (ed.), Lady Curzon's India: Letters of a Vicereine, p145-153. 19 نوفمبر 1903.

تورد سجلات المفكرات في البحرين حدوث مشاكل مشابهة في الرسو على الشاطئ، وذلك عندما ضربت عبَّارة جورج الحاجز، مما اضطر مرافقوه إلى أن ينزلوا إلى الماء، وأن ينتقلوا إلى شاطئ الأمان راكبين الحمير. تعرَّضَ الكثير من أفراد الطاقم خلال هذه العملية إلى السقوط في الماء. واستغرقت عملية الوصول إلى الشاطئ وقتاً أطول من المتوقع، حتى إنهم لم يتمكنوا من استكشاف سوى مناطق محدودة من «الإمارة»[1]. وآخر ما وصفته ماري في مذكراتها كان ذلك الوصف المرح لاستعراض ركوب الجمال في الكويت. فلقد قلل ذلك الوصف من شأن كتابات لوريمر، ووضع من كرامة البريطانيين بشكل كبير. قاد الوزير البريطاني في طهران –السيد آرثر هاردينج– الذي كان حاضراً الحفل «جملاً رمادي اللون، به قرصات من البراغيث. كان الحبل يلتف حول أنف الجمل. وكاد الوزير أن يلقى حتفه عندما أطلق أحد العرب بندقيته في وجهه. رأى جورج طماقة رِجْلِ الوزير تختفي بين جمهور الناس حوله». وكان من ضمن الموجودين في الحفل أيضاً لويس دان –وزير خارجية حكومة الهند– الذي كان «بزيه الرسمي يحاول بلا جدوى جر مُهره بحبل حول عنقه، وفي هذه الأثناء حاول جملٌ ضخم يركبه بدوي يطلق الرصاص ويتدرع سلاسل من الذخيرة، أن يعضه في رأسه»، قال نائب الملك لزوجته إنه:

لم ير في تجارب حياته المضحكة ما يضاهي هذه الفوضى، التي امتدت على طول ميلين عبر الصحراء والسوق، حتى وصلنا إلى بيت الشيخ بمعجزة دون حوادث، لكن ما إن غادر جورج العربة حتى بدأت الخيول بالهيجان ورفست العربة إلى شظايا.

عاد الجمع «مفتونين بمغامراتهم» وضحكوا بقية اليوم على رواية كل منهم لمغامراته مع «حصان، أو جمل أو حتى وهو ماشٍ»[2].

حملت هذه الروايات الخاصة لما كان مفترضاً ان يكون حدثا سامياً ومهيبا، معنى الخيانة العظمى، ولقد أطلق هذا الحكم من لدن شخص غريب، أمريكي

(1) المرجع السابق، 26 نوفمبر 1903.

(2) Bradley, John (ed.), Lady Curzon's India: Letters of a Vicereine, p145-153. 29 نوفمبر 1903.

تحديداً. فكثيراً ما وصفت ماري كورزون في سردها للأحداث الوجهاء العرب والبريطانيين بالظرفاء، وفي الوقت نفسه، كان حديثها عن نائب الملك في تلك السرود التي ترتكز على رؤية كورزون ذاته للأحداث، يفتقد للكثير من الزهو، الذي كانت القصص الرسميّة تعج به(1).

أشارت اليوميات في غير مكان إلى طبيعة العلاقة بين جورج كورزون وزوجته، التي يمكن وصفها أنها أقل تكلفاً مما توقعه الآخرون، فلم تتعد كونها علاقة بين أفراد اعتياديين كباقي الناس لا بين رموز إمبريالية. والأهم من ذلك، كشفت اليوميات النقاب عن ماري كورزون كشخص تمكن من الاحتفاظ ببعض الخصوصية، والحيوية خارج نطاق الواجب، وأطر السلبية المتوّجة لِعَلَم من أعلام الإمبريالية. لكن هذا لا يعني أنَّ جورج، أو ماري قد نظرا إلى الإمبراطورية كلعبة مبهجة، بل لم يراودهما الشك ولو لحظة بأحقيتهما في الحكم. فعندما كانا يريدان أن يتندرا على نفسيهما، كان ذلك يقتصر على نطاق لفيف ضيق من الأهل والمجموعة الاجتماعية. كان كورزون ذا إيمان عميق بفوائد الحكم البريطاني الإمبريالي ومسؤولياته. ولم تقم يوميات ماري كورزون بالتقليل من مسلمات جورج، أو التملص من التزامها ووقوفها إلى جانبه زوجاً ونائباً للملك. لعبت ماري دورها بإتقان جلي للعيان، لكن اليوميات لم تتوان بشكل مفزع، عن إظهار الخيط الرفيع بين العظمة، وادعائها، وبين العام والخاص والمدى،الذي ذهب إليه المشروع الإمبريالي في الاعتماد على السرديات الرسمية المكتوبة للأطباء والصحفيين المترحلين(2).

عادت ماري كورزون بعد جولة الخليج إلى إنجلترا؛ لإنجاب ابنتها ألكسندرا في شهر مارس عام 1904، وخلال الفترة اللاحقة للولادة، تدهورت صحة ماري بشكل كبير

(1) كتب كورزون بنفسه بعد مضي عقد من الزمن سرداً مضحكاً لدخوله الكويت في كتابه.

.Tales of Travel, London: Hodder and Stoughton, 1923, chapter 7, pp 247-250

(2) وإلى جانب جَ.ج. لوريمر، رافق نائب الملك وزوجته في جولتهم الخليجية مراسل خاص من جريدة التايمز اللندنية، يدعى فالنتين شيرول،الذي كان يدّعي في الحفلة أنّه صديق كورزون، لكنه كان أيضاً أحد أكثر الصحفيين البريطانيين تأثيراً وخبرة وكان ذا باع واسع في شؤون الشرق الأوسط وآسيا.

وعانت من إنزال لحملها تبعه التهاب في الغشاء المستبطن. وفي ربيع عام 1905 استردت ماري بعض عافيتها مكنتها من السفر إلى الهند؛ لقضاء الفترة المتبقية لزوجها نائباً للملك، التي كانت تمتاز بكونها متأججة[1]. توفيت ماري في الثامن عشر من يوليو عام 1906 عن عمر يناهز 36 عاماً جراء سكتة قلبية ناجمةٍ عن أنفلونزا، وكان ذلك بعد عودتها هي وزوجها بشكل نهائي إلى إنجلترا، وبعد هجران زوجها المؤقت لمسالك الحياة السياسية الوعرة. كانت حياة ماري كورزون هامشية إذا ما قورنت بقصص النساء الغربيات في المنطقة؛ لأنها زارت الخليج لفترة وجيزة، ولأنها بقيت صامتة معظم الوقت. كان من الصعب علينا، ولكونها أمريكية، عدَّها أفضل ممثل لزوجات الموظفين البريطانيين الكبار. فلقد فرض عليها زواجها أن تتقمص أبرز هويّة إمبريالية، وعلى الرغم من أن ثراء عائلتها قد مهّد لها الطريق للانخراط بشكل نسبي في الطبقة البريطانية الحاكمة، إلا أنها بقيت إلى حد ما دخيلة على المجتمع. تعلمت ماري دورها وأدته بكل ما أوتيت من كياسة وكرامة، لكنها في الوقت نفسه بقيت صورة أنثويةً مستغلةً، وأمريكية بامتياز، قامت بتوثيق المشهد من وجهة نظر استعماري سابق ووطني مستقل. كان جلياً أن تجسيد المرأة للإمبراطورية، وحياة ماري كورزون في الهند، وتصوير ماري لحياتها وتصوير الآخرين لها، يكشف النقاب عن المفارقات والمخاطر التي قد تحدث جرّاء قراءة تقليدية للأنثى الإمبريالية، لكن كونها المرأة الأولى في الإمبراطورية، حددت وبشكل واضح الأُطر المنهجية لزوجات الطبقة الراقية في الإدارة الإمبريالية في الهند والخارج.

لقد كانت زيارة نائب الملك وزوجته للخليج الأولى التي يقوم بها نائب الملك للمنطقة، وكان الهدف منها ترسيخ القبول العالمي بمكانة بريطانيا المميزة في المنطقة. ختم جورج لوريمير بقوله إن الجولة البحرية التي قام بها اللورد كورزون في عام 1902، ستبقى عالقة في الأذهان، إذ كان القصد منها إشهاد الناس على سيطرة بريطانيا السياسية، والتجارية المطلقة في مياه الخليج العربي وبهذا [كانت الجولة] «شاهداً حياً على قوة

(1) ولمزيد من المعلومات حول المناحرات السياسية التي أحاطت بكورزون خلال سنته الأخيرة في الهند. انظر Gilmour, David, Curzon, chaps 1&2

بريطانيا وبسطها سيطرتها»[1].

لم يكن كورزون بسياسته في المنطقة لينجو -بلا منتقدين- من الحكومة البريطانية، حتى إن زيارته للمنطقة لاقت اعتراضاً من الحكومة، مما اضطره للتقدم بمشروع الرحلة ومسوغاتها مرتين قبل الحصول على الموافقة[2]. وعلى الرغم من هذا، كانت خطبه ومنهاج سفره تجسيداً حياً للثقة البريطانية في مشروعها الإمبريالي المتعدد الوجوه.

كانت الجولة بترفها وغطرستها، إلى جانب الزيارات المنسقة لكل شيخ، جزءاً لا يتجزأ من عملية سعت حكومة الهند فيها إلى تكوين انطباع محلي، وعالمي بمشاركة الخليج العربي في العالم الإمبريالي البريطاني. وتُوجت تلك المشاركة بالأوسمة والمكافآت، وتعززت بالتهديد والانعزال عن العالم في حال عدم التعاون. لقد أكدت خطب كورزون فضلا عن حاشيته العريضة من السفن الحربية وضباط البحرية، وإصراره المتعمد على إشراك الشيوخ في حفلات الإمبراطورية وطقوسها، أن منطقة الخليج جزء لا يتجزأ من الإمبراطورية الهندية. فضلا عن ذلك، كانت الاحتفالات الرسمية تتم وفق أعرافٍ راسخة ترتبط بتجوال نائب الملك وصحبه من العائلة المالكة، وحفلات الاستقبال المقامة لهم في أرجاء الهند، التي أخذ استخدامها يزداد منذ ثورة عام 1857؛ وذلك بقصد تثبيت التاج البريطاني مركزا للسلطة و«لصقل» الأمراء الهنود والوجهاء المحليين في الإدارة البريطانية[3]. أثبت

(1) لوريمر، معجم الخليج العربي وعُمان ووسط الجزيرة العربية، ص 2626-2662.

(2) Gilmour, David, Curzon, p268; Busch, Briton Cooper, Britain and the Persian Gulf, pp257-262

خلال عامي 1902 و1903. أصبح هناك جدل عام مطول حول سياسة الخليج، وتتضمن أوراق كورزون الشخصية العديد من المقتطفات الصحفية حول الموضوع. على سبيل المثال: المخطوطات الأوروبية ت 351/111.

(3) Cohn, Bernard s., <Representing authority in Victorian India>,p 176.

شكل البريطانيون في هذه التجمعات باضطراد الصور الخارجية للترتيب الإمبريالي عبر ألفاظ الخطاب المقيدة، وجداول الأسبقيات، وتحية السلاح، والملابس الرسميّة، والخطب والعروض العسكرية، وكانت كلها تعتمد على الترتيب الإمبريالي. وفي الخليج العربي، تم إيجاد نظام من ألفاظ الخطاب المستخدمة في المراسلات الشفهية والمكتوبة مع الشيوخ، حكام المناطق على اختلافهم. وتم تعديل هذا النظام بانتظام، تمت صياغته ليعكس المكانة التي منحتها بريطانيا لكل شيخ. واشتملت قوائم الخطاب هذه على حجم التحية العسكرية عبر إطلاق العيارات النارية المناسبة لكل شيخ، وشكل التحية العربية المستخدمة في المراسلة مع كل حاكم. انظر على سبيل المثال سجلات وزارة الهند: أر/15/1/237. لم تقتصر تلك الطقوس على الإمبراطورية الهندية. ولمعرفة السبل التي انتقل عبرها «مسرح الإمبراطورية»

دور ماري كورزون «كنائبة للملك»، وهو أرقى منصب إمبريالي رسمي يمكن أن تحتله امرأة، انخراط النساء في التراتبية الإمبريالية، لكن ذلك قد حدد في الوقت نفسه مكانتهن العامة.

يمكن عدّ جولة الخليج مبادرة سياسية جادة هدفها تقوية مكانة بريطانيا الرفيعة في المنطقة، وتعكس طبيعة الوجود البريطاني الراسخ فيها. وعندما تحدث نائب الملك إلى الحكام المحليين في الشارقة، مقررا أن البريطانيين قد «قدموا إلى هذه المنطقة قبل أي دولة أخرى في العصر الحديث». لم يكن يتحدث عن تأريخ مبتدع حديث العهد، وباستعماله لكلمة «دولة» كان كورزون يتحدث عن «قوة أوروبية»، متناسيا النشاط الاقتصادي البرتغالي والهولندي المبكر في المنطقة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ... وعلى أية حال، أصاب كورزون كَبِد الحقيقة عندما تحدث عن التأريخ الطويل للتدخل البريطاني، وعلو كعبه في المنطقة. وبدت قصة هذا التدخل مفتاحاً رئيسياً في فهم مكانة البريطانيين ووجهة نظرهم حيال الخليج في نهاية القرن. وإذا استثنينا ظهور ماري كورزون زوجة نائب الملك عام 1903، يمكن القول إن الوجود البريطاني كان مقتصراً إلى حد ما على الرجل.

كان أول وصول للإنجليز في الخليج وشبه الجزيرة العربية، في بدايات القرن السابع عشر، عندما قررت شركة الهند الشرقية البحث عن أسواق جديدة، وفتح مكاتب (كانت تعرف بالمصانع) في (موخا) على البحر الأحمر عام 1618، وبندر عباس على الساحل العربي الجنوبي من الخليج عام 1623، وفي البصرة عام 1635. وبحلول نهاية القرن الثامن عشر، اكتسب النشاط الاقتصادي البريطاني في شبه الجزيرة العربية بعداً سياسيا. ومع رسوخ الإمبراطورية الهندية، أصبح البريطانيون أقل اهتماماً بمتابعة نشاطهم التجاري المحلي، وزاد اهتمامهم بالمكانة الاستراتيجية للخليج، الذي غدا أحد الطرق الرئيسية المؤدية إلى الهند. أصبحت المكاتب والارتباطات التي أنشأتها شركة الهند الشرقية في

=إلى نيجيريا الاستعمارية، انظر Callaway, Helen, Gender, Culture and Empire: European Women in Colonial Nigeria, London: Macmillan,1987.

الأصل لأغراض تجارية، ذات طابع سياسي ودبلوماسي يصب في صون ثروات بريطانيا في شبه القارة. كما استمر هذا الارتباط الإمبريالي حتى استقلال الهند عام 1947، وبدا أنَّ له تأثيرا مشهوداً في تحديد مواقف الرجال والنساء ومنطلقاتهم ووجهات نظرهم على حد سواء. أولئك الرجال والنسوة، الذين مروا بالخليج العربي أو عاشوا وعملوا فيه. حافظت بريطانيا حتى نشوب الحرب العالمية الأولى على وجودها المسيطر في الخليج عبر ثنائية القوة البحرية، والاتفاقيات مع الولايات البحرية كالبحرين ومسقط. ولم يكن هناك من يرى بضرورة استعمار الجزء الداخلي من جزيرة العرب، وذلك لكونها منطقة قاحلة اقتصادياً، فالمهم هنا هو السيطرة على مياه الخليج لضمان سلامة السفن البريطانية. ورغم هذا، وبقصد إحكام قبضتهم على الخليج، أنشأ البريطانيون شبكة من «المُقيميات» و«الوكالات» في جميع أرجاء الخليج العربي، التي بدأت في منتصف القرن الثامن عشر بمكتب بسيط في بوشهر، والمعروفة لدى البريطانيين بوشاير، على الساحل العربي، فلقد عينوا موظفاً يدعى بالمقيم؛ وذلك للإشراف على المصالح البريطانية، وإنشاء علاقات دبلوماسية مع مختلف القوى في المنطقة[1].

وفي جنوب العراق التي كانت تسمى بجزيرة العرب التركية، تم تطوير المصنع، الذي أنشأته شركة الهند الشرقية في البصرة إلى وكالة سياسية. وخلال الفترة الواقعة بين 1800–1904، تم إرسال موظفين بريطانيين إلى مسقط والبحرين والكويت والشارقة، وكانوا في كثير من الأحيان، هم الأوروبيون الوحيدون في منطقتهم، ويعملون بمساعدة القليل من المترجمين العرب، والكثير من المترجمين الهنود إلى جانب طاقم إداري. وكانت تدعمهم من حين إلى آخر، زيارات منظمة من دوريات خفر السواحل الهندية البريطانية. وتمت إقامة محطة تزود بالوقود لسفن الشحن في عدن جنوبي اليمن عام 1839.

تعزز الوجود الإنجليزي في الخليج، وتوثقت العلاقات البريطانية مع شيوخ الإمارات

(1) أسست «مقيمية الخليج العربي» في بوشهر. (كانت على الدوام تكتب في الأراشيف البريطانية بوشهر) عام 1763. وبقيت قائمة هناك حتى 1948. عندما تم نقلها إلى البحرين، وللمزيد من المعلومات حول الإدارة الإمبريالية البريطانية في الخليج، انظر Tuson, Penelope, The Records of the British Residency and Agencies in Persian Gulf, London: Foreign and Commonwealth Office, 1979.

الخليجية العربية، بإبرام سلسلة من الاتفاقيات الذكية، التي عرضت على الحكام حماية بريطانيا لهم من هجمات نظرائهم المحليين، على أن يقبلوا بالسيطرة الإنجليزية كقوة دولية وحيدة في المنطقة[1]. حافظ الشيوخ نظرياً على استقلالهم ورفضت بريطانيا عملياً التدخل في شؤون الخليج الداخلية، لكن عندما كان يرى البريطانيون إخلال بعض الشيوخ بتعهداتهم، كانت الفرقاطات البريطانية تقصف قراهم ومدنهم ليتم إخضاعهم. كانت البحرية الهندية البريطانية صاحبة السلطة الوحيدة في الإشراف على الشحن الداخلي. وكثيرا ما عُدّت المحاولات الفردية لبعض شيوخ الإمارات الساحلية لإثبات وجودهم كقوة بحرية أعمال قرصنة، خاصة إذا اعتدي خلالها على سفن بريطانية. فعبر ما يزيد عن نصف قرن امتد من عام 1800 إلى عام 1853، وصفت بريطانيا شعب إمارات الخليج السفلية «بالقراصنة»، وكانت المنطقة المقصودة تلك التي تشمل الآن معظم دولة الإمارات العربية المتحدة، وسميت بـ «ساحل القرصان» ثم تغيّر اسمها في بدايات القرن العشرين، عقب توقيع معاهدات هدنة مع الشيوخ عام 1953 إلى «الساحل المتصالح»، وهو اسم ذو مغزى استعماري بقي مستعملاً حتى إنسحاب بريطانيا النهائي من منطقة الخليج عام 1971[2].

وبحلول عام 1903، وهو العام الذي بدأت به عائلة كورزون جولتها في الخليج، أصبحت إمارات الخليج العربي الصغيرة تخضع –وبدرجات متفاوتة– للحماية البريطانية، وتم تعيين ممثل للحكومة البريطانية أو الهندية في كل منها؛ ليقدّم إليهم النصح ويحافظ

(1) ارتكزت العلاقات الدبلوماسية البريطانية مع دول الخليج على معاهدات 1820 المبدئية والعامة ومعاهدات 1853 للسلام البحري الدائم. وبين عامي 1892–1899 تم توقيع «اتفاقيات فردية» مع كلٍ من البحرين والكويت وأبو ظبي والشارقة ودبي والإمارات الصغيرة [الأخرى] فيما يسمى الآن بالإمارات العربية المتحدة، والتزم الحكام من خلالها بألا يدخلوا في أية اتفاقيات مع أي قوة خارجية، وألا يقبلوا دخول وكلاء القوى الأجنبية الأخرى إلى مناطقهم، وألا يتنازلوا أو يبيعوا أو يرهنوا أي جزء من أراضيهم لأية قوة أجنبية، إلا بعد الحصول على الموافقة البريطانية. Tuson, P. and E. Quick , Arabian Treaties, 1600-1060, 4 vols, Farnham Common: Archive Editions, 1992.

(2) لم يكن هناك من مشكلٍ بفكرة القرصنة على نطاقها الواسع حتى أواخر القرن العشرين عندما تناولها الشيخ محمد القاسمي في كتابه Al – Qasimi, Muhammad, The Myth of Arab Piracy in the Gulf, London: Croom Helm, 1986. انظر الرؤيا الأحدث للأحداث وتواردها التاريخي في Davies, Charles L., The Blood-Red Flag: an Investigation into Qasimi Piracy, 1797-1820, Exeter: University of Exeter Press, 1997.

على المصالح البريطانية أو البريطانية الهندية السياسية والتجارية والاقتصادية. وعلى الرغم من كل هذا، اعتقد كورزون ومؤيدوه في وزارة الخارجية، ووزارة الهند أنهم بحاجة إلى معرفة أفضل بالمنطقة، وخاصة خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، وهي الفترة التي امتازت بارتفاع حدة التوتر بين دول العالم. كان ينظر إلى مشروع غوردن لوريمر بإنشاء معجم جغرافي يوفر للموظفين «مرجعية مناسبة وسهلة للأماكن المهمة»، بوصفة ركيزة أساسية لتقوية النفوذ الإنجليزي في المنطقة[1]. ويمكن القول إن للمعجم دورا سياسيا مفيدا يشابه ذلك الدور، الذي لعبته الأجواء الاحتفالية الفخمة لجولة نائب الملك في المنطقة، على أن فكرة هذا المعجم ليست من ابتداع لوريمر، بل إن الفكرة قد نشأت وتطورت في الهند حين كان الحكام البريطانيون طوال قرن مضى، يطبّقون وبوعي تام الاعتقاد القائل أن «المعرفة قوة» في إداراتهم ذات التعقيد المتزايد[2]. ويمكن ضم المعلومات التي جمعها لوريمر، ومساعدوه حول الخليج إلى جملة المعرفة الأوروبية المكتسبة، على مدى ثلاثة قرون من سفرهم في جزيرة العرب، ودراستهم الأدبية لها. قدم لوريمر في 35 صفحة في أحد ملاحقه في المعجم قائمة بالأعمال المطبوعة، بما فيها كتابات متعلقة بالسفر وكتابات تاريخية، بالإضافة إلى دراسات حكومية غير مطبوعة تتعلق بشبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج، قد تكون برأي لوريمر ذات فائدة للموظفين اللاحقين[3].

يُعدّ تأريخ العلاقات البريطانية مع الخليج، وما يتعلق به من معانٍ أدبية أو علمية أو استشراقية ذا مكانة مميزة، وذلك لتفرد الرجل بصياغته. وإذا استثنينا حالة أو حالتين، فلم يكن للمرأة وجود قبل القرن العشرين في أي من المصادر الرئيسية، أو الوثائق التي

(1) حكومة الهند إلى وزارة الدولة لشؤون الهند، 30 يونيو 1904، المحاضر (الخارجية) للدائرة الخارجية في حكومة الهند. سجلات وزارة الهند: ب 6868.

(2) Colonialism and its Forms of Knowledge: the British in India, Prinveton NJ: Princeton University Press, 1960, p56-61.

نُشر للمرة الأولى في دراسات سَبْألترن: كتابات حول تأريخ جنوب آسيا ومجتمعاتها. حرره راناجيت غوها. 4 (1985)، ص 276–329.

(3) لوريمر. دليل الخليج العربي وعُمان ووسط الجزيرة العربية. الجزء الأول، القسم الثاني، الملحق ر، ص 2701–2736.

رصدت قصة التجارة والسياسة الإمبرياليتين، أو دبلوماسية القوارب المسلحة، أو حتى في الجمعيات العلمية، أو الترحال والتعليم الاستشراقيين.

وقد يكون أشهر دور لعبته المرأة الغربية في قصة الإمبريالية هو ذلك الدور، الذي لعبته المستكشفة الإمبريالية الملمة باللغة العربية؛ الليدي آن بلنت حفيدة بايرون، التي وثقت رحلتها المشهورة من حلب إلى الخليج العربي مع زوجها ولفرد سكوان بلنت بين عامي 1878 و1879، في كتابها «الحج إلى نجد»، الذي نُشر عام 1881. تجولت عائلة بلنت بكثرة في الجزيرة العربية وكانت متعاطفة بشدة مع القوميّة العربية، وخاصة القومية المصرية. ويُعدّ كتاب بلنت الآخر «قبائل الفرات البدوية»، الذي نشر عام 1879، إضافة مميزة للمعرفة الغربية حول الجزيرة العربية[1]. أما ثاني هذه الاستثناءات فهو الدور الأقل شأناً، الذي لعبته مابل فرجينا بنت، التي أسهمت بشكل جلي في استكشاف الأوربيين للمنطقة في أواخر القرن التاسع عشر. تزوجت مابل وهي ابنة إقطاعي أيرلندي من المستكشف وعالم الآثار جامس ثيودر بنت عام 1877، ورافقته في العديد من الرحلات الاستكشافية في الخليج وشرق إفريقيا. قام الزوجان ببعض الحفريات في البحرين عام 1889، ثم انطلقا في تسعينات القرن التاسع عشر في رحلات ريادية إلى الداخل، انطلاقاً من مسقط نحو ظفار، ثم إلى جنوب الجزيرة العربية حيث حضرموت وجزيرة سومطرة. وبعد وفاة زوجها بسبب الملاريا عام 1897، شرعت مابل، وهي من التقط صور رحلاتهما، بجمع ملاحظات زوجها إلى مفكراتها الشخصية في كتاب نشر تحت اسم «جنوب الجزيرة العربية». اكتسب الكتاب في السنة الثالثة لنشره أهمية بالغة عندما أوصت دائرة الشؤون الخارجية في حكومة الهند الوكيل البريطاني في مسقط؛ بيرسي كوكس بقراءته قبل السفر إلى عُمان في مهمة خاصة لتقييم نفوذ السلطان على الأرض[2].

(1) Blunt, Lady Anne, Bedouin Tribes of the Euphrates, London: John Murray, 1879.
A Pilgrimage to Nejd, the Cradle of the Arab Race, 2 vols, London: John Murray, 1881.

(2) Bent, James Theodore and Mobel Virginia, Southern Arabia, London: Smith Elder & Co., 1900.
هـ. دالي الدائرة الخارجيّة، كالكتا إلى أرنولد كيمبل، المقيم السياسي 19 فبراير 1901، «هل اطلعت على كتاب جنوب جزيرة العرب: كتاب نُشر مؤخراً لأرملة ثيودوربنت؟ يحوي الكتاب كثيراً من المواضيع المتنوعة التي ربما يَودّ كوكس

وضعت آنا بلنت ومابل بنت بصمتهما على تأريخ الوجود البريطاني في شبه الجزيرة العربية عَبْر مغامراتهما. وبعيداً عن التراث الاستشراقي للترحال والأدب، كانت الصورة غير مكتملة. فقبل عام 1900 رافقت بعض النساء موظفين ذكورا إلى المنطقة، إلا أن قصصهن قد اختفت تماماً من التاريخ. فعلى سبيل المثال، وفي واحدة من أكثر الأحداث القرصانية إثارة للجدل، خطفت في ربيع عام 1809 زوجة الضابط الإنجليزي في بوشهر الملازم روبرت تايلور –الأرمنية الأصل– مع رضيعها خلال هجوم على قارب بريطاني يسمى «منيرفا». واستولى المهاجرون على المركب مع الناجين من ركابه وطاقمه. تضاربت الروايات البريطانية المعاصرة حول الحادث[1]. ورغم ذلك، تم إطلاق سراح معظم المسافرين على متن القارب. غير أنَّ هذه الروايات لم تتطرق بالذكر إلى مصير السيدة تايلور، ومصير امرأتين أخريين كانتا على متن القارب كما تروي القصة:

لا تعد شيئاً عند مقارنتها بمحنة السيدات الثلاث اللواتي كن على متن القارب، ووقعن فريسة سهلة بأيدي المهاجمين. تحتم علينا بشاعة الموضوع الإيجاز في تناوله[2].

وفي أكتوبر، تلقى القائم بالأعمال المقيم البريطاني في بوشهر وليم بروس رسالة من السيدة تايلور من البحرين، تخبره فيها أنها تعيش مع رجل عربي كان قد «اشتراها». وطلبت منه إيجاد طريقة لدفع فدية الألف دولار، التي طلبها خاطفها إلى البحرين. تلقى بروس رسالة من الرجل نفسه يقول فيها: «إنه قد اشترى السيدة تايلور رغبة منه في تخليصها من الوقوع في أيادي رجال آخرين قد لا يستغنون عنها أبداً». وأن السعر، اشتراها به إذا ما أضيف إلى النفقات اللاحقة يقدر بألف دولار أمريكي. وحال تلقيه تلك الرسائل، أخبر بروس حكومة بومباي أن «إنسانيته بالإضافة إلى حسه الوطني يمليان عليه القيام ببعض الخطوات؛ لتخليص تلك المرأة». وتمكن بصعوبة، وبعد دفع مبلغ من

= الاطلاع عليها» سجلات وزارة الهند: أر/28/6/15.

(1) انظر Al – Qasimi, Muhammad, The Myth of Arab Piracy in the Guf, p 93-94; Davies, Charles L., The Blood-Red Flag: an Investigation into Qasimi Piracy, 1797-1820, p 104-107.

(2) السجل الأسري السنوي، 1908، اقتبسها القاسمي في كتابه ص 97

المال لقبطان القارب، الذي قام بتسليم الرسائل، من إقناعه بتسليم الفدية بالإضافة إلى هدية بخسة للشخص، الذي كانت السيدة تايلور بحوزته، ولقد وصفته السيدة تايلور في كتاباتها بكونه لطيفاً معها بشكل يطابق التوقعات من رجل في مثل مكانته. غير أن حكومة بومباي لم تتأثر بأقوال بروس البتة، بل إنها أخبرت بروس بأن يدفع الفاتورة إلى الملازم تايلور، وأن يخبره بضرورة معاودة دفع المبلغ للحكومة(1).

قلّما تُذكر السيدة تايلور في الأراشيف؛ لأنها قد قُبض عليها خلال مناورة ساحلية، ولكونها قد أصبحت رهينة معاملة مالية نفذها الموظفون البريطانيون المحليون. وعلى الرغم من محنتها الشديدة، إلا أنه لم ينظر في أمرها كمسؤولية رسمية، أو حتى قضية مناسبة للإنفاق الحكومي.

وورد في الأراشيف ذكر امرأة أخرى ظهرت في المكان والزمان نفسيهما، الذي ظهرت فيه السيدة تايلور. كانت السيدة آن تومبسون، زوجة ضابط في الجيش هو الرائد اللامع توماس برونت تومبسون، الحاصل على الشهادة الجامعية الأولى في الرياضيات من جامعة كامبردج، وابن واعظ علماني مثدوستي. كان تومبسون خصما شديداً للعبودية. ولقد أصبح حاكماً لسيراليون عندما كان في الخامسة والعشرين من العمر. وفي عام 1819 التحق للخدمة بالخليج مع كتيبة التنانين السبعة عشر الخفيفة مترجماً لقائد حملة بريطانية، أرسلت لإخضاع «موانئ القراصنة» والتوصل إلى اتفاقيات معهم. ورافقته آن، التي هربت من بيت والدها لتتزوج من تومبسون رغم عدم موافقة والديها، إلى رأس الخيمة ولعبت دوراً مهماً في صياغة «الاتفاقية العامة» المهمة بين البريطانيين والشيوخ المحليين. وفي رسالة إلى عائلتها، وصفت آن «المنصب»،الذي احتله في الحملة:

اسمحوا لي أن أخبركم أنه كان سكرتيراً سياسياً، وكنت أعتقد أنه من الصعب على السكرتير العسكري أن يرتدي قبعة ذات ريشة ساكسونية، وأن يُنفق 400 روبية من أجل حذاء، بينما لا أتلقى أنا أي أجر، لكن هكذا نال كل شخص ما يستحقه، كانت جميع

(1) ويليم بروس، القائم بأعمال المقيم في بوشهر إلى حكومة بومباي، 17 أكتوبر 1809، استشارات بومباي، سجلات وزارة الهند أر/11/383. استشارة 6 ديسمبر 1809.

نسخ الاتفاقية المؤرخة المختومة، التي تم توزيعها على مختلف رؤساء القبائل قد خُطّت بيدي[1].

كان عدد النساء اللواتي رافقن أزواجهن أو آبائهن أو أخواتهن إلى منطقة الخليج قبل نهاية القرن التاسع عشر قليلا جداً، غير أن الأراشيف لم تأت على ذكر أي منهن، إلا إذا كُنَّ قد تسببن بمشكلة للسلطات، وتم تجاهل أولئك النسوة من مثل آن تومبسون اللواتي كان لهّن دور مميز في الإدارة والدبلوماسية البريطانيتين. ولهذا يمكن عدّ قدوم ماري كورزون إشارة على ولوج المرأة الرسمي في قصة التدخل الإنجليزي في منطقة الخليج في القرن العشرين. فعندما أبحرت مع زوجها في منطقة الخليج في نوفمبر من عام 1903، كانت على وشك الوصول إلى منطقة نظر إليها على أنها غير ملائمة، بل إن المصالح الإنجليزية كانت تنحصر بأيدي موظفين ذكور عُزاب، أو لا يرافقهم شريك، في أماكن عرّفت «بالقاسية». فعلى سبيل المثال، كان الطقس السيء أحد أقوى الأسباب الرادعة للرجال لا النساء فحسب، وكان الخوف منه يستند إلى تأريخ حقيقي من المرض، والموت المبكر بين الموظفين السياسيين البريطانيين المتمركزين بالخليج. وفي عام 1890، وصفت قيادة الأركان البحريّة الوضع كونه واحداً من أكثر الظروف سوءاً:

فاقمت رطوبة الجو والغبار المتطاير من كل صوب من حدة حرارة الصيف ... أما في الشتاء فكانت الرياح باردة وقارسة .. وانتشرت حالات الحمى في الطقس البارد بصورة قوية، كانت حمى الخليج ذات النوع المتقطع خطيرة جداً، ولا يتم الشفاء منها إلا بمغادرة المكان[2].

وفي مثل هذه الظروف القاسية، طلب من الموظفين أن يكونوا ذوي قوة جسدية إلى جانب دربتهم السياسية. وبحلول عام 1903، ترسّخ عرفٌ عن وجود مجموعةٍ متميزة تضم أُناسا ذوي مواهب استثنائية. كان الموظفون الذكور في الخليج، يقدمون تقاريرهم

(1) رسالة آن تومبسون إلى عائلتها. أوراق تومبسون محفوظة في جامعة هَلْ، مكتبة برينمور جونز.

(2) قبطان الخليج العربي، (مقر الإدميرالية، مكتب الرسوم البحرية، 1890). تم إعادة نشرها في التقرير الميداني للبعثة التبشيرية العربية رقم 25، يناير/مارس 1898.

إلى نائب الملك والحكومة البريطانية في الهند. وكان هؤلاء أعضاء في السلك الدبلوماسي، أو العسكري في الهند، وكانوا يتلقون تدريبهم عادة في شبه القارة الهندية. كان هؤلاء، بما يتمتعون به من قدرات لغوية فذّة وتحصيل علمي، إضافة إلى الذاكرة الجمعية كحكام إمبرياليين لثلاثمائة سنة، مؤمنين بدورهم وقدراتهم في نقل مهارات الدبلوماسية الأوروبية الحديثة إلى المنطقة. وعادةً ما كان يتم وصف الرجال «بالرجال المختارين أو صفوة الصفوة». وجزءٍ لا يتجزأ من خدمة حملت معها ملامح وظيفة «لا تقل متعة عن أية وظيفة أخرى قد يقدمها العالم» على حد قول كورزون. وفي خطاب ألقاه كورزون في سبتمبر عام 1905، عَرّف فيه الضابط السياسي المثالي، فقال:[1]

السياسي الجيد هو الضابط، الذي يَصْعبُ تدريبه، وفي الحقيقة لا يمكن أن يكون نتاج تدريب، فهناك ميزات مطلوبة لا يمكن اكتسابها بل هي تنبع من الطبع كاللباقة، والمرونة، والنسيج الأخلاقي، والهيئة الرفيعة التي لا تليق إلا بكرام الناس. قد لا يدرك العامة إطلاقاً ما هو مطلوب من السياسي. ففي لحظة من اللحظات قد تجده في وزارة الخارجية يحوك مؤامرة ما، وفي لحظة أخرى قد يُطلب منه أن يضيّق الخناق على إدارة إمارة محلية قصية، وفي لحظة ثالثة قد يوكلُ إليه الإشراف على مجموعة من رجال القبائل غير المنضبطين، وفي أحيان أخرى، قد يشارك في رسم حدود في غياهب التبت، أو حتى في رمال سستان. فليس هناك من خدمة متنوعة أو أكثر مسؤولية في العالم من تلك التي تؤديها الدائرة السياسية لحكومة الهند. أزكي هذه الدائرة لكل من يريد أن يعلم طبيعة العمل الرائع المتنوع، الذي يستطيع الإنجليزي القيام به[2].

كان الموظفون في الخليج بمنأى عن البيروقراطية القاتلة، التي كانت تطبع حكومة الهند المركزية، والحكومات المحلية في دلهي وكلكتا أو بومباي بطابعها، لهذا كانوا قادرين

(1) فيليب وودرَف (اسم مستعار)، الرجال الذين حكموا الهند: الحماة (لندن: جونثون كاب، 1954)، ص 270. اقتبسها سعيد زحلان في « أصول الإمارات العربية المتحدة». ص 231. كان وودرف موظفاً في الخدمة المدنية الهندية لعدة سنوات. وتم نشر» الرجال، الذين حكموا الهند» بنسخة محكمة عليها اسمه الحقيقي. Mason, Philip, The Men who Ruled India, London: Guild Publishing, 1985.

(2) خطاباً للورد كورزون، سيملا، 30 ديسمبر 1905 سجلات وزارة الهند: أر/51/2/15.

على ممارسة سلطة شخصية لم تتح لغيرهم، وكانوا يتمتعون في وضع سياسات خلاّقة، وهذه امتيازات لم تتح لهم في مناصب سابقة. فعلى سبيل المثال، عندما وصل دافيد وإميلي لوريمير إلى البحرين عام 1911، بعد تعيين لوك في منصب وكيل سياسي، اعتقدت إميلي أنَّ والديها قد يراودهما تساؤل حول مهامه وما سيقوم به؟ فكتبت قائلة إن الإجابة على كلا السؤالين «ما زالت غامضة» علماً «أن دورها ما زال أكثر غموضاً من دور لوك»، على أنَّ «أول مهمة وأبرزها» هي حماية التجارة والسفن البريطانية، لكن يبدو أن البريطانيين قد «تبنوا تدريجياً وضمنياً مبدأ الحماية»، على الرغم من أنها لم تكن متأكدة إنْ كانت هذه «الحماية مقنعة»[1]. وعلى أية حال، فإن البريطانيين لم يشتركوا في نشاطات سياسية أو دبلوماسية فحسب، بل أقحموا أنفسهم في تحقيق العدالة للعديد من الفرس، والهنود، والعرب، الذين استقطبتهم صناعة الصيد والبحث عن اللؤلؤ، وهي الصناعات التي اقتضت كثيراً من التقاضي. وتضمنت في كثير من الأحوال مبالغ طائلة. واصلت إميلي سردها حول محاكم البحرين مستخدمة بشكل ممتع، الضمير الشخصي «نحن»، موهمة الجميع بتدخلها المباشر في الإدارة الإمبريالية:

أرجعنا الكثير من القضايا إلى الشيوخ المحليين؛ لأن بعضها كانت حول نزاعات مدنية وبعضها الآخر حول نزاعات دينية (أرسلنا عددا من موظفينا ليحضر ويستمع للدلائل، وليشهد وجود النظام والعدل). وبعد أن يرسل الشيخ أحكامه، كان العميل السياسي يصدر حكمه، الذي قد يكون موافقاً لأحكام قديمة أو جديدة لم يصدر مثلها من قبل، أو حتى بإمكانية الاستئناف، لقد كان له كامل الحرية في إحقاق العدل ميالا للرحمة.

فضلا عن ذلك، أخبر الرائد ستيورات جورج نوكس، الذي كان يشغل المنصب ذاته

---

(1) اعترفت حكومة الهند عام 1898 أنها «لديها سياسيا ما يمكن تسميته نظرياً «بالمحمية»، لكن عندما اقترح المقيم السياسي بيرسي كوكس عام 1905، أن يجعل الموقف رسميا، جاء رد الحكومة إنَّ أيّة خطة مماثلة ستكون «مخزية»، وغريبة على السياسة البريطانية في الخليج. إن كورزون نفسه كان يعتقد أنّه يجب ألا يكون هناك محمية رسميّة، بل زيادة ثابتة غير متقطعة «في السلطة». Busch, Briton Cooper, Britain and the Persian Gulf, 1894-1914 pp 139,146-152

قبل لوريمير، دايفيد لوريمير وأخاه أن المنصب «كان واحداً من أكثر المناصب مسؤولية، وأهمية في الخدمة السياسية»[1]. كما أخبرت إيميلي أختها إيديث أنه من الأهمية بمكان عدم تعيين من ليس لديهم ممارسة في الخليج؛ لأن الوضع فيه يختلف عن الوضع في الهند. ففي الهند كان هناك دائماً المسؤول الأعلى»، «الذي قد يأخذ على عاتقه تصويب الأوضاع»، ولم تكن «هناك قضايا عالمية ذات أهمية»، أما في الخليج فيطفو على السطح الكثير من القضايا، ويمتلك كل مسؤول هناك صلاحيات واسعة جداً، وتقع على عاتقه الكثير من المهمات». بثت إيميلي لوالديها لاحقا ما يدل على سعادتها بعدم إرسالهم للهند. «وكما قال يوليس قيصرإلى مستمعه: أُفضِّل أن أكون الأول في قرية آيبيرية صغيرة على أن أكون الثاني في روما»[2]. وعلى مدى خمسين عاماً لاحقة، كان الموظفون في الخليج، ينظرون إلى أنفسهم بشكل مضطرد على أنهم النخبة، وأصحاب الإختصاص، وعلى الرغم من ارتباطهم الوثيق بالهند، إلا أنهم كانوا جزءاً من خدمة أجنبية متميزة خاصة بهم[3].

وعلى الرغم من تحرر الموظفين في الخليج من بعض القيود البيروقراطية التي طالما قيدت زملاءهم في الهند، إلا أنهم كانوا ملزمين بتحمل ظروف عيش، وعمل تختلفان اختلافاً واضحاً عن ظروف حياة المغتربين الاجتماعية، والمنزلية المريحة في مختلف أجزاء شبه القارة (الهندية). عُيّن الرائد س. ج. نوكس قبل انتقاله إلى البحرين أول وكيل سياسي في الكويت عام 1904، معبّراً عن تذمره من البيت، الذي اختاره له الحاكم بقوله «لم يكن مناسباً لأن يقطن فيه شخص أوروبي»، فضلا عن ذلك، لم تكن رواتبه المالية تكفي؛ لأنه اضطرإلى أن يرسل زوجته إلى إنجلترا، وبهذا «أصبح ملزماً بالإنفاق على بيتين أحدهما

(1) إيميلي لورمير إلى والدها ووالدتها، 13 مارس، 1911، المخطوطات الأوروبية ف 5/177.

(2) إيميلي لورمير إلى أختها إيديث (نهاية مارس 1911). المخطوطات الأوروبية ف 5/177، وإلى والدها ووالدتها 19 يونيو 1913 المخطوطات الأوروبية ف 10/177.

(3) Rich, Paul, The Invasions of the Gulf: Radicalism, Ritualism and the Shaikbs, Cambridge: Allborough Press, 1991, p 14. اقتبس ريج من مقابلة مع أرنولد غالوواي، الوكيل السياسي في البحرين من عام 1945 إلى 1947، وبها أخبره غالوواي قائلا «نعم، كانوا ينظرون إليّ كمتخصص في شؤون الخليج .. بالطبع قد يعد بعضنا أنفسهم متخصصين في شؤون الخليج».

في إنجلترا لفترة من الزمن[1]. وعند تأسيس الوكالة في البحرين عام 1904، حَرّر العميل السياسي آنذاك «مذكرة تعليمات» لكي يسترشد بها الموظفون المعينون في البحرين وأوصى فيها:

بإحضار جميع الخدم العاملين داخل المنزل ولا سيما الطباخين والكنّاسين والغسالين من الهند. أما خدم المائدة، والقائمون على المنزل، والبوابون فالأفضل أن يكونوا من الفرس، أما مساعدو الطباخين والقائمون على الخيل فيمكن إيجادهم محلياً، لكنهم مختلفون عند مقارنتهم مع نظرائهم في الهند، الذين يتقاضون أجورا زهيدة[2].

إن فكرة إمكانية أو حتى لزوم جلب خدم من الهند إلى الخليج، تبرهن على الارتباط الوثيق بها على الصعيدين السياسي والاجتماعي، فالخليج –على الرغم من كونه ثغراً يصعب السيطرة عليه– كان في نظر الكثيرين جزءاً من المنطقة الجغرافية نفسها التي تنتمي إليها الهند، التي يمكن جعلها صورة مطابقة لنمط المجتمع الإمبريالي، أو الهندي البريطاني وتقاليده، أوعلاقة على استخدام هذا النمط، وتلك التقاليد دليلاً لطرق الإتجار والعيش. فلقد كان معظم القادمين إلى المنطقة من الرجال والنساء يحملون «المتاع» الاجتماعي ذاته. وعلى الرغم من أن بعدهم عن الهند، قد وفر لهم سقفاً من الحرية، إلا أن مراكزهم السياسية والاجتماعية، ومواقفهم كانت دائماً تتأثر بأنظمة الرتبة، والمكانة الطبقية الصارمة.

كانت عائلة كورزون تعتلي قمة الترتيب السياسي، والاجتماعي، وتجلت مرتبة أفرادها، وسلطتهم للعيان عندما أبحروا إلى ميناء مسقط عام 1803 على متن سفينتهم الهاردينغ، التي رافقتها مراكب من سرية الهند الشرقية البحرية، وعُزِّزت بشكل خاص «من أجل المناسبة بسفينة جلالة الملك آرغونوت»[3]. وصفت ماري كورزون أكبر أربع سفن حربية بـ «أربعة وحوش رمادية» مرددة استخدام جَ. جِ لوريمير للمفارقات الرمزية، والرسائل

(1) نوكس إلى المقيم السياسي في بوشهر، 7 أغسطس، 1904، و11 فبراير 1905 سجلات وزارة الهند: أر/51/8/15.

(2) مذكرة أعدها الكابتن فرانسيس برايد، و28 أكتوبر 1904. سجلات وزارة الهند: أر/15 /51/8.

(3) لوريمير، معجم الخليج العربي، وعُمان ووسط جزيرة العرب، ص 2626.

البصرية الجلية بوصفه «الهاردينج بالبيضاء تماماً» و«الأسطول» بالرمادي والعبوس»[1]. كتبت ماري تقول رجعنا وتبعنا الوحوش الأربعة الكبرى طوال الليل، واليوم التالي، والليلة التي تليه، وعندما أصبحت مسقط في مدى نظرنا، سرنا بانسياب بين الوحوش الأربعة، وأبحرنا إلى الميناء في مسقط. كانت سفينتنا البيضاء الضخمة تقود الركب، تتبعها السفن الحديدية الرمادية الأربع الضخمة»[2]. ترسم لنا مفكرة زوجة نائب الملك، بما تحويه من فتنة خفيفة الظل، صورة دقيقة للمجتمع البريطاني في البلد الأم، ومكانة بريطانيا في مختلف الدول والإمارات. فعند وصولهم، انضم إلى حاشية نائب الملك العقيد أرنولد كيمبل، المقيم البريطاني في الخليج، الذي عادة ما يتخذ بوشهر مركزاً له، وكان من ضمن الحضور أيضاً السير آرثر هاردينغ؛ الوزير البريطاني في طهران، والرائد بيرسي كوكس؛ الوكيل البريطاني في مسقط. وعلى الرغم من أن أيا من الروايات الرسميّة لا تورد ذكرا لهؤلاء الأشخاص، إلا أن يوميات كورزون تذكر أن زوجتي كيمبل وكوكس، كانتا حاضرتين، وحضرتا العشاء على سطح السفينة[3]. يعد كوكس أعلى مسؤول سياسي بريطاني على الجانب العربي من الخليج بعد المقيم البريطاني. ولقد تأسست وكالة مسقط عام 1800، وعلى الرغم من إغلاقها لفترات متعاقبة بسبب الطقس بشكل أساسي ومرض المقيمين المتكرر أو موتهم، إلا أنها بحلول عام 1903، كانت قد لعبت دوراً فاعلاً عكس على الدوام مكانة السلطنة كحاضنة دائمة للنفوذ البريطاني. ففي بدايات القرن العشرين، كان الوجود البريطاني «صاحب أقوى تمثيل خارجي» في مسقط مع وجود ضابط طبيب، ومترجم فوري وكَتَبَة وفي بعض الأحيان ثمة مساعد للوكيل السياسي[4]. فضلا عن ذلك، فلقد كان مبنى الوكالة، الذي كلف مبالغ طائلة عام 1890، واحداً من أجمل البنايات في

(1) المرجع السابق، ص 2647، انظر كذلك ص 19.

(2) «مذكرة الخليج العربي»، 16 نوفمبر 1903، المخطوطات الأوروبية: ف 43/306.

(3) المرجع السابق، 16 نوفمبر 1903.

(4) Busch, Briton Cooper, Britain and the Persian Gulf p21. وبحلول عام 1901 تكونت المؤسسة من كاتب ومحاسب رئيسي، وموظف المراسلات والوثائق السرية، وموظف الخزينة، والسكرتير/ مدرس اللغة المحلية ، وناقلي رسائل، وسبعة موظفين داخل المنزل بالإضافة إلى جراح.

المدينة، فقد كان يلقي بظلاله بشكل كامل على منازل القنصلين الأمريكي والفرنسي. وحسب قول ماري، كان السلطان سعيد بن فيصل بن تركي «ذا وسامة وأخلاق عالية» وكان يتعاطف مع البريطانيين، ويعوّل عليهم لحمايته ضد طموح نظرائه السياسيين داخل عُمان[1].

ولد بيرسي كوكس، ممثل الحكومة البريطانية في مسقط، في إيسيكس عام 1864، وتلقى تعليمه في هارو وساندهرست. انضم كوكس إلى الدائرة السياسية الهندية عام 1890، ثم عُين نائباً للقنصل في زايلا في أراضي الصومال البريطانية. وأصبح كوكس قنصلاً بريطانيا ووكيلاً في مسقط بين الأعوام 1899–1904. وبعد ذلك ارتقى في سلم الوظائف ابتداء بمنصب المقيم البريطاني في الخليج، مروراً بمنصب الضابط السياسي المسؤول، والمفوض المدني في بلاد ما بين النهرين، ووصولاً إلى منصب المندوب السامي البريطاني في العراق. غدا كوكس واحداً من أكثر الشخصيات أهمية في التأريخ الإمبريالي الإنجليزي في الخليج في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى وأعقبتها، حتى إنه أصبح عام 1903 الممثل المحلي لحكومة نائب الملك. كان كوكس لغوياً حاذقاً ويعشق الترحال، حاله في هذا الشأن حال معاصريه في السلك السياسي، ودفعه عشقه للترحال إلى الاستفادة من مناصبه في أرض الصومال، ومسقط في استكشاف المنطقة خارج ناحيته.

تزوج كوكس من لويزا بيلا هامليتون في نوفمبر من عام 1889، وهي ابنة الجراح العام في قوات الجيش الملكي الطبية، كان أبوها إيرلندياً وأمها اسكتلندية. ولقد أُرسل الزوجان فوراً إلى بيشاور، ثم إلى جلوم حيث رزقا بمولودتهما الأولى التي توفيت حال ولادتها[2]. وفي عام 1895، وهو العام، الذي رزق به كوكس وزوجته بمولدهما الثاني –كان ذكراً هذه المرة– قرر كوكس وزوجته أن يتركا المولود تحت رعاية والدة كوكس في إنكلترا، عوضاً عن الإعداد لعودة بيلا إلى الهند أو إنجلترا. ونادراً ما كانا يريان ابنهما، حتى إنهما لم

(1) «مذكرة الخليج العربي»، 16 نوفمبر 1903، المخطوطات الأوروبيّة. وللمزيد حول السياسة العُمانية في هذه الفترة، انظر: Busch, Briton Cooper, Britain and the Persian Gulf. Chapter 6.

(2) Graves, Philip, The Life of Sir Percy Cox, London: & Co., 1941.



بيرسي كوكس، الوكيل السياسي البريطاني في مسقط، وزوجته ميلا مع حاكم مسقط سيد تيمور بن فيصل آل سعيد، ووجهاء مسقط، ومنهم سيد يوسف زواوي (على اليمين). التقطت الصورة بمناسبة احتفالات التتويج في دلهي في يناير من عام 1903.

يشاهداه عندما توفيت والدة كوكس عام 1908[1]. وعلى النقيض من حال معظم زوجات السياسيين، رافقت بيلا زوجها في جميع تعييناته، وفي بعض سفراته، وقليلاً ما غادرت مسقط إلى الهند حتى في أشد الشهور حرارة. أشاد أول مؤرخ لحياة كوكس –فيليب غرافز– ببيلا أنها تحملت الطقس بشجاعة، وختم بقوله إن عائلة كوكس ورغم حر الصيف اللاذع، فلقد أحبت مسقط واستمتعت بحياتها هناك، وأقامت العائلة بين حين وآخر حفل عشاء لأطقم السفن الحربية الزائرة، مستفيدة بشكل جيد من طاولة البليارد التي قدمتها وزارة الهند[2].

كان ينظر إلى بيلا كوكس كأهم شخصية نسائية غربية في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، هذا إذا استثنينا زوجة نائب الملك التي كان دورها رمزياً وموجزاً. ورغم هذا كانت بيلا شخصية مبهمة ومتملصة. فنادراً ما جاءت السجلات الرسمية على

(1) جون تاونسند، مخطوطة غير منشورة لحياة السير بير كوكس، كلية القديس أنطوني، مركز الشرق الأوسط. أكسفورد، مجموعة الأوراق الشخصية، بريطانيا العظمى، 165–286.

(2) Busch, Briton Cooper, Britain and the Persian Gulf p76.

ذكرها، بل إن مفكرتها ورسائلها -إن كانت قد احتفظت بها- لم تتوفر للعامة لقراءتها.

لكنها ومن جوانب عدة، كانت تُعدُّ المثل الأسمى لزوجات الموظفين البريطانيين في الخارج، وكان يشار إليها على الدوام بالشخص «الحنون»، والمعيلة الاجتماعية للعديد من الشخصيات التي مرت على منزل كوكس في مسقط، وبوشهر، والبصرة، وأخيراً بغداد. وبعد ترقية كوكس عام 1909 لمنصب المقيم البريطاني في بوشهر، كتب أرنولد ويلسون- الذي أصبح المفوض المدني في بلاد الرافدين- إلى عائلته قائلا: «تتمركز الحياة الاجتماعية حول مبنى الإقامة والسيدة كوكس، ذات الشخصية الوقورة، وهي المثال الأكمل للطف...فلقد عاملتني كأم، بل لم توفر جهداً في جعل الحياة مطاقة لجميع الأوروبيين على الصعيد الاجتماعي»[1]. وفي عام 1914، كتبت ماري لوريمير لوالديها تخبرهما أن كوكس لم ير زوجته وحدها مطلقاً؛ لكثرة الضيوف[2]. فضلا عن ذلك، اكتسب هذه الدور الاجتماعي بعداً شبه دبلوماسي؛ عندما رافقت بيلا زوجها إلى بعض الاجتماعات مع الحكام المحليين ووجهاء المناطق. وتظهر صورة التقطت لحفل استقبال في «مسقط»، بيلا مع زوجها جالسين إلى جانب ابن السلطان الصغير سيد تيمور بن فيصل، ويحيط بهم 12 وجيهاً من وجهاء عُمان[3]. وطوال عمل كوكس، قبعت بيلا في المنزل، لكننا عندما نقارن منازل موظفي الخليج «والحياة المنزلية» لعائلات موظفي الخليج، بالأعراف الاجتماعيّة، والمنزلية المتشددة بحياة زوجات الموظفين البريطانيين بالهند، تبدوالأولى ذات خصوصية في أنها غير تقليدية.

قال جون تاونسيند، أحد المؤرخين المحدثين، متحدثاً حول تعيينات كوكس القصيرة في الهند، إن المجتمع الهندي:

ينظر إلى الخليج العربي كثغر قَصي للإمبراطورية، ويعد أفراد عائلة كوكس استعماريين ظرفاء. إن صفات الألفة والبساطة التي كانت بيلا تتحلى بها خلال زواجها، كان ينظر

(1) Wilson, Arnold, and S.W. Persia. Letters and Diary of a Young officer, 19071914, London: Oxford University Press & Readers Union Limited, 1942 p100.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدها ووالدتها، 17 يونيو، 1912، المخطوطات الأوروبية ف 7/177.

(3) مجموعة الدكتور عمر الزَواوي.

إليها بازدراء من جانب مجتمع نساء الموظفين البريطانيين المغتربين الذكيات، والميّالات دائماً إلى ذكر عبارات جارحة[1].

أبحر نائب الملك وزوجته بعد مسقط تجاه البحرين، مارين بالشارقة وبعض الموانئ الأخرى. كانت البحرين تُوصف آنذاك «بجزيرة اللؤلؤ العظيمة؛ لأن مجموع إيراداتها من استخراج اللؤلؤ يزيد عن نصف مليون»، بينما كان جورج «يحاضر في الشيوخ»، كانت ماري تعاين البضائع الثمينة محاطة بتجار اللؤلؤ، محدقة في أروع اللآلئ جمالاً، التي «أسالت لعابها»، لكنها «كانت محرمة عليها بسبب إرتفاع سعرها»[2]. قال المبشر الأمريكي صموئيل زويمر عندما زار البحرين قبل عشر سنوات من زيارة عائلة كوكس، تحديداً في عام 1892، إنَّ عدد سكان البحرين كان سيبلغ خمسين ألفاً، وإنه على الرغم من أن صناعتها الرئيسية كان استخراج اللؤلؤ، إلا أنها كانت تصدِّر التمور، وكانت مركزاً لاستيراد البضائع لمدن أخرى على طول الساحل وفي الداخل[3]. ووفق تقرير مبشر لاحق، ارتفع عدد السكان إلى 75 ألفاً بحلول عام 1919:

تتكون البحرين من مجموعة من الجزر، ويبلغ طول أكبرها 26 ميلاً، وعرضها 12 ميلاً، وعدد السكان الإجمالي زهاء 75 ألفاً، يتوزعون على مئة وخمس وستين قرية ومدينة، يتمركز معظمها في النصف الشمالي من الجزيرة. وهناك جزيرتان كبيرتان أخريتان إحداهما تدعى المحرق وبها يقطن الشيخ الحاكم، والجزيرة الأخرى سِطرة، تقع جنوبي شرق أكبر جزيرة، وبها المنزل الصغير لشقيق الشيخ الحاكم[4].

كان وصف إيميلي لوريمر للبحرين، الذي خطّته لوالديها بعد سنوات من زيارتها، مفصَّلاً إلى حد بعيد. وكشفت كتاباتها عن التضاد الواضح بين جمال المنطقة وقساوتها، على الرغم من أن كتاباتها قد تضمنت نظرتها الغربية الإمبريالية، و«الاستشراقية» الذاتية، التي تعكس إدراك الطبقة الوسطى البريطانية لهذه المنطقة من العالم العربي:

(1) تاونسند، مخطوطة غير منشورة لحياة السير بيرسي كوكس، ص 208.

(2) «مذكرة الخليج العربي»، 26 نوفمبر 1903، المخطوطات الأوروبية: ت 43/306.

(3) التقرير الفصلي الرابع للبعثة التبشيرية العربية، أكتوبر/ديسمبر 1892.

(4) السيدة ديرك ديكسترا، «رسالة من البحرين»، جزيرة العرب المهملة، رقم 111 أكتوبر – ديسمبر، 1919، 13.

والآن، لا بد أنكما متلهفان لمعرفة أحوال الحياة هنا. أولاً: الماء متوافر بغزارة على الجزيرة، وهناك آبار كثيرة، لكن المياه ميالة إلى السواد، وعَسِرّة بعض الشيء، لكنها تؤدي الغرض فيما يتعلق بالغسيل والحمام. أما بالنسبة لماء الشرب، فإننا نحصل على ماء مقطر بشكل خاص من العبارة البخارية: ... الطعام يتكون من الأسماك والربيان والسرطنات بمختلف أنواعها وأحجامها، وبيض جيد وآخر رديء وكثير من لحم الضأن. غير أن الخضار والفواكه غير متوافرة بكثرة محلياً؛ لكننا نحصل على حاجاتنا الأسبوعية من البطاطا، والموز، والبرتقال، وأشياء أخرى من السفن[1].

عند مغادرتنا الوكالة كنا نلاحظ أرضاً رملية وحجرية منبسطة ... كانت بيوت السكان المحليين تتبعثر فوقها هنا وهناك، ففي ناحية ترى بيتاً منفرداً، وفي ناحية أخرى ترى مجموعة من البيوت؛ أربعة إلى عشرة، أو أكثر محاطة بسياج غير متقن من سعف النخيل (لكنه في الوقت نفسه قوي وفعال). بدت البيوت منعزلة عند النظر إليها كومات قش جافة وكان سقفها وجدرانها عبارة عن حصيرة قش خشنة ملقاة فوق كومات الحشيش، وكانت الفتحة الوحيدة في الجدار تستخدم باباً وشباكاً ومدخنة في آن معا ... وإذا ما اتجهت إلى اليمين وسرت بعيداً بموازاة الواجهة البحرية، فإنك ستمر بمدينة المنامة ذاتها وبسوقها المكتظ... لم أسر بتلك المدينة بعد. ولا يبدو كمكان قد يعتاد المرء الذهاب إليه إلا إذا اضطر إلى ذلك. لكن إذا تجنبت هذا الانعطاف، واتجهت نحو الجنوب الغربي، فإنك ستجد عالماً جديداً مذهلاً يفتح ذراعيه لاستقبالك عنصره الرئيس سهل من الرمال الممتدة الجميلة النظيفة المغطاة بالصدف البحري، وفي بعض الأحيان كان يقطع هذا الامتداد بعض الحُفر المليئة بماء راكد... وشرقاً يمتلئ الأفق بالاصوات عبر الثلاثة أميال، أو ما يقاربها التي كانت تفصلنا عن المحرق. ولأن الأرض لا ترتفع كثيراً فوق سطح البحر، تبدو الاصوات كوشاح دقيق أزرق إلى الشمال، ومن وراءه تبدو بنايات المحرق القابعة على الواجهة البحرية كخط رمادي أبيض، وكان هناك قوارب تمخر بأشرعتها البيضاء عباب البحر بيننا. وإلى الأمام وعلى اليمين كان الأفق يتكسر بوجود بعض خمائل النخيل

(1) إيميلي لورمير إلى والدها ووالدتها، 13 مارس 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 5/177.

على مسافات متباعدة، وكانت تبدو كأنها ضرب من الخيال في ضوء المساء[1].

استدعى وصف إيميلي لمشهد الضوء «الخيالي»، وصف صهرها جون غوردون لوريمر لمشهد الألعاب النارية في مسقط «وعصا الكهربائي السحرية»، التي كانت ترمز إلى عظمة وحضارة بريطانيا اللتين قدمتا إلى الصحراء القاحلة. قد يصاب كل من إيميلي وغوردون بالدهشة الآن بعد مضي قرن من الزمن، وقد يصابان بالذهول من «الألعاب النارية» الحقيقية لصناعة البترول، والأضواء الخاطفة التي تزدان بها المدينة الحديثة، وكلاهما يرمز إلى ثراء وقوة المنطقة، ويقدمان دليلاً قاطعاً عليهما.

ختمت عائلة كورزون جولتها في الجانب العربي من الخليج في الكويت، التي وصف أحد الأطباء المبشرين حاكمها الشيخ مبارك آل الصباح بـ «باني الكويت الحديثة». كان رجلاً ذا بصيرة وعزيمة قوية، مما مكّنه من أن «يسبق رعاياه بجيل كامل، وكان اطلاعه على شؤون العالم مدهشاً لشخص يعيش في ذلك الوقت»[2]. كانت الكويت مركزاً عظيماً آخر لاستخراج اللؤلؤ وبلغ عدد سكانها قبل الحرب بـ 40 ألفاً[3]. وفي بدايات القرن العشرين، منحتها أهميتها الاستراتيجية على رأس دول الخليج، مكانة بارزة في الساحة العالمية. وألمحت ماري كورزون إلى أهمية الكويت السياسية بمذكراتها:

أرقنا الكثير من الحبر في حديثنا عن الكويت وأهميتها السياسية، مما قد يدفعني إلى كتابة رزم من الأوراق عن قيام شركة الخط الحديدي البغدادي؛ بإنشاء محطة لها في المكان، وعن إنشاء إنجلترا محمية لها على أرض الكويت. في هذه الأيام الشيخ في نزاع مع أمير نجد وقد حقق للتو نصراً، لذا فهو سعيد جداً[4].

(1) إيميلي لورمير إلى والدها ووالدتها، إبريل 1911، المخطوطات الأوروبية ف 5/177.

(2) س. ستانلي، ميلري «الكويت قبل النفط. مذكرات أحد رواد المبشرين الطبيين التابعين للكنيسة الإصلاحية في أمريكا. كُتبت بين عامي 1945 و1951». «كلية القديس أنطونيو، أكسفورد، مركز الشرق الأوسط، بريطانيا العظمى 165–214. ص 37–38. كان ميلري طبيباً إنجليزياً وتلقى تعليمه في فيلادلفيا، ثم عُين في الكويت من قبل الإرسالية التبشيرية الأمريكية.

(3) ميلري «الكويت قبل النفط»، ص 37.

(4) «مذكرات الخليج العربي»، ص 28 نوفمبر 1903، المخطوطات الأوروبية ت 43/306.

ونحو نهاية القرن التاسع عشر، أصبحت فكرة أن الخليج بحيرة بريطانية تُجابه بتحدٍ من قوى أوروبية أخرى، فلقد أصبحت الكويت محطة جذب متزايدة لقوى إمبريالية متعددة. فعلى سبيل المثال، بدأ العثمانيون، وهم الذين حافظوا منذ القرن السادس عشر، على وجود متقلب لهم في المنطقة، خاصة في الزاوية الجنوبية الغربية لشبه الجزيرة وعلى طول ساحل البحر الأحمر، بالتوسع على نطاق واسع في الخليج وداخل شبه الجزيرة. وعلى الصعيد نفسه، بدأ الروس والألمان يظهرون اهتمامات استراتيجية وتجارية في المنطقة، حتى إن الألمان قد أقاموا علاقات تجارية في شمال الخليج، وشعر البريطانيون أن الكويت عُرضه للنفوذ الألماني، خاصة بعد عام 1899، عندما حصلت الحكومة الألمانية على موافقة من السلطان عبد الحميد لمد شبكة قطارات تبدأ من القسطنطينية وتنتهي في الخليج، وتحديداً في الكويت (شبكة حديد بغداد). فضلا عن ذلك، مهدت صداقة الألمان مع السلطات التركية المحلية الطريق؛ لتأسيس الشركة الألمانية «فونكهاوس» منافس للتجارة البريطانية في المنطقة، فجاءت اتفاقية الحماية البريطانية مع الكويت رداً مباشراً للتهديد، الذي كان يشكله النفوذ الألماني فيها[1]. ونتج عن هذا الاهتمام العالمي الشديد في المنطقة بداية القرن العشرين، إقامة عدد من الأوروبيين غير البريطانيين في أبرز موانئ الخليج الرئيسية.

وبالإضافة إلى الأوربيين، كان هناك عدد ضئيل من المبشرين الأمريكيين، الذين بدأوا بالتوافد بشكل مستمر إلى البحرين، والبصرة. وسيأتي ذكر نشاطات هؤلاء المبشرين في فصول الكتاب اللاحقة، إلا أن اهتماماتهم ودوافعهم كانت تختلف اختلافاً جذرياً عن اهتمامات البريطانيين، ودوافعهم ولا سيما في السنوات الأولى. ذكرت ماري كورزون –في سياق حديثها عن الكويت– أن «نجد» مركز المنطقة العربية، تُعد لدى الكثيرين

(1) الاتفاقية بين الحكومة البريطانية وشيخ الكويت في 23 يناير 1899، في

Tuson, P. and E. Quick , Arabian Treaties, 1600-1060 p557-561

أنهت الاتفاقية الإنجليزية الروسيّة، الخلاف حول تقاسم مناطق السلطة لكليهما، وتركت هذه الاتفاقية ألمانيا وتركيا أشد المنافسين لبريطانيا في السنوات التي سبقت الحرب العالميّة الأولى. ففي بداية القرن العشرين، افتتحت فونكاهاوس مكاتب في البحرين والبصرة في عام 1906، وبدأ خط الشحن الألماني المسمى هامبورغ–أمريكا بتسيير عبارات إلى الخليج وإنشاء مكتب في البصرة.

الغنيمة التي تسعى النشاطات التبشيرية الأمريكية إلى السيطرة عليها، وتشكل منطقة نجد الآن قلب الدولة السعودية الحديثة[1]. ويشير أحد أبرز المبشرين في المنطقة؛ ستانلي ميلري، إلى أن المبشرين الأوائل قد أدركوا الأهمية الاستراتيجية العظيمة للكويت؛ لأنها «المعبر» لنجد، والمناطق الداخلية في شبه الجزيرة العربية[2]. لقد كانت نجد في بداية القرن موضع نزاع للسلطة، ونتج عن ذلك ظهور الأمير عبد العزيز بن رحمن بن فيصل آل سعود؛ الملك المستقبلي لدولة السعودية (وعادة ما يشار إليه في الكتابات الغربية بابن سعود)، صاحب القوة الأوحد في نجد. ويمكننا أن نتتبع بدايات الدولة السعودية، ونعزوه إلى التحالف الذي وُثِّق عام 1742 بين محمد بن سعود آل سعود -زعيم العائلة العربية المتنفذة في وسط الجزيرة- وبين المصلح الإسلامي محمد بن عبد الوهاب[3]. استغل الحكام السعوديون اللاحقون تزاوج الدين والسيف بطريقة ذكية لتشييد البنى التحتية لسلطة حكومية في وسط الجزيرة، ومد نفوذهم على بقعة أرض واسعة في شبه الجزيرة العربية تمتد من بغداد ودمشق شمالاً إلى البحر الأحمر وشواطئ الخليج جنوباً. وعلى الرغم من الغزوات المصرية والعثمانية المتلاحقة، وتلك التي كانت تشنها العائلات المحلية المنافسة خلال القرن التاسع عشر، إلا أن إرساء قواعد حكومة محلية ناشئة تم فعلاً. وتلقت الدولة السعودية ضربة قاصمة عندما سيطرت عائلة رشيد، العائلة المنافسة لعائلة آل سعود عام 1891 على الرياض، وقامت إثرها بنفي رأس العائلة السعودية عبد الرحمن بن فيصل إلى الكويت. وكانت استعادة الرياض وإحكام القبضة عبرها على نجد بعد عشر سنوات، على يد عبد العزيز بن عبد الرحمن ذي العشرين عاماً نقطة مفصلية في التأريخ العربي[4].

(1) نشأت الدولة العربية السعودية الحديثة في منطقة نجد في وسط الجزيرة العربية، وتشكل نجد هذه الأيام إحدى مناطق المملكة العربية السعودية.

(2) ميلري «الكويت قبل النفط»، ص 37.

(3) يسمي الأوروبيون المعاصرون أتباع محمد بن عبد الوهاب بـ«الوهابيين» وهو اسم استخدمه في بداية الأمر المعارضون للحركة، ويُستخدم هذه الأيام للحديث عن التفسير السعودي للإسلام. الاسم الأكثر صحة هنا هو «الموحدون».

(4) هناك العديد من الدراسات المرتبطة بإنشاء الدولة السعودية وتاريخها، ومن هذه الدراسات: Troeller, Gary, The Birth of Saudi Arabia: Britain and the Rise of the House of Sa'ud, London: Frank Cass, 1967; Vassiliev, Alexei, The History of Saudi Arabia, London: Saqi Books, 1998; Winder, R.Bayley, Saudi

وخلال قرون ثلاثة من الوجود الإمبريالي العثماني والأوروبي في شبه الجزيرة العربية، بقيت منطقة وسط الجزيرة العربية عصية على سيطرة القوى العالمية. وفي عام 1902 كانت سلطنة نجد وإمامية اليمن هما المنطقتان الوحيدتان اللتان لم ترتبطا بأي رابط استعماري أو إمبريالي. فلقد كان البريطانيون على قناعة راسخة، أن عليهم المحافظة على علاقاتهم الدبلوماسية في المنطقة، على ألاّ يمسوا شؤون الجزيرة الداخلية، وكانوا يعتقدون أيضاً أن علاقاتهم المستقبلية مع الأمريكيين، ستتأثر بمحاولاتهم المتعاقبة لردع الأمريكيين من توطيد علاقات قوية مع الحاكم السعودي.

وفي هذه الأثناء، كان البريطانيون أصحاب الكلمة العليا في الخليج، بل كانوا واثقين تمام الثقة من قدرتهم على تحقيق هدفهم الرامي إلى توفير الأمن، والحماية لإمارات الخليج الصغيرة. وفي فقرة تضمنت مواقف البريطانيين وأحاسيسهم، وصورت حكام المنطقة بالمتمنين، كتبت ماري كورزون، كما فعل لوريمير تماماً، تقول: إن جورج قد أهدى الشيخ مبارك في حفل الاستقبال في الكويت «بعض البنادق وساعة ذهبية مع سلسلة ضخمة وسيف شرفٍ في صندوق مخملي قرمزي:

هذه [الهدية] أدهشته تماماً حتى أنه فرح بها كثيراً وقال: إنه كان يرغب أن ينظر إليه، أحد المدافعين عن إنجلترا. وحاول مباشرة أن يتقلد السيف، غير أنه لم يكن للسيف محمل مما اضطره أن يصرخ عالياً على أحد أتباعه طالباً محملاً فلم يأتِ أحد له به، فاقترح عليه جورج أن يؤجل تقلده السيف حتى الغد فوافق الشيخ الذي بدا إنساناً آخر تغمره سعادة متدفقة وهو يضع سيفه إلى جانبه بزهوٍ كبير [1].

وفي اليوم اللاحق اجتمع الشيخ مبارك، وهو الحاكم الذي وصفه ستانلي ميلري «باني الكويت الحديثة»، وتم الاعتراف به بعد قرن من الزمن، واحداً من أفضل الحكام العرب في الخليج مع نائب الملك في اجتماع خاص، وأحضرمعه إلى الاجتماع ولديه، اللذين كانا يبلغان من العمر عشرسنين والآخر ثمان سنوات. حاولت ماري أن تعطيهم الشوكولاته

..Arabia in the Nineteenth Century, London: Macmillan, 1985

(1) «مفكرة الخليج العربي» 28 نوفمبر 1903 المخطوطات الأوربية ت 43/306.

وبعض الكرز، إلا أنهما لم يبديا رغبة بأخذها، مما دفع بأحد المرافقين الذي كان يعتقد أن ترددهم في أخذ الشوكلاته قد يفسر بكونه وقاحة، بفتح أيدي الطفلين ووضع الحلويات فيها.

رأت ماري في أسلوب المرافق أسلوباً غير محبَّب فطلبت منه أن يتوقف وعرضت عليهما عصيراً حلواً فرفضاه أيضاً. ذهب الولدان بعد ذلك لزيارة الأدميرال على متن السفينة، وقضوا جميعاً مساءً جميلاً[1]. وبهذه اللمحة الموجزة لمفاتن حياة الطفولة التي تكاد تكون عالمية!! ختمت ماري كورزون مفكرتها حول خليج. أكدت بمفكرتها كرامة الإمبراطورية، وثقتها في سمو بريطانيا الثقافي والسياسي. وأخيراً، عرضت عبرها، مؤكدة الأدوار الإمبريالية الغربيّة الملائمة لكل جنس على حدة.

(1) المرجع السابق، 29 نوفمبر 1903.

الفصل الثاني

زوجة الوكيل السياسي إيميلي أوفرند لوريمير في البحرين 1911–1912

استهلت إيميلي أوفرند لوريمير وزوجها دافيد لوكهارت لوريمير عملهما في البحرين في شهر مارس عام 1911، ومكثا هناك ما يقارب السنتين حتى شهر أكتوبر من عام 1912، عندما نُقل دافيد لوريمير إلى كيرمان في جنوب بلاد فارس. غادرت عائلة لوريمير إنجلترا في شهر يناير عام 1911، بعد قضاء فترة شهر العسل. كان الزوجان لا يعرفان بمكان تعيينهما، لكنهما كانا يظنان أنه الهند، أو بلاد فارس، أو حتى الأهواز حيث قضى دافيد ست سنوات نائباً للقنصل البريطاني.

ويبدو أن إيميلي وزوجها كانا سعديين بحظهما في التعيين خارج شبه الجزيرة الهندية، لكنَّ كليهما توجسا خيفة من ردة فعل والدي إيميلي. كتب لوك في شهر أكتوبر من عام 1910، إلى حماته المستقبلية مؤكداً لها أن الأهواز ستكون أفضل بكثير من الهند؛ لأن الطقس أجمل، ويعرف الناس هناك. فليس عليهما إقامة صداقات جديدة[1]. وسوف يحلان في مكان لا يبعد كثيراً عن إقامة أخيه غوردون؛ صاحب المعجم الجغرافي المشهور، الذي أصبح المقيم السياسي في بغداد حيث كان يقطن مع زوجته نستا. أخبر لوريمير والدة إيميلي أن العمل والاستمتاع في الأهواز «سيتوحدان؛ لأننا نسكن في المكتب»، وبهذا لن تضطر إيميلي أنْ تبقى وحدها، ولم يخطر بباله إطلاقاً أنه من الأفضل لهما فصل العمل عن الاستمتاع. فمنذ بداية زاوجهما تصرف لوك وفق فرضية مفادها، أن إيميلي قد ترغب في مشاركته عمله. واستمر لوك في سرد المزيد من الأسباب التي تفند رغبته في أن يتعين خارج الهند، حتى إنه أتى على ذكر بعض ميزات الخليج نفسه، قبل إن يعرف أنه سيقيم هناك فترة طويلة:

تعد بلاد فارس أكثر تحرراً من الهند في عاداتها وأعرافها الاجتماعية... لم أشاهد عدداً

(1) د. ل. ر. لوريمير إلى هانا أوفيرند، 24 أكتوبر 1910، المخطوطات الأوروبية: ف177/3.




إلى اليسار إيميلي أوفيرند، صورت في أوكسفود، 1909
إلى اليمين الكابتن دافيد لوكهارت روبرتسون لوريمير في زيه، 1909

كبيراً من النساء في بلاد فارس، لكنني أستطيع الجزم أني لم أشاهد امرأة غير سعيدة، ففي الخليج العربي مثلاً، وهو الذي يعد من جوانب متعددة كمكان صحراوي عن استحقاق، كانت السيدة كوكس –حسب علمي– تقضي على الدوام، فترة الجو البارد مع زوجها في مسقط بداية، ثمَّ في بوشهر. وعلى ما يبدو، كانت السيدة كوكس تستمتع بالمجتمع غير الضئيل، الذي كان يحيط بزوجها في الكويت، وإلى جانب هؤلاء، كانت والدة الرائد هنري وشقيقاته يقضين معظم الفترة الباردة معه في مسقط، علماً أن الطقس البارد في مسقط لا يُعدُّ نعيماً... لقد تولد لدى إيميلي حماس لا يخبو وشوق للسفر إلى بلاد فارس،

وسوف تصاب بخيبة أمل إذا أخذنا القدر إلى مكان مستأجرٍ كالهند[1].

أصيبت عائلة لوريمير بكثير من الذهول عندما تم إخبارها حال وصولها إلى بومباي نهاية شهر فبراير، أنه تم تعيينها في البحرين. فوراً أرسلت إيميلي رسالة إلى والدها لتثني على ميزات المكان، وتزيل أية مخاوف قد تتملك والديها حول ظروف المكان، ومكانته في التنظيم السياسي، والاجتماعي. وقالت إنهما -في بداية الأمر- كانا سعديين؛ لأنَّ لوك سيعمل تحت إشراف بيرسي كوكس، الذي كان رئيسه في الأهواز أيضاً، وربطته به علاقة طيبة، وكانا سعديين أيضاً كون لوك سيعمل مع فرسٍ وعربٍ في ظروف رسمية وغير رسمية، وهذا سيتيح له المجال لاستخدام معرفته الخاصة ومهارته اللغوية، والأهم من ذلك كله، سيكون «سيد نفسه» كما كان في الأهواز تماماً، على النقيض من أية وظيفة في الهند، التي قد تعني مسؤوليات أقل ومنصبا وضيعا، وتقلبات كلية وفق رُؤى أصحاب القرار الذهنية»[2]. أعادت إيميلي على أمها تأكيدات لوك السابقة أن الطقس لا بد أن يكون جميلاً؛ لأن النساء غير ملزمات بالاختباء من الطقس الحار. ومما أضفى البهجة على نفسيهما أنهما -خلال تأملهما صغر المجتمع الأوروبي في البحرين- أدركا أنهما لن ينجرَّا في «دوامة الواجبات الاجتماعية»، بل سيوفران بعض الوقت لأنفسهما و«لمساعينا اللطيفة».

وفي نهاية الرسالة، عبرت عن أملها بألا يعارض والداها عدم سفرها إلى الهند. لم يندم لوك مطلقاً على افتقاده البيروقراطية، «بأشرطتها الحمراء»، بل كان سعيداً لمواصلة عمل أكثر استقلالاً في الخليج. كان أكثر ما يزعج لوك شعوره أن والديّ إيميلي قد يظنان أنه «خدعهما» عندما تحدث لهما عن «احتمال حصوله على وظيفة في الهند». وذكَّرت إيميلي والديها أن البحرين ليست بمعزل تام عن الوطن في الهند الداخلية، فبالنسبة إليها

(1) د. ل. ر. لوريمير إلى هانا أوفرند، 24 أكتوبر 1910، المخطوطات الأوروبية: ف177/3. كان نوكس الوكيل السياسي في البحرين قبل لوريمير، وكان قبل ذلك أول وكيل سياسي بريطاني في الكويت حيث عاش وحيداً هناك. (انظر: الفصل الأول سابقاً). كان وليم جورج غراي Grey (وهو من كان لوريمير يسميه خطأ بـ غراي (Gray)) الوكيل السياسي في مسقط من عام 1904 إلى 1908، وذلك بعد مغادرة كوكس دار الإقامة في بوشهر.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدها، 24 فبراير 1911. المخطوطات الأوروبية ف 177/3.

امرأة أجنبية متعلمة ومستقلة، هناك كثير من الجوانب المستحسنة في مكان يكاد يخلو من معظم القيود الاجتماعية المملة المتبعة في الهند، بل إن هذا المكان قد يولد لديها حافزاً ذهنياً غريباً. وعلى الرغم من كل هذا، كان هناك شك مدمر أن الوجود خارج الهند، سيُعد بطريقة أو بأخرى، مختلفاً اجتماعياً، وابعد موضعا عن سُبل الوظيفة الرئيسية.

ومنذ وصول إيميلي لوريمير إلى البحرين، راسلت والداتها وعائلتها بانتظام وبغزارة، وتضمنت مراسلاتها المطولة والغزيرة، والمحفوظة في المكتبة البريطانية، وجهة نظر نسائية مفصلة وفريدة حول الحياة في إمارات الخليج في بدايات القرن العشرين[1]. غير أن المجموعة بأكملها، إلى جانب الأوراق الأدبية، تؤرخ لفترة زمنية أطول تمتد من عام 1908 وحتى عام 1949، وتصف قصة مطولة لمشاركة المرأة في الإمبراطورية، وتتضمن أيضاً وصفها الشخصي لنمو مهاراتها وشخصيتها الاجتماعية، والثقافية، والسياسية منذ العقد الإدواردي، الذي امتاز بالثقة الإمبريالية، إلى القبول التدريجي لاستقلال الهند عام 1947[2]. كتبت إيميلي لوريمير قصة حياتها، وحررتها قاصدةً بشكل واضح لتخاطب جمهورا محددا. كانت رسائلها خلال وجودها في البحرين موجهة أساساً إلى والدتها ووالدها، وكانت في بداية الأمر مخطوطة يدويا. ولقد امتازت رسائلها في فترة لاحقة بأسلوبين مختلفين؛ كان النوع الأول منها رسائل مذكرات مطبوعة وموجهة لأشخاص غير والديها، وكانت هذه الرسائل تشبه إلى حد كبير رسائل زوجة نائب الملك ماري كورزون إلى عائلتها في أمريكا. أما النوع الثاني فهو رسائل خاصة وشخصية وجهتها إيميلي إلى

(1) الأوراق موجودة في قسم «المخطوطات الأوروبية» في مجموعات المكتبة المتعلقة بوزارتي الهند والاستشراق وتحمل الرقم 17 ف. وتضم الأوراق مئة وستة ملفات محفوظة في خمسة عشر صندوقاً وأربع رزم. وتغطي الفترة الممتدة من 1908 إلى 1949. لم تتم نشر أيّة رسالة إطلاقاً. وتحوي الرسائل العائلية عدداً من الاختصارات المعيارية لبعض الكلمات كـ «wh» عوضا عن«which» و«c» بدلاً من «could» واختصاراً لألقاب بعض الموظفين كـ H.B.M وهو اختصار لـ (Her Britannic Majesty) صاحبة الجلالة البريطانية. وتم التوسع في استخدام هذه الاختصارات فانتقلت إلى الاقتباسات.

(2) يصف هذا الفصل حياة إيميلي لوريمير في البحرين قبل الحرب العالمية الأولى. وسيتم الحديث عن بعض جوانب حياتها العملية لاحقاً، وعن تطورها الفكري خلال فترة الحرب العالمية الأولى في الفصلين الرابع والخامس، هذا على الرغم من أن معظم حياتها اللاحقة تقع خارج النطاق الجغرافي لهذا الكتاب.

والدها ووالدتها، معاً أو إلى أحدهما، وكانت هذه الرسائل تقتصر على مستلميها[1]. أضفت حقيقة أن الغالبية العظمى من رسائلها كانت موجهة إلى والدتها على قصصها بعض المصداقية والدافعية، غير أنها أثارت كثيراً من القضايا حول الدلالات (الضمنية) فيها. وتظهر التقييدات الذاتية التي فرضتها إيميلي على نفسها في كتابتها جلية لقرائها ولا سيما في رسائلها الأولى، وتصبح أكثر وضوحاً في طرق تصنيفها للمواضيع، وعرضها على والديها. ففي بعض الرسائل الموجهة إلى والدتها على سبيل المثال، ذكرت إيميلي بعض التفاصيل حول إدارة المنزل، والملابس والخدم، والصحة، أما في رسائلها الموجهة إلى والدها، وتلك الموجهة إلى الاثنين معاً، تحدثت إيميلي عن الحياة السياسية والفكرية. كما تقولبت آراء إيميلي السياسية الأولى بطابع نشأتها، حتى إن بعض الآراء التي تضمنتها رسائلها إلى والديها كانت تعكس آراء العائلة المتقادمة؛ تلك الآراء التي كانت إيميلي قد اكتسبتها دون أي تمحيص شخصي منها أو مساءلة. لكن هناك إحساس أنها كانت تخبر والديها بما كانا يرغبان في سماعه، بالإضافة إلى هذا، كان هناك شعور أنها في سنواتها الأولى، كانت تحاول أن تبهر والديها بالنجاح الذي حققته في حياتها.

حررت إيميلي لوريمير أوراقها بنفسها قبل سنة من وفاتها عام 1949. ومسّ التحرير لسوء الحظ بعض القضايا الشخصية كمغازلتها لزوجها المستقبلي، وموت والدها، وتبنّيها هي وزوجها لابنتهما[2]. وعلى الرغم من احتواء المجموعة على رسائل شحيحة كان ديفيد لوريمير قد وجهها إلى والديه أو والديها، إلا أن المجموعة تضم رسائل قليلة كان قد

(1) كانت الرسائل «الدورية» ممارسة شائعة بين أفراد المجتمعات الاستعمارية والإمبريالية المغتربة، وكانت وسيلة فعالة في الاتصال مع العائلة والأصدقاء في الوطن. كانت معظم رسائل إيميلي لوريمير موجهة إلى والديها وإلى والدتها فقط بعد وفاة والدها في نوفمبر من عام 1915، وهناك أيضاً عدد قليل من الرسائل الموجهة إلى أشقاء إيميلي وشقيقاتها وإلى والدي دافيد لوريمر.

(2) ليس واضحاً فيما إذا كانت هذه الحذوف قد جاءت نتيجة لعمل المؤلفة التحريري اللاحق، أو لأنها لم تكتب إلى والديها حول هذه القضايا. ولقد جاء تبني دوروثي في الرسائل حدثاً مفاجئاً في عام 1920. ولم تكشف إيميلي عن «محنتها الشديدة» في محاولة إنجاب طفل، على مدى عشر سنوات وفشلها في ذلك إلا بعد فترة طويلة (وذلك في رسالة إيميلي لوريمير إلى والدي زوج دوروثي المتوقع، السيد والسيدة مُنرو في 6 أغسطس1940، المخطوطات الأوروبية ف 96/177.

تلقاها ديفيد أو زوجته، وبهذا يمكن القول أن القصة كانت تروى من جهة واحدة بكل ما تحمله الكلمة من معنى(1).

ولدت إيميلي مارثا أوفيرند في دبلن عام 1881، وكان والدها محاميا ناجحا جداً، شغل كثيراً من المناصب فقد كان مستشاراً للملكة، وقاضياً. عُدّ والدها واحداً من أول ثلاثة طلاب غير موالين للكنسية تم قبولهم في جامعة أكسفورد فدرس القانون والتاريخ، حسب ملاحظات إيميلي حول تأريخ العائلة (2). استحق توماس جورج أوفيرند في امتحاناته النهائية رتبة علمية من الطراز الأول، بيد أنه لم ينلها؛ لأنه طالب غير موالٍ، فالطالب غير الموالي لا يُقبل في السكن الجامعي، ولا يعطى مدرسين خاصين. لم يكن توماس على علم أنَّ الطالب غير الموالي لن يحصل على مرتبة علمية أعلى من الدرجة الثالثة ما لم يتقدم بـ «موضوع خاص»، غير أنَّ الفاحصين منحوه علامة إضافية فحصل على الدرجة الثانية.

كانت إيميلي تشعر بفخر كبير «لأنها كانت ترى أن أعظم حالات عزة النفس تتجلى في والدها؛ لأنه لم يبد حسرة على خسارته الدرجة الأولى (التي كان بإمكانه تجنبها)؛ تلك الدرجة التي كانت يستحقها نتيجة لعمله الشاق».

تزوج توماس أوفرند عام 1876 من هانا كنغزبري ذات التسعة عشر ربيعاً. كانت إيميلي طفلتهما الثانية، فلقد كانت تصغرها أخت تدعى إيديث، وكان لها أخوان أحدهما يكبرها سناً يدعى أندرو كنغزبري، والآخر يصغرها يدعى جورج أجبسون. كما كان جد إيميلي من جهة أبيها يدعى جايمس أوفيرند، بنَّاء ميثودستياً. تزوج جايمس عام 1831 من مارثا بيست «ابنة عائلة ثرية متشددة باتباعها الكنسية الإنجليزية»، رغم عدم موافقة والديها. وتصف إيميلي فيما بعد، كيف أن والدي مارثا «بإتباعهما التقاليد البيوريتانية الأشد تطرفاً حد الهمجية قد اجتثا البنت بشكل كامل من حياتهما، حتى إنَّ اسمها قد مُسحَ من إنجيل العائلة. بل إنها لم تتواصل مع والديها مطلقاً حتى وفاتها بعد سبع وثلاثين

(1) مجموعات د. ل. ر. لوريمير الصغيرة في المكتبة البريطانية (مجموعات وزارة الهند والاستشراق) المخطوطات الأوروبية د922 ود1168. وتضم هذه المجموعات أيضاً أوراقا أدبية ورسائل قليلة جداً.

(2) «عائلة جايس أوفيرند من تاندراجي، مقاطعة ارماغ، إيرلندا الشمالية» جمعتها إيميلي لوريمير عام 1947، أو ما يقارب ذلك التاريخ، المخطوطات الأوروبية ف 177/92.

سنة من زواجها».

وصفت إيميلي جدتها «بالمرأة الصارمة» ذات مبادئ سامية وحس بالالتزام لا يخبو. كانت مصممة بشراسة لتحقيق الأفضل لأطفالها من غير دلال مفرط، لكنها كانت على قناعة أن ما تمرُّ به العائلة من قسوة عيش، وعسر إنما هو حكم ربها البيوريتاني العادل، الذي أوقع عليها عقوبة عصيانها لوالديها[1]. نالت إيميلي بروح المثابرة البروتستنتية التي تتمتع بها، درجتها الأولى في اللغات الحديثة من كلية ترينيتي في دبلن عام 1904، ثم حصلت على المرتبة الأولى في الصفوف الأخيرة في سومرفيل عام 1906[2]. ثم عادت إيميلي إلى سومرفيل عام 1907 بعد عام قضته في ميونخ، حيث عملت مدرِّسة لعلم اللغة الألمانية.

رسمت رسائل إيميلي أوفرند، من أكسفورد إلى والديها، صورة قد تكون كرتونية لامرأة بارزة. فلقد ذكرت قيادتها الدّراجة للقاءات في المعهد الهندي، أو الجمعية الثقافية الألمانية، وتحدثت عن حضورها محاضرات ألقتها شخصيات علمية مثل أ.ج. بالفور وجورج بيرنارد شو، وحضورها حفلات شاي برفقة برفسورات متبحرين أو غريبي الأطوار. اعترفت إيميلي بأم لسانها أنها تفضل رفقة الرجال، وكتبت عام 1909 إلى أمها لتخبرها أن اثنين من أساتذتها، كان أحدهما برفقة زوجته، قد رافقاها إلى حفلة شاي. كان الأستاذان يتحدثان بينما كانت إيميلي «تؤانس السيدة» التي كانت لطيفة، لكن الوضع بمجمله بدا محبطاً. اعترفت إيميلي إلى أمها أنها كانت تفضل كثيراً «حديث «الرجال»»، لكنها أرادت منح الرجلين بعض الخصوصية، ورأت إيميلي أنهما أحبا ذلك[3]. كان وضعها هذا «امرأة في عالم الرجال» قد نَتج جزئياً من قلة النساء النظيرات لها في أكسفورد، غير أنه كان بصورة كبيرة نتاج رأيها، الذي طبع علاقاتها اللاحقة، على الرغم من تأثرها الضئيل بصداقاتها لمعاصرين لها مثقفين مستقلين وداعمين للحركة النسائية من كلا الجنسين. أبدت إيميلي في أكسفورد شغفاً للعلم ليس له حد استمر حتى موتها.

(1) المرجع السابق.

(2) انظر المقدمة سابقاً. وكما أبيها تماماً لكن لأسباب مختلفة، لم يتم منحها درجتها في الوقت المناسب.

(3) إيميلي أوفيرند إلى والدتها، 21 مارس 1909، المخطوطات الأوروبية ف 2/177.

فضلا عن أنها قرأت في كل موضوع جذب انتباهها، وكان الدافع لها في هذا عزيمة ورثتها عن والدها، وجدتها قادتها إلى القيام بكل الإعباء بإتقان وتمعن. كانت كتاباتها تنبض بالحماس والحيوية، مما أضفى على رسائلها متانة جعلتها تسمو عن كونها مراسلات شخصية. وكل شيء جديد بالنسبة إليها كان يُعَدّ مشروعاً فعالاً لا تجربة سلبيّة. ففي أوقات الفراغ في سومرفيل، على سبيل المثال، تعلمت إيميلي السنسكريتية، ولاحقاً اكتسبت معرفة ببعض اللغات عندما أصبحت مشتركة في العرض الإمبريالي، تماماً كما تكتسب زوجات الموظفين البريطانيين في الهند اللباقة الاجتماعية. وفي وصفها درس السنسكريتية لأمها، علقت إيميلي، بلبس أنَّ:

السعادة الحقيقية تغمرني لتعلمي القيام بالأشياء كما يجب. فأنا لا يراودني غرور عندما أقول أن عملي أرفع من أي عمل آخر. أشعر أني سأحس بالشعور نفسه لو كنت أطبخ، أو أقص القبعات، أو أعمل في التجارة. لكنني –وهذا اختياري– أفضل القيام بما أقوم به الآن، على هذه الأشياء[1].

بيد أن حماسها وقدرتها الفكرية كانتا مثيرتين للإعجاب، وموضع تقدير الجميع. وعلى الرغم من أنها كانت لا تدعي العجرفة، وأن علاقتها مع طلابها كانت وفق رواياتها تمتاز بالعطف والحنان، إلا أنها كانت تُصاب كونها امرأة شابة، بكثير من الملل، والميل إلى انتقاد الناس بقسوة، لاسيما أولئك الذين كانت تعدهم مملين من كلا الجنسين. كتبت إلى أختها إيديث في نوفمبر من عام 1909 حول حفلة غداء، قابلت خلالها رجلين من كلية كوبرهيل للهندسة، كانا برفقة زوجتيهما اللتين تحدثتا مطولا، كما تذمرت إيميلي في رسالتها، حول الناس في كوبرهيل. بدا أحد الرجال؛ السيد منشن، ممتعاً، لكنه كان مُحبطاً كحال سمكة الأنشوفي. لم تستطع إيميلي أن تتدخل في هذا الحديث الطويل[2].

حتى أنَّ أمين الصندوق في بالويل لم يكن فوق النقد؛ لسلوكه ولإخفاقات زوجته

(1) رسالة إلى والداتها، 31 أكتوبر 1909، المخطوطات الأوروبية ف 2/177.

(2) رسالة إلى إيديث اوفيرند، 21 نوفمبر 1909، المخطوطات الأوروبية ف 2/177. تم افتتاح كلية الهندسة الهندية الملكية في كوبرهيل عام 1872، بهدف تدريب المهندسين المدنيين في قسم الأعمال العامة الهنديّة. وبدأت الكلية لاحقاً بقبول طلاب في تخريج مهندسين من غير الراغبين في العمل في الهند.

الفكرية. وحول نزهة قامت بها إيميلي عصر أحد أيام الأحد قبل أسبوع من حادثة الغداء، كتبت إيميلي:

كان الجو صافياً وبارداً مما دفعني لأن أرتدي معطفي الجديد وتنورة أنيقة. وأن أنطلق على دراجتي في جولة اعتيادية ... بدأت بعائلة منشن التي كانت مسافرة خلال فترة نهاية الأسبوع فحمدت الله على ذلك، ثم واصلت حتى منزل عائلة هيلياردز. كان السيد هيلياردز رجلاً عجوزاً متشبباً متأنثاً ومتأففا وذا شعر مجعد. وكان يعمل محاسباً في بالويل. أما زوجته فكانت جميلة أنيقة الملابس كما الدمى تماماً، غير أنه لم يكن هناك ما يميزها فكرياً عن غيرها...[1].

وعلى الرغم من أن إيميلي قد هَمَّشت بلا تردد جميع نساء أكسفورد ورجالها، الذين لم يرتقوا إلى مستوى توقعاتها القاسية، إلا أن آراءها حول القضايا ذات الصلة بالسياسة والمجتمع، على المستويين المحلي والعالمي، لم تتجاوز كونها انعكاسا لقيم عائلتها المحافظة المحترمة. لم تكن إيميلي -في أثناء مكوثها في سومرفيل- تبدي اهتماماً بالنشاط السياسي النسائي، ولا حتى بحق المرأة في الانتخاب، رغم أنها كانت تدرك الظلم الواقع على النساء بعدم منحهن شهادة جامعية[2]. ظهر موقفها تجاه السياسة الوطنية والإمبريالية جلياً في يناير من عام 1910، عندما أخبرت والديها أن هزائم انتخابات الأحرار كانت «بديعة في حد ذاتها»، وخاصة عندما اقتلعت منطقة شمال أكسفورد أحرارها. شعر معظم الناس «بسعادة غامرة» فلقد كان رجلاً خسيساً لم يعرف قط مسالك الكرام. كان قد سافر إلى مصر كصحفي حيث اختلق الأكاذيب حول جنودنا، وشهر بهم وبعملهم هناك. كان هذا الرجل يدعى بينت، عضو الشرف في هيرتفورد»[3]. عبرت إيميلي بالنسق السلطوي والصريح نفسه عن خلاصة رأيها حول إيرلندا والحكم الذاتي فيها، الذي كانت تعده -على الدوام وبشدة- وحالها هنا كحال الكثير من النساء الإمبرياليات النشطات، تهديدا

(1) رسالة إلى أمها، 13 نوفمبر 1909، المخطوطات الأوروبية ف 2/177.

(2) انظر المقدمة، سابقاً.

(3) رسالة إلى والدها ووالدتها، 23 يناير 1910، المخطوطات الأوروبية ف 2/177.

لنسيج الإمبراطورية البريطانية الكبرى وأمنها»[1]. فلطالما وصفت نفسها في رسائلها «كبيضاء» وبريطانية حتى إنها وصفت -فيما بعد وعند دراستها لعلم أنساب عائلتها عام 1940- شقيقها مفتخرة أنه «وحدوي برتستانتي غير نادم»[2].

ولهذا لم يصب أي من الناس بالذهول عندما قررت وبشكل مفاجئ، وهي الأكاديمية العزباء -التي تمتلك زمام أمرها- الزواج. كان أول لقاء لها مع زوجها المستقبلي قد وقع على الأرجح في سبتمبر من عام 1909. أخبرت إيميلي والدتها أنها ستشرب الشاي مع هيلدا لوريمر؛ لمقابلة أخيها، الذي أعجب أيما إعجاب بفكر إيميلي؛ لأنه قد قضى بعض الوقت في الشرق وتعلم كثيراً من اللغات الشرقية[3]. كانت هيلدا لوريمر تعمل مدرسة كلاسيكية في سومرفيل، وهي كذلك صديقة لإيميلي، ورفيقتها خلال السنة المنتهية، وكانت أكاديمية بارزة مثلها تماماً. انتقلت هيلدا للعمل في سومرفيل قادمة من فيرنون عام 1896، وكانت بذلك أول من عُين في الكلية من جامعة كامبردج[4]. وصفتها فيرا بريتن لاحقاً «كواحدة من أكثر المدرسات غرابة للأطوار، وأن ذلك يدعو للإعجاب». كانت هيلدا متخصصة

(1) فعلى سبيل المثال، رسالتها إلى والدتها، 2 أغسطس 1917، المخطوطات الأوروبية ف 22/177: «أستطيع أن أصوب الأوضاع في إيرلندا إذا ترك لي زمام الأمور، وإذا مُنحت السلطة التنفيذية الكاملة. وتفيد الوصفة بجمع كل القساوسة والراهبات والأطفال الجالسين على مقاعد الدراسة الآن إلى جانب السياسيين الأيرلنديين، مع جميع الأحزاب، وجميع الخطباء السياسيين، ووضع الجميع على متن سفينة ضخمة والإبحار بها إلى عرض البحر وإغراقها في منتصف المحيط الهادي. أما الوصفة الثانية فتتضمن جمع جميع أعضاء الشين فين والمعارضين لحكام الوطن البريطانيين والوطنيين ونفيهم إلى الأبد إلى خارج الإمبراطورية، ومن الأفضل إلى بروسيا...» وحول العلاقة بين العداوة تجاه الحكم المحلي الايرلندي، وبين المواقف الإمبريالية الأنثويّة، انظر: Bush, Julia, Edwardian Ladies and Imperial Power

(2) وعلى سبيل المثال، الرسالة إلى أمها، 4 إبريل، 1920، المخطوطات الأوروبية ف 2/177، «أوافق أمي تماماً أنّ البيض» وعلى مدى الخمسين سنة الأخيرة هم أصحاب الحق الشرعي في إيرلندا بالشكوى ضد البريطانيين»، كان أخ إيميلي، أ. ڤ. لوريمر محامياً وأحد مستشاري الملك. وتشير في سردها لشجرة العائلة إلى أنه قد أصبح قاضياً في المحكمة العليا في إيرلندا هذا على الرغم من «بقائه بروتستانتياً وحدوياً غير نادم، لرفضه حلف اليمين بلغة الغاليك» ... «عائلة جامس أوفيرند من تاند راجي».

(3) إيميلي لوريمر إلى أختها، 19 سبتمبر 1909، المخطوطات الأوروبية ف 2/177.

(4) Adams, Pauline, Somerville for Women: an Oxford College, 1879-1993, Oxford University Press, 1996, p 54

بعلم الطيور أيضاً. حتى إن جولاتها الاستكشافية التي كانت تسافر فيها وحيدة إلى أقصى معالم أكسفورد شاير على دراجتها مصطحبة ناظورها قد أصبحت حديث الكلية، بما كانت تتسم به من عنفوان طريف لا يعرف الخوف[1]. وخلال الفترة التي قضتها إيميلي في سومرفيل، خرجت إيميلي وهيلدا في نزهات كثيرة معاً، كانت إحداها تلك الرحلة التي توجهتا فيها إلى لندن في مايو من عام 1910؛ لتستمعا إلى إحدى محاضرات الجمعية الجغرافية الملكية في ألبرت هول -ألقاها المستكشف الأمريكي روبرت بيري- الذي كان قد وصل إلى القطب الشمالي عام 1909. التقت إيميلي وهيلدا قبل المحاضرة في مقهى فينا، بأخت أخرى من عائلة لوريمر اسمها فلوس -عملت في المتحف البريطاني سكرتيرة للمستكشف، وعالم الآثار أوريل شتاين- تقوم خلال عملها «بتصنيف مكتشفاته». وفيما بعد ذهبت المجموعة إلى حديقة الحيوان، ثم تناولوا غداءهم في المطعم الايطالي بجاني، وهو المطعم الذي وصفته إيميلي «بأفضل مكان لتناول الطعام»[2]. دهشت إيميلي تماماً بجمال ألبرت هول وبتصميمها وتجهيزاتها السمعيّة، غير أن المحاضر كان مخيباً للآمال، فعلى الرغم من جمال محاضرته، إلا أنها وجدت شخصيته مفتقرة إلى الجاذبية. سارت أمور الرحلة على أكمل وجه كما خططتا لها تماماً. كانت العجلات تدور بسهولة وسلاسة حتى إن الرحلة بدت كمغامرة تجارية ناجحة، تم التحضير لها بعناية فائقة عوضاً عن كونها رحلة استكشاف خطرة ومتعبة[3]. رغم هذا تم منح بيري ميدالية الجمعية الملكية الجغرافية الذهبية، وعادت الفتاتان غير مندهشتين من هذا القرار، إلى أكسفورد في صباح اليوم التالي حيث باشرتا التدريس فوراً.

بقيت علاقة إيميلي أوفيرند ودافيد لوريمر طي الكتمان (لسوء الحظ) حتى شهر يوليو

(1) فيرا بريتن، النساء في أكسفورد: جزئية من التاريخ. (لندن: جورج ج. هاراب وشركاه، 1960). ص 91. تم اقتباسه في أدامر، سومرفيل للنساء، 54.

(2) إيميلي أوفيرند إلى والدها ووالدتها، 8 مايو 1910، المخطوطات الأوروبية، ف 3/177، كان أوريل شتاين، الذي أصبح فيما بعد السير شتاين (1862-1943) موظفاً في السلك التعليمي الهندي، لكنه كان مشهوراً لعمله في المسح الأثري الهندي، ولاكتشافاته في وسط آسيا والصين.

(3) إيميلي أوفريند إلى والدها وأمها، 8 مايو 1910.

من عام 1910، عندما شكر لوك لوالدي إيميلي في رسالة موجهة لكليهما، حسن ضيافتهما خلال أسبوعين قضاهما في دبلن وأخبرهما فيها أنه «سيحاول أن يكون جديراً بإيميلي»[1]. وفي سبتمبر من عام 1911، أي بعد هذا الحادثة بسنة -كتبت إيميلي إلى والديها من البحرين مطمئنة إياهم أنها تعيش في سعادة غامرة، مشيرة إلى قدوم لوك قبل سنين بالتحديد إلى أكسفورد، وما أعقب هذه الزيارة من «عرض مفاجئ» للزواج منها، الذي لاقى بدوره «عرضاً مفاجئا أكثر بقبوله»[2]. قضى لومير عامي 1909 و1910، متنقلاً في جولات خارج إنجلترا وإجازاتٍ قضاها في إنجلترا. بدت إيميلي مفتونة برجولته العسكرية، حتى إنها كتبت في أكتوبر من عام 1910 لأمها تخبرها حول بهاء مظهره في البزة العسكرية:

ارتدى لوك بزاته العسكرية في ذلك اليوم ليرينا أنا وإيم إياها، بدت جميعها جميلة جداً. ارتدى زي الضباط في المساء، وزي الاستراحة والبزة الرسمية، جميعها كانت جميلة عليه، خاصة البزة الرسمية ذات اللون الأزرق الداكن، والخطوط الذهبيّة العريضة أسفل البنطال، والخطوط الذهبية الرفيعة على، وأكمام مخملية مع أزرار ذهبية منقوشة، وسيف جميل، بالإضافة إلى حذاء مميز ومهمازين.

كانت إيم لوريمير وهي إحدى أخوات لوك تدرس في جامعة أكسفورد أيضاً. وكان لوك وإيميلي قد جنداها ناظوراً لمقابلاتهما التي كان بعضها باهظاً[3]. ففي الأوقات التي لم يكن فيها لوك يستعرض بزاته العسكرية، كان كثيراً ما يكون رفيقاً فكرياً، استكانت له إيميلي لتتعلم المزيد من اللغات. أخبرت إيميلي أمها أنهما كانا يأخذان دروساً حول الكتب المقدسة الهندوسيّة التي كانت حسب قولها «رياضة عظيمة»، وأضافت بقولها «إنه لمن الممتع أن يوجد هناك شخص آخر لتتفاعل معه. كُنّا عند عودتنا من مشوارنا لتناول الشاي نردد لبعضنا صيغ الأفعال، وما يناسبها من ضمائر، وكنا كذلك نخوض غمار الترجمة

(1) د.ل.ر. لوريمير إلى والدة إيميلي لوريمير، 29 يوليو 1910، المخطوطات الأوروبية، ف 3/177.

(2) لوريمير إلى والدها، 29 سبتمبر 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 6/177.

(3) إيميلي أوفيرند إلى والدتها، 15 أكتوبر 1910، المخطوطات الأوروبية، ف3/177. وإلى والدتها، 16 نوفمبر 1910، المخطوطات الأوروبية، ف 3/177، إيم فتاة مبهجة جداً وأصبحت مغرمة بها، لم تشعر أبداً بالسأم من رفقتنا، والاعتناء بنا رغم أننا نعرف أن هذا الأمر قد يسبب الازعاج لها. كانت لطيفة للغاية».

سوية، وبهذا أصبحنا نعرف كثيراً من القواعد، كي لا نقع فريسة للآخر». بدا لوريمير «كل يوم أفضل وأفضل، أعتقد أن أيا منا لن يجد شخصاً مثل لوريمير سمته العطاء، بلا أنانية، والتفاهم، ولن نستطيع أن نجد شخصاً يحفظ جداول صرف الأفعال السنسكريتية أسرع منه»[1]. لم تبد إيميلي يوماً شعوراً بالندم على تركها العمل الأكاديمي، مع أنها ذكرت لاحقاً أن مديرة سومرفيل -إيديث بنروز- قد أبقت «مكانها» شاغرا «في حال أني لم أجد الزواج مناسباً لي»[2]. وطبعاً لم تتوقع إيميلي، ولا زوجها كذلك، أن تكرس نفسها وجلّ وقتها للأعمال المنزلية. رافق دافيد إيميلي قبل أسبوعين من زواجهما، بعد أن تناولا آخر كأس شاي لهما في غرفة إيميلي التي ودعتها نهائياً في تلك الجلسة، إلى محطة القطار حيث ركبت القطار المغادر من أكسفورد. وعلى إثر هذه الحادثة، كتب لوريمير رسالة مؤثرة إلى والدة إيميلي مفادها أنه يدرك مدى تضحية إيميلي بتركها عملها في أكسفورد لتتزوجه، وأنه يدرك تماماً وَقْعَ الانفصال عن ماض جميل، ومفيد وزاخر كماضي عمل إيميلي في أكسفورد. ذلك الماضي، الذي عُدّ صفحة في كتاب طوتها إيميلي بقولها وداعاً. «لقد قالت وداعاً لكل هذا، لقاء ما تعتقد أنني أستطيع أن أمنحها إياه ولقاء ما آمل، أو -بدون غرور- ما أعتقد أنني قادرٌ على منحها إياه»[3].

وعلى ما يبدو، لم تندم إيميلي يوماً على قرارها، سواء ما خص العمل أو الزواج، وعلى الرغم من أنَّ آراءها قد تغيرت خلال العقود اللاحقة وفق التطورات السياسية المتغيرة، إلا أنها لم تشكك يوماً بشرعية الحكم البريطاني ومقاصده، أو بمكانتها وواجباتها تجاه التراتبية الإمبريالية. لم تتوان إيميلي فور اتخاذها القرار بترك أكسفورد عن تكريس نفسها للزواج، وحشد طاقتها في سبيل دعم زوجها وبلدها، وإعداد نفسها للمهام المستقبلية. نجحت إيميلي في التحول -بسرعة وفاعلية- من أنموذج لنساء أوكسفود اللواتي كن يجلسن في مجالس الفكر ويبدين اهتماماً بالأدب، إلى زوجة موظف بريطاني نشطة.

(1) إيميلي أوفرنيد إلى والدتها (10؟) أكتوبر 1910، المخطوطات الأوروبية ف 3/177 ورسالة إلى والدتها 21 أكتوبر 1910، المخطوطات الأوروبية، ف 3/177.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدها، 5 أغسطس، 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 6/177.

(3) دافيد لوريمير إلى والدة إيميلي، 30 نوفمبر 1910، المخطوطات الأوروبية، ف 3/177.

بدا هذا جلياً عندما أخذت -وهي في الستين من العمر- بتحرير رسائل فترة زواجهما ورحلتهما إلى الخليج، وأوسمتها بالمغامرة المشتركة الأولى لـ DL وEOL، وهي الحروف الاستهلالية لأسميهما[1]- وذلك لحفظها للأجيال القادمة. بدا موقف إيميلي تجاه الحكم الإمبريالي البريطاني غير متشكك، ذلك أنها تأثرت كثيراً بعائلتها وخلفيتها التعليمية. بَيْدَ أنها أضافت إلى عملها الجديد -زوجة موظف بريطاني- معرفة غزيرة بالإمبراطورية وتاريخها ولغاتها، واستمرت في تعزيز تلك المعارف طوال حياتها. وعلى النقيض من ماري كورزون زوجة نائب الملك، الأمريكية الأصل، التي تعلمت دوراً جديداً وتشربت الثقافة والطبقة الجديدتين، كانت إيميلي لوريمير تقارب الثقافة كمنتج أكاديمي وذلك في إطار مواصلة تعليمها الأكسفوردي، الذي استمر مدى الحياة.

تزوجت إيميلي من لوك في السادس عشر من ديسمبر عام 1910، وقضى الزوجان شهر العسل في كيلارمي في إيرلندا. أخبرت إيميلي والديها بعد أربعة أيام من زواجهما أنها «تجد اليوم بساعاته الأربع والعشرين لا يكفي لما نريد أن نفعله أو نقوله... نشعر بالسعادة في كل لحظة من اليوم، بل إننا نتمنى أن يكون اليوم أطول ليتسع لسعادتنا، ولا نستطيع أن نتصور حالنا أفضل مما نحن عليه»[2]. بدأ الزوجان وهما لم يعرفا بعد مكان تعينهما (في يناير من عام 1910) رحلتهما، فمرا بروما لمقابلة والدي لوك، وأثينا لمقابلة هيلدا مرة أخرى، التي كانت في إجازة من سومرفيل وتعمل في اليونان في الحفريات الأثرية. كانت إيميلي تلزم فراشها عندما كان البحر الأبيض هائجاً، وكان إلى جانبها على الدوام لوك، الذي كان يقرأ لها جيبون. وعندما أخذ الملل يتسرب إلى نفسيهما، كانت إيميلي تدرس الهندستانية، بينما كان لوك «يقرأ ويتأن كتاباً بالألمانية يتضمن دراسات حول محمد»[3]. وفور وصولهما إلى بومباي علما بتعين لوك في البحرين، فكتبت إيميلي بفخر إلى والديها مخبرة إياهما، أنها ستكون زوجة «لوكيل صاحب الجلالة البريطانية السياسي»[4]. سيعمل

(1) المخطوطات الأوروبية، ف 4/177.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدها وأمها، 20 ديسمبر 1910، المخطوطات الأوروبية، ف 4/177.

(3) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 13-21 فبراير 1911، المخطوطات الأوروبية، ف4/177.

(4) إيميلي لوريمير إلى والدها، 24 فبراير 1911، المخطوطات الأوروبية، ف4/177.

لوك –مرة أخرى– تحت إمرة العقيد بيرسي كوكس، الذي كان في تلك الفترة المقيم البريطاني في الخليج. ولقد قدر كوكس عالياً –خلال عملهما سويّة في الأهواز– عمل لوك هناك، مما دفعه إلى أن يوصي بتعينه قائداً عسكرياً للإمبراطورية الهندية. فضلا عن ذلك، كان لوك قد تلقى «رسالة لطيفة وصادقة» من كوكس دعاهما فيها أنْ يقيما معه، هو وزوجته في بيت الإقامة في بوشهر، وهما في طريقهما إلى البحرين. وهناك سيتمكن لوك من الاطلاع على كل الملفات، وسيتلقى موجزاً من كوكس، وهو الشخص الذي يكن له محبة واحتراماً كبيرين. رسم كوكس وزوجته، كونهما يحتلان قمة السلم الإمبريالي في الخليج حتى بداية الحرب العالمية الأولى، الخطوط العريضة لحياة المغتربين المحلية، لذا كان تأثيرهما على لوك وزوجته كبيراً.

أبحر لوك وزوجته إلى الخليج بعد أيام قضياها في بومباي. وفي طريقهما، توقفا في بندر عباس حيث قابلا الوكيل البريطاني هناك، الكابتن بيسكو وزوجته الجميلة المفعمة بالحيوية، ذات القامة القصيرة، «ثم حطت رحالهما في مسقط، وهي المدينة التي وصفتها إيميلي بلغة تشبه إلى حد كبير اللغة التي استخدمتها ماري كورزون قبل ثماني سنوات «كواحدةٍ من أغرب الأماكن وأجملها»»، مما يتسنى للمرء أن يشاهده في حياته. ذكرَّتها الحصون البرتغالية على ميناء مسقط بالقلاع على نهر الراين:

يبرز الساحل بشكل قاس، فرؤوسُ البحر فيه مُثَلّمةٌ ومعظمها مرتفعة وشديدة الانحدار ومحترقة بفعل الشمس. وتخلل رؤوس البحر هذه خلجان منفرّة كانت مسقط إحداها. وكانت الصخور تتراوح في لونها بين الرمادي وبين الأسود، وكانت تنذر بشؤم حقيقي وبدت غريبة إلى أبعد الحدود (تقارب في لونها صخور لوريلي أكثر من أي شيءٍ آخر أستطيع أن أتذكره). لم يكن يبدو عليها أي علامة للبناء سواء في الماضي أو الحاضر أم المستقبل. وكانت تقبع على قمة شرخين، عُدَّ الوصول إليهما مستحيلاً، حصونٌ برتغالية غريبة ذكرتني هي الأخرى بالقلاع على نهر الراين. وفي أسفل ذلك الخليج كانت مسقط تقبع على أرض صخرية تبلغ مساحتها عدة مئات من الياردات المربعة. كانت واجهتها البحرية لا تتجاوز عدة ياردات، وكانت تتألف من القنصلية البريطانية، ومقر طبيب

الخدمات الطبية الهندية، و«قصر» سلطان مسقط وعُمان، وخمسة أو ستة بنايات أخرى. وخلف هذه البنايات، بدت تجمعات المدينة المحلية، وكانت الصخور السوداء تحيط بها من كل جانب، مسقط مكان لا يمكن نسيانه[1].

وما أراحها ودفع السرور إلى قلبها قدرة الوكيل السياسي العازب –الميجور تريفور– على توفير ظروف «منزلية ملائمة لهما لتناول غدائهما في القنصلية البريطانية». كان تناولهما الطعام على الشاطئ تغييراً ساراً بالنسبة إليها، ودهشت من قدرة تريفور على إدارة شؤون منزله، التي بدت لا تحتاج إلى زوجة للقيام بها. كان كل شي معدا بشكل جيد، وتم تقديمه بأناقة، بما فيه مركز الطاولات، وطاسات غسيل الأصابع، وصحون الحلويات، وأغطية الطاولات الكتانية الجميلة، «وكرات» الزبدة. كان كل شيء معدا ليدل على ذوق رفيع، بما فيه الشاي، وقوالب الكيك المعدة في البيت، والكعك المشبع بالزبدة ... الخ، كل شيء بدا رائعاً. أما تريفور نفسه «فلقد كان متوسط القامة، نشطا وموفور الصحة، على الرغم من كونه سمينا إلى حد ما. كانت عيناه برّاقتين ولماحتين، وكان يضع نظارات غريبة جداً، وكان الكلام يخرج منه بطيئاً. لقد نقلهم إلى الشاطئ بقاربه، الذي كان يسيره أربعة رجال محليين يجدفون، وهم يضعون طرابيش، وجاكيتات حمراء غير رسمية، فوق قمصان بيضاء. لكن على الرغم من كونه ذا أخلاق رفيعة، ورغم أنه «جعلنا نشعر أننا في بيتنا طوال فترة مكوثنا في منزله»، إلا أنه ترك لدى إيميلي انطباعاً «أنَّ ما يقوم به من أعمال على درجة كبيرة من الأهمية، واستنفدت جُل وقته، فلم يعد يتكلم إلا بالضروري، ولأنه عاش وحيداً، فترة طويلة من الزمن، فإنه لم يعد يرغب في التحدّث مع الآخرين».

عندما شكرته وهو يساعدني في الصعود إلى المركب في هذا اليوم الجميل .. نظر إليَّ وبدا حائراً قليلاً، لكن دون خَجل أو ارتباك كما لو كان يقول في خلده «لا بد من أن هناك رداً يقوله الشخص في هذه الظروف، لكن ما هو؟، ويبدو أنه قد قرر في النهاية أن هذا الرد ليس بذات أهمية، ليزعج رأسه بالبحث عنه، ولهذا صافحني ورفع قبعته. سيعود

(1) إيميلي لوريمير إلى والدتها ووالدها، 6–9 مارس 1911، على متن س. س. وأرونغا، المخطوطات الأوروبية، ف4/177.

إلى إنجلترا قريباً في إجازة، وهناك قد يجد زوجة له. وقد يجد لسانه أيضاً، بدا الرجل لطيفاً إلى أبعد حد، وممتعاً إلى حد فاق فيه الجميع[1].

وبينما كانت عائلة لوريمر في مسقط، تناهى إلى مسامعها أن الميجور ستيوات نوكس، وهو الشخص الذي سيحلون محله في البحرين، قد أصابه المرض؛ ولهذا ألغيا رحلتهما المخططة لمقابلة عائلة كوكس في بوشهر وتوجها مباشرة إلى البحرين، التي وصلاها في بداية مارس. كان الطقس دافئاً ومشرقاً، ورسمت الأجواء الصافية «أضواء رائعة وظلالا وتنوعاً كبيراً في الألوان ليس له مثيل في إنجلترا»[2]. وفور وصولهما استقبلهما الميجور نوكس وزوجته بحفاوة، كانت زوجته «امرأة لطيفة صغيرة الحجم تبلغ الأربعين من العمر»، وكان «شعرها مزيجاً من الذهبي والأحمر، الذي فقد بعضاً من بريقه»، وكان «واضحاً أن هذا هو شعرها الحقيقي». «كانت فعلاً طيبة القلب». كَبّدت السيدة نوكس نفسها عناء إيضاح «الغموض، الذي كان يحيط بخزانات الماء، وغرف التخزين ورجال الغسيل، الذين كانوا يحمّلون حماراً بالملابس الوسخة، ويخيمون يومين أو ثلاثة إلى جانب أحد الآبار حيث يقومون بغسل الملابس، ثُمَّ يعودون لِكَيِّها». وقامت السيدة نوكس أيضاً بإيضاح تقسيم «العمل بين مختلف خدم المنزل». وأرشدت إيميلي إلى (فهرس المخازن لتتلمس فيه احتياجاتها خلال الشهور القادمة[3]. وكان من ضمن نصائحها والمعلومات الكثيرة التي قدمتها، سرد مفصل لبيت الوكيل السياسي «فرقه العاملة الكاملة»؛ لتتمكن إيميلي «من الوصول إلى مقصدها بشكل سريع، وكي لا تنتكس بسرعة إلى نمط النزهات:

سيكون هناك بحق الكثيرمن الواجبات. إذا ما شاهدت طاولة العشاء بما عليها من وعاء فضي يحوي بصيلات وأربع مزهريات زجاجية تحوي البنفسج (الاصطناعي طبعاً)، وغطاء الطاولة المعد بشكل جميل (وبدا أن رجال الغسيل والحمار والبئر كانت لهم نتائج مذهلة)، وقوائم الطعام والصحون الفضية بالإضافة إلى الوجبات المدهشة، فإنك

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق.

(3) إيميلي لوريمر إلى والدتها ووالدها، 13 مارس 1911، المخطوطات الأوروبية، ف5/177.



إيميلي لوريمر: صورة التقطها زوجها لها في غرفة المعيشة في البحرين، 1911.

لن تعرف أنك هنا في الخليج العربي، وما يذكرنا بأن هذه ليست دبلن أو حتى أوروبا هو طلاء الجدران المدهونة بالأبيض، وفراغات النوافذ المقوسة ذات المجالس العميقة، والنوافذ الفرنسية الصغيرة الغربية، وأضواء المراوح شبه الدائريّة.

على أن سعة البيت وملاءمته لاستقبال الزوار كان من أكثر القضايا التي توجست منها إيميلي فور وصولها. تكون الطابق الأرضي، الذي كان مبنياً حول ساحة تواجه البحر، من المكتب والمطبخ وبيت الغسيل، وكانت ساحة محاطة بأعمدة حجرية مربعة، وثقيلة شكلت دعائم الشرفة في الأعلى، و«أفضت إلى رواقٍ مضيء». أما الطابق العلوي فتكون من غرفة رسم واسعة ومشرفة، كانت مفروشة بأثاث حكومي مريح ومتين، كالأرائك المنجّدة، وكراسي الراحة والمناضد المتينة، وخزانة كتب دوارة، وسجادة كبيرة وجميلة[1].

كان هناك أيضاً غرفة طعام كبيرة تضم خزائن خاصة بأدوات المائدة، وطاولة،

(1) المرجع السابق.

وكراس، ومخرج واسع ينفذ منه رئيس الخدم عبر سلّم جانبي إلى المطبخ في الأسفل. فضلا عن ذلك، كان هناك غرفة النوم الرئيسية وغرفة ضيافة، ولكل منها غرفة ملابس. وضم الطابق الأعلى ثلاثة حمامات. أحاطت الشرفة بالطابق الأول من كل جانب، وفي إحدى جوانبها كان لها منظر جميل مطل على البحر، الذي كانت تمخر عبابه القوارب التجارية، وقوارب الصيد. بدا البحر بلا نهاية من هناك. ومن جانب آخر، كانت الشرفة تطل على جزيرة البحرين الصغيرة المحرق، التي كانت تبعد ميلين أو ثلاثة. وبدا البيت واسعاً جداً على الرغم من أن عدد غرفه كان قليلاً. أخبرت إيميلي أختها إيديث أنهم قد يحتاجون إلى نصب حاجز «لأنه من السخف ألا يستطيعوا استضافة المزيد من الناس، لأنّ لديهم غرفة إضافية واحدة فقط». وأضافت، وهنا كانت تفكر بحياتها الفكرية، كعادتها، «أنه من أسخف الأمور ألا يكون لديهم غرفة جلوس أخرى يمكن استعمالها غرفة مكتب»[1]. فضلاً عن ذلك، وفي الظروف الراهنة، كان الميجور نوكس يستقبل زائريه من الشيوخ المحليين في غرفة الرسم، «وذلك إلى جانب زائري السيدة نوكس الأوربيين»:

كان الوضع صعبا جداً ومعقداً، كان يقدم لهم الشاي، وهو ما لا يولونه أي اهتمام، بل إننا لم نتذوق الشاي بسبب روائح البخور التي كانت تنتشر ترحيباً بهم. ولم يكن لديهم طباع سلوكية تُحَدّد لهم طريقة تحيتهم للسيدة وكان هذا مربكاً. وكنا نود لو نجد مكاناً نستطيع أن نلوذ به.

وبعد مضي أسبوعين لإيميلي في البحرين، أخبرت أختها إيديث أن لوك كان محقاً عندما قرّر «بعد مشاهدته للطريقة التي كان العرب ينظرون بها إلى النساء» أنه من «الأوقر للنساء ألا يَكُنَّ موجودات في الغرفة نفسها التي يتم استقبال المحليين فيها، إلا في حالات نادرة يتم فيها التعامل معهن بأعلى درجات الرسمية»[2]. ولم يمض سوى شهرين على وصولهما حتى كتب لوك رسمياً إلى كوكس يشكو له عيوب نزلهم، ويطلب السماح له بالقيام

(1) إيميلي لوريمير، نهاية مارس؟ 1911، الصفحات الأربع الأولى من الرسالة مفقودة، لكنها وردت في حواشي إيميلي اوفرند لوريمير، 48/3/15 بتأريخ مقترح) إلى أختها إيديث، المخطوطات الأوروبية، ف 5/177.

(2) المرجع السابق.

بعض التغييرات الطارئة لصد رياح الشتاء، التي– حسب قوله– جعلت الحياة بالنسبة إلى عائلة كوكس لا تطاق، وأصابته هو وإيميلي بالبرد وأوجاع الأعصاب. وبعد هذه التوطئة، ولج لوك «مع بعض التهيب» إلى صُلب موضوع رسالته، الذي ناقش فيه «قضية نساء الموظفين وسكان البلاد»، الشائكة التي نتجت عن كون الوكالة ذات غرفة واحدة تستخدم كغرفة معيشة مستقلة، وفي الوقت نفسه كغرفة لاستقبال العامة. ظن لوك للوهلة الأولى أنه أول من لامس هذه القضية؛ لأن أول وكيلين بريطانيين في البحرين كانا عازبين، ولأن سابقه الميجور نوكس، الذي كان يشغل ذلك المنصب مؤقتاً «لم يساوره شك بجدوى إضاعة طاقته في موضوع لا يلقى ترحيبا كهذا». رغم ذلك، فكثير ما استخدمت الغرفة في مناسبات عدة «غرفة جلوس لزوجة الوكيل البريطاني، وغرفة استقبال للعرب والفرس سواء في رحلاتهم الاستجمامية أو رحلاتهم الرسمية، وكانت –أيضاً– غرفة لاستقبال الزائرين الأوروبيين من كلا الجنسين». لم يكن هذا الوضع مريحاً ولا مرغوباً فيه «من وجهة نظر المحليين والأوروبيين على حد سواء». ظن لوك أن حاكم البحرين الشيخ عيسى بن علي آل خليفة يفضل عدم وجود نساء في الغرفة ذاتها التي نزل فيها، عندما قام بزيارة إلى الوكيل البريطاني. لهذا، فإن غرفة إضافية «لا يشعر فيها الأوروبيون أو المحليون بالإهانة بسبب وجود آخرين غير مرغوب بهم»، قد تكون ذات فائدة عظيمة. وفضلاً عن هذا، ستوفر هذه الغرفة الإضافية لزوجة الوكيل البريطاني في حال كان متزوجاً، مكاناً آخر، إلى جانب غرفة النوم، تستطيع الجلوس أو العمل فيه دون احتمال ظهور المحليين أمامها في أية لحظة[1].

حُلت قضية المسكن أخيراً عندما خولت حكومة الهند عائلة لوريمر بالقيام بأعمال تجديدية على مبنى الوكالة. على أية حال، أوضحت هذه الحادثة التشنجات التي طفت على السطح عقب قدوم النساء الغربيات الأوائل إلى هذه الثغور الصغيرة. بدا الفصل الثقافي والجنسي من وجهة نظر الموظفين الإمبرياليين وزوجاتهم، لا غنى عنه حفظا لكرامة البريطانيين، والعرب ومكانتهم؛ رجالهم ونسائهم. وفي بدايات القرن العشرين، كان

(1) لوريمر إلى كوكس، 26 مايو 1911، سجلات وزارة الهند: ر 52/2/15.

البريطانيون يسعون بقصد وتبصر للمحافظة على قواهم ونفوذهم في المنطقة وتعزيزها. وبدا أنه ليس هناك من سبب سواء أكان إحراجات اجتماعية، أم أحداث عارضة، أو حتى هفوات في التراتبية السلطوية، والبرتوكول قد يحول بينهم وبين تحقيق هذا الهدف.

تعزز شعور إيميلي لوريمير ببروتوكول الإمبراطورية، ودورهما هي وزوجها فيه عند مقابلتهما التي طال انتظارها مع المقيم –المقدم كوكس– الذي ظهر فجأة في البحرين، بعد وصول عائلة لوريمير بعدة أيام. وحالما أصبح مركب عائلة كوكس بارزاً للعيان. «وضع الميجور نوكس زيه الرسمي وامتطى حصانه، ومن ثم ركبَ رَكوة، فشختورة، فقارب شراعي فعبّارة بخارية أبحرت به». وعندما عاد من سفينة كوكس، قوبل بتحية أدتها له إحدى عشرة بندقية. «لكِ أن تتخيلي»، كتبت إيميلي إلى أختها «حال لوك وقد قوبل بتحية الإحدى عشرة بندقية في كل مرة أراد فيها الخروج لمقابلة رجل عسكري أليس المنظر جميلاً؟»[1]. قوبل كوكس نفسه عندما وطئ أرض الساحل بتحية أداها له حرس الشرف من الكتيبة السباهية:

في الساعة العاشرة صباح يوم الأحد كان لوك والميجور ك، يرتدون زيهم الرسمي، وكان جميع أفراد المكتب يضعون أفضل ملابسهم. اصطف حرس الشرف بألوانهم القرمزية والذهبية على طول الرصيف، الذي كان يقترب منه كوكس بقاربه –ولحسن الحظ كان المد مرتفعاً مما أدى إلى استبعاد الشختاتير والخيول الصغيرة–. بدا المنظر جميلاً جداً من الشرفة، وفي داخل المجمع السكني اصطفت الكتيبة السباهية كاملة، باستثناء الحرس، في صفين من ستة أفراد يضعون أحدث ملابسهم وعتادهم، وكانوا يحملون الأسلحة التي تم فحصها وتلميعها. وبعد حوار قصير دام لدقائق معدودة أخرى معنا في غرفة الرسم، نزل العقيد كوكس إلى الأسفل لتفحص الملفات، والأوراق وغيرها في المكتب، ولم يظهر حتى الغداء، كان رجلاً طويلاً، متين الجسم حليقا ذا ملامح واضحة. كان كل إنش من جسمه يدل على

(1) إيميلي لوريمير إلى أختها إيديث (نهاية مارس 1911؟)، المخطوطات الأوروبية، ف 5/177.

عظمته، ولطفه على الرغم من مهابة الحديث معه[1].

كان هذا هو الوقت،الذي أخبرت به إيميلي عائلتها، أنها بدأت تدرك كرامة الوكيل السياسي البريطاني الرفيعة، ومكانة زوجته أيضاً. ورغم عدم إدراكها أنها كانت تردد كلمات ماري كورزون حول تعيين زوجها نائباً للملك، «إلا أنها أضافت أنها تأمل أن تتمكن من أن تؤدي الدور وفقاً لأصوله ... وأن تحافظ على كرامة الإمبراطورية بشكل لائق. لكنني على أية حال سأبذل قصارى جهدي»[2]. وكما أوضحت ماري كورزون في كلماتها، وعبر وجودها القصير في المشروع الإمبريالي البريطاني في الخليج، فلقد كانت المظاهر، والبروتوكولات، والطقوس، والسلطة هي الواجهة الخارجية للقوة الإمبريالية، وهي في الوقت نفسه روافدها العميقة الدلالة. فالبزّات العسكرية، والمظاهر الزائفة، واستخدام الألقاب المناسبة لتسلسل الرتب، كل هذا كان له أهمية رمزية، ولعب دوراً كبيراً في المحافظة على التراتبية، والسلطة في مختلف المناطق البريطانية. وكانت إيميلي ممثلة متحمسة في مسرح الإمبراطورية، شأنها في هذا شأن جورج وماري كورزون. بدا ولعها بالملابس، الذي ظهر جلياً في رسائلها الأولى من أكسفورد، أحد جوانب شخصيتها الأبعد توقعا، إلى جانب تفضيلها للحياة الفكرية. تصف إيميلي في واحدة من رسائلها الأولى الموجهة إلى أمها في مارس من عام 1909، آراءها حول طريقة ارتداء فرو الثعلب على الكتف، بل إن سردياتها الأولى حول دايفيد لوريمير -كما رأينا مسبقاً- كانت تدور بمجملها حول جمال بزاته العسكرية مع السيف[3]. واصلت إيميلي خلال فترة إقامتها في الهند، والخليج كتابة رسائل متفرقة إلى أمها تحوي تفاصيل بالغة الدقة حول الملابس. حتى إنها في يوليو عام 1911، على سبيل المثال، كرست ست صفحات كاملةً لمسألة الملابس التي كانت أمها قد اشترتها لها، وأرسلتها إليها في الخليج، وحول ما ستطلبه هذا الشتاء، وفي هذا الشأن قالت إنها ستكون بحاجة إلى قبعة من اللباد، ومعطف شتوي اعتيادي،

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق.

(3) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 21 مارس 1909، المخطوطات الأوروبية، ف 2/177 و15 أكتوبر 1910، المخطوطات الأوروبية ف 3/177.

وتنورة وبهذا تستطيع حفظ معطف التويد الأخضر الباهت لمناسبات أفضل، ومعطفها الأزرق لأيام الآحاد والزيارات، والمعطف الأسود القديم لركوب الحمير، وفي الوقت نفسه شكرت أمها؛ لاختيارها جهازاً للعروس مناسباً لها. وشعرت بسعادة غامرة ببيجاما كانت تستطيع بها الاسترخاء على الشرفة[1]. كانت تلميحاتها المتواصلة لاحتياجات خزانة ملابسها انعكاسا جزئيا للافتراض الحتمي أن الفساتين، والمعاطف، والقبعات الأوروبية المناسبة يتم التوصية عليها من عند مصممي الملابس في الوطن. وعكس الولع بالأزياء والمظهر الخارجي، الذي كان واضحاً أيضاً في مراسلات ماري كورزون وغيرترود بيل، الاهتمام المتزايد والحرص على المحافظة على الصور الشاهدة على أنوثة المرأة الأوروبية الواثقة من نفسها المترفة. ورغم هذا، عكس هذا الاهتمام التَفَرّد والبهرجة الزائدة التي كانت تمتاز به هولاء النسوة الاستثنائيات اللامعات.

إن التزين لإظهار فخامة الإمبراطورية، وتقمص دور زوجة الوكيل السياسي البريطاني، قد وافقا طبع إيميلي التي اعترفت في وقت سابق أنها من الممتع جداً أن يكون للشخص عددٌ كبيرٌ من الخدم يقفون رهن إشارته. وقالت إن العبّارة البخارية للوكالة كانت مسلية أيضاً:

أبحرت العبّارة بفخامة وعظمة. كانت ترفع العلم البريطاني على مؤخرة المركب، وعلم صغير آخر على ساريتها ... إن دلت هذه الأعلام على شيء، فإنما تدل على وجود وكيل صاحب الجلالة البريطانية السياسي على متن القارب. أبحرت العبارة بوقار وهيبة تجاه القارب البخاري الهندي البريطاني وعادت تزهو بالهيبة نفسها، وكانت زوجة الوكيل البريطاني، الذي لم يشعر بعد ببلوغها التاسعة والعشرين، تشعر كثيراً من الفخامة والزهو[2].

ووصفت لأمها رحلة بحرية أخرى «قضت خلالها وقتاً رائعاً»، وأضافت أنها ولوك

(1) إيميلي لوريمر إلى والدتها، 24 يوليو 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 2/177 و15 أكتوبر 1910، المخطوطات الأوروبية ف 6/177.

(2) إيميلي لوريمر إلى والدتها، 1–2 إبريل 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 5/177.

كانا «في أفضل حالٍ فلقد أحبت البحرين وكانت سعيدة بوجودها هناك. غير أن لوك لا يولي الاستشراقيات أو الصحارى أو الأعلام أو السباهيين اهتماماً خاصاً، فكل هذه الأشياء ترد في مجرى الأحداث، وهذا طبيعي بالنسبة إليه. أما رؤيتي لهذه الأشياء واهتمامي بها والتسلية التي قدمتها إلي، كانت تزوده بسعادة غامرة ولا سيما عند معاودته النظر إليها»[1]. تمكنت عائلة لوريمير اثناء تشربها لتفرد الشرق واتباعها في الوقت نفسه المنهج البريطاني- الهندي، من إيجاد بيئة منزلية تشابه إلى حد كبير تلك الموجودة في إنجلترا. وفي رسالة إلى والدها، كتبت إيميلي تقول «إن أطرف ما في الأمر هو الحد الحضاري الفاصل، الذي كان يفصل الوكالة عن الجو العام. فإذا استثنينا الخدم، الذين كانوا يضعون عمائم ويرتدون اللباس الأبيض الكامل، فإنك لن تُميز أنك تعيش في مكان غير بريطانيا، وستحتاج لقرص نفسك لتوقظها فتتأكد أن هذا المكان لا يعدو عن كونه جزيرة العرب»[2].

وعلى الرغم من إعجاب إيميلي الشديد بآداب السلوك والتراتبية، إلا أنها اعترفت بتفضيلها حياة الخليج على حياة محطة هندية «فهي هنا حرة من قيود الاشتراك الدائمة في نادٍ ما، وحفلات العشاء المرهقة، والدعوات، ومتطلبات الحياة الاجتماعية الاعتيادية لمحطة هندية، كل هذا لا يعدو كونه غيضاً من فيض المتطلبات الاجتماعية»[3]. بيد أن جزءاً من إعجابها بالحياة الاجتماعية في البحرين ينبع من الفرصة التي منحها إياها هذا المجتمع الصغير، للقيام بدور أبرز اجتماعياً وسياسيا، فضلاً عن كونه نتيجة طبيعية، ذلك أن مجتمع البحرين العربي كان أكثر تعلّماً وجاذبية.

هذا المجتمع يتحلى بكل ما تحمله كلمة مجتمع من معنى، فهو مجتمع ممتع بما فيه من أناس مثقفين ومتأدبين حولنا. إن أيّة وجهة نظر قد يقدمها أي مبشر حول قضية ما قد تكون شخصية، لكنها مع هذا ستبقى وجهة نظر أناس لهم دورهم في الحياة. وستبقى رغم هذا، أكثر إثارة من أحاديث الناس التي لا هدف لها سوى تضييع الوقت. فضلا عن ذلك،

(1) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 3 إبريل 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 5/177.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 1 إبريل 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 5/177.

(3) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 15 إبريل 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 5/177. انظر أيضاً: رسالتها إلى والدها 2/1 إبريل 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 5/177.

أستطيع هنا الاطلاع على أعمال لوك، بطريقة قد لا تكون متاحة لو كنا في الهند. بيد أن جزءاً كبيراً من العمل سيبقى سريا، ولن أكتب حوله في رسائلي إلى الوطن، وإذا كنت كتومة –ولقد تلقيت تدريباً كافياً لتحقيق ذلك – فلن يكون هناك كثير من المعلومات لا أعرفها. وربما مع مرور الزمن قد أتمكن من المساعدة في طباعة ملفات أو رسائل أو رسائل مستعجلة سرية، لا يمكن إيكالها إلى موظفين، وعادة ما يقوم بها لوك بنفسه[1].

وبحلول مايو من عام 1911، حددت إيميلي دوراً إدارياً صغيراً لها، وكتبت إلى والديها لتخبرهما أن تجربتها في كتابة رسائل لوك السرية المتعلقة بالعمل وحفظ الملفات، قد سارت وفق توقعاتها، وهذا في الحقيقة قد يتطور «لتصبح سكرتيرة خاصة أو حتى مدبرة منزل حاذقة»[2]. وبحلول أكتوبر، استمرت إيميلي بكتابة رسائل عاجلة في حالات نقص السكرتارية في المكتب، وأخبرت أمها أنها عرضت أنَّ تنتظم بالعمل ككاتبة، وأن تدع لوك يبحث له عن زوجة «التي في ظل الظروف الراهنة، ستكون سهلة الإيجاد». لم يكن لوك يرغب بمشاركة زوجته في العمل من مبدأ أن «الحكومة تدعي الضعف الاقتصادي لنساعدها بالعمل المجاني»[3]. لكن إيميلي كانت تحب القيام «بالعمل الجاد»، وكان رأيها الدائم تجاه أعمال المنزل أنها مضيعة للوقت، فلقد حثت أختها في دبلن على تعيين مدبرة منزل؛ لتتيح لنفسها مجالاً للقيام بمزيد من النشاطات الفكرية:

إذا لم يكن في وسع الناس تحمل تكاليف هذه الأشياء، فهذا يضع حداً لهذه القضية، لكني لا أعتقد أنني، وأختي سنغفل أو نهاب هذه الحياة الشديدة، هذا إذا «كانت ذات فائدة ما» وهنا اقتبس عبارة لوك اللطيفة. لكن إذا أمكن تحسين الوضع، فسيكون الوضع بائساً لإيد [زوج أيديث] والأطفال. لأن إيديث ستغرق في مشاغل البيت من غير أن يكون لديها وقت فراغ لتستغله في القراءة، أو التفكير، أو حتى التمتع بالحياة. كانت مغرمة بالكتب، الجيدة منها، وإذا فرّطت بهذا الولع فسيكون ضياعاً ما بعده ضياع[4].

(1) رسالة إلى والدها، 15 إبريل 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 5/177.

(2) إيميلي لوريمر إلى والدها ووالدتها، 5 مايو 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 5/177.

(3) إيميلي لوريمر إلى والدتها، 14 أكتوبر 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 6/177.

(4) المرجع السابق.

كان المجتمع الغربي الصغير «الجدير بالاهتمام» في البحرين عام 1911، يتألف من أربعة عشرة أوروبيا معظمهم من التجار، بالإضافة إلى «المستعمرة التبشيرية» الأمريكية، التي قابلت عائلة لورمير أفرادها في أول يوم أحد ذهبوا به إلى الكنيسة[1]. بدا رئيس الإرسالية التبشيرية، صموئيل زويمر، «رجلاً مفكراً زاهداً من الدرجة الأولى، وتواردت الأخبار عن كونه عالماً باللغة العربيّة من الدرجة الأولى، وعن امتلاكه لواحدة من أفضل المكتبات في هذا الجزء من العالم». كانت إيميلي تعتقد أنه يعظ بشكل جيد، لكنه غير مقنع وكانت «الموعظة الميثودستيّة البريسبيتارية (المسيحية) الاعتيادية صادقة، ولحسن الحظ قصيرة». أما السيدة زويمر، وينظر إليها «خلاصة التجانس الأمريكي الهولندي»، «فقد كانت على النقيض من زوجها، طيبة القلب حنونة، موفورة الصحة على الرغم من كونها سمينة، ولطيفة جداً وممتعة». وإلى جانب هؤلاء كانت الإرسالية التبشيرية تضم طبيبة هولندية (الآنسة ايفرسون)، وسيدة سويسرية تتكلم الألمانية (الآنسة سبات) «وطالبة جامعية» أمريكية (مس فيرمان). أما طبيب المستشفى التبشيري فهو إنجليزي، وكان برفقة زوجته الأمريكية (الدكتور والسيدة ميلري)، وكان هناك أيضاً طبيب هولندي وزوجته (الطبيب والسيدة ديكسترا). كانت تتراوح أعمار جميع النساء بين الثلاثين، والخامسة والثلاثين. وفضلاً عن هؤلاء، كان هناك بعض التجار الإنجليز والألمان، الذين ستتم مقابلتهم لاحقاً. لكن إيميلي رأت في هذه الأثناء، أن جميع النساء كن سعيدات ويُتمتعن بصحة جيدة، ومسرورات لانضمام زوجة موظف إنجليزي جديدة. ووفقاً لقول إيميلي كانت النساء جميعهن «حميمات وطيبات القلب، ولم يكن عندي شك أن علاقتنا ستصبح جميلة»[2].

شكّل المجتمع التبشيري الأمريكي في البحرين نقيضاً فكرياً مثالياً، ليقينيات إيميلي الحضارية والضيقة. ولقد أظهرت عائلة لوريمير، على الرغم من رحابة صدرها التي جعلتها متيقنة أن التبشيريين، رجال ونساء سيشكلون رفقة ممتعة، فإنها أظهرت مزيجا من

(1) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 18 مايو 1911، وإلى والدها ووالدتها، 13 مارس 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 5/177.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدتها والدتها، 13 مارس 1911، وإلى والدها 1 إبريل، المخطوطات الأوروبية، ف 5/177.

الحقد، والاحترام، والشك، والفوقية وحتى الاستهجان، الذي كان الضباط البريطانيون يتبنونه تجاه الأمريكيين حتى بداية الحرب العالمية الثانية. فعلى سبيل المثال، كانت إحدى ردود فعل إيميلي الأولى تجاه صاموئيل زويمر، تتضمن دهشتها وحتى شكواها العميقة؛ لأنه استخف بعادات إيميلي في القراءة، وشعرت براحة كبيرة عندما علمت أنه لن يكون حاضراً في حفلة العشاء، التي أقيمت على شرف السيدة نوكس في مارس من عام 1911:

أظهر في محبته للمونولوج الذاتي أنه جونسوني حَدّ التطرف، مما حرمه القدرة على تجاذب أطراف الحوار مع آخرين. يتجلى في أفضل حالاته عندما لا يكون هناك ضيوف آخرون يشاطرونه جذب انتباهك. فهو يكون ممتعا مسليا عندما يكون بمفرده، غير أنه لا يخلو من الغرور، فموقفه اللاإرادي من تفكير المرأة العاميّة بدا ظريفاً. سار أول حوار بيننا على النحو الآتي: «يبدو أن زوجك قارئ جيد». «نعم، هو مغرم بالكتب، وفي الحقيقة كلانا مغرم بها». «أأنت مغرمة بالقراءة أيضاً؟ روايات وقصص حسب ما أعتقد». كنت مستمتعاً جداً بشعوره بالفوقية اللاإرادية، ذلك الشعور،الذي دفعه أن يتجاوز الابتسامة إلى قوله أنه يستمتع بقصة ظريفة(1).

وفي الرسالة ذاتها، أخبرت إيميلي والدها أن السيدة زويمر كانت «امرأة لطيفة حنونة سمينة، غير أنها ذات صحة وافرة، وكان معها ابنتان سعيدتان تبلغان من العمر زهاء الرابعة والسادسة (كان لها بنات أخريات في الوطن). كانت السيدة زويمر ممرضة متدربة في المستشفى، وتمتاز بالرزانة وصواب الرأي، وكثيراً ما كانت تصوّب زوجها في آرائه. ورغم كل هذا، كتبت إيميلي إلى أمها في رسالة مفصلة في اليوم ذاته؛ لتخبرها أنها قد اشترت لها نسخة من كتاب زويمر المعنون بـ« الجزيرة العربية: مهد الإسلام»، الذي نشرته بلاكويل؛ لأنها كانت تعتقد أن والدتها قد تكون مهتمه بقراءته. لم تقرأ إيميلي الكتاب بنفسها، لكن –وحسب لوك– «كان الكتاب يحتوي على كثير من المواد الممتعة، على

(1) إيميلي لوريمير إلى والدها، 1 إبريل 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 5/177. كانت هذه قراءة غريبة بعض الشيء لزويمر،،الذي كانت زوجته آمي، أول مبشرة أمريكية تعمل في الخليج. (انظر الفصل الثالث).

الرغم من إقحام وجهة النظر التبشيرية في غير مكانها المناسب»[1]. تذمرت إيميلي لاحقاً، من أن زويمر قد تظاهر أنه أكثر معرفة من الموظفين البريطانيين. كانت إيميلي قد قررت بحلول ذلك الوقت «أنه رجل لطيف»، وأنه «رفيق جيد جداً»، وأنه سيمتعهما برغبته الجامحة كأمريكي بالخداع. غير أنه لم تكن لديه أدنى فكرة عن معنى العلم الحقيقي، أو حتى القراءة الجادة المتبحرة، التي تتجاوز تلك التي قد يملكها الرجل القاطن على القمر. لم يكن بمقدوره التوقف عن «الاستعراض» والتحدث حول كتب لم يقرأها فعلاً. استنكرت إيميلي عليه هذا الاستعراض، فهو في غنى عنه. «غير أننا لا ننكر عليه تميزه في معرفته الجيدة بالعربية الدارجة، ولاعتقاده أن حياة المبشر غنية دون القيام ببحث حقيقي. ورغم هذا فما زلت أعتقد أن جرثومة التدليس تسري في دمه»[2]. لكن بعد مضي سنة، أصبحت تشعر براحة تامة معه، حتى إنها سمحت له بمرافقتها عندما تصادف وجودهما في كراتشي في الوقت نفسه. تجول معها زويمر بين المحال التجارية وكتبت تقول: «باستثناء لوك، فإنني لن أجد مرافقاً أفضل، كان يشق طريقه عن معرفة عبر الأماكن الشرقية، وكان يحمل مخزوناً كبيراً من التدليس الأمريكي ليكفيه خلال هذه الجولة»[3].

مَدَّت المبشرات إيميلي ببعض الرفقة الفكرية، فلقد قرأت القرآن مع السيدة ميلري، حتى إنها عندما غادرت عائلة ميلري في إجازة في فبراير من عام 1912، كتبت دون رغبة صادقة منها قائلة: إنها ستفتقدهم «على الرغم من كونهم مملين»[4]. كان معظم الأمريكيين كثيراً ما يخفقون لسبب أو آخر في امتحان آداب السلوك. ذكرت إيميلي في نوفمبر من عام 1912، أنَّ اجتماعاً وشيكاً لما يزيد على ثلاثين مبشراً من جميع أنحاء الخليج (البصرة وبوشهر ومسقط والكويت)، سيعقد في البحرين في إطار مؤتمرهم السنوي. وقبل إنعقاد المؤتمر، دعت إيميلي زوجاً من الأمريكيين للعشاء، هما الدكتور بنيت وعقيلته (سابقاً

(1) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 1—2 إبريل 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 5/177. (نُشِرَ كتاب) عام 1900 (إدنبره: لندن ونيويورك: أوليفانت، أندرسون وفيرير).

(2) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 26 أكتوبر 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 6/177.

(3) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 4—6 إبريل 1912، المخطوطات الأوروبية، ف 7/177.

(4) إيميلي لوريمير إلى والدها والدتها، 1 فبراير 1912، المخطوطات الأوروبية، ف7/177.

الدكتورة إيفرسون). سار العشاء كما يجب، غير أن إيميلي شعرت بخيبة الأمل؛ لأن الزوجين لم يحبا ثاكري[1]. لكن سوء سلوكهما ظهر في عدم معاودة الاتصال بإيميلي في المستقبل:

قد يكون التقاعس هو السبب الرئيس، لكنني منزعجة بعض الشيء، وذلك لأني خرقت بعض المراسم بدعوتي إياهم للعشاء فور وصولهما عوضا عن الانتظار حتى يتصلا بشكل رسمي، كما كان حريًا بي أن أفعل. غير أنني كنت أريد أن أكون ودودة، لكن، على ما يبدو، كان خرقي لآداب السلوك شيئا من الغباء. اليوم وصل الجمع الكبير من المبشرين من أجل لقائهم طبعاً لن أدعو أحداً إلى الشاي، حتى أرى أسيتصلون أم لا؟ عندي شعور غامر أنهم سيتصلون، لكن من الأفضل أن يكون الاتصال في موعده، وفي حال لم يتصلوا، فإنهم سيوفرون عليّ جهدي في تجهيز الأشياء وإعدادها.

في الحقيقة، لم يتصل سوى واحد من المبشرين، «وبدا هذا الأمر متجاوزاً حدود الآدب، حتى بالنسبة إليهم؛ أمريكيين ومبشرين، وكنا ممتعضين بعض الشيء»[2].

كان هم البريطانيين الوحيد تجاوز الأمريكيين لسلطاتهم، ومحاولتهم إقامة علاقات مباشرة مع الحكام المحليين، غير أن هذا التخوف كان موجوداً دائماً، ولم يكن تحذيراً عابراً، فالقادمون الجدد، الذين قد يفتقدون إلى الخبرة، قد يتمكنوا من إحداث تغييرات دبلوماسية من غير وعي منهم، ولا إدراك لما يفعلونه. كان الاعتقاد السائد بين البريطانيين، أنهم أفضل من يستطيع أن يتعامل مع العرب، كما أوضحت إيميلي لنفسها في رسالتها:

أخشى أن يفزعك تنديدي بالمبشرين – لكن ليس هناك من داعٍ للخوف لأننا لن نصل إلى حد إثارة المشاكل، أو حتى التخلي عن لباقتنا، وطبعاً لن نسمح بحدوث شيء قد يعكر صفو علاقتنا مع أولئك الذين كانوا ودودين معنا، خاصة عائلة ميلري وعائلة زويمر فقط؛ لأن الباقين معظمهم وقحون جلفون ينقصهم التعليم. فمن المتعارف عليه في الشرق

(1) إشارة إلى مؤلف فانيتي فار الإنجليزي وليم مكابيس ثاكري (1863-1811)، الذي وُلد في كلكتا.

(2) إيميلي لوريمر إلى والدها ووالدتها، 26 أكتوبر و9 و19 نوفمبر عام 1911، وإلى والدتها 11-12 نوفمبر 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 6/177.

[خارج الهند]، أن جميع الأوروبيين يواجهون المعاناة ذاتها، فحركة أي منهم قد تثير مشاكل عالمية، فعلينا ألا نفكر بالسفر دون إخبار القنصل إن كان هناك واحد منهم، أو أية سلطة أوروبية موجودة بالقرب منا وهذه هي الجهات التي سنطلب حمياتها أو مساعدتها إذا كانت هناك مشكلة ما[1].

وفضلا عن ذلك، كان لدى البريطانيين شكوك حيال جدوى محاولة تنصير المسلمين في الخليج. وفي يوليو من عام 1912، تناهى إلى مسامع إيميلي أن إحدى صديقاتها السابقات في سومرفيل، قد قررت الالتحاق بالعمل التبشيري في إفريقيا، فأخبرت إيميلي أمها بأسباب معارضتها القوية للعمل التبشيري:

لا تبدو هيلدا بارام قوية كفاية للقيام بفروض التبشير. لكن إذا قررت الذهاب، فإن أوغندا هي المكان الأنسب لها. إننا نشعر بالشفقة على المبشرين الجيدين، الذين يحاولون تحويل المسلمين عن دينهم عبثاً، لا بل وتتبدد جهودهم المضنية على صخور الإسلام الصلبة سنة بعد سنة. قد تفضي الجهود نفسها –لكن في مكان آخر– إلى شيء. وعندما تعترف بعد عشرين عاماً من العمل بعدم تقدمك ولو خطوة واحدة، قد يخطر ببال كثيرمنا أن لديك ضمانة وكالة مقدسة بنفض غبار الصحراء عن قدمك[2].

وبقولها هذا، كانت ببساطة تردد رأي المؤسسة البريطانية الهندية في ذلك الوقت، فَقَدْ عُرف عن نائب الملك السابق اللورد كورزون قلة تعاطفه مع النشاط التبشيري، الذي حسب اعتقاده كان مسيئاً للناس المحليين وللقوة الإمبريالية، لذا كتب عام 1901 رسالة إلى أسقف كلكتا الإنجليكاني ضمنها قوله: «إنه لم يوافق إطلاقاً على سياسة إغراق الهند بالآلاف من المبشرين، مهما كانت كياسة هذه السياسة . لا أظن أن الهند ستصبح مسيحية، ولا أعتقد بتاتاً أنها ستزيد من ولاء الهند أو حتى ضمانه، إذا أصبحت الهند مسيحية»[3]. يجب أن ينحصر دور المبشرين –حسب رأي منتقديهم– في تقديم المساعدات الطبية

(1) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 13 يناير 1912، المخطوطات الأوروبية، ف7/177.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 9 يوليو 1912، المخطوطات الأوروبية، ف7/177.

(3) كورزون إلى أسقف كلكتا، 17 نوفمبر 1901، أوراق كوروزون، المخطوطات الأوروبية، ف 182/177.

والتمريضية التي يفتقدها الناس هنا. فهذه المساعدات عززت صورة الأوروبيين في عيون المحليين إلى جانب فوائدها العلمية. كما ختمت إيميلي لوريمير رسالتها بقولها: إنه على الرغم من انقضاء 20 عاماً على وجود الإرسالية التبشيرية الأمريكية في البحرين، «فإن مسلماً واحداً لم يعتنق المسيحية»:

...إلا أنها قد حصنت جميع الأوربيين الآخرين بوجودها هنا، فتعايش هذه المجموعة من الناس ذوي الأخلاق الرفيعة والأيدي والقلوب النظيفة مع أبناء المنطقة سنة بعد سنة، وما تقوم به خلالها من أعمال الخير وتوزيع الدواء المجاني وتقديم النصح، بلا خوف أو منة على أي شخص يحتاجها، قد حَدّد معياراً جديداً قد لا يتصوره أي شخص. فالمبشرون عبر أعمالهم هذه، قد زادوا، بلا شك وبصورة مضطردة، احترام الناس غير المتكلف للأوربيين[1].

كانت إيميلي، على النقيض من معاصراتها، تُكِنُّ بعض التعاطف الشحيح مع الإسلام. ففي شهر نوفمبر من عام 1911، كتبت إيميلي إلى والديها، بعد حضورها موعظة دينية مملة تفتقر إلى كل جوانب الإقناع ألقاها واعظ تبشيري زائر، إنها غير مندهشة حيال فشل الإرسالية التبشيرية في إحراز تقدم واضح. «فالمسلم الذكي لن يقع فريسة سهلة في حبال هذه الأمور، وحري بنا أن نحترم وجهة نظره». كانت إيميلي ولوك يعتقدان «أن جهود التبشير ستكون أكثر نفعاً إذا وجهت نحو الوثنيين، الذين ليس عندهم أدنى تصور حول الحياة الروحية، أو أية معايير أخلاقية. وحالهم لا تقارن بأتباع محمد، الذين يملأ قلوبهم الإيمان». «قد يزعم بعضهم طبعاً أن أتباع محمد لا يتبعون دينهم تماماً، لكن وفقاً لهذا المبدأ فإني أعتقد ان مقصد المبشرين الأساسي يجب أن يكون المسيحيين في الوطن»[2].

لم تغير إيميلي من آراءها مع مرور الوقت، فلقد كتبت إلى أمها تقول: إنها لا تستطيع أن «تتصور كيف أن الناس يسافرون لتعليم «الوثنيين» بينما لدينا أحياؤنا الفقيرة. وكثيراً من المشاكل الاجتماعية التي تنتظر حلاً»:

(1) إيميلي لوريمير إلى أختها إيديث (نهاية مارس 1911؟)، المخطوطات الأوروبية، ف177/5.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدها ووالدتها، 19 نوفمبر 1911، المخطوطات الأوروبية، ف177/6.

فكروا قليلاً بقذارة تجارة العبيد البيض في لندن أو دبلن، أو حتى بفقر العاطلين عن العمل أو بالكادحين وبؤسهم. لا يملك أي بلد وثني نصف ما نراه هناك من فظاعة أو «ظلمة»، أود أن أرى المبشرين يهبون لإزالة سحب الظلام وكما تقولون: فإن الصين تستطيع التعامل مع أفيونها بشكل أفضل مما يستطيع سكان هذا البلد التعامل مع مشروبهم[1].

وفي عيد الميلاد عام 1911، أهداها لوك أطلساً تاريخياً وترجمة من القرآن [2]. كان اهتمام عائلة لوريمر المتعاطف مع الإسلام، ومعرفتها به إلى جانب الخلفية الأدبية الاستشراقية التي كانت تحتلها، ومهارتها، وشغفها باللغات، هو ما منحها على الأرجح القدرة على استيعاب مجتمع الخليج العربي والإحساس بهمومه، كانا سوية أو كلا على حدا، يقرآن بنهم شديد، بل إن إحدى المهام التي حددتها إيميلي لنفسها فور وصولها البحرين، هي إعداد قائمة كتب لتقرأها وتحضير برنامج في اللغة. أخبرت والدها في إبريل أنها «تعلمت بعض العربية، وأنها أنهت قراءة كتاب هوغارث « اختراق الجزيرة العربية»، الذي كان مملاً، فهو لا يعدو عن أن يكون سردا جغرافيا محضا لجميع الاستكشافات، لكنه جيد إذا عُدّ مقدمة لغيره من الكتب». وقالت أيضاً أنها الآن «تقرأ كتاب الليدي آن بلينت «الحج إلى نجد»»، واختارته لأنه «أخف من كتاب بالغريف «رحلات» أو كتاب دوتي المميز «الصحراء العربية»، لكن هذه الكتب أجمعها مدرجة ببساطة على جدول قراءتي»[3]. كانت تقرأ كتاب ألكساندر دوماس «الليالي العربية» (لتحسين لغتها الفرنسية). وكمثال بسيط على ظمئهما، الذي لا يُروى من العلم، قررت عائلة لوريمر إنفاق جزءٍ من المال، الذي تلقوه كهدية زواج في شراء الطبعة الجديدة الخفيفة الوزن من

---

(1) إيميلي لوريمر إلى والدتها، 19 يونيو 1917، المخطوطات الأوروبية، ف22/177.

(2) إيميلي لوريمر إلى والدها ووالدتها، 26 ديسمبر 1911، المخطوطات الأوروبية، ف6/177.

(3) إيميلي لوريمر إلى والدها، 5 مايو 1911، المخطوطات الأوروبية، ف5/177.

Hogarth, David George, The Penetration of Arabia: a Record of the Development of Western Knowledge Concerning the Arabian Peninsula, London: Lawrence and Bullen, 1904; Blunt, Lady Anne, ;Bedouin Tribes of the Euphrates, London: John Murray, 1879

تشارز دوني، رحلات في الصحراء العربية، مجلدين (كامبردج: مطبعة جامعة كامبردج، 1881).

الموسوعة البريطانية[1]. فلقد بلغ وزنها الإجمالي ثمانين رطلاً، وكانت تحتاج إلى 29 إنشاً من مساحة الرف «ولهذا سيكون السفر بهذه الموسوعة أخف من السفر بالقديمة». كانت إيميلي وزوجها يعتقدان أن من المناسب لهما، وهما يقيمان في البحرين؛ المكان، الذي يبعد كثيراً عن المكاتب، امتلاك مصدر معلومات موثوق حول «أي موضوع قد يتبادر إلى الذهن»، فضلا عن ذلك، لم تفكر إيميلي بطريقة أفضل لصرف المال. وفي بدايات يوليو، انتهت إيميلي من قراءة دوتي، الذي كانت تعتقد أن والدها سيعجب به. وانتهت كذلك من قراءة كتاب كاي «الحرب السباهية»، الذي كان حسب قولها بديعاً فلم تكن تضعه جانباً إلا قليلاً، بل إن الكتاب جعلها فخورة بكونها إنجليزية كلورنس ونيكلسون[2]. وضمت قائمة كتبها أيضاً كتاب مالروي «موت آرثر»، الذي قرأته وهي جالسة في ظل نخلة، وكتاب مالكوم «مشاهد من بلاد فارس»، وكان كتاباً ممتعا وكتاب ميور «حياة محمد». وحسب رأيها «كانت مسرورة لامتلاكها متسعا من الوقت لقراءة أي شيء وكل شيء». وجاء ذلك نتيجة لحالة الكسل الطبيعي الناجمة عن الحرارة والرطوبة. وفي عيد ميلادها الثلاثين، أهداها لوك مضرب تنس، لكنه أوصى بشراء كتاب شامبرلين «أسس القرن التاسع عشر «كهدية عيد ميلادها الحقيقية»، كانت وجبات القراءة الخفيفة في المساء أو عند النوم تضم: ترلوب، وجورج إيليوت أو السير والترسكوت[3].

(1) إيميلي لوريمر إلى والدها، 30 إبريل و5 مايو 1911، المخطوطات الأوروبية، ف177/5.

(2) إيميلي لوريمر إلى والدها، 25 مايو 1911، المخطوطات الأوروبية، ف177/5، و3 يوليو 1911، المخطوطات الأوربية ف/177. السير جون كاي، تأريخ الحرب السباهية في الهند 1857–1858، ثلاثة مجلدات (لندن: دبليو إج. ألن. 1864–1874). كان السير هنري لورنس مسؤولاً عن الجيش الهندي البريطاني ف أوظ خلال تمرد 1857، ولقي حتفه في حصار لوكناو. قاد الجنرال جون نيكلسون الغزو البريطاني لدلهي ولقي حتفه خلاله.

(3) إيميلي لوريمر إلى والدها، 3 يوليو 1911، وإلى والدها ووالداتها 18 يوليو، و16 أغسطس، و26 ديسمبر عام 1911، وإلى والدتها 24 مايو و16 سبتمبر 1911، المخطوطات الأوروبية، ف177/6. Malcolm, Sir John, Sketches of Persia, from the Journals of a Traveler in the East, 2 vols, London: John Murray, 1828; Muir, Sir William, The Life of Mahomet and History of Islam, to the Era of the Hegira, 4 vols, London, 1858-61; Chamberlain, Houston Stewart, The Foundations of the Nineteenth Century, 2 vols, Lonodn and New York: John Lane, 1911

أكدت رنا قباني في دراستها الفذة المنشورة عام 1986 عن الرحالة الاستشراقيين وكتابات السفر فكرة إيجار الأفكار الموروثة، وناقشت بشكل مقنع أن الرحالة البريطانيين في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كانوا قد بدأوا رحلتهم فكرياً في فترة طويلة تسبق ركوبهم السفينة وانطلاقهم بأجسادهم إلى مقاصدهم. «لقد تشرّبوا عبر تعليمهم، ومن خلال مطالعاتهم أيام شبابهم، كثيراً من الخصائص التي قُدّر لهم أن يمنحوها للشرق»[1]. إن عائلة لوريمر تجسيد لصورة قباني عن الإمبريالية الثقافية والأدبيّة العالمية. غير أنه يمكن القول إنّ تحصيلها التعليمي والفكري قد أعدها بطريقة مثلى للإلمام بأدق تفاصيل قابلية الحكم الإمبريالي للتطبيق. ووفق منطق بيرنارد كوهن في دراسته للأنماط الإمبريالية للغة والسلطة، شرعت عائلة لوريمر باكتساب المعرفة المحلية الضرورية لتقوية النفوذ البريطاني في الخليج[2]. كانت اللغات على سبيل المثال، مهارة أساسية في الحكم الإمبريالي الناجح، كما كانت بالنسبة إلى لوك وإيميلي تحديا وهواية مشتركةً. كتب ديفيد لوريمر فور وصولهما البحرين رسالة إلى حماته تتضمن حاجته إلى أن يصقل لغته العربية، وتوقعاته أن إيميلي قد تتعلم اللغة العربية أيضاً. وقال كذلك: «إن إيميلي في الوقت الحالي، تنظر إلى اللغات السامية بمسحة من التعصب للغات الهندية-الجرمانية)، لكن ماذا عساك أن تتوقع غير هذا نتيجة لطريقة تربيتها؟ فعندما تفرغ من السنسكريتية والفارسية القديمة والحديثة، ستكون من المؤكد متعطشة لدراسة العربية»[3].

وبحلول مايو عام 1911، أصبحت إيميلي تقضي ساعتين في دراسة العربية وأحرزت بعض التقدم، بمساعدة لوك في تعلم الهندستانية، وفي هذه الاثناء بدأ لوك بصقل حصيلته من لغة الباشتو؛ تحسباً لاحتمال نقلهما قريبا من الواجهة الشمالية العربية. خاب ظن إيميلي «عندما غدت دون فائدة ترجى له، وذلك نتيجة حذف الباشتو الشائن من منهاج المدارس الابتدائية

(1) Kabbani, Rana, Europe's Myths of the Orient: Devise and Rule, London: Macmillan, 1986.

(2) Cohn, Bernard s., <Representing authority in Victorian India> Hobsbawm and Ranger (eds), The Invention of Tradition, Cambridge Cambridge: Cambridge University Press, 1983, p282-3. See chapter one.

(3) دافيد لوريمر إلى والدة إيميلي، 9 مارس 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 4/177.

في الوطن». على أي حال، تمكن لوك من إيجاد شخص باتاني ليساعده في القواعد. وأصبح لوك فيما بعد مسلوباً بمفاتن علم اللغة. وكي لا يفوقها لوك في تعلم اللغات، قررت إيميلي عندما استقدما خادماً فارسياً في فبراير عام 1912، أن تتعلم اللغة الفارسية، «فهي» حسب قولها «لغة جديرة بالاحترام، مع موروث أدبي متواضع». و«تستحق التَّعلُم لقراءتها والحديث بها، في حين إن الهندوستانية لا تعدو أن تكون لغة مشتركة بين الخدم، وليست اللغة الأم لأي أحد»[1]. شعرت إيميلي مع هذه «الفرص الوافرة» للارتقاء بدراساتها الثقافية، أنها لن تشعر بالحنين إلى الحياة الثقافية في أكسفورد، بل ذهبت إلى أبعد من هذا بقولها أنها «مع وجود عَدد من الكتب المختارة، توصي بجزيرة من جزر الصحراء العربية، لأي شخص يسعى إلى الثقافة، بكل ما تحمله الكلمة من معنى»[2]. شكلت حفلات العشاء مع عائلة لوريمير تحدياً لأكثر العقول إطلاعاً، لا بل وأدهشت معظم الناس. وعلى هذا الأساس تم منح كثيراً من زملائهما ومعارفهما ألقاباً سرية أو علنية، ففي رسالة خطتها إيميلي إلى أمها في ديسمبر عام 1911، بينت إيميلي لأمها لماذا تم إطلاق لقب «البروفيسور» على الميجور نوكس. لأنه في إحدى الأمسيات، وفي أثناء العشاء، عاد بي ذهني بشكل غير واعٍ إلى أكسفورد أو ميونخ، ودون تفكير خاطبت الشخص الأكبر سناً إلى جانبي بـ «بروفيسور». وهذا الحدث قاد إلى كثير من المرح، لكن الاسم علق به فأصبح شكلا من أشكال المخاطبة المناسبة، بل إنه أكثر وقاراً وتهذيباً، وفي الوقت نفسه، أقل فظاظة من «ميجور نوكس». ويبدو أنني بحاجة إلى وسيلة مخاطبة أقل رسمية من السيدة لوريمير، وأقل ألفة من الأسماء المسيحية المتداولة، مما جعلهم يطلقون عليّ اسم هاياباشا ...[3].

تعرض النصوص الاستشراقية الفذة، ككتاب دوتي «الصحراء العربية» مزيجاً بين

(1) إيميلي لوريمير إلى والدتها 18 مايو 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 5/177، رسالتها إلى والدها ووالدتها 18 مايو 1911، المخطوطات الأوروبية ف 5/177. رسالة إلى والدها ووالدتها 1 فبراير 1912، المخطوطات الأوروبية ف 7/177.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدها ووالدتها، 11 أكتوبر 1911، المخطوطات الأوروبية، ف6/177.

(3) إيميلي لوريمير إلى والدها ووالدتها، 23 ديسمبر 1911، المخطوطات الأوروبية، ف6/177. كان الاسم مناسباً إلى حد بعيد، وكان له صداه لدى الأكاديميين المؤيدين للحركة النسائية هذه الأيام. فلقد كانت هاياباشا معلمة وفيلسوفة، ورياضية وفلكية وكانت زعيمة المدرسة النيوبلاتونية في الإسكندرية في القرن الرابع الميلادي، وهناك مجلة مختصة في فلسفة الحركة النسائية تحمل اسمها.

الإعجاب بالطبيعة، والقيم الفضلى المفترض وجودها في حياة الصحراء، وبين النظرة إلى الإسلام. كانت آراء إيميلي لوريمير تندرج من عدة جوانب تحت هذا الموروث، وذلك على الرغم من أن موقفها الشخصي تجاه الإسلام كان يتسم أيضاً بنفور شديد من الكاثوليكية وطقوسها، دع عنك البريسبيتارية. ترسخت معتقدات إيميلي وميولها الدينية، عبَر التعليم الذي تلقته من خلال تنشئتها الدينية مسيحية بروتستانتنية، وعبر خلفية عملها نقابية إيرلندية، ويُعدّ هذا العامل الأخير الأكثر أهمية ووضوحاً في كتاباتها. فأصبح حرق البخور –وهو واحد من أكثر الرموز المرئية والحسية للكاثوليكية– رمزاً أدبياً متكرراً لنفور إيميلي من أي شكل من أشكال السلوك الإسلامي أو العربي، بما يحمله من معانٍ دينية أو علمانية. فإحدى مشاكلها الأولى مع تدبير المنزل رغبتها بتجنب إفساد شايها برائحة البخور النافذة من الشيوخ الزوار، وتضمنت تقاريرها عن اتصالاتها اللاحقة مع الوجهاء المحليين، إشارات حول هذا الموضوع[1].

ففي رسالة كتبتها إيميلي إلى إيديث بعد وصولها بفترة وجيزة، وصفت فيها كيف كان الميجور نوكس ولوك يستقبلان الأشخاص في الوكالة السياسية:

كان الشيخ يدخل، مرتدياً عباءة جميلة منسدلة ذات ألوان زاهية، ويضع على رأسه قماشاً ذهبياً مزركشاً، تم تثبيته بعصابتين ذهبيتين بدتا كما لو أنهما حبل. وكان يتبع كل شخص ثلاثة أو أربعة مرافقين. وفي العادة، كان الرجل العظيم يضع يده على قلبه ويقول (بطريقة تبدو كما لو أنه ينشد) تحية مؤثرة بطيئة لم أفهم منها سوى الكلمتين «سلام» و«الله» ... وبعد ذلك تكلموا لفترة وجيزة ثم جلسوا في صمت مهيب (وهذا بلا شك أكثر أدباً من الحديث بسرعة)، وبعد ذلك كانوا يعاودون الحديث، وكان أحد الخدم يحضر قهوة سوداء. كان الكل يشرب ببطء. ثم يعاود الخادم إحضار شرابٍ حلو، يتكوّن من السكر المذاب، والقرفة، والبهارات. وأخيراً، كان الخادم يحضر مبخرة ببخور محلي (كانت رائحته كرائحة مشروب أر. سي) كان الشيوخ يميلون برؤوسهم فوقها، ويرفعون أغطية رؤوسهم فوقها لتتشرب الروائح، ويدفعون بالدخان إلى أنوفهم باستخدام

(1) إيميلي لوريمير إلى أختها أيديث (نهاية مارس، 1911؟)، المخطوطات الأوروبية، ف 5/177.

كلتا اليدين كمروحتين، ثم يقوم الميجور نوكس ولوك بدورهما في الميلان فوق المبخرة، ويلوحان بها على وجهيهما باستخدام أيديهما، ولا يبدو عليهما على الإطلاق أنهما يحبانها. وبعد فترة صمت وجيزة، ينهض الشيوخ للمغادرة، فيتبادلون العبارات ذاتها التي ينطقون بها بعد تناول اللحم. كان هذا الموقف مؤثراً ومهيباً غير أنه أفسد حفلة الشاي الاعتيادية. تمكن لوك من القيام بدوره في هذه الطقوس بشكل جيد، ونجح في اتباع السلوك الوقور والصمت الجليل إلى حد الكمال[1].

تضمن هذا النص بما يحويه من ازدراءات استشراقية انحطاطا وتمييزا عرقيا، تم فيه تصوير الشيوخ عبر صور نمطية، باعدت البريطانيين عن «الآخر»، واحتوى الاقتباس السابق على تناقض بين عزم إيميلي لوريمير على الانخراط في الثقافة العربية عبر دراسة اللغة والآداب والسياسة، وإخفاقها الذريع في الانغماس في المظاهر الثقافية للحياة العربية على مستوى جسدي أو حتى مقاربتها. إن وصفها لاحتفالات عيد الأضحى، الذي خطته إلى والديها في نهاية فترة إقامتها في البحرين، لا يحمل أي مدلول على فهمها الحقيقي للإسلام، أو على أوجه تخص حياة المسلمين وممارساتهم الدينية. وورد عنها قولها إن: الأحد الماضي كان «يوم الحج الأكبر (وبه يقومون بالجري غير مرة حول حجرهم المقدس أو شيء من هذا القبيل) ويتم الاحتفال بهذا اليوم المقدس في العالم الإسلامي كله». لم تكن هذه الأشياء تعني شيئاً لإيميلي سوى أن لوك سيدعو عدداً كثيراً من الناس، وسيعاني من «الإنهاك الجسدي المهلك الناجم عن فناجين القهوة المبهرة، التي لا يتوقف تقديمها والشراب الحلو، ومرشات ماء الورد، وروائح البخور»[2]. ومن «عجائب القدر» أنها قد مرت وفي الأسبوع نفسه بواحدة من أكثر التحديات لقدراتها التنظيمية، عندما أوكل إليها تنظيم احتفالات البحرين لتتويج جورج الخامس ملكاً على إنجلترا. استمرت رسالتها بسرد مفعم بالحيوية، ومُفصّل حول إجراءات المناسبة الرسمية، والأعراف التي تضمنت استقبال ممثلين من مختلف التجمعات. بدأ اليوم الأول حسب قولها باستقبال الأوروبيين

(1) المرجع السابق.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدها ووالدتها، 6 ديسمبر 1911، المخطوطات الأوروبية، ف 6/177.

والأمريكيين، ثم «بدأت الإثارة» في اليومين اللاحقين:

استقبل لوك في الصباح الباكر قبل الإفطار، على الأرجح، الشيخ، وعند الظهيرة تم استدعاء جميع الرعايا البريطانيين (وكان عدد البيض منهم ستة فقط)، والهنود البريطانيين، وكل من يمكن عده من رعايا الملك جورج، لسماع خطاب تنصيب الملك، الذي تمت قراءته بالإنجليزية والهندوستانية ... وفي هذه الأثناء كان العامة مجتمعين، حيث تم توزيع مشروبات محلية، وعطور وأبخرة عليهم ... وفي المساء قَدِم باقي المجتمع الأبيض لتناول العشاء.

لكن الشيء، الذي سبب لي الخوف للوهلة الأولى هو حفل العشاء المُعدّ للمحليين. لقد بذلت قصارى جهدي في تقديم قائمة طعام يفترض بهم تناولها مع أنهم لم يذوقوا مثلها من قبل. ضحك لوك على توتري حيال هذا الموضوع. وقال بسعادة إنه ليس هناك من أحد يشاركني خوفي من ذاك المجهول. آمل أنهم سيشعرون بالراحة على الرغم من عدم معرفتي بعدد من يستطيع منهم التعامل مع الشوك والسكاكين. سنبذل قصارى جهدنا على أي حال لنضمن لهم الراحة التامة، ولحسن الحظ كان معظمهم يتكلم الإنجليزية بشكل جيد.

وفي ملحق للنص أضافت أن اليوم مضى على أفضل حال، ووصفت مختلف المندوبين الذين توافدوا حسب أجناسهم العرقية:

كانت بداية فترة الظهيرة تعني للوك استقبال عدد كبير من الوفود العربية، كان عددهم يزيد عن الثلاثين، وتضمن خطاباً عربياً طويلاً ومنمقاً. وبعد ذلك استقبال وفود من الهنود، كنت موجودة خلال هذا الاجتماع أيضاً، فهم كانوا رعايا بريطانيين. وقفت أنا ولوك في منتصف الغرفة وصافحنا كل شخص كان بداخلها وكم كانت أيديهم رطبة وباردة... وبعد ذلك تم توزيع المكسرات، وغيرها من الأشياء الأُخرى، التي عادة ما تقدم للهنود. وبمجرد مغادرة الوفود، بعد أن يتم رشهم بماء الورد بغزارة وتبخيرهم، سرتُ أنا ولوك لغسل أيدينا واستنشاق هواء غير مُبَخّر مستغلين انشغال الوفد التالي بإجراءات اصطحابهم إلى داخل الغرفة ... وأخيراً كان العشاء ناجحا في حد ذاته .. [الزوار

المحليون] كانوا يعرفون الأدوات [السكاكين والشوك]، لكنهم في المقام الأول لم يدفعوا كراسيهم إلى الأمام بل جلسوا بعيدين عن الطاولة عدة أقدام، وبين حين وآخر كانوا يسندون ظهورهم إليها.. المهم سار كل شيء وفق توقعاتنا، وأظن أنهم كانوا مرتاحين ومسرورين.

تصرف لوك نائباً مصغراً للملك بنجاح باهر وبمزيج فريد من الكرامة والفخامة، وكانت خطاباته ممتازة.

وبعيداً عن الجزئيات الغريبة التي تشكل مبادئ السلوكيات الاجتماعية للطبقة الوسطى البريطانية، عبرت الرسالة، بمفردات عينية حية عن شعور العزل الحضاري، الذي يمكن تَتَبُّعه في رسائل إيميلي لوريمر في هذه الفترة، وفي أثناء هذا التعيين. فضلا عن ذلك، فلقد شكل التصوير السلبي لحكام العرب، ووجهائهم، ومجتمعاتهم المكونة من تجار هنود وخدم مدنيين، مبرراً كافياً، بل ومقنعاً، للاعتقاد البريطاني أن الإمارات المحلية بحاجة إلى الحماية والتعليم الإمبرياليين. فالوقائع السياسية لطبيعة العلاقات مع الحكام والموظفين المحليين كانت مختلفة تماماً عن تعدد روائح المناسبات الرسمية. فَجُل اهتمام البريطانيين كان منصباً بلا شك حول عدم قدرة العرب على إدارة إماراتهم الصغيرة بفاعلية، وحول الدور الإمبريالي في تنويرهم وتعليمهم. فعلى سبيل المثال، كانت الخضار والفواكه في البحرين نادرة لعدم حاجتهم إليها، حسب قول إيميلي، فالعرب يستطيعون زراعة أي شي، «إذا ما ألقوا للموضوع بالاً، خاصة عندما نعلم أنهم يجنون مالاً وفيراً خلال أربعة شهور يقضونها في البحث عن اللؤلؤ، في حين يقضون بقية العام باسترخاء»[1]. كان الحاكم الشيخ عيسى بن علي آل خليفة «لطيفاً، بطابع التفكير الطويل لقول ما يريد قوله. ظنت إيميلي أن البريطانيين، في نهاية المطاف، سيتولون بشكل حتمي زمام الأمور ليضعوها في نصابها، حتى إنها أخبرت والديها أن مظاهر إدارة الحاكم «أصبحت محبطة»:

كنا نجلس صامتين ونحتج، ونعاتب، ونتذمر إلى حاكم البحرين الشيخ ذي الشأن. وكنا نحاول بإخلاص وبضمير أن ندرأ عن أنفسنا شر ذلك اليوم، وكنا ننصحه بأشياء

(1) إيميلي لوريمر إلى أختها أرجي، 29 إبريل 1911، المخطوطات الأوروبية، ف177/5.

كثيرة وكان يتجاوب معنا تماماً فهو يحاول ان يحافظ على هدوءه وينصت إلينا بابتسامة وأمل مُجديين..»[1].

وفي سبتمبر من عام 1911، كتبت إيميلي إلى والدها تخبره أن لوك قد قام بزيارة إلى الدولة المجاورة قطر، وزار حاكمها الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني، ونظراً لاستثنائها من النفوذ البريطاني، على الأقل حتى 1916، عندما تم توقيع أول معاهدة قطرية إنجليزية، كان الوكلاء البريطانيون في البحرين يعدون القيمين فيها أقل مسؤولية، لكنهم في الوقت نفسه، أقل تعلماً. وفي سياق سردها رحلة لوك لأبيها، وصفت إيميلي عائلة آل ثاني بالأذكياء المثيرين للاهتمام، غير أنهم في الوقت نفسه يتعاملون بفطرتهم[2].

وبينما كان لوك في قطر، طمأنت إيميلي والدتها أنها ليست وحدها، وهي في الحقيقة، «تشعر» بالأمان أكثر من «بقائها وحيدة في أي مدينة في الوطن». لقد كثّف لوك من الحراسة، فكان لها أربعة، «يود كلٌّ منهم لو يضحي بحياته لقاء الحصول على ثقة لوك، وهذه هي حال السباهيين والخدم الهنود»[3]. فمن قبيل السخرية أن يصبح السباهيون الهنود، وهم الأبطال المهابون فيما سمي «بالعصيان الهندي» أو «ثورة السباهيين» التي حدثت عام 1857، حرّاساً. وكمثال على تفاني السباهيين في خدمة لوك، ضربت إيميلي مثلا في رسالة سابقة إلى أمها حادثة الحريق، الذي شب في الأكواخ، الذي تمكن السباهيون من إخماده بمساعدة لوك[4]. وبعيداً عن الخدم وأمور البيت، كانت إيميلي مضطرة إلى مواجهة المجتمع في البحرين إلى حد ما، والحضور إلى ذلك المكان، الذي كانت نساء الموظفين البريطانيين يلتقين فيه مع «الثقافة» المحلية، ويقمن فيه بتوطيد عُرى العلاقات مع الرجال والنساء المحليين. لكن العرب في جميع الأحوال ينأون بأنفسهم عن الأشياء التي لا تعنيهم. وهم طبعاً – وفق الترتيب الوظيفي في المنزل– أدنى درجة من الموظفين الهنود. أخبرت إيميلي والديها فور وصولها إلى البحرين في مارس من عام

(1) إيميلي لوريمير إلى والدها ووالدتها، 27 ديسمبر 1911، المخطوطات الأوروبية، ف6/177.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدها، 12 ديسمبر 1911، المخطوطات الأوروبية، ف6/177.

(3) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 18 سبتمبر 1911، المخطوطات الأوروبية، ف6/177.

(4) إيميلي لوريمير إلى والدها ووالدتها، 20 يونيو 1911، المخطوطات الأوروبية.

1911، أن الطباخين من جزيرة جاوا كانوا شائعين في البحرين، وأن المبشرين الأمريكيين -لديهم جميعاً طباخون- كانوا يساعدونها وزوجها في إيجاد طباخ؛ لأن السيدة نوكس ستأخذ طباخها، الذي دربته منذ كان صغيراً، معها إلى مسقط[1]. ومما يدل على تجاوز كرهها للكاثوليكية والكاثوليكيين -في هذه المرحلة على الأقل- كتبت إيميلي إلى والديها برسالة تُخبرهما فيها أنَّ خدمها الجدد كانوا كاثوليكيين رومانيين، لهذا لم يجلبوا معهم «تعقيدات عرقية أو غذائية»[2].

وفي الواقع، يمكن القول إن إيميلي لوريمر قلما اتصلت مع السكان العرب، بل إن خدمها الهنود والفرس هم من كان يشرف كلياً على أمور منزلها وتعاملاتها مع التجار والباعة. كانت الأسواق السوداء «بأزقتها الضيقة الحارة تغصُّ بعرب، وفرس يدخنون ويتزاحمون»، وبناء عليه لا يستطيع سوى الخدم ولوج هذه الأسواق[3]. وباستثناء الزيارات وحفلات الاستقبال الرسمية، بقيت بعيداً عن الشيوخ وموظفيهم، في حين أنها كانت دائماً تمدح لوك للباقته، ومقدرته على التعامل مع الطعام، والطقوس، والسياسة العربية. فضلاً عن هذا، كانت النساء المحليات وطبيعة حياتهن اليومية، خارج نطاق تجربتها، لهذا لم يثرن أي اهتمام لديها. وبعيداً عن «اختراقها الحريم»، كانت إيميلي لوريمر راضية لانطباعاتها السطحية التي تعدّ معرفة خاصة في واحدة من إشاراتها الشحيحة إلى النساء، ووصفاً نمطياً غريباً لثنائية الجميل والقبيح من وجهه نظر استشراقية:

كانت النساء يرتدين أحجاماً، وأشكالاً مختلفة من الحجاب، فبعضهن وضع الأغطية الموصلية السوداء السميكة. وبعضهن ارتدين أقنعة قاسية تشبه ما نلبسه عادة في حفلة تنكرية. وجميعهن وضعن عباءاتهن عندما رأين موكبنا، بعضهن كُنَّ هرمات فقدن كل مظاهر الحياة حتى إن واحدة منهن رأت أنه لم يكن هناك من داعٍ لإجراءات الحيطة برفع العباءة.

(1) إيميلي لوريمر إلى والدها ووالدتها، 13 مارس 1911، المخطوطات الأوروبية، ف5/177.

(2) إيميلي لوريمر إلى والدها، 30 إبريل 1911، المخطوطات الأوروبية، ف5/177.

(3) إيميلي لوريمر إلى والدها، 25 مايو 1911، المخطوطات الأوروبية، ف5/177.

غير أن بعضهن الآخر كُنَّ جميلات جداً، ورغبن في أن يدعننا، نلقي نظرة خاطفة عليهن قبل إن يغطين أنفسهن بحركة سريعة[1].

تكمن أهمية هذا النص في كونه قد اقتطع من وصفٍ لانطباعات، ومظاهر كونت خلال نزهة قامت بها إيميلي بعد وصولها إلى البحرين بخمسة شهور، ورأت فيها المدينة لأول مرة. في هذه الأثناء، كانت الجزيرة نفسها مزيجاً غريباً من اللونين الأبيض والأسود عبر ما كان يوثقه لوك من صورٍ التقطها بآلة تصويره من نوع كودك. كانت الوكالة بعيدة عن مراكز تجمع السكان، وذلك من منطلق سلامتها هي وأهلها، أما الطبيعة فخلابة، والبحر بزرقته جميل جداً، وكذا أشعة الشمس وسماء الليل المرصعة بالنجوم[2]. وفضلا عن ذلك، لم تتأثر حياتهم الشخصية سلباً إطلاقاً. ففي إحدى رسائل عيد الميلاد التي خطتها إيميلي إلى والديها، ذكرتهما أن ثلث فترة التعيين في البحرين قد انقضت فعلاً، وكانت مليئة بالتجارب الجديدة، لكن «الشيء المدهش» هو:

قلة تأثير الفروق التي قد تحدث في حياة أحدنا؛ نتيجة للظروف المحيطة، فالصحراء العربية، والخدم ذوو البشرة السوداء، والبيوت ذات الأشكال الغريبة، والحمامات الغريبة لا تؤثر على عاداتك أو ذوقك قيد أنملة، بل إن حياة أحدنا تستمر كما لو أن خيمتنا كانت منصوبة في شارع ليسون أو طريق مانبري[3].

وجدت هيلين كالاواي، في دراستها التي أجرتها عام 1987 على المرأة الأوروبية في نيجيريا الاستعمارية، أنَّ هناك تغايرا بين الصور التقليدية لزوجات الموظفين البريطانيين في الخارج عن غيرهن من النساء الغربيات البيضاوات، وبين إدراك هولاء النسوة لطبيعة حياتهن. ولقد بينت أن هولاء النسوة عادة ما يقمن بتجاوز الحدود التي فرضها عليهن الرجل؛ نتيجة للظروف الاجتماعية، والسياسية للحكم الإمبريالي، ويقمن أيضا بتكوين

(1) إيميلي لوريمير إلى والدها ووالدتها، 18 يوليو 1911، المخطوطات الأوروبية، ف177/6.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدها، 27 سبتمبر 1911، المخطوطات الأوروبية، ف177/6.

(3) إيميلي لوريمير إلى والدها ووالدتها، 19 نوفمبر 1911، المخطوطات الأوروبية، ف177/6.

علاقات مقنعة، وبعضها متعاطف مع النساء المحليات[1]. بيد أن إيميلي، بتصويرها «لنفسها»، ورسمها ملامح شخصيتها الإمبريالية عن إدراك ووعي، لا تنسجم بأي حال من الأحوال مع هذه النظرية –نظرية «زوجة الموظف البريطانية المُحَسَّنة»– فخلال فترة إقامتها في البحرين «جاهرت إيميلي لوريمر بنيتها»، ولم يرادوها أدنى شك حول دورها، ومكانتها في التراتبية الإمبريالية. وبعيداً عن تأنيث الامبريالية، لعبت إيميلي لوريمر دورها بالفخر والطاقة نفسيهما، اللذين كان الرجال يتسمون بهما، وكانت تحرص على الدوام أن تظهر نفسها، وبشكل مختلف تماماً عن النساء الأخريات كامرأة برزت مدركة، ومتفهمة لدورها: شريكة فاعلة في السياسة الإمبراطورية وإدارتها. أما آراؤها بالعرب والثقافة «الاستشراقية» والمجتمع الشرقي، فلقد تشربتها عبر تجاربها الاجتماعية، والتعليمية، ولا تعدو هذه الآراء أن تكون انعكاساً لآراء صفها، والتركيبة السياسية للإمبريالية. ففي بدايات القرن العشرين وفضلاً عما سبق– اعتمدت إيميلي على رؤية زوجها وزملائه من الذكور للأحداث السياسية المحلية والحياة الاجتماعية المحلية، وحديثهم عن هذه الأحداث طوال الوقت، بل إنها تجاوزت هذا الاعتماد إلى الاستخدام الفعلي لهذه الرؤية والأحاديث في مفكرتها، وبهذا نأت بنفسها عن المشاركة الذاتية في الأحداث اليومية. غير أن حالة شبه العزلة التي كانت تفصل الخليج بظروفه المختلفة عن المجتمع الهندي البريطاني، قد منحتها فرصة –عادة ما تكون غير متوافرة للنساء الإمبرياليات والاستعماريات– لتطوير حياتها الفكرية والأكاديمية والتمركز حولها. وعلى الرغم من أن هذه الظروف قد عززت الشعور العام بالفصل العرقي، إلا أنها قد قوّضت الحدود الفاصلة بين الجنس والأنوثة.

تشير حياة إيميلي لوريمر في البحرين –كما ترتسم في طيات إداركاتها الموروثة والمكتسبة، وبعضها مستمد أحيانا من ادراكات الآخرين الاستعمارية– إلى «تماثل روايات» زوجات الموظفين في الخارج، أو المرأة البيضاء في المستوطنات، «وفي أحيان أخرى إلى تقلقلها، فلقد قوّضت إيميلي عبر تصميمها على المشاركة في مناظرة فكرية

(1) Callaway, Helen, Gender, Culture and Empire: European Women in Colonial Nigeria, London: Macmillan,1987.

حول الإمبريالية، أُسُسَ الخرافة المتداولة عن جهل زوجات الموظفين السياسي، واختصار دور المرأة كونها مدّبرة منزل، وزوجة، وأم، ومضيفة اجتماعية. لكن من جهة أخرى، لا تعدو آراؤها وإدراكها للمهمة الإمبريالية البريطانية، ووجهة نظرها الصريحة حول العزل الجنسي في المعاملة الإمبريالية عن كونها صدى لصورة زوجة الموظف البريطاني في الخارج إبان نهاية القرن العشرين.

كانت شخصية إيميلي لوريمر معقدة وفاتنة في الوقت نفسه. ومنحتنا رسائلها الهائلة العدد الفرصة؛ لمعاينة تقلبات ردود فعل النساء الإمبرياليات، ودقائق أمورهن خلال فترة طويلة من الزمن. فعلى سبيل المثال، قادتها تجاربها خلال الحرب العالمية الأولى إلى تغيير كثير من آرائها حول العالم الخارجي، كما فعلت غيرها من النساء. وغدت في فترة لاحقة، عندما أصبحت رحالة ناضجة، متفتحة الذهن، ومستجيبة للتنوع الحضاري. وفي عام 1911، لم تعد إيميلي صغيرة، لكنها لم تكن قد تخلصت بعد من رتوش لملمة معارفها السياسية والأكاديمية، فقررت أن تتعلم عن بُعد، وأن تتتبع الأخبار من غير اتصال أو خبرة مباشرين. إننا لا نشعر ونحن الآن في القرن الحادي والعشرين، بالارتياح إزاء إدراكات إيميلي لوريمر للإمبريالية، والتأثير المتبادل بين أهداف الإمبريالية البريطانية، وبين التطلعات التي كان يحملها السكان المحليون في هذه المناطق، خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى. قد يود بعض المؤرخين، وخاصة النساء منهم، عدَّ إيميلي شخصية هدامة، وقادرة على تقديم صوت واضح وأكثر تجانسا. كتبت دوروثي شرايدن، في بحث جديد حول صعوبات الكتابة عن حياة النساء والبحث فيها، ردود فعلها إزاء فترة طويلة من البحث حول امرأة وجدت أنها كانت تمتلك مشاعر ممتزجة، وتغيرت رؤيتها لحياتها على مدى وقت طويل، وفق مزاجها الشخصي، وتقلبات المواقف. وأكدت دوروثي على الحاجة إلى احترام آراء النساء الآخريات، دون الالتزام بها. خاتمة بقولها: «لا نستطيع أن نجد عاملاً مشتركاً بين جميع النساء ... وعلينا ألا نتوقع ذلك»[1].

عندما توفيت إميلي لوريمر عام 1949، بعد حياة وظيفية طويلة، متنوعة: زوجة موظف

(1) Sheridan, Dorothy.

بريطاني في الخارج، وصحفية، ورحالة، ومترجمة، تضمن نعيها في تقرير سومرفيل السنوي -وبدقة- جوانب قوتها ونقاط ضعفها، واعترف من كتبه بتقلبات مفاهيمها، ومواقفها على مرِّ الوقت:

بدت طاقتها ونشاطها بلا حد، فسواء أكانت في النهر أم في ملعب التنس أم في نطاق عملها الأكاديمي، كانت تتفوق دون جهد يذكر، وكانت تستمتع في كل جانب من جوانب حياتها. فعندما كانت مدرسة، كانت محفزة للآخرين على الرغم من أن نهجها السريع في التدريس قد ترك الطلاب لاهثين. ما كانت لتحتمل الرتوش الغامضة، والدراسة التي تعوزها الدقة، أو الأفكار والمشاعر المزيفة. الغباء التام هو ما كانت تنظر إليه «كأحد الأمراض التي قد يرثها الجسد». «المسكين!» لكن مع النضج والخبرة، امتلكت عاطفة وإدراكا قويين ولطفا لا يخبو.

كانت حياة إيميلي لوريمر مليئة بالإنجازات والمغامرة في حقول العلم والاستكشاف، فلقد كانت بحق مبهرة، وهذه هي المفردة الوحيدة التي يمكن أن تصف وجوه عقلها الثري الموهوب الحاذق. غير أن أكثر ميزة قد يذكرها بها أصدقاؤها، هي شجاعتها ودفء عواطفها وشبابها[1].

تتضمن روايات إيميلي لوريمر لتجاربها في البحرين، تجسيداً للكينونة الإمبريالية لإحدى النساء، خلال فترة قصيرة محددة قبل الحرب العالمية الأولى. وتفيض رسائلها بمواقف إمبريالية وعرقية وأعرافٍ اجتماعية ومنزلية معاصرة لها. غير أنها كانت تتمتع بحماس شديد للمغامرة والتحدي، وروحِ مرحة لاذعة ولطف وإنسانية، وعلى الرغم من انحيازها. فلقد كانت كاتبة موهوبة إلى أبعد حد، وتُعَدّ رسائلها بما حوته من تفاصيل حول الحياة اليومية، والملاحظات الدقيقة للناس والأماكن، سجلاً متميزاً لتفاعل امرأة غربيّة مع الأحداث في منطقة الخليج العربي في أوائل القرن العشرين.

(1) عزاء إيملي اوفيرند لوريمر، 1881-1949، رابطة كلية سومرفيل لكبار الأعضاء، الملحق السنوي الرابع والعشرون للتقرير الكلية، 1948-1949، المخطوطات الأوروبية، ف 92/177.

الفصل الثالث

قصص نظيرة: المبشرون الأمريكيون في الخليج، 1892–1914

عكست سرديات إيميلي لورمير لتجاربها في البحرين الشكليات العامة، والتحيزات الشخصية للحياة الإمبريالية البريطانية قبل الحرب العالمية الأولى. فلقد سعت عائلة لورمير جاهدة تساندها مجموعة من مواطنين بريطانيين يغمرهم الحس بالمواطنة، إلى المحافظة على أطر المجتمع الإمبريالي الأوروبي الطبقية والثقافية، على الرغم من الخلفية الثقافية لإيميلي وروحها المستقلة، التي تأثرت بالحرية النسبية التي منحها تعيينهم في الجزيرة العربية. وخلال الفترة نفسها، تمركزت مجموعة مشابهة صغيرة من المبشرين الأمريكيين في الخليج شكلت تحدياً للبريطانيين عبر آرائها غير الاعتيادية، تجاه الناس المحليين، وعلاقتها بالبريطانيين، وتجاه بعضهم بعضاً.

تم افتتاح أول محطة دائمة للإرسالية الأمريكية العربية في البصرة، في أغسطس من عام 1891، وتلا هذا افتتاح قواعد في البحرين عام 1892، ومسقط عام 1893[1]. وفي عام 1910، تم افتتاح مستوصف في الكويت، بعد محاولات فاشلة لإرسال عاملين هناك منذ 1894. وفي الساحل المتصالح، الذي كان يعده الأوروبيون والأمريكيون أكثر الأماكن تعذراً للوصول في الخليج، وصل أول بائع للكتاب المقدس من الإرسالية عام 1896. وعلى الرغم من زيارات المبشرين المتزايدة إلى المنطقة، إلا أنهم لم يحافظوا على وجود دائم، في أيٍّ من الإمارات المتصالحة قبل الحرب العالمية الثانية[2]. لكن سرعان ما تمكّن المبشرون عَبْرَ تمركزهم على رأس الخليج (البصرة والكويت)، وفي جزيرة البحرين، ومسقط على

(1) Mason, Alfred De Witt and Barny, Frederick J., History of the Arabian Mission, New York: Board of Foreign Missions, Reformed Church in America, 1926.

(2) Al- Sayegh, Fatma, <American missionaries in the UAE region in the twentieth century>, Middle Eastern Studies 32, 1996, pp.120-39. كان بائعو الكتاب المقدس مسيحيين من شبه القارة الهندية لهم علاقة بالأمور المحليّة. وكان يطلق على هؤلاء كلمة Colporteurs (وهي منبثقة من الفرنسية وتعني «بائع متجول» أو بائع أشياء صغيرة وكتب وجرائد).

المحيط الهندي، من القيام بغزوات إلى الداخل، وعلى طول الساحل العربي من الخليج.

انبثقت فكرة الإرسالية في برنزويك، نيوجيرسي عام 1889، وكانت وليدة أفكار جايمس كانتين، وفيليب فيلبس، وصاموئيل زويمر. والأخير عاصر إيميلي ودافيد لوريمير خلال فترة وجودهما في البحرين. كان ثلاثتهم طلاباً في المنتدى اللاهوتي في الكنيسة الإصلاحية (الهولندية) في أمريكا، ودعمهم في مشروعهم هذا أستاذهم الدكتور جون لانسينغ؛ أستاذ لغة الكتاب القديم والتفسير في المنتدى. وعقب توسع النشاطات التبشيرية الأمريكية البروتستانتية في آسيا، وإفريقيا، في نهايات القرن التاسع عشر، شكل تحدي الجزيرة العربية؛ «مهد الإسلام» إغراءً للرجال؛ لأن هذا المكان هو الغاية القصوى للإصلاحيين المسيحيين[1]. وعلى الرغم من التعاطف، الذي أبداه الأعضاء الأعلى رتبة في الكنسية الإصلاحية، إلا أن مشروع حملة موجهة للجزيرة العربية –وهي منطقة تعد من وجهة نظر الكثيرين متعذرة الاختراق، غير معروفة– قد قوبل بالرفض في البداية من لجنة البعثات الأجنبية في الكنسية. ويستذكر مؤرخو البعثات التبشيرية إلى الجزيرة العربية الرئيسيين ألفرد ديوت ماسون، وفردريك ج. بارني لاحقا أن معظم الناس في تلك الفترة، كانوا يرون أن لا أمل يرجى من وراء هذه المهمة؛ لأن المنطقة غير مألوفة، وثمة صعوبة في محاولة إخضاع «الهلال» «للصليب»[2]. والأهم من ذلك، لم يكن لدى اللجنة المال الكافي لتمويل مغامرة جديدة على هذا النحو. لكن لانسنغ، الذي ولد في الشرق الأوسط؛ في دمشق تحديداً، وطلابه الثلاثة بقوا ثابتين على رأيهم، وقرروا السعي فُرادى على أمل أن تتبنى اللجنة المشروع لاحقاً. وفي أغسطس من عام 1889، وضعت المجموعة خطة وهم مجتمعون في منزل كنتين، وهناك ألّفَ لانسنغ ترنمية جديدة من ستة أبيات، حول الإرسالية العربية ضمنها صورا شعرية حول «الرق» و«العبودية»

(1) نشر زويمر عام 1900 كتابا وصف فيه جغرافيا شبه الجزيرة العربية وناسها وسياساتها. وضمَّن كتابه حكايات عن أعمال تبشيرية إسلامية ومسيحية نشطة في المنطقة حتى زمن نشر الكتاب. كان عنوان الكتاب «جزيرة العرب: مهد الإسلام» وتضمن عنوان جانبي «شبه الجزيرة «المهملة»»، رأي المبشرين في شبه جزيرة العرب. تمت إعادة تسمية «التقرير الميداني للإرساليات التبشيرية العربية « بـ «جزيرة العرب المهملة»»، عام 1902، وبقي هذا العنوان قيد الاستخدام حتى عام 1949 عندما تم الاتفاق على التخلي عنه، وذلك بعد تداول حول الدلالات السلبيّة للعبارة، واستبداله بعبارة «جزيرة العرب تنادي»». تمت إعادة طباعة التقارير الميدانية كاملة من عام 1892 حتى عام 1962. ونشرت في ثمانية أجزاء عام 1988. (فارنهام كومون، نسخ الأراشيف).

(2) Mason, Alfred De Witt and Barny, Frederick J., History of the Arabian Mission, p 57-106

و«الإهمال»، التي عُدّت بدورها مبررات دائمة، تسوغ القيام بعمل سريع يقع على عاتق العاملين بالتبشير وداعميهم بالمال.

هناك أرض تجاهلناها طويلاً
وهناك أُناس نبذناهم مديداً
لكننا بصدق ولطف اخترناهم
لحب الإله لهم.
...وإلى مضيف الإسلام سرنا
حيث العبد في العبودية ينزف
إلى ساكن الصحراء، الذي يرجونا
أن نجلب حب الإله له(1).

غادر كانتين إلى بيروت في أكتوبر عام 1889 لدراسة اللغة العربية، وتبعه بعد ثمانية شهور زويمر. وفي الولايات المتحدة، تمكن لانسنغ وغيره من الداعمين للمبشرين أخيراً، من جمع المال لبدء العمل. وفي يناير عام 1891 تم إلحاق الإرسالية التبشيرية بالكنيسة الإصلاحية في أمريكا، وأصبحت في النهاية، وبشكل رسمي إرسالية الكنيسة عام 1894. كان هدف الإرسالية القريب هو «الجهاد الصليبي ضد الإسلام»، أما هدفها البعيد المدى فهو كما خطط واضعوه «تحويل الجزيرة العربية إلى الكنيسة البروتستانتية، الذي قد يتم عبر احتلال الداخل واستخدام الساحل قاعدة»(2).

(1) «ترنيمة الإرساليات التبشيرية العربية»، في ماسون وباريني، تأريخ الإرساليات التبشيرية العربية ص 62-63. كان أحد المشاريع التبشيرية الأولى: هو تأسيس مدرسة للعبيد، الذين تم تحريرهم، تم إنشاء المدرسة في مسقط على يد بيتر زويمر. وشكّل الإنزياح بين العبودية الحقيقية، والعبوديّة المنظورة دوماً موضع نقاش واعٍ، وغير واعٍ في كتابات المبشرين، خاصة فيما يتعلق بالنساء.

(2) جدد البند الثاني من قواعد الإرساليات التبشيرية في الجزيرة العربية الأهداف كالآتي: «هدف الإرسالية -وفق الخطة الأصلية- تحويل جزيرة العرب إلى الإنجليكانية، علينا بذل قصارى جهدنا، وبشكل خاص بين المسلمين ولصالحهم. بمن فيهم العبيد. طرقنا تتمثل في الوعظ، وتوزيع الكتاب المقدس، والتنقل، والعمل الطبي والمدرسي. هدفنا احتلال داخل جزيرة العرب بدءاً بالساحل؛ لتصبح مركز انطلاقٍ لنا. (الخط المائل ورد بذاته في النص) ماسون وباريني، تأريخ الإرساليات التبشيرية العربية. ص 196.

يستذكر المبجل ج.ي. ميردوك في كتابه «استعراض تاريخي لبعثة تبشيرية في الجزيرة العربية»، المنشور عام 1914، أن «الهاجس الأول، الذي كان يخامر عقول أولئك، الذين ينتمون إلى هذه الإرسالية، هو احتلال الجزيرة العربية، وحكمها لغرض البقاء هناك، حتى يتلقى الناس الإنجيل ويروا في المسيح المخلص لهم»[1].

هناك أرض تجاهلناها طويلاً
وهناك أُناس نبذناهم مديداً
لكننا بصدق ولطف اخترناهم
لحب الإله لهم.
أرق من نسائم ليلهم الرشيقة
أغنى من سماء قاطن الصحراء المليئة بالنجوم
أقوى من حماية الصحراء لهم
حب الإله لهم.
...وإلى مضيف الإسلام سرنا
حيث العبد في العبودية ينزف
إلى ساكن الصحراء، الذي يرجونا
أن نجلب حب الإله له.
وعبر الوعد على صفحات الرب
وعبر عمله في مراحل التاريخ
وعبر الصليب المتوج على مر التاريخ
سيظهر حب الإله لهم.
وبالصلاة، التي ستبقى ذات نفع
وبالقوة، التي ستبقى ذات دفع

(1) جزيرة العرب المهملة: أخبار المبشرين ورسائلهم أكتوبر/ديسمبر 1914، ص 11.

وبالحب، الذي سيبقى ذا رفعة
سننقل حب الإله لهم.
حتى يقوم أبناء الصحراء وهم الآن غرباء
حتى تقوم قبائلها وممالكها
حتى تقوم ملايين جزيرة العرب الجذلة
بمدح حبه لهم.

ترنيمة الإرسالية التبشيرية العربية، منشورة في «جزيرة العرب المهملة»، 1915.

أشار ماسون وباربي إلى أن التبشيريين «لم يغب عن أذهانهم هذا الهدف مطلقاً»[1]. وتجدر الإشارة هنا أن المصطلحات العسكرية والرموز اللتي ظهرت، كانت قد بدأت في السنوات الأولى من «الحملة التبشيرية واستمرت طوال فترة الإرسالية»، ودللت بشكل جلي على نظرة المبشرين إلى أنفسهم ذكوراً وإناثاً، وإلى طبيعة النشاطات الصليبية[2]. ولقد قادت أهداف العمل التبشيري وغاياته، فضلا عن منهجيات العمل التي اتبعها المبشرون حتمياً إلى نشوء رأي استعماري، مغاير تماماً لذلك الذي كان يتبعه الموظفون البريطانيون وزوجاتهم، فالدافع الخفي للوجود البريطاني في الجزيرة العربية والخليج، على مدى ثلاثمائة وخمسين عاماً كان اقتصادياً واستراتيجيا، يتمحور حول حماية الإمبراطورية الهندية، وضمان عبور الرجال والمواد، دون عوائق بين الحكومة المركزية في لندن، وإدارات الحكومة الهندية في البنغال، وبومباي ومدراس. وارتأى البريطانيون، حتى نشوء صناعة البترول في بدايات القرن العشرين، أن سياستهم في الخليج تقتصر على إنشاء، وترسيخ علاقات دبلوماسية مع الحكام على الساحل (مدعومين عند الحاجة بقوات بحرية)، وتجنب التدخل في السياسة المحلية الداخلية، أو الدين، أو الثقافة، أو

(1) ماسون وباربي، تأريخ الإرساليات التبشيرية العربية، ص 770.

(2) وكما في كتابات الآداب التبشيرية الأخرى، تطغى المصطلحات العسكرية الواضحة على تقارير الإرساليات التبشيرية العربية. ومن أمثلة هذه التعابير «الإخبار من الجبهة» الحاجة إلى «تعزيزات»، «صرخة العرب» («احتلال الداخل») و«جيش النساء» إلخ.

التوسع إلى داخل الجزيرة العربية. وعلى النقيض من ذلك، كان العمل التبشيري نشاطاً ضاراً يقوم على ممارسة النفوذ والسلطة، وكان سعياً لكسب قلوب وعقول الآخرين، لا عبر المعاهدات والاتفاقيات التي تنص على المصالح المشتركة للطرفين، لكن عن طريق إقناع معتنقي المسيحية بعلو كعب دين المبشرين وطريقة عيشهم. وعلى الرغم من نشوء جدلٍ مستمر وتوتر بين أوساط المبشرين حول القيم النسبية، وأولويات هدفهم النهائي في نقل الدين والحضارة، إلا أن مصطلح «التبشير بالإنجيل» في بدايات القرن العشرين قد أصبح يعني نشر الإنجيل و«نقل الحضارة». وكالبريطانيين تماماً، كان الأمريكيون يؤمنون بتميزهم، وشعورهم الغامر بوجوب تحرير بقية العالم، عبر إشراك الآخرين في دينهم وثقافتهم، وفرضها عليهم(1). وفي نظرتهم إلى العالم هذه، التي كانوا بصدد تطبيقها في الجزيرة العربية، أظهروا، بصورة لا تدع مجالاً للشك، تعنتهم وضيق أفقهم، وهم -وهذا حالهم- مشابهون للبريطانيين تماماً. لكنهم ارتكزوا في آرائهم هذه على صورة ذاتية مختلفة أدت إلى خلق أسلوب للعيش مختلف تماماً، وخلقت صورة مغايرة للجزيرة العربية، وخطاباً متمايزا أو «قصصا نظيرة للتجربة الاستعمارية».

بيد أنّ الفارق الأساسي بين الأمريكيين والبريطانيين تجلى في أنَّ العمليات التبشيرية الأمريكية، أصبحت بعد رسوخها وانتشارها، تعتمد اعتماداً واضحاً على مشاركة النساء كعاملات نشطات، وكأمثلة للقيم الاجتماعية، والثقافية التي تم تصديرها. تقابل هذا المنظور في شبه الجزيرة العربية، وبشكل صارخ مع منظور البريطانيين للمنطقة مكاناً قاسياً وغير ملائم للمرأة، مما أدى إلى نشوء بعض المشاحنات بين الأمريكيين، والإداريين البريطانيين المحليين، كان سببها تخوف البريطانيين من المساس بالتوازن الدقيق -كما

---

(1) Hutchison, Walliam R., Errand to the World: American Protestant Thought and Foreign Missions, Chicago IL: University of Chicago Press,1987; Flemming, Leslie A., American missionaries' ideals for women in North India, 1870-1930' in Chaudhuri and Strobel (eds), Western Women and Imperialism: Complicity and Resistance, Bloomington: Indiana University Press, 1992; Chaudhuri, Nupur and Margaret Strobel (eds), Western Women and Imperialism: Complicity and Resistance, Bloomington: Indiana University Press, 1992.

كانوا يرونه- للمصالح البريطانية السياسية والاقتصادية والعادات المحليّة. بَيْدَ أن السنوات الأربع الأولى من عمر التبشير في الجزيرة العربية، لا تعدو أن تكون عملية استكشاف مقتصرة على الرجال قصداً. فالنساء لم يكن يعددن، من منظور كثيرين، ملائمات للقيام باستكشاف المناطق المجهولة، وخاصة قبل إن يجيز أي عضو من أعضاء لجنة التبشير عمل النساء في الجزيرة العربية.

وبحلول إبريل من عام 1892، وعقب نشر أول تقرير رسمي فصلي، تمركز كانتين وزويمر في البصرة حيث كانا يمارسان عملهما بمساعدة بائع إنجيل مُعَين في المنطقة، كان من ضمن مهامه بيع الإنجيل، وعقد جلسات قراءة له، وزيارة السفن الراسية في الموانئ الرئيسية المزدحمة[1]. وقاما أيضاً بإنشاء مستوصف مكّنهما من الإبقاء على التزاماتهما التبشيرية، بإحداث تغيير اجتماعي ملموس لدى السكان المحليين، وفي الوقت نفسه، وفر لهما المستوصف البيئة الحيادية التي يستطيعان من خلالها بث تعاليمهما الدينية. اعترف كانتين وزويمر فوراً، عندما واجها عداوة من السلطات التركية المحلية في بلاد ما بين النهرين، التي كانت تخضع للإدارة العثمانية، أن العمل الطبي «كان إحدى مراحل العمل التبشيري التي لم تلق اعتراضاً أو شكا من أي جانب»[2]. وبعد مضي ثلاث سنوات، وتحديداً في مارس عام 1895، وبمساعدة أخ زويمر -المبجل- بيتر. ج. زويمر، تمكن الرجلان من إنشاء محطات تبشيرية جديدة تم من خلالها توظيف المزيد من بائعي الإنجيل في البحرين ومسقط، الذين أوكل إليهم القيام بعمل أساسي كبيع الإنجيل والعهد القديم فضلا عن بيع كتب «تعليمية» كوسيلة لجذب الزبائن إلى الداخل[3]. كان الرجال صبورين جداً عند تعاملهم مع القواعد القصيّة. طالب زويمر

(1) التقرير الميداني للإرساليات التبشيرية العربية. ج1 يناير/مارس 1892.

(2) التقرير الميداني للإرساليات التبشيرية العربية. ج5 يناير/مارس 1893، ص 4.

(3) ورد عن زويمر عام 1895، قوله «يمكن القول من خبرتنا أن بيع الكتب الدينية والتعليمية يساهم كثيراً في بيع الكتاب المقدس، وتعد هذه «الطريقة المختلطة» السبيل الوحيد للولوج إلى قريّة جديدة أو حي. فقبل بضع أيام، اقتنع أحد العلماء المسلمين عقب شرائه نسخة معربة من كتاب إقليدس والتنجيم بشراء كتاب مقدس كبير الحجم» التقريري الميداني للإرساليات التبشيرية العربية. ج15/ يوليو/سبتمبر 1895، ص 4.

الهيئة بشكل متشددٍ لا يخلو من التهجم، بإرسال طبيب إلى البحرين، وتذمر بقوله إنه اضطر بسبب عدم وجود طبيب على الجزيرة إلى القيام بدور المطبب، على الرغم من افتقاده لأي مؤهل في الطب. وكان هذا الاعتراف سيلقى إعجاب إيميلي لورمير، وسيثبت صحة اعتقادها بكونه يصطنع المعرفة، لكنه في الوقت نفسه عطوف وذو نية صافية[1].

لبّى الأمناء طلبه، وأرسلوا طبيباً إلى البصرة في ربيع عام 1895، وتدريجياً وعبر مساعدات المؤيدين في الولايات المتحدة، تمكنوا من زيادة الدعم المالي اللازم للقيام بتوسع حذر، لكن وفي الوقت نفسه، مصمم في نشاطات الإرسالية التبشيرية الدينية والطبية في الجزيرة العربية، وبحلول عام 1897، تمكن كانتين من القول:

إن إرساليتنا ورجالنا معرفون اسماً وشكلاً في العديد من المدن، بين بغداد وعدن ... والآن، لدينا في مسقط، ناهيك عن غيرها من المحطات، مدرسة ومطبعة، وبقالة لبيع الإنجيل وأراضٍ مترامية كافية، لتلبية طموح الجميع، يد الرب كانت بحقٍ هنا قبلنا[2].

رغم ذلك، يخبرنا فرد بارني، الذي كان قد وصل حديثاً إلى البصرة ليغطي الاجتماع السنوي للبعثة التبشيرية العربية، الذي عقد بعد عام واحد، أنَّ عدد المجتمعين أربعة، وتلقى على عاتق الإرسالية مهمة تغطية «ميدان يمتد إلى ما يزيد على ألف ميل على الواجهة البحرية، والوصول إلى ملايين الأرواح التي تنتظرهم بشغف»[3].

وعند النظر إلى الحاجة الملحة «للتعزيزات» والتأريخ العريض للنشاطات التبشيرية الإنسانية للكنيسة الإنجيلية، لم يكن هناك شك أن النساء سيشتركن في العمل وسيقمن، خصوصاً، في تطوير مهمة خاصة بهن. فلقد طلب من النساء أن يقمن بتوجيه نشاطاتهن في الخليج نحو ثلاثة اتجاهات: التعليم وتوفير العناية الطبية الغربية، والزيارة والاختلاط مع المجتمع المحلي. على أن تكون الصبغة العامة لهذه الاتجاهات التبشير بالإنجيل دون حياء أو ارتباك، على غرار النشاطات التبشيرية في الهند، والصين، وإفريقيا.

(1) التقرير الميداني للإرساليات التبشيرية العربية. ج 12 أكتوبر/ديسمبر 1894، انظر الفصل الثاني.

(2) التقرير الميداني للإرساليات التبشيرية العربية. ج 21 يناير/مارس 1897، ص 9.

(3) التقرير الميداني للإرساليات التبشيرية العربية. ج 25 يناير/مارس 1898، ص 6–7.

قبل المبشرون الأمريكيون اشتراك النساء في المشاريع التبشيرية، وشجعوهن على القيام بذلك لعدة أسباب، على رأسها الحاجة الملحة إلى النساء للقيام «بعمل نسائي» أو بمعنى آخر للعمل مع النساء المحليات، خاصة اللواتي يعشن في بيئة منعزلة داخل بيوتهن خاصة في البلاد الإسلامية، فالبيوت تعد هناك حصناً منيعاً، لا يمكن للرجال اختراقه. فضلا عن ذلك، تضفي النساء على منظر «الجيوش» التبشيرية عاملاً ملطفاً، مما قد يساعد في ترك انطباع لدى الناس معناه «النية الصافية» عوضا عن التعنت والتطاول[1]. وأخيراً، وليس آخراً، ستعطى النساء عند مرافقتهن لأزواجهن أو زملائهن من الذكور مثالاً حياً على الحداثة، والتناغم الغربي المسيحي في المنزل. ففي السنوات التي تلت الحرب الأهلية الأمريكية، طغت الصبغة النسائية على معظم النشاطات التبشيرية، وذلك مع تأسيس المزيد من الوكالات النسائية. وازدياد مشاركتهن في الهيئات التبشيرية العامة (التي كانت تعكس تأثير الأجيال الأولى من خريجي الجامعات). وبحلول عام 1890، شكلت نسبة النساء المتزوجات المنضمات إلى لجان التبشير العامة، بالإضافة إلى النساء غير المتزوجات اللواتي لقين دعم اللجان النسائية، ستين بالمائة من القوى العاملة في التبشير[2].

كانت فرص العمل المتاحة لنساء الطبقة المتوسطة في بريطانيا، وأمريكا ضمن مجال التبشير قد تمت دراستها ملياً[3]. فهي تُعدّ منفذاً فكرياً وجسدياً للنساء غير المتزوجات، أو المتزوجات المستقلات بفكرهن. كما منح العمل – دون تهديد للقيم العائلية البيتية– هؤلاء النسوة فرصا للسفر، ودراسة لغات جديدة، وتأسيس مجموعات نسائية والمشاركة فيها. ولقد وسّع العمل–بصورة خاصة– مدى فرص التعليم، وفتح الباب واسعاً أمام النساء للعمل في الرعاية الصحية في وقت كانت فرص العمل فيه شحيحة في الوطن.

---

(1) Hunter, Jane, The Gospel of Gentility: American Missonaries in Turn-of-the-Century China, New Haven & London: Yale University Press,1984, p 10-11

(2) المرجع السابق، ص ش.

(3) على سبيل المثال Hunter, Jane, The Gospel of Gentility; Bowie, Fiona, Deborah Kirkwood and Shirley Ardener (eds), Women and Missions: Past and Present. Anthropological and Historical Perceptions, Providence and Oxford: Berg publishers, 1993.

فضلا عن ذلك، كانت المسيحية -وفق اعتقاد البروتستانت الأمريكيين مصدر قوة للنساء- تمدهنّ بالثقة بالنفس، وتمنحهنّ شخصية مختلفة خارج منازلهن. وفي حين كانت المنظمات التبشيرية البريطانية كجمعية لندن للتبشير، تعد عمل المرأة، وبشكل لا يقبل الجدل، ملحقاً بنشاط الرجل، كانت المبشرات الأمريكيات يعددن أنفسهنّ متساويات مع الرجال ويروّجن لذلك. وحتى إنَّ شركاءهن وزملاءهن من الذكور كانوا يصفونهُنّ أمام العامة على الأقل، بأنهن مساويات لهم[1]. فعلى سبيل المثال، وُصِفت الدكتورة ماريون ويلزتومس؛ أول طبيبة في البحرين، عقب وفاتها المبكرة عام 1905، أنها «أكثر من زوجة مبشر، بل هي نفسها مبشرة ضليعة بحق ومنكرة لذاتها»[2].

استمد المشروع التبشيري البروتستانتي الأمريكي طاقته من الانشقاقية التي كانت تميز نيو إنجلند، فالذكور والإناث على حد سواء كانوا يتقاسمون خلفية تربوية واجتماعية لا مؤسسية، فهم إلى حد بعيد لا يمتون بصلة «للطبقة الأمريكية الحاكمة»، وهذا ما منحهم جميعاً دون استثناء المرونة، والجاهزية للتغاضي عن الأعراف، والقيود الاجتماعية والاستعمارية، والإمبريالية عندما عملوا في الميدان. كان معظم المبشرين والمبشرات في نهاية القرن التاسع عشر -وأغلبهم قد نشأ في مدن صغيرة وقدم من عائلات من الطبقة الوسطى- قد تلقى تعليماً جامعياً، كثيراً منهنَّ تلقى تدريباً بوصفهن، ممرضات، وطبيبات. فضلا عن ذلك، على الرغم من أن المشروع التبشيري يُعد في الأصل حركة نبعت من الساحل الشرقي، إلا أنه وبحلول التسعينيات من القرن التاسع عشر، قام عدد من النساء القادمات من عائلات مزارعة في الغرب الأوسط، بتبني «الروح الريادية» التي كانت تميز نشأتهن، وعادة ما كن يشرن إلى أن حريّة المرأة كان سبباً في

(1) تتضمن تقارير الإرساليات التبشيرية الأمريكية العربية، التي تم اقتباسها مراراً جزءاً كبيراً ومتزايداً من المعلومات المتعلقة بالنساء، وتلك التي قدمتها نساء. وعلى النقيض، تشير فيونا وماري في مقالتها «استرداد الوجود النسائي» (والموجودة في بووي، كيركوود وارد نير (محررون) النساء والإرساليات التبشيرية)، إلى أن نشاطات النساء قد تم شطبها من التقارير قبل نشرها.

(2) صموئيل وآمي زويمر «تنويه بالحب والإعجاب» جزيرة العرب المهملة، ج54، إبريل/يونيو 1905، ص4، انظر الصفحات 99—100 أعلاه.

دعوتهن[1]. وفي كثير من الأحيان، كانت لعائلات هولاء النسوة سوابق في العمل التبشيري، وهذا زود هولاء النسوة بأمان اقتصادي متواضع، وفرصة للإنجاز في الخارج، وإحراز الشهرة في الداخل:

وفر العمل التبشيري الاستقلاليّة والمكانة والفرصة للإنجاز، وهذه الصفات عادة ما تكون مرتبطة بوظيفة، لكن العمل التبشيري ليس وظيفة بل هو دعوة تمتاز بنكران الذات عوضا عن الطموح الشخصي. وعلى النقيض من المرأة العاملة التي حسب الروايات الشائعة في مصطلح نهاية القرن الشائعة، قد تخلت عن طبيعتها الأنثوية وراحت تسابق الرجال في كل مجال، وضعت المرأة المبشرة ميزات كونها أنثى في صلب عملها، وعوضا عن أن تنغلق على نفسها، قامت فوثقت علاقتها مع الإنسانية جمعاء: كان لدى ... النساء المبشرات الاحتياجات عينها التي دفعت بالنساء إلى الوظيفة، لكنهن امتزن بأمر استثنائي هو إلباس طموحهن لباساً لا يسبب ضرراً لصورة الفضائل المسيحية الأنثوية[2].

وكان ما ينوف عن نصف النساء المبشرات الفاعلات في الجزيرة العربية في الحرب العالمية الأولى، قد وُلدن أو تلقين تعليمهن في الغرب الأوسط، فعلى سبيل المثال، ولدت الدكتورة إليزابيث دبري كانتين في إيوا، والدكتورة ماريون وليمز توماس في سميث مينسوتا، وجسي فال بينيت في ميتشيغان. وتلقت توماس وبينيت تعليمهما في جامعة ميتشيغان، وهذه هي حال الدكتورة آنا كرستين إيفرسون بنيت التي ولدت في الدنمارك[3]. وفي عام 1911، تمكن صومئيل زويمر من خلال عمله مع حركة التطوع الطلابية من إقناع جامعة ميتشيغان في تأسيس «برنامج جامعة ميتشيغان للعمل الطبي والصناعي في البصرة»، وهو البرنامج، الذي رعى المبشرين الطبيين لاحقا من كلا الجنسين في ميدان

(1) Hunter, Jane, The Gospel of Gentility, chapter 2.

(2) نفس المرجع السابق، ص 38.

(3) ينحدر عدد من المبشرات، أو عائلاتهن التي قدمت إلى أمريكا، في الأصل من أقطار أوروبية بروتستانتية بما فيها الدنمارك وهولندا وألمانيا. استمدت هذه الدراسة معلوماتها السيريّة من كتاب ماسون وباريي، تأريخ الإرسالية التبشيرية العربية ولواحقه ص 242—250.

الجزيرة العربية[1].

وتمشياً مع خلفياتهم التربوية، وتصميمهم وإدراكهم لهدفهم، كان على المبشرين البروتستانت الأمريكيين في آسيا وإفريقيا أن يلتحقوا ببرنامج تدريبي إضافي، قبل السماح لهم بالعمل في الميدان. وتضمن هذا البرنامج في الشرق الأوسط تدريباً لغوياً معمقاً. فالإلمام ببعض العربيّة كان يُعدّ متطلباً سابقاً للعمل التبشيري. ومع توطّد الإرسالية، كان على كل قادم جديد من ذكر أو أنثى ألا يكتفي بتعلم بعض العربية، بل عليه أن يجتاز مجموعة من الامتحانات القاسية التي تعقد عادة خلال انعقاد مؤتمر المبشرين السنوي[2]. وضع ماسون وبارني وصفاً لمساق يستغرق سنتين، ويشمل دراسة العربية المحلية، والمكتوبة إلى جانب بعض المواضيع الإسلامية، ولاحظ أن المبشرين رغم حاجاتهم الماسة إلى عاملين جدد، قد تجنبوا دوماً إرسالهم إلى العمل فوراً[3]. وأفضل مثال على ذلك، هو الدكتورة إيلينور ت. كالفرلي، التي كانت تحمل شهادة جامعية من كلية بنسلفانيا الطبية للنساء في فيلادلفيا. فلقد وصلت الدكتور إيلينور إلى الجزيرة العربية برفقة زوجها، المبجل إدوين كالفرلي عام 1909، وتذكر في مذكراتها الشخصية، أنها وزوجها الدكتور قد قضيا سنتهم الأولى في دراسة اللغة في البحرين، وسنتهم الثانية في البصرة ومن ثم عادا ثانية إلى البحرين في خريف 1911، لحضور الاجتماع السنوي للإرسالية العربية. وهناك تمكنا هما وغيرهما من المبشرين الجدد من النجاح في امتحانات اللغة، ثم جاء تعيينهم في الإرسالية الجديدة في الكويت[4]. بيد أن أول مبشرة «أمريكية» في الخليج كانت في الحقيقة امرأة بريطانية تدعى

---

(1) المرجع السابق، ص 148–149، 246–247، كان من ضمن المبشرات في البصرة اللواتي تلقين رعاية من هذا البرنامج عام 1911 ميرسي فان فلاك وأديل شو.

(2) أشار الموقر جون فان إيس عام 1903، على سبيل المثال، في سياق حديثه عن اجتماع المبشرين السنوي في البحرين إلى أن الموقر جايمس موردك قد اجتاز «بنجاح باهر» اختباره الثاني»،الذي تطلب معرفة دقيقة باللغة العربية، المكتوبة والمنطوقة، وأضاف إلى ذلك أن أدى صلاة باللهجة العاميّة» جزيرة العرب المهملة، ج45. يناير/مارس 1903، ص 3.

(3) ماسون وبارني. تأريخ الإرسالية التبشيرية العربية ص 108–109، وأضافوا أنّه قد أصبح من الممكن «تنفيذ قواعد الإرسالية التبشيرية المتعلقة بدراسة اللغة» عام 1900. كانت القوة التبشيرية بحلول ذلك الوقت تتألف من ستة رجال وثلاث نساء، كان منهم ثلاثة (إحداهم امرأة تدعى إيما وورل) أطباء على أعلى درجة من التأهيل.

(4) Calverley, Eleanor T., My Arabian Days and Nights, New York: Thomas Y. Crowell Company,

آمي إليزابث ويلكز زويمر، التي وُلِدت في ولفر هامبتون، وهناك أصبحت ممرضة متدربة، ثم عملت في جمعية التبشير الكنسية في بغداد حيث قابلت صموئيل زويمر، الذي تزوجته في مايو من عام 1896. ولاحقاً وصفتها إيميلي لورمير بالرشيدة، وصاحبة التفكير المنطقي، والمصوبة لزوجها»[1]. وعقب زواجهما، عينت السيدة زويمر في إرسالية الجزيرة العربية، وذلك عقب إحلالها من عقدها مع الجمعية الإنجليزية، بعد أن دفع الأمريكيون تكاليف سفرها. ويذكر ماسون وبارني أن «المبشرين أصبحوا يتندرون حول هذا الزواج بقولهم «إن السيد زويمر قد حصل على زوجة بالطريقة الشرقية الحقة، وذلك عبر شرائها من أهلها الأصليين»[2]. عدت إيلنيور كالفرلي التحاقها بالإرسالية التبشيرية العربية «باليوم العظيم للإرسالية»:

لم تكن الإرسالية لتضم نساء بين أفرادها، كما قرر رواد التبشير. كانوا يعتقدون أن الميدان لم يكن مناسباً بعد للنساء، وأن الظروف المعيشية العربية كانت قاسية جداً عليهن. غير أن كيوبيد ضحك عندما سمع بذلك القرار، قراره كان مختلفاً تماماً. وفجأة غير أحد الرواد رأيه (على الرغم من كونه رجلا أو ربما لكونه رجلا)، وأدرك أن العمل بأمس الحاجة إلى شابة بعينها معروفة لديكم الآن بالسيدة زويمر[3].

وفور وصولها إلى البصرة، عقب زواجها بفترة وجيزة، ساعدت إيمي زويمر الدكتور هنري وُورال في الصيدلية المحلية، ووضعت برنامجا في الإرسالية «للعمل بين النساء». وأخبرت إيمي الأمناء عن الحاجة الماسة للمهمة التي هم على وشك القيام بها.

ولهذا فنحن نتضرع ونتوقع أن يحصل التغيير عما قريب، ونقوم بجُلّ هذا من أجل أخواتنا المسلمات اللواتي يعانين الكثير من عدم معرفتهن الحرية الكاملة الصادقة المتجسدة في سيدنا يسوع المسيح. لا نستطيع سوى الحديث عن إمكانيات العمل بين النساء في هذه

.1958, pp12-13

(1) إيميلي لوريمر إلى والدها، 1 إبريل 1911.

(2) ماسون وبارني، تأريخ الإرساليات التبشيرية العربية، ص 88.

(3) إيلينور كالفرلي، على خطوات الحبيب العظيم. «جزيرة العرب المهملة» رقم 108. يناير/مارس 1919، ص 3.

المناطق وذلك لحداثة وجودنا هنا. غيّر أن المشهد واسع ولا يحتاج في تلبيّة مستلزماته سوى هولاء النسوة الوارد ذكرهن في المزمور 68... الأرض قاسية جداً ومليئة بالأعشاب الضارة، وكل هذا بسبب خرافاتهن، وخرافات الكنائس الشرقية، لكنهن كن شاكرات للطف الذي لقينه، حتى إن كلمة طيبة واحدة كفيلة بالكشف عن كثير مما يدور في خواطرهن. فالكثير منهن يستثرن ويستلبن بالتعاليم الدينية التي تبث في الصيدلية، وعبر التطبيق العملي للتعاليم من خلال أعمال الخير التي تُقدم لهنَّ ...

وإذا ما تحسن العلاج الطبي، قد يكون هناك احتمال في جمع النساء في غرفة منفصلة، وعقد دروس في الكتاب المقدس لهن. لكن عدد الحاضرات متغير وغير مؤكد، فبعضهن لا يعاود الرجوع مرة أخرى ... إن مشكلتي الوحيدة الآن هي معرفتي المحدودة بالعربية، وأطالب إخواني في أمريكا بحماس أن يمنحوني صلواتهم لأحقق مرادي بالفوز بالجزاء العظيم من الروح المقدسة، ولأتمكن من بث حب الإله المسيح. هناك أبواب مفتوحة غير أن العمل عظيم ...[1].

وحسب قول ماسون وبارني ينبغي عَدَّ اليوم الأول من يونيو 1896 «يوماً أغر في تأريخ هذه الإرسالية وجميع البعثات التبشيرية في الجزيرة العربية؛ لأنه اليوم الذي شهد أول جهد منتظم مستدام لتنصير نساء الجزيرة العربية على يد نساء من أمريكا، على رأسهن السيدة زويمر»[2]. وفي أمريكا، زاد المجلس النسائي للبعثات التبشيرية الأجنبيّة اهتمامه بعملهن في الجزيرة العربية، وهو الذي كان يساوره شك فيه ويتردد في دعمهن. وبحلول عام 1918، أيد المجلس إيكال عمل الإرسالية بمجمله للنساء[3].

(1) إيمي زويمر، «العمل من أجل النساء»، تقرير الإرسالية التبشيرية العربية الميداني، رقم 18، إبريل/يونيو 1986، ص 4-5.

(2) ماسون وبارني، تأريخ الإرساليات التبشيرية العربية، ص 89.

(3) ماسون وبارني، تأريخ الإرساليات التبشيرية العربية، ص 213-214، أشار ماسون وبارني إلى أن العشر سنوات الأولى من العمليات التبشيرية، أو «التجسس على الأرض» قد أثبتت بحلول عام 1899 أن الرجال، والنساء الأوروبيين، والأمريكيين يستطيعون العيش والعمل في شرق جزيرة العرب، حتى في أشد ظروف الساحل قساوة» (ص 107). أصبحت الهيئة النسائية خلال عشرينيات القرن العشرين، أكثر إسهاماً، وذلك من خلال تمويل بعض المشاريع، منها مبنى مدرسة للبنات في البصرة، ومستشفى النساء والأطفال في البحرين.

شكلت أرضية حركة الإصلاح الصحي في نهاية القرن التاسع عشر في أمريكا، واشتراك نساء الطبقة الوسطى فيها، السياق الملائم الذي تكونت فيه الآراء الإصلاحية المعنية بالنساء المبشرات بتركيزهن على الصحة العامة، والنظافة الشخصية، وصحة العائلة. ففي إطار التعاليم التبشيرية البروتستانتية، كانت النظافة قريبة من الألوهية، بل إن انعدام النظافة البين على الصعيدين الروحي والجسدي هو ميزة البلاد ... «الأخرى» غير المتحضرة. وشكّل ذلك دافعاً قوياً لبذل مزيد من الجهود الإنسانية والتبشيرية. كانت المبشرات مقتنعات بعلو كعب الطب الغربي، بَدَونَ متأثرات بمواقف الإصلاح الصحي الأمريكية، التي شجعت المسؤولية الفرديّة في الصحة والوقاية[1]. بَيْد أن النتيجة الطبيعية الحتمية لهذه الثقة الجهادية، كانت طبعاً انتقاداً لطريقة عيش العائلات المحلية التقليدية، ونقصد هنا العائلات المسلمات، والطب المحلي التقليدي، وما شاهدته المبشرات من حرص ديني ورضوخ لممارساته. ولهذا يعد المستوصف، برواده المسلوبي التفكير، وبشكل لا يدع مجالاً للشك، مركزاً للتعليم والعلاج، وفي الوقت نفسه، بَثّ النصح الديني والاجتماعي والموعظة، ويذكر صموئيل زويمر بعد تعيين هنري ورال أول طبيب في البصرة عام 1895، أننا بافتتاحنا المستوصف عدة ساعات في اليوم «كوّنا قاعدة من المستمعين للكتاب المقدس»[2]. وحسب رأيه تعد النساء جزءاً لا يتجزأ من الإرسالية التبشيرية؛ لأنهن يلقين ترحيباً حيثما ذهبن، «سواء أكان لديهن مؤهلات طبيّة أم لم يكن»، فالليدي آن بلنت، ومابل بينيت كانتا خير برهان على قدرة النساء في الجزيرة العربية «على العيش من أجل العلم». وعلى النسق ذاته، لا بد من وجود نساء مسيحيات قادرات على «اختراق وسط الجزيرة العربية في سبيل مخلّصهم»[3]. وبعد مضي 30 عاما على عملهما في جزيرة العرب، ضَمَّن زويمر وزوجته كتابهما «النساء المسلمات» أفكارهما حول الحاجة المبكرة المستمرة للعمل الطبي؛ لاقتلاع جذور ما شاهداه من لامبالاة وقساوة تملأ حياة المسلم، وفي الوقت نفسه، وصفا العمل

(1) Flemming, Leslie A., American missionaries> ideals for women in North India,pp197-99

(2) تقرير الإرسالية التبشيرية العربية الميداني، رقم 14، إبريل/يونيو 1895، ص 5.

(3) Zwemer, Samuel M., Arabia the Cradle of Islam, pp 383-394.

في وكالة إنجيليكية طاغية فلقد «كان العمل وسيلة للتأثير في الأفراد، في وقت يكونون فيه شاكرين لنا؛ لما تلقوه من علاج طبي ولطف، وتكون القلوب مفتوحة لتلقي الكتاب المقدس. كان هذا العمل يسمى «الإسفين النافذ الخارق»»[1]. حتى إن إيلينور كالفرلي، وكانت تفوق زومير وزوجته كونها أكثر عملية وتسامحاً، لاحظت أنه من حسن حظ الإرسالية التبشيرية انضمام آمي زويمر إليها «التي امتازت عن غيرها برغبتها في نقل كلمة الحياة إلى النساء العربيات لأول مرة». كانت آمي مبشرة طبيّة، ولولا تدريبِها، الذي تلقته كممرضة لما تمكنت من إخفاء حقدها وعنصريتها[2].

وبعد انتقالها إلى البحرين عام 1897، ساعدت آمي زويمر في أعمال المستوصف هناك حتى قدوم الدكتورة ماريون ويلز تومس، وزوجها الدكتور شارون تومس في خريف عام 1900، عمل الطبيبان تومس ولوس في البصرة في السنة السابعة من وجودهما، لكنهما كانا ينتظران أن يسمح لهما شيخ البحرين بالحصول على مبنى لبيت الطبيب، والمستشفى على الجزيرة. وبنهاية عام 1901 –أي بعد ثمانية شهور من العمل الطبي المنتظم مع النساء– عالجت ماريون ويلز تومس 1631 امرأة وطفلاً تلقى معظمهم العلاج في المستوصف، وكانت بعض الحالات الجراحية تتطلب المبيت فضلا عن الزيارات البيتية، وفي الوقت نفسه، منحت الزيارات المتكررة لبعض النساء الدكتور ويلز تومس ومساعدته آمي زومير الفرصة لقراءة الإنجيل للراغبين في العلاج[3]. وإلى جانب التبشير بالأصل، لم يكن هناك من شك أن المبشرين الأوائل، كانوا نظراً لسياستهم في توظيف الأطباء، والممرضات المؤهلين والمدربين جيداً، قادرين في فترة وجيزة على وضع برنامج طبي فعّال لردع بعض الأمراض الأكثر انتشاراً في المنطقة. كان التهاب العين مرضا شائعا، وكانت الملاريا مستوطنة في جميع أنحاء الخليج، وكذلك السل الرئوي، وفي البحرين،

(1) نتائج اللجنة المتعلقة بالعمل الطبي، في مؤتمر القدس (1925) التي تم اقتباسها آ. إ. وإس. إم. زويمر في نساء مسلمات وست ميدفورد إم. أ: اللجنة المركزية حول الدراسة الموحدة للإرساليات التبشيرية الأجنبية، 1926)، ص 201، «ولوج الوتد»، المرجع السابق، ص 206.

(2) كالفرلي: «على خطوات الطبيب العظيم». ص 3.

(3) التقرير الميداني للإرساليات التبشيرية العربية. رقم 40 أكتوبر/ديسمبر 1901. ص 7.

كان عدد كبير من غواصي اللؤلؤ يعانون من مشاكل في الأذن، وانتفاخ ناتج عن بقائهم لفترة طويلة تحت الماء[1]. كان المبشرون من أطباء وممرضات على درجة عالية من التعليم. وكانوا في حرصهم على إظهار ثقتهم، وفخرهم بالعلم والتكنولوجيا الغربية يعكسون -ببساطة- حرص مجلس الإدارة وداعميه على أن يواكب العاملون في الميدان التطورات الطبية الجديدة. وعندما عاد الطبيبان وأطفالهما إلى البصرة بعد قضاء إجازتهم عام 1904، وُصِف الطبيبان في التقرير الربعي، بكونهما «اشتركا بحكمة في الدراسات الطبية، وذلك لرغبتهما في مواكبة آخر النظريات والممارسات»[2].

وفي مسقط، أصبح العمل الطبي متاحاً أمام النساء بين عامي 1904 و1907، على يد إليزبيث ديبري كانتين، وهي أول امرأة عزباء تلتحق بالإرسالية قبل زواجها بواحد من المؤسسين؛ جايمس كانتين. وتم بناء مستوصف نسائي آخر في مسقط عام 1913، وشهدت السنة التي تليها تعيين أول طبيبة كانت تدعى سارة هوسمن. وفي هذه الأثناء، تم تعيين الدكتورة إيما هودج وورال؛ للقيام بمهام العمل الطبي في البصرة، حيث اتخذت الطابق الأول من مبنى إرسالية البصرة مكان عمل لها، وهناك ساعدها زوجها أمي زومير في عملها فور وصولها. ولم يمض وقت طويل حتى تم تعيين «امرأة مختصة بالكتاب المقدس» كانت تقوم بقراءته على مسامع المرضى وتقود الصلوات في منطقة الانتظار. ولم يكن هناك ممرضات، ولا متطلبات مبيت للمرضى في المستوصف، لكن الدكتور هنري وورال قام بإجراء عمليتين طارئتين كبتر الذراع التي تلقت عضة من سمك القرش، وعلاج الجروح الناجمة عن طعنات، وعمليات السرطان، وكانت إيما وورال تنزل إلى رتبة تمريض المرضى كونها مساعدة له[3]. وفيما بعد تم تعيين ممرضة هندية مسيحية، والحصول على مبانٍ إضافية. كما مُول إكمال مستشفى لانسنغ عام 1911 عَبْرَ ميراث ضخم جاء من أمريكا كُرِّس لهذا الغرض. وعلى الرغم من أن المستشفى في البداية كان يحتوي على

(1) التقرير الميداني للإرساليات التبشيرية العربية. أرقام 10-11 إبريل/سبتمبر 1894.

(2) جزيرة العرب المهملة، رقم 50 إبريل-يونيو 1904، ص 14-15.

(3) إيما وارل «مشاهد من العمل الطبي النسائي في جزيرة العرب» البصرة، 1895-1914، جزيرة العرب المهملة، رقم 90، يوليو- سبتمبر، 1914، ص 14-18.

مكان صغير للنساء، إلا أن الطبيبين وورال عالجا خلال السنة الأولى 93 مريضة داخل المستشفى، ووفرا علاجاً لما يزيد عن سبع آلاف حالة في المستوصف. وذكرت إيما وورال التحسينات التي طرأت على الوضع -الذي سبق افتتاح المستشفى- الذي كانا مضطرين فيه، نظراً لنقص التمويل اللازم، إلى استخدام علب البترول كأوعية[1].

وفي عام 1911، وصفت وورال مستوصف البصرة بـ «مكان الأحزان الألف» بما فيه من أمراض، وإصابات تتراوح من التهاب العين، أو الأذن، والأمراض الجلدية وعضات الكلاب، والسل، وتسمم الدم النفاسي، وأخيراً، وليس آخراً، جهل الأمهات بطرق العناية بأطفالهن[2]. لكن وعلى الرغم من أن المبشرات وفرن العناية الطبية الفاعلة التي يحتاجها الناس هناك بشكل ملح، إلا أنهن لم يتوانين عن توجيه أصابع الاتهام إلى التطرف الديني، والانعزال، كأسباب للأوضاع الصحية المحلية البائسة، ووجهن جُلّ انتقادهن نحو جهل المرأة المسلمة «بالتدابير الصحيّة الحديثة». فضلا عن ذلك، ربطن تمكنهن من توفير عناية طبيّة جيدة بمباركة المسيح لهن، والتدريب الصحي الذي تلقينه. فالاعتناء بالمرضى وُصف حسب وورال بالآتي: «كلما أشرق صباح لا نملك إلا أن نفكر مليا، كون هذا اليوم يوم آخر من أيام التميز، بطرق إغاثتنا للمرضى المساكين، الذين يرضخون تحت وطأة المعاناة، ونقودهم إلى المسيح» وأضافت:

وهذا كثيرٌ على أجسادهم الهزيلة، فكيف بأرواحهم التي تملؤها الآثام، التي لا تكاد تحتمل ما فيها من غيرة، وحسد وعناء. وهم لا يعرفون السلام الرباني ولا يفهمون كنهه. فكيف نستطيع أن نوضحه لهم؟ كيف نستطيع أن نزيح الستارة وندع الضوء يدخل؟[3].

وعوداً إلى البحرين، تم افتتاح مستشفى ماسون ميموريال عام 1903، غير أن العمل الطبي النسائي في الكويت بدأ متأخراً عام 1912، وذلك بقدوم إلينور كالفرلي أول طبيبة هناك. وخلال الأعوام 1910 و1914 ارتفع عدد الحالات الطبية التي عالجها المبشرون،

(1) المرجع السابق، ص 17.

(2) إيما وارل، مكان الأحزان الألف «جزيرة العرب المهملة رقم 76» يناير/مارس 1911، ص 8-14.

(3) وارل «مشاهد من العمل الطبي النسائي في جزيرة العرب»، البصرة، 1890-1914، ص 11.

والمبشرات إلى أكثر من الضعف، ففي عام 1910 بلغ عدد الحالات الطبية 11,355 حالة وتضاعف العدد عام 1914، إلى: 23,709، بالإضافة إلى حالة جديدة تم التعامل معها[1].

وعلى الرغم من عد التَعَلُّم على النمط الغربي جزءاً لا يتجزأ من العناية الطبية والصحية، إلا أن التعليم العام بمعناه الواسع كان هدفاً رئيسياً للبعثة التبشيرية العربية. وحول هذا الموضوع، صرح ماسون وبارني أن التعليم المدرسي ينبغي أن يحقق الحلقة الذهبية التي تربط بين ما يحتاجه الطلاب المفترضون وبين «ما يجب أن يكون». وتم تعريف «ما يجب أن يكون».بمعاييرٍ عاليةٍ من الإنجاز المدرسي وبناء الشخصيّة[2]. وبحلول عام 1901، كان زويمر وزوجته قد بنيا مدرسة للبنات في البحرين، تكون منهاجها من دروس في الكتاب المقدس، والحساب، والقراءة، والكتابة والجغرافية (وكانت تدرس بالعربية)، ودروس في المحادثة والقراءة بالإنجليزية، والفن والحرف، والتمارين البدنية والخياطة. وصفت إيميلي زومير ملابس طلابها «أنها كانت تتراوح من المرقعة إلى العباءات المخملية المزينة بالضفائر الذهبية»[3]. كانت المدرسة تبدأ في الساعة الثامنة صباحاً بترنيمة، وصلاة، ثم دروس الكتابة، والتهجئة والإنشاء والحساب على التوالي. وبعد درس الكتاب المقدس، كانت الطالبات الأكبر سناً يكتبن «بالعربية أجزاء من الكتاب المقدس كصلاة الرب من ذاكرتهن، أو ترتيب عمل اليوم عند الخلق». وتعلمن طريقة كف الثوب وخياطة «أشياء لم يسمعن بها من قبل في هذا البلد». كما قامت النساء، والفتيات العربيات «بأعمال جميلة كالأقيطة والضفائر الذهبية، والتطريز الحريري على ثيابهن». لكن زومير أضافت: «كانت خياطتهن على بساطتها رديئة جداً وغير متقنة». بَيْدَ أن النقاشات حول الخياطة، أثارت صُوَرْ ذهنية قوية للثراء الشرقي المبهرج، والحداثة، وشدة المراس الغربيتين.

وفي مسقط قامت إليزبيث دبري كانتين إلى جانب تأسيس العيادة اليومية، بافتتاح مدرسة خياطة للبنات، فضلا عن افتتاح برنامج للزيارات البيتية،الذي لاقى مكانة توازي

(1) ماسون وبارني، تأريخ الإرسالية التبشيرية العربية. ص 160.

(2) ماسون وبارني، تأريخ الإرسالية التبشيرية العربية، ص 217.

(3) «مدرسة البنات في البحرين»، جزيرة العرب المهملة رقم 45 يناير/مارس 1903، ص 10-12.

غيره من البرامج التبشيرية. كان هذا البرنامج بمعناه الواسع يشمل استقبال الزوار «في البيت» أو عقد تجمعات للصلاة، وفتح المدارس يوم الأحد. وكان يُنظر إلى العلاقات الشخصيّة والصداقات على أنها أنجع الطرق لكسب قلوب الناس، بل وأقنع المبشرون أنفسهم أن العربيات قَدْ يُسْتلبن لمجرد مشاهدتهن لنساء يبدو عليهن «السعادة والحرية والأمان» أو اختلاطهن بهن[1]. كانت تقارير المبشرات حول زيارتهن إلى بيوت النساء العربيات تصف -دوماً- وللراعين الماليين لهن في أمريكا، الحزن والقسوة وهما الصفتان الغالبتان على نمط الحياة العربية. وتضمنت التقارير أيضاً إيمانهنَّ بقدرة الإنجيل على جلب الضوء إلى بيوت هؤلاء الناس. وتضمن تقرير ميداني، نشر عام 1899 «مذكرات» إيمي زومير، ولقد بثت فيه بدقة هذه الصور المتضاربة:

24 يناير: زرت بيتين، ورأيت سبع نساء، والكثير من الأطفال وتحدثت معهم. كانوا جميعهم صائمين، ولهذا تحاورت معهم حول الصيام الحقيقي.

25 يناير: زرت ثلاثة أكواخ جديدة. جاء مالك البيت والنساء أثناء وجودي هناك، وكان رجلاً فظاً، وبدت جميع النسوة خائفات منه كثيراً، وزاد خوفهن وجودي هناك. تحدثت معه بسرورٍ مجيبة إياه عن أسئلته، لكني كنت خائفة منه كثيراً. قابلت في هذه الأكواخ الثلاثة عشر نساء لا تجيد أي منهن القراءة. واعتنيت بامرأة مريضة، عليها أعراض حمى ومرض بالعين، وكانت ممتنة جداً.

28/26 يناير: قَدِمت خمس نساء وزرت ست أخريات. جلست وعقد اجتماع في الهواء الطلق على رمال الصحراء، حيث كنت أجلس على جدار قصير لمسجد صغير. كان في جلستنا ما يقرب من عشر نساء وستة أطفال، وتحدثت عن حبِّ الإله.

17 مارس: جاء في الأيام الأخيرة الماضية ما يزيد عن 33 امرأة وطفلاً، لا يجيد معظمهم القراءة. سألتني بعض النسوة عن السبب،الذي دفعني لترك بلدي على الرغم من جمالها، كما كنت أخبرهم. بيد أنهم لن يستطيعون أن يفهموا الدافع[2].

(1) ماسون وبارني، تأريخ الإرسالية التبشيرية العربية، ص 219-220.

(2) التقرير الميداني للإرساليات التبشيرية العربية. رقم 29 يناير-مارس 1899. ص 13-14.

وعلى النقيض من الآراء البريطانية الإمبريالية، التي كانت تؤمن بعدم ملاءمة النساء للعمل في المواقع الصعبة، كان المبشرون فور القيام باستكشاف المناطق المجهولة ينظرون إلى إمكانية تأسيس حياة عائلية مسيحية، ودعم ومؤازرة الزوجات، والأولاد كركيزة من ركائز عملهم، خاصة في ظروف صعبة وقاسية. وكانوا مُتيقنينَ أن العمل الميداني، وما يمت إليه بصلة من دراسات قد تتعارض مع واجبات الزوجات المنزلية، وقد يلقي عبئاً ثقيلاً على عاتقهن، لكنه، وفي الوقت نفسه، يمجد دعوتهم. لم يوفر صموئيل زويمر فور استقراره في البحرين عام 1898، وقتاً في إخبار الأمناء الأمريكيين الداعمين أن «عمل النساء مع النساء» كان حاجة ماسة، خاصة في مكان كالبحرين «حيث الحضارة البدائية، وحيث تقوم المرأة بمائة عمل قد يستهلك وقتها وقوتها، تلك الأعمال التي توكل في الهند إلى الخدم»[1]. وعلى الرغم من كل هذا، كانت زوجات المبشرين، على أتم الاستعداد للقيام بهذا العبء، فالعديد منهن كُنّ متدينات بعمق، اخترن أزواجهن، واختارهن أزواجهن؛ ليتقاسموا أعباء الزواج على أساس إيمانهم العميق بقدسية دعوتهم. وعلى سبيل المثال، تذكر إيلينور كالفرلي في سيرتها الذاتية -وبالتفصيل- الخطوات التي خطتها نحو اتخاذ القرار في أن تصبح مبشرة طبية. أولى هذه الخطوات كانت قرارها أن تصبح طبيبة، وبعد ذلك عندما أصبحت تدرس في كلية الطب، قابلت أطباء مبشرين عائدين كانوا يتحدثون عن تجاربهم[2]. أدركت كالفرلي أن هناك فرصا متاحة أمام الطبيبات للعمل في «بلاد تعيش فيها المرأة بعزلة»، لكنها كانت مترددة، وتنتظر رسالة من الرب. «وحالما شعرت بوجود الرب»، بدأت تتضرع إليه؛ ليرشدها إلى طريق الصواب، فيما إذا كان من المقبول أن تتزوج وأن تنجب أطفالاً، وهو وضع لم تتصور قط أن تستطيع العيش دونه. كان لقاؤها مع زوجها إدوين، الذي كان يعد نفسه للسفر إلى الخليج العربي، دعوة إضافية لها. تزوجا في سبتمبر عام 1909، وأبحرا في الشهر الذي يليه من فيلادلفيا عبر أوروبا إلى بومباي وأخيراً إلى الخليج.

(1) التقرير الميداني للارساليات التبشيرية العربية. رقم 28 أكتوبر/ديسمبر 1898. ص 14.

(2) Calverley, Eleanor T., My Arabian Days and Nights, pp6-11

حاولت المبشرات المتزوجات من أمثال إيلنيور كالفرلي على ما يبدو، أن يقمن بمهمات وظيفتهن وإدارة شؤون منازلهن من غير أن يراودهن شك؛ حول الفرق بين حياتهن العملية، وبين علاقاتهن المنزلية. تعترف كالفرلي على سبيل المثال أن والدها كان قد أخبرها قبل مغادرتها مع زوجها أمريكا: «فليكن طموحك منصباً حوله لا حولك»، وتمضي إلى القول: «إن إدوين لم يقرر القدوم إلى الكويت؛ لتحقيق مآرب شخصية، لكنه جاء ليخدم بين المسلمين بما يستطيع أن يقدمه هناك، لا بما يستطيع أن يحققه لنفسه»[1]. ومن قبيل المفارقة، وكما ذكرت جان هنتر، أصبح عدد النساء العاملات في حقل التبشير خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر مرتفعا جداً، مما دفع الطبقات التبشيرية الذكورية في أمريكا إلى الشعور بالحاجة الماسة لتذكير النساء بمكانتهن. وتقتبس هنتر خطاباً، ألقاه سكرتير اتحاد المبشرين المعمدانين الأمريكيين خلال مؤتمر عام1888:

على أن عمل النساء في الميادين الخارجية: يجب أن يضع في منظوره سيادة الرجل في تنظيم شؤون مملكة الرب. علينا ألا نسمح أن يكون لهن نصيب الأسد من الأصوات ولا أن نسمح لهن، على الرغم من قدراتهن وطاقاتهن مهما كانت استثنائية وخارقة في إدارة الأمور، وهذا ما أثبته بعضهن وما شاهدناه على أرض الواقع لدى بعضهن، بالتشكيك بعلو كعب الرجل الطبيعي المحتوم، في إدارة البعثات التبشيرية في كنيسة الرب على حد سواء. وأن سيد المرأة هو الرجل[2].

بيد أن «سيادة الرجل» لاقت قبولاً من غير أدنى شك من المبشرين والمبشرات. وعلى الرغم من تشجيع «عمل المرأة» في التبشير، إلا أنهم كانوا يرون أن عمل المرأة في بيتها هو الأساس. ولم تدعم الطبقات الذكورية التبشيرية أية تغييرات اجتماعية جذرية في العلاقات الخاصة، والمنزلية على حد سواء، بل على العكس، كانوا دائما يقدمون حياتهم الزوجية وتبجيلهم للأمومة في أواخر العصر الفتكوري كصورة نموذجية، على الأديان، والثقافات الأخرى أن تقتبسها. وصف ماسون وبارني الدور المركزي للأنثى المسيحية ووظيفتها

(1) المرجع السابق، ص 14.

(2) Hunter, Jane, The Gospel of Gentility, p 14.

المزدوجة كناشطة وكأنموذج مذعن في المشروع التبشيري:

كان من عادة الأدب التبشيري أن يولي العمل بين النساء معاملة خاصة، وهناك سبب مقنع للقيام بهذا. لكن إلى أي مدى علينا مواصلة هذا، فالبعض قد يظن أن عمل النساء قد أصبح قسماً مستقلاً بذاته، أو حتى صفة مميزة للعمل التبشيري. طبعاً لا تنطبق هاتان الحالتان على بعثة الجزيرة العربية، لكن عمل النساء يصب في صميمها. إن قرارا بإيقاف جميع الأعمال الصفية والتربوية، لهو أمر وارد الحدوث في أية لحظة، لكن طالما كان هدفها الأساسي، هو تنصير الناس في الجزيرة العربية، فالعمل ينبغي أن يكون مشتركاً بين النساء والرجال على حد سواء. وهذه الحقيقة معروفة لدى الجميع هنا. ففي تشاوراتهم وفي تطبيقهم، كانت المساواة أو من الأفضل لنا أن نقول اقتسام العمل معلوماً لدى الجميع، وفضلا عن ذلك، ولأن أيا منا لا يستطيع أن يتكبر على أمهاتنا، فإننا ندرك أننا لن نحرز أي تقدم في نشر المسيحية، ما لم يدخل الكتاب المقدس إلى الحريم[1].

أصبح معلوماً، في الوقت نفسه، لدى الجميع حجم العمل الملقى على عاتق النساء المتزوجات، والحاجة الماسة لتوظيف نساء غير متزوجات؛ للقيام بأعمال محددة، على الرغم من الرفض الذي واجهته الفكرة في بدايتها في الوطن والميدان. وفي هذا السياق، ناقش تقرير الاجتماع السنوي للمبشرين المنعقد عام 1902 موضوع «تعزيزات» الجزيرة العربية، وأكدوا الحاجة إلى نساء غير متزوجات:

قامت النساء المتزوجات في بعثة الجزيرة العربية بكل ما يستطعن القيام به (حتى إن بعضهن خاطرن بحياتهن بالقيام بأكثر مما ينبغي لهن)؛ لتلبية الفرص الذهبية المتاحة، واستجابة للدعوات المباشرة بالحاجة إليهن للمساعدة. لكننا إلى هذا الوقت لم نقابل من تستطيع أن تكرس وقتها للعمل بين النساء، الظروف في الجزيرة العربية أقل قساوة على النساء غير المتزوجات عند مقارنتهن بالمتزوجات. ولهذا لا نرى -وأقصد هنا العاملين في الميدان- أن هناك مانعا اجتماعيا، أو أخلاقيا في عمل غير المتزوجات مع النساء المسلمات، وهناك تبريكات لهذا الشأن تلوح بالأفق. نحن نعلم أننا فوتنا فرصا ذهبية خلال العشر

(1) ماسون وبارني، تأريخ الإرسالية التبشيرية العربية، ص 211-212.

سنوات الأخيرة، برفضنا توظيف غير المتزوجات للعمل في بلاد إسلامية أخرى عديدة، ظروفها تشبه -إلى حد كبير- الظروف التي تواجهنا في الجزيرة العربية[1].

وأشار التقرير أيضاً إلى أن الأمناء قد سحبوا اعتراضا قدموه في وقت سابق، حول إرسال غير المتزوجات إلى الميدان، وأن المجلس النسائي قد وافق على تحمل تكاليف دعم مبشرة واحدة أو أكثر[2].

كانت إليزبيث دبري (ولاحقاً كانتين) أول مبشرة عزباء تعين في الإرسالية العربية. وصلت إلى البصرة عام 1902، -قبيل بداية الحرب العالمية الأولى- وفي سبتمبر عام 1914، تحديداً، أصبح هناك خمس عشرة مبشرة تعمل في منطقة الخليج، إحدى عشرة منهن كن متزوجات، وأربع غير متزوجات. وكُنّ يقمن بالأعمال التالية على اختلاف مناطقهن. ثلاث زوجات (كانتين وماري وديكسترا) كُنّ يقمن «بعمل (إنجليكاني)» واثنتان غير متزوجتين (سكاردفيلد ولوتون) كانتا مسؤولتين عن «عمل النساء الأنجليكاني»، وزوجة واحدة (آمي زويمر، ودرست مع زوجها في القاهرة)، كانت تقوم «بالعمل الأدبي»، وثلاث زوجات كُنّ يقمن «بالأعمال الطبية العامة» (وورال وبينيت وهاميلري). وكان هناك زوجة وعزباء (كالفرالي وهسمن) تقومان «بالأعمال الطبيّة النسائية»، وكانت إحدى الزوجات (فان بيرسم) قيّمة على مستشفى ماسون ميموريال في البحرين، وإحدى الزوجات (فان إيس) كانت منهمكة في «الأعمال التربوية»، وأخيراً، إحدى الزوجات وإحدى العازبات (فان فلاك وشافتيتلين) كانتا تعملان في تدريس اللغة[3].

وعلى الرغم من كل هذا، إلا أن ولوج النساء العمل التبشيري كان وما يزال صعباً للغاية. فالعمل في منطقة الجزيرة العربية، تطلب اللياقة البدنية، والشجاعة، القدرة على التحمل. وكان التدريب بما يشمله من كفاية في اللغات المحلية مجهدا للرجال، والنساء على حد سواء، وكان يشار إلى العمل دوماً كونه مجهداً على الصعيدين البدني والفكري.

(1) جزيرة العرب المهملة، رقم 42، إبريل/يونيو 1902، ص 17-18.

(2) المرجع السابق.

(3) جزيرة العرب المهملة، رقم 90، يوليو/سبتمبر 1914.

وكما قالت جيسي ماري بينيت بالبحرين عام 1905 «إن دين الإسلام، الذي قدمنا هاهنا لنهزمه، عادة ما يقارن على نحو يطابق مرامنا بالجبل، [الذي] ... يبزغ علينا»، وأشارت إلى أن للدربة اللغوية أهمية تفوق القدرة التقنية على فهم بعض الكلمات:

تعد اللغة المحلية –بالطبع– إحدى أولى المشاكل التي قد يواجهها المبشرون في أي بلد أجنبي، وتعد أيضاً بما لا يدع مجالاً للشك، إضافة للعمل الذي لا نستطيع الانخراط فيه فور دخولنا هذا الميدان، فسنتا دراسة اللغة تعطيان المبشر كثيراً من الوقت والفرصة للتعرف على العقلية المميزة وعادات الناس، الذي سيقضي المبشر حياته معهم[1].

تخرجت بينيت من قسم الآداب في جامعة ميتشيغان، ودَرّست في مدارس ميتشيغان، وتطوعت هي وزوجها للعمل في الإرسالية التبشيرية العربية، ودرّست لاحقا في مدرسة البحرين الصغيرة، وزارت النساء في بيوتهن. لكنها في الأول من يناير من عام 1906، قضت نحبها بسبب إصابتها بالتفوئيد. وكانت بذلك واحدة من أولى ضحايا الظروف الطبيعية القاسية لحياة المبشرين في الخليج[2].

كان جلياً أن أعباء العمل الجسمانية باهظة جداً، وعلى الرغم من أن الحفاظ على الصحة كان يعد مشكلة رئيسية، إلا أن المبشرات والمبشرين على حد سواء أظهروا قوة جسمانية عظمية، وعناداً، وعادة ما كانوا يقعون فريسة المرض، لكن من غير أن يفكروا بالاستسلام إطلاقاً. تم توثيق كلمات السيدة بنيت عند وفاتها في التقرير الفصلي، وكانت: «أخبروا الهيئة بأني أموت كمبشرة هناك، وأن يرسلوا شخصاً آخراً مكاني»[3]. وقبل وفاة بنيت ببضعة شهور، توفيت الدكتورة ماريون ويلز تومس، التي كانت تعمل في البحرين منذ عام 1899، «بشكل فاق طاقتها من أجل أخواتها العربيات» وأظهرت دوماً «مهارة وصبراً بعملها كطبيبة، وإخلاصاً في دراستها للغة». وعرف عنها أيضاً «نكرانها لذاتها وتواضعها». ونقل عنها بينما كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة دعوتها بإرسال المزيد

(1) السيدة أ. يَ، بينيت «في ظل الإسلام» «جزيرة العرب المهملة» رقم 55 يوليو–سبتمبر، 1905، ص 3.

(2) جزيرة العرب المهملة رقم 57، يناير–مارس 1906.

(3) المرجع السابق.

من المبشرين ليحلوا محل من لا يستطيع أن يكمل طريقه[1]. بيد أن قدرة هيئة المبشرين الدائمة على إيجاد نساء؛ ليخلفن سابقاتهن لم تنبع بأي حال من الأحوال من ميزة الاختيار الوظيفي، الذي كانت تتمتع به كثير من النساء ذوات العقلية المستقلة، لكنه كان ينبع أيضاً من وجود نساء ملتزمات اجتماعياً. وفضلاً عن ذلك، كان انعكاساً للمعتقدات العميقة حول صحة وشرعية قضيتهم. فكثير من المبشرات كُنّ يؤمن بشدة أن المسيحية، وتحرير المرأة مرتبطان ارتباطاً وثيقاً، وعبر مساعدتهنّ سيتمكن المسيح من إيصال النساء العربيات إلى النور.

وفي مقالة خطتها ماريون ويلز تومس عام 1903، طالبت فيها إرسال المزيد من الناس للعمل في الجزيرة العربية، أعطت ماريون قرّاءها في الوطن وصفاً قاسيا لانحياز الإسلام ضد المرأة، بالمقارنة مع تعاليم السيد المسيح «الذي شرّفها»[2]. واحتوت مقالة تومس نظرة المبشرين الدائمة تجاه النساء المسلمات، وكانت تلك النظرة تراوح بين «الموت الحي لآلاف النساء» و«جهل زوجات الرجل وسراريه، والخرافات المرتبطة بقصر الحريم بما تحويه من حسيّة وشهوانية» و«سلطة الرجل المطلقة» فيما يتعلق بالطلاق، والحاجة الملحة الناجمة عن كل هذه الظروف لتعليمهم أن هناك «حياة أسمى وأفضل من تلك التي يعشنها». ومع تعاقب الأيام والسنين منذ وصول إيمي زويمر، رسمت المبشرات الأمريكيات صورة قاتمة للبؤس التي تحياها النساء في الخليج، إذا قورنت بطبيعة عيش المسيحيين. فعلى سبيل المثال، ضمنت جوزفين ي. سباث عام 1911 وصفها «لطبيعة الحياة المنزلية العربية» في البحرين، مقارنة تعمدت فيها المؤلفة إظهار الفارق بين الحياة المنزلية في الجزيرة العربية و«الحياة البيتية» في أمريكا:

فالحياة المنزلية لها ذكريات مقدسة، وعزيزة ولهذا لا نستطيع إلا أن نربطها مع أسمى الفضائل وأنقى الأخلاق، ودون هذه الفضائل أو الأخلاق لا يمكن أن نسمي هذه العلاقة حياة منزلية. والحياة المنزلية تربط أفكار الشخص بمكان تسوده الحرب أو السلام، فجميع

(1) جزيرة العرب المهملة رقم 54، إبريل–يونيو 1905.

(2) «الحاجة لنساء عاملات بين نساء جزيرة العرب «جزيرة العرب المهملة، رقم 47، يوليو–سبتمبر 1903.

أفراد العائلة يجمعهم هذا الرباط المقدس ... إن بيتنا المسيحي لا يَبثُّ سوى «الوحدة والاتحاد» والبيت العربي لا يبث سوى الانقسام والانعزال».

وعند زيارتنا لمنزل عربي كان أول شيء لاحظناه بعد اجتيازنا الجدران الميتة التي تخلو من النوافذ: هو الانقسام. فهناك مكان خاص، يسمى الحريم، يقتصر على النساء. ومهما وجدنا في هذا المكان من مظاهر الترف فلن يرقى إلى مستوى قسم الرجال ورفاهيته.

إن قليلاً من النساء العربيات اللواتي قابلتهن كن سعيدات، وعندما كنا نزورهن لأول مرة، كُنّ يُبدين راضيات بوضعهن وكن يستقبلننا بترحاب وسعادة، وكن على الدوام مضيافات. لكنهن لم يكنّ يبحن بمكنونات صدورهن، إلا بعد أن نقوم بعدة زيارات لهن، وبعد أن يتيقنّ من صدق صداقتنا ومن حبنا لهن[1].

وفي العام نفسه، عمل صموئيل زومير منظماً ورئيساً للمؤتمر الدولي الثاني للبعثات التبشيرية من مختلف الطوائف الدينية، والمسمى «المؤتمر حول الإرساليات إلى المسلمين»، الذي عُقِدَ في الهند في منطقة لوكناوا[2]. وحضر المؤتمر ما يزيد عن ثلاثمائة وقد قدمت من بعثات الهند، وآسيا الوسطى، وإفريقيا، والصين، والشرق الأوسط من بلاد فارس، وتركيا، ومصر، وفلسطين، وسوريا، والجزيرة العربية. وشدد المؤتمر على ضرورة العمل مع النساء المسلمات. وكان من ضمن قرارات المؤتمر، الدعوة لمساعدة النساء المسيحيات بشكل عاجل في «تنصير المرأة المسلمة، ورفع قدرها، وهي التي تشكل مع أطفالها الصغار الجزء الأعظم من العالم الإسلامي»[3]. وأوصى المؤتمر هيئة المبشرين التي عادة ما ترسل الرجال، والنساء باتخاذ خطوات «لضمان وصول العاملين إلى كل ذكر، وأنثى يمكن الوصول إليه، وفي كل مقر تبشيري، عبر توحيد جميع الجهود» وأوصوا أيضاً أن تولي

(1) جزيرة العرب المهملة، رقم 79، أكتوبر-ديسمبر، 1911، ص 16-19.

(2) يناير 1911. عُقِدَ المؤتمر الأول،الذي ترأسه أيضاً وأشرف عليه زويمر في القاهرة عام 1906.

(3) قرارات المؤتمر العام حول الإرساليات التبشيرية إلى المسلمين والمنعقد في لوكناو عام 1911»، في Sommer, Annie Van and S.M.Zwemer, (eds). Daylight in the Hare: a New ditions and methods of work among Moslem women read at the Lucknow Conference, 1911. Edinburgh and London: Oliphant, Anderson & Ferrier, 1911, pp213-214

كليات تدريب المبشرات مزيداً من الأهميّة إلى تدريبهن على العمل مع النساء[1].

كانت إيميلي زويمر تتقد حماسة، وتكافئ في حماسها زوجها. ضَمّن الزوجان معتقداتهما كمبشرين، التي بقيت ثابتة طوال حياتهما كثيراً من التقارير، والأعمال المنشورة، بما فيها كتابهما «نساء مسلمات»، الذي نشر في فترة لاحقة من عمرهما، وتحديداً عام 1962 عندما كانا يسكنان ويعملان في القاهرة. وصف الكتاب -الذي ضم خلاصة تجربة عائلة زويمر الجهادية، التي استمرت مدى حياتهما- «محنة» النساء المسلمات «كقصة مأساوية»؛ قصة يمكن إيجازها حسب قول زويمر ورفاقه بلبس «الحجاب». وفي تقديمها للكتاب، حثّت مجموعة، تشكلت بكاملها من النساء، من أعضاء لجنة الدراسة الموحدة للبعثات التبشيرية الأجنبية، قراءها ليضاعفوا جهودهم في مواجهة المد السريع للإسلام في العالم: «نشعر بشفقة وحزن تجاه النساء المخمرات في الإسلام، أليس هناك من مأساة أكبر من الخمار، الذي نشاهده أمام أعيننا، ويمنعنا من تحقيق أو حتى فهم حاجتنا العظيمة؟»[2]. كانت رمزية الحجاب، وسيلة وعلامة بارزة على ما وقع على النساء، فكرة سائدة في أدب التبشير، ومما قوّى هذه الفكرة اعتقاد المبشرين الثابت الدائم أن حياة الغربيات وعلاقاتهن الاجتماعية التي وسمت المسيحية وطابع الحياة الغربية (الأمريكية) كانت، دون شك، أفضل وأكثر إرضاءً للنفس إذا قورنت بحياة النساء العربيات.

وخلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى، وتلك التي تلتها، واصل المبشرون اعتقادهم بأن تحرير المرأة المسلمة واحد من أكثر الأهداف أهمية، وكانوا يؤمنون، بقوة، بقدرة الكتاب المقدس على دفع المرأة المسلمة إلى التغيير. وفي الوقت نفسه، تمكنت المبشرات -دوماً- ولا سيما عند مقارنة أنفسهن مع «النساء الأقل حظاً والأدنى مرتبة» من أن تسمون وتعززن مكانتهن في المشروع الاستعماري والمجتمع المحلي[3]. وفي

(1) أ. إي. واس. إم زويمر. نساء مسلمات. ص 119.

(2) أ. إي. واس. إم زويمر. نساء مسلمات، المقدمة. وصف الكاتبان زويمر في الكتاب لاحقاً «مسيرة الإسلام» بتعابير عسكرية مثقلة بالقدر: «تعادل قوى محمد الآن سُبع سكان الكوكب ... أحال الوعيد السماء حالكة الظلمة فوق القارة المظلمة». [أفرينا] (ص 117).

(3) أشارت بني تينكلر في مقدمة العدد الخاص من مجلة «المنتدى العالمي للدراسات النسائية». الموسوم بـ (النساء،=

إطار سعيهن لتحقيق هذه الأهداف، لم يكن لدى المبشرات الأمريكيات، على النقيض من نظيراتهن البريطانيات، أدنى شعور بالبعد أو بالخطر من الاتصال المباشر مع الناس المحليين، ولم يعبّر المبشرون (الذكور)، على الأقل في تقاريرهم المنشورة، عن مخاوف أو تردد في ترك نسائهم وحدهن مع الرجال العرب من سكان المنطقة، بل إن النساء أنفسهن نادراً ما عَبّرن عن شعورهن بالإنزعاج من ذلك، وهو الشعور السائد في بعض كتابات زوجات الموظفين البريطانيين في الخارج. وعلى العكس، كان الاتصال المباشر مع السكان المحليين ضرورياً؛ للقيام بعملهن على أكمل وجه، ولقد شعرن على الدوام أنهن في أمان لشعورهن القوي بوجود الإلة. وثقت إيميلي زويمر في مفكرتها عام 1899 نشاطاتها اليوميّة في البحرين، التي اشتملت على زيارة العائلات البحرينية والمشي مع ابنتها الصغيرة:

1 يناير: أربع نساء زرنني، حدثتهن حول المسيحية وعزفت لهن على الأورغن الصغير، 5 يناير: زرت بيت الشيخ س وقضيت وقتاً ممتعاً أقرأ لجموع النساء عن المسيح، وأتحدث معهنّ عنه. فلينشر الرب كلمته.

6 يناير: تمشيت مع كاترينا، تبعنا بعض الأولاد، الذين حاولوا أن يرمونا بالحجارة، لكني تجنبت حجارتهم بمناورة ذكية مني.

8-18 يناير: جاءت النساء بأعداد مختلفة اليوم تلو الآخر، بعضهن جئن للزيارة وبعضهن لتلقي العلاج، 8 فبراير: زرت مدرسة البنات (المسلمات) وأجريت حديثاً آخراً مع الأطفال ... زرت بيتين وكان في كل منهما عدد من النساء ... 22 فبراير زرت ثمانية بيوت ورأيت أربعين امرأة، وطفلاً وبعض الرجال. قضيت وقتاً ممتعاً جداً ... 23 فبراير: جاءت سبع نساء هذا الصباح، وزرت قرية في المساء(1).

وتتضمن توصيفات إيلنور كالفرلي لعلاقتها مع العرب المحليين التي خطتها في سيرتها الذاتية، على الرغم من أن توصيفاتها تُرْوى بتصور لاحق، قلقاً إزاء «القيام بالشيء

=والإمبرياليات، والهوية)، ذي الرقم 21 والصادر عام 1998، إلى أن «الصورة النمطية» للنساء المحليات. الوارد ذكرها في العديد من تقارير المبشرات، قد أسهم في بناء نموذج لأنوثة المرأة البريطانية البيضاء. (لكونها تمتاز بالقوة الجسدية والعاطفية)، وذلك عَبْرَ التركيز على أنوثة المرأة المحلية الوضيعة والدنيئة. ص 219.

(1) التقرير الميداني للإرساليات التبشيرية العربية. رقم 29 يناير/مارس 1899. ص 12-14.

الصحيح». هذه التوصيفات تتناقض بشكل صارخ مع قلة ذوق إيميلي لوريمير، التي وصفت بها العادات الاجتماعية لضيوفها. فعلى سبيل المثال، عندما انتقلت عائلة كالفرلي إلى بيتها، خطّطت إيلينور لدعوة النساء العربيات إلى حفلة عشاء، ووصفت بالتفصيل تجربتها في إعداد الطعام العربي، وكيف شددت على أن يبقى خادمها حسن منتظراً في الخارج؛ لتجنب رؤيته للنساء، وكيف كانت حريصة على أن تأكل بيدها(لا باستخدام الشوكة والسكين) وباليد اليمنى تحديداً ووصفت أيضاً محاولتها تقليد ضيفتها ليلى بدلا من أن تقلدها ليلى، وأظهرت للجميع من دون أدنى شك، احتراماً للعادات الاجتماعية للسكان المحليين[1]. وفضلا عن ذلك، نشأت كالفرلي أطفالها في الكويت كما فعلت الكثيرات من المبشرات المعاصرات. توفي اثنان من أولاد زويمر في البحرين عام 1904، وكان يفصل أسبوع واحد بين وفاة كل منهما، وأضحت مخاطر الإصابة بمرض تقاس دائماً ببؤس العائلة عند فقدانها لأحد أفرادها[2]. كتبت كالفرلي، أن «أولادها كانوا يعيشون طفولة سعيدة، وطبيعية في الكويت»:

وعندما أصبحوا بالغين كفاية، أصبح لديهم زّلاجات متدحرجة، وأخذوا يتزلجون من جانب لآخر في الشرفة ... وكنا اجتماعياً نقضي أوقاتاً جميلة. كانت عائلتنا تغتنم كل فرصة متاحة للاحتفال... وعندما أصبح الأطفال أكبر سناً، أخذهم الدكتور ميلري إلى عمله، وأعطاهم دروساً حول النجوم[3].

واصلت كالفرلي كتابتها لتصف مباهج الربيع المميزة عندما تزدهر الورود. كانت العائلات العربية تذهب إلى داخل الصحراء، وكانت النساء «يبتهجن بحرية التجوال بلا خمار»[4]. وفي بعض الأحيان، كانت عائلة كالفرلي تتلقى دعوى لقضاء يوم مع العائلات

---

(1) Calverley, Eleanor T., My Arabian Days and Nights, pp 48-52

قارن سرديات إيميلي لوريمير لحفلات الاستقبال، وحفلات العشاء مع أبناء المنطقة. الفصل الثاني أعلاه.

(2) الجزيرة العربية المهملة، رقم 51، يوليو–سبتمبر 1904، توفي كلّ من روث، وكاترينا زويمر في يوليو عام 1904؛ بسبب الزحار، الذي تلا الحصبة. كانت كاترينا وهي الأكبر سناً تبلغ السابعة من العمر.

(3) Calverley, Eleanor T., My Arabian Days and Nights, p 107.

(4) المرجع السابق، ص 110.

العربية، وكان أطفالهم يستمتعون بركوب الجمال، واللعب مع الأطفال العرب. وبعد الغداء، كانوا يزورون خيام النساء. «ولم يكن ينقضي وقت طويل علينا إلا وقد أصبحنا مقربات من المضيفات». ومضت تقول: «لقد كان بيننا أشياء مشتركة كثيرة ،خاصة من كن منّا أمهات»[1]. وإلى جانب النزهات العائلية، كانت تتم دعوة كالفرلي إلى النزهات النسائية والجلسات داخل البيوت:

سَرّنا كثيراً أن نجد أنفسنا موضع ترحيب في جلسات النساء العربيات. كانت ظروف حياتنا الخارجية تختلف في كثير من جوانبها عن حياة أصدقائنا المسلمين، لكن الصداقة أصبحت تدريجيا تجتاز جميع الحدود التي قد تكون نتاج غرابة تقاليدنا[2].

وختمت كالفرلي بقولها إنها وزوجها قد اتخذا القرار الصائب بتنشئة أطفالهما معهما في الخليج:

كنت أنا وإدوين نتساءل في سنوات سابقة، هل كان أطفالنا سيجدون أنفسهم مقيدين في وقت لاحق؟ لأنهم عاشوا فترة طويلة بعيداً عن حضارتهم. بدا واضحاً لكلينا الآن أن الميزات التي تمتعوا بها هنا تفوق أية مساوئ محتملة، وهم الآن يتحدثون باشتياق حول طفولتهم التي قضوها مع الأطفال العرب. فهذه السنوات كانت ثرية لهم ولنا على حد سواء[3].

أدى هذا التقارب من السكان العرب، وخاصة الطبقة الحاكمة، إلى نشوء مشاحنات أولية مع الإداريين الإمبرياليين البريطانيين في الخليج، وقاد في نهاية المطاف إلى انقسامات سياسية خطيرة[4]. ففي بداية المشروع التبشيري، شعر المبشرون -على الأقل- بالراحة والأمان، إلى حد ما كونهم محميين، عبر وجود الممثلين البريطانيين على ساحل الخليج. لكن البريطانيين كانوا متشككين دوما إزاء نوايا الأمريكيين، ومرتابين من حساسيتهم السياسية. ولقد نشبت واحدة من أشد النزاعات مع البريطانيين نتيجة لمعارضتهم

(1) المرجع السابق، ص 112.

(2) المرجع السابق، ص 114.

(3) المرجع السابق، ص 128.

(4) انظر الفصل الخامس: لمعرفة المزيد عن العلاقات الإنجلو-أمريكية وعن دور النساء.

هدف المبشرين القديم والمستمر، ألا وهو«احتلال الجزيرة العربية»[1]. ويصف المجاز العسكري بشكل ملائم خطورة هذا الهدف، ويساعد في توضيح الشعور بالعداوة، الذي تولد لدى المسؤولين البريطانيين في المنطقة، الذين واصلوا الحفاظ على السياسة طويلة الأمد، بعدم التدخل في الشؤون السياسية للمناطق الداخلية. كان البريطانيون، ببقائهم على الأطراف دائماً، يشعرون بالاستياء من توغل آخرين في مناطق مُحَرّمة. عدت نشاطات المبشرات الأمريكيات -اللواتي تمكّنّ من الوصول إلى مناطق في الجزيرة العربية غير معروفة تماماً للموظفين البريطانيين، ولا لزوجاتهم المنعزلات اجتماعياً- أنها تحمل تهديداً جلياً[2].

كان البريطانيون في السنوات الأولى ينظرون إلى نظرائهم القادمين من الطرف الآخر من المحيط ببعض التواضع، واعترفوا بالتزامهم جانب الحياد تجاه نشاطاتهم التبشيرية. لكنهم في الوقت نفسه، واصلوا حمايتهم لشيوخ المنطقة. وفي عام 1910، كتب المقيم البريطاني في بوشهر إلى الممثل البريطاني في الكويت؛ الكابتن شكسبير، حول الدعوة التي تلقّاها الدكتور بينت من أمير الكويت:

إن موقفنا تجاه البعثات التبشيرية هو ... الحياد، والقاعدة هنا هي الحياد الخيّر، لكننا لا نحاول أن نجبر أي شخص لا يرغب في وجودهم أن يتقبلهم. وإذا كان الشيخ مبارك قد دعاهم، فهذا رأيه، لكن إذا غرس الطبيب نفسه هناك، فلا شك أن آخرين سيتبعونه ... دعونا نأمل بألا يتشاجر الشيخ معهم لاحقاً ويطلب منا مساعدته أن نردعهم عنه، وعندها لن نكون قادرين على مساعدته، فحالما يغرسون أنفسهم، سيبقون معه دوماً كما الفقراء[3].

---

(1) شَكّل السعي الدؤوب للتأثير في داخل جزيرة العرب، دافعاً لدى زويمر وأوائل المبشرين الأمريكيين. لم يوص زويمر، وكانتين هيئة الأمناء بإرسال زويمر، إلا في تقريرهم الميداني الربعي الثاني للبعثة التبشيرية العربية (إبريل-يونيو 1892). «لفتح جزيرة العرب لتلقّي الإنجيل» (ص 12) وأشارا في تقريرهم الربعي الثالث (يوليو-سبتمبر 1892) إلى إدراكهم العميق أن مهمتهم قد باركها الرب لنقل الإنجيل إلى داخل الجزيرة العربية»، ص 7.

(2) انظر الفصل الخامس والسادس.

(3) أ. ب. ترفور. في بوشهر إلى دابليو، هـ. أي. شكسبير في الكويت. 1910/1/1 سجلات وزارة الهند: أر 313/15.

اعتقد شكسبير بدوره أن تقوية الوجود البريطاني في الكويت سيسهم (في حل الإشكال):

سيكون للوجود البريطاني دورٌ حضاري بشكل عام، وستعزز تقارير عمله التي ستنتشر تدريجياً بين قبائل الصحراء، ومن غير لغط، أو إخفاق، وستعزز السمعة الطيبة الشائعة حول البريطانيين بحبهم للخير والعدالة، وحول حكومتهم الرشيدة، فأكثر العرب تعليماً لا يستطيعون التمييز بين الشعب البريطاني والأمريكي[1].

فضلاً عن ذلك، ونتيجة لقدرة الأمريكيين على اختراق المجتمع العربي المحلي، غدا الأمريكيون ذوي فائدة كبرى للبريطانيين، بوصفهم مخبرين سياسيين لا يشك فيهم أبداً[2].

وحسبما تورد جان هنتر، شكّل البريطانيون مرجعية دائمة للأمريكيين في المقابل، وكانوا يعدون التحدي الأزلي في بدايات القرن العشرين، عندما كان الأمريكيون يصارعون لإثبات وجودهم على الساحة الدولية:

ونظراً للانزعاج، الذي تولد لدى الأمريكيين نتيجة لشعورهم بالقصور الاجتماعي عند تعاملهم مع العالم القديم، بنى الأمريكيون مفهومهم للثقافة الوطنية على أساس سمو الغرائز السياسية الأمريكية الديمقراطية. وفي نقدهم للبريطانيين أكدوا على التسلط، والقساوة، والغرور التي كانت تميز الإنجليز. وكل هذه الصفات نتاج للنظام الطبقي البريطاني، الذي يعده الأمريكيون مهدِّداً[3].

كان الأمريكيون يعتقدون أن البريطانيين «مغرقون في طاعة من هم أعلى منهم مرتبة» بل، وكانوا مصدومين كثيراً من طريقة معاملة البريطانيين لمن هم أدنى منهم مرتبة[4]. ولم يستطع الأمريكيون طبعاً أن يدركوا، أو أن يتعاطفوا مع التعاظم البريطاني، وكانوا يرون

(1) دبليو. هـ. أي. شكسبير إلى أ. ب. تريفور 1910/8/3 سجلات وزارة الهند: أر 303/15.

(2) Al- Sayegh, Fatma, <American missionaries in the UAE region in the twentieth century>, Middle Eastern Studies 32, 1996, pp.120-39, see chapter 5.

(3) Hunter, Jane, The Gospel of Gentility, p152

(4) المرجع السابق.

أن بعض تصرفاتهم في المنطقة محيرة جداً. فعندما وصفت إيلنيور كالفرلي الغداء مع الكابتن شكسبير، كان وصفها يمتاز بالمرح والسرور، لكنه كان مشوباً بالدهشة والاستغراب:

كانت الأمسيات الاجتماعية في القنصلية جيدة لتعزيز روحنا المعنوية، فهذه الأمسيات منحتنا الفرصة لنرتدي ملابس السهرة. كان العاملون في بيت [الكابتن شكسبير] يقومون بما توجب عليهم بسلاسة مطلقة وفاعلية دون أن يوجه الكابتن كلمة واحدة للطباخ، الذي كان من أبناء جزيرة جاوا في جنوب الهند، أو لرئيس الخدم القادم من شمال الهند، الذي ببزته البيضاء الناصعة التي لا يشوبها شائبةً قدّم العشاء على مراحل فوق طاولات مضاءة بالشموع، وبراقة بما عليها من الدمقس، والفضة، والكريستال. كان الكابتن شكسبير، بشخصيته البشوشة وطبيعته الدمثة، حريصاً بألا يدع حقيقة أنه عاش وحيداً في مكان منعزل عن زملائه من الوطن، أن يكون عديم الاكتراث ومغاير الأخلاق ... وقيل عنه أنه حتى في أثناء جولاته في الصحراء كان يرتدي لباس العشاء، وكان يتوقع من رئيس خدمه أن يعد طاولة تحوي جميع أنواع قوارير المشروب[1].

بَيْدَ أن المشاعر لم تكن متبادلة كلياً، وكان هذا جلياً من مفكرات إيميلي لوريمير، وسردياتها حول إخفاق الأمريكيين الدائم في الارتقاء إلى المقاييس البريطانية، لآداب السلوك الاجتماعية الإمبريالية[2]. غير أن هذا السلوك المهين قد تغير جذرياً خلال الحرب العالمية الأولى، كما تغيرت قناعات البريطانيين والأمريكيين السياسية والاجتماعية، إلى جانب التوازن السياسي والاجتماعي الحادث في العلاقة المتبادلة بينهما، ومع المجتمع المحلي[3].

وتشير الدراسات الحديثة حول النشاطات التبشيرية إلى وجود علاقة معقدة بين الموظفين الإداريين الاستعماريين أو الإمبرياليين من جهة، وبين المبشرين في إفريقيا وآسيا من جهة

(1) Calverley, Eleanor T., My Arabian Days and Nights, p54.

(2) انظر الفصل الثاني.

(3) انظر: الفصلين الرابع والخامس للمناقشات المتعلقة بآثار الحرب العالمية الأولى على السياسة الإمبريالية ووجهات النظر إزائها.

أخرى[1]. وتدعو كل من دابرا كيركود، وشيرلي أردنر في تمهيدهما لكتاب «نساء وبعثات تبشيرية» إلى عدم عَدِّ النشاطات الاستعمارية، والتبشيرية مكملة لبعضهما بعضاً:

ففي بعض الأحيان كان المبشرون يتقربون من سكان المنطقة على النقيض من سياسات وزارة الاستعمار، وأحياناً كانت برامج المبشرين الطبية والتربوية تتفوق على أهداف الاستعمار. وفي أحيان أخرى، كان المبشرون ينتقدون تلاعب الإداريين بالعادات التقليدية، التي كانوا يحاولون -بدورهم- المحافظة عليها[2].

وفي الكتاب نفسه، تناقش فيونا بووي قضية تأثير الإرساليات التبشيرية على سكان المنطقة، وتقول إن الزعم أن هذا التأثير إيجابي أو سبلي هو قول مبسط جداً[3]. ففوائد البعثات التبشيرية التربوية، والطبية كانت في رأي سكان المنطقة جيدة، لكن تهجم المبشرين على العادات والممارسات الاجتماعية، والحضارية كانت -برأيهم- أيضاً سيئة للغاية. فضلا عن ذلك، كانت البعثات التبشيرية متفاوتة في موقفها تجاه سكان المناطق، بل إن هذه المواقف قد تغيرت بمرور الوقت. وتشير تقارير الإرسالية التبشيرية العربية، إلى أن المبشرين من الجيل نفسه كانوا يختلفون في قدرتهم، ورغبتهم في «تلمس» الفروق الحضارية والتنوع الديني[4].

ويمكن القول عملياً، أن البعثات التبشيرية في الخليج، قد جلبت للمنطقة أحدث التطورات العلمية، والتقنية في العناية الطبية. لم يكن هناك من شك أن عدد الحالات التي تعاملت معها كانت كبيرة، وأن المبشرين، رغم الشكوك التي كانت تحوم حولهم، كانت تتم دعوتهم للعودة دوماً، وكان الحكام في المنطقة يستدعونهم؛ ليهبوهم الأموال، لقاء التسهيلات الطبية التي يقدمونها. ولا تدل هذه الحقائق إلا على تقدير سكان المنطقة العميق للتسهيلات التي أحدثتها المستلزمات الطبية التي أحضروها معهم. عملت الطبيبات

---

(1) انظر: على سبيل المثال، Hunter, Jane, The Gospel of Gentility; Bowie, Kirkwood& Ardener (eds), Women and Missions

(2) Kirkwood& Ardener (eds), Women and Missions, the preface p xix

(3) المرجع السابق، «المقدمة: إعادة الاعتبار للوجود النسائي، ص 3».

(4) قارن، على سبيل المثال، كتابات إيمي زويمر، وإيلنيور كالفرلي اللتين كانت مواقفهما متباينة عامة ومتفقة جزئياً.

المبشرات جنباً إلى جنب مع المعالجين المحليين، وقدمن أشكالاً بديلة من العلاج، كان بعضها يلقى رواجاً، ويرفض بعضها الآخر. لكن باعتراف إيلينور كالفرلي المتأخر، الذي أوردته في سيرتها الذاتية، لم تكن الطرق الطبية للمبشرين تُفضّل دائماً على الممارسات المحلية. وتمضي إيلينور لتقول إن بعض أساليبها في توليد الطفل حينها كانت أقل عقلانية من أساليب القابلات المحليات:

لا ينفع الطبيب أن يكون دوماً واثقاً من نظرياته حول العلاج بشكل لا يقبل الرد. فلقد اعتادت الأمهات في الجزيرة العربية اللواتي أنجبن توّاً أن يستندن في جلستهن، وأن يمشين عقب وضعهن فوراً، بينما كنت أطلب من مريضاتي أن يلزمن الفراش لأسبوع. هذه الأيام، ووفق نظريات أكثر حداثة، أصبح من المقبول أن يتم المشي بعد الوضع بفترة وجيزة. وفي حال قرأت واحدة من مريضاتي اللواتي رفضن اتباع تعليماتي التزام الفراش ما أكتبه الآن، فإني هنا اعترف أنها كانت على حق[1].

لكن الأمريكيين لم يحققوا في الوقت نفسه تقدماً ملحوظاً في تنصير الناس، على الرغم من حديثهم المتواصل عن تعاطف سكان المناطق البين مع قراءاتهم الدينية، وتجمعات الصلاة التي كانوا يعقدونها، وعرضهم المطول لحالات الاعتناق الحقيقية التي تمت. ويبدو أن حضور قراءات الكتاب المقدس كان قراراً مغرضاً، الهدف منه تَرْضية نفوس المبشرات، والتعبير عن الاحترام العميق، الذي كانوا يكنونه لهنَّ لقاءِ خدماتهن الطبية. ومن الممكن أن يعكس هذا الحضور الرغبة في الاستفادة من الظروف المواتية للتآلف. وصفت إيمي زويمر في مقالة نشرتها عام 1902 عظتها وصلاتها اليومية في غرفة النساء في مستوصف البحرين. وكان يحضر العظة والصلوات عدد من النساء يتراوح بين 12 و 30. لكن عدداً قليلاً منهن كنَّ قادرات على القراءة، وكانت تتم عادة صياغة أجزاء من الكتاب المقدس «بالعربية المحلية»؛ لأن الكلمات كانت صعبة بالنسبة إليهن. وعلى الرغم من أن

(1) Calverley, Eleanor T., My Arabian Days and Nights, p 150 ولمعلومات مفصلة حول رد الفعل المحلي للممارسات الطبية للمبشرين الأمريكيين، انظر Doumato, Eleanor Abdella, Getting God's Ear: Healing in Saudi Arabia and the Gulf, New York: Coulumbia University Press, 2000.

النساء كُن يستمتعن بأن يقرأ لهن، إلا أنهن لم يكن يلتحقن بالصلوات. ومضت لوريمير تقول: «إن بعض النساء كُنّ يعتقدن أنهن لن يتلقين علاجاً ما لم يوافقن على ما يحدث، ولهذا كُنّ كارهات لموافقتهنَّ على ما قيل، ففي بعض الأحيان، كُنّ ينطقن بالشيء الخاطئ، أو حتى يوافقن في المكان الخطأ، وموافقتهن السريعة إنما تدل على عدم فهمهن لما قيل»[1].

وعلى الرغم من الضغط الدائم، الذي احتوته تقاريرهن لنيل إعجاب هيئة المديرين وداعميهن الماليين، ولضمان استمرار الدعم المالي، إلى جانب تبرير عملهن لأنفسهن، كانت المبشرات صادقات، وبشكل مؤثر في النفوس، في اعترافهن أنهن قابلن متنصراً حقيقياً تقريباً. وحسب ماسون وبارني، بلغ عدد المتنصرين السنوي خمسة[2]. كانت إيميلي لوريمير ممضة بنقدها لعبيثية النواحي الدينية للمشروع التبشيري الأمريكي. ورغم هذا كانت ميالة للاعتراف بنجاحات المبشرات. واعترفت لأمها في يوليو من عام 1911، أن مستشفى الإرسالية التبشيرية كان مزوداً بكادر جيد، وتتم إدارته وتمويله جيداً. وعلى النقيض منه كان مستشفى فيكتوريا ميموريال، الذي يديره البريطانيون، الذين «تورطوا فيه دون أن يأخذوا بالحسبان، التكلفة اللازمة لدوام تشغيله». كان هذا المستشفى «جميلاً وكبيراً، لكنه يفتقد إلى المطابخ، أو مساكن الأطباء، والطاقم الإداري، وكان ينقصه دوماً التمويل الكافي». كان هذا المستشفى، حسب ظنها، «يعكس الصورة العامة للحكومة، ولهذا عندما نستقبل حالات سيئة جداً، كنا نطلب من مستشفى الإرسالية التبشيرية أن يتعامل معها». كان رئيس المستشفى البريطاني الدكتور مناني، يدير مستوصفاً ممتازاً كان يذهب الناس إليه ممن كانوا يشكّون في صدق نوايا المبشرين. وكان الدكتور مناني يقوم بكثير من الزيارات، «لكني كنت أشعر بالأسى تجاهه، عندما كنت أشاهد المبنى الضخم شامخاً بأعداد من الأسِرّة التي لا يستفاد منها، فمقارنته مع مستشفى الإرسالية تصيب بالأسى»[3].

(1) «الوعظ في عيادة النساء» جزيرة العرب المهملة، رقم 43، يوليو-سبتمبر 1902.

(2) ماسون وبارني، تأريخ الإرسالية التبشيرية العربية، ص 207.

(3) إيميلي لورمير إلى والدتها، 10 يوليو 1911 المخطوطات الأوروبية أف 177/6.

وكان من الطبيعي أن تحافظ المبشرات على تفاؤلهن إزاء قيمة عملهن، ونجاحه المستقبلي المحتمل. ففي كلمة ألقتها في مؤتمر لوكناوا المنعقد عام 1911، أشارت آني فان سومر، بسعادة ساذجة، إلى تأثير ثورة 1908 في تركيا على النساء اللواتي، فور إعلان الدستور، كما تورد في كتابتها، «انطلق الآلاف منهن إلى الشوارع مع أزواجهن للمشاركة في النداء العام «للحرية»، فلقد نبذن حجابهن، وكن يعتقدن أن عصراً جديداً قد بدأ فعلاً»[1]. وتمضي في القول إنَّ النساء التركيات «كُنّ يرغبن بالقيام بما تفعله المرأة المسيحية دون انتقاد، كالتجول مع أزواجهن، ومقابلة الناس بحرية، وأن يشعرن أن العادات الاعتيادية للمرأة هي عاداتهن». وتحت عنوان «النور في تركيا» و«النور في بلاد فارس» و«النور في مصر» مضت سومر لتتناول التقدم، الذي شهده الشرق الأوسط في تعليم الإناث، وتغيير بعض العادات الاجتماعية، وكانت دوماً تربط، بشكل وثيق، بين التغييرات التي تحدث والتأثير المسيحي، بدلاً من أن تعزو هذه التغييرات إلى التحسينات السياسية المرضية، أو الإصلاح الديني الإسلامي.

كانت المبشرات الأمريكيات يعتقدن، وحالهن هنا كحال البريطانيين، أن العرب لا يستطيعون مساعدة أنفسهم. فكلا الفريقين قد توجه إلى الخليج وهما يحملان أحمالهما الحضارية، ولديهما قراءة منقولة ومتحيزة لما يجري في الخليج. والفريقان انطلقا إلى الخليج؛ لإعادة موضعة الخليج وفق صورة مطابقة لمجتمعاتهما، وكان ذلك الهدف موضوعا نصب أعينهما. ففي حالة الأمريكيين، كان التصور المسيحي البروتستانتي النموذجي للعائلة، والأنوثة هو ركيزة المشروع التبشيري كاملاً. إذ كانت المبشرات الأمريكيات يعتقدن أن المسيحية، وراء المكانة الرفيعة للمرأة الغربية، وأخفقن في إدراك المفارقات المبطنة التي تضمنتها دعوتهن إلى تحرير المرأة العربية، بينما ما تزال النساء في بلادهن يعاملن على المستوى السياسي، والمنزلي بصورة لا ترتقي إلى مستوى المعاملة التي يتلقاها الرجل. ولشعورهن بالأمان، والراحة بمكانتهن، وكيانهن بوصفهن مسيحيات

---

(1) Sommer, Annie Van and S.M.Zwemer, (eds). Daylight in the Hare, pp23-24.

انظر الفصل الخامس، للمزيد حول التأثير الملحوظ للعمل التبشيري الأمريكي في الحركة النسائية العربية.

بروتستانتيات أمريكيات، فإنهن لم يرغبن -كما يقول هنتر- بمحاولة تحدي مجتمعهن بل كن مستعدات للتهجم على سيطرة الرجل في ثقافات أخرى أو «أقل مكانة»[1]. وفضلاً عن ذلك، كان تركيزهن على «ويلات» «شقيقاتهن» العربيات، وحالهنَّ هنا مشابها لحال المصلحات الاجتماعيات لحركة فتكوريا الأنثوية، أداة إعلامية رئيسية في صراعهن للحصول على مكانة في مجتمعهن. ورغم هذا، كانت مشاركتهن في المشروع التبشيري إلى جانب صورتهن «الرائجة التي وضعنها لأنفسهن في ميدان التبشير، قد وسع من أنماط حياة المرأة الغربية. وفي حديثها عن النساء العاملات في الإرسالية التبشيرية الصينية، وهي واحدة من أكثر النشاطات جذباً للمرأة، تختم هنتر بقولها: «إن النساء اللواتي غامرن بالسفر وحدهن، وبأعداد متزايدة في نهايات القرن، قد شَكّلن إلى جانب شقيقاتهن الأكثر تمرداً، واحداً من أكثر الأجيال الأنثوية أهمية في التأريخ الأمريكي»[2]. لعبت نساء الإرسالية التبشيرية العربية دوراً صغيراً، لكنه محوري في هذه الثورة، وفي الوقت نفسه، ضَمَنّ لأنفسهن مكانة مشتركة خاصة بالنساء في البرنامج الأمريكي الناشئ؛ للتدخل في شبه الجزيرة العربية.

---

(1) Hunter, Jane, The Gospel of Gentility, pp xv-xxi.

(2) المرجع السابق.

الفصل الرابع

العمل الحربي لصالح الإمبراطورية
نساء غربيّات في بلاد ما بين النهرين والخليج 1914–1918

أعلنت بريطانيا رسمياً الحرب على حليف ألمانيا الشرقي –تركيا– في الخامس من نوفمبر عام 1914، بعد مضي ثلاثة شهور على اندلاع الحرب في أوروبا. وفي 22 نوفمبر، احتل جيش هندي بريطاني يدعى «قوة الاستطلاع الهندية» (د) البصرة. وكان للأحداث التي جرت في الأربع سنوات اللاحقة تأثيرٌ كبيرٌ على علاقات بريطانيا الإمبريالية مع مناطق الخليج، وعلى نشاطات وعلاقات الرجال، والنساء القاطنين، والعاملين في المنطقة.

خُطِّط «لحملة بلاد الرافدين» أن تكون عملية عسكرية؛ لتثبيت سيطرة البريطانيين على الأرض، وذلك لحماية التجارة البريطانية، والطريق إلى الهند، وحقول البترول الفارسية ذات الأهمية الاقتصادية الكبيرة. وفي الوقت نفسه، كان القصد منها تأكيد تفوق السلطة البريطانية ومكانة بريطانيا في الخليج لدى حكام المناطق وشعوبها. وقد ولَّد هذا النجاح الآني لدى الموظفين البريطانيين، في الهند وبلاد الرافدين شعوراً غامراً بَرّرَ لهم ما قاموا به. بل توسعت الخطة بسرعة؛ لتشمل فكرة السلام البريطاني، وفتحاً تكون بغداد هدفه الأسمى. وازدادت الثقة الإمبريالية بالنجاحات العسكرية التي تحققت في شهر ديسمبر في (قرنة) –التي تقع على نهر دجلة– خمسين ميلاً إلى الشمال، و(العمارة) ستين ميلاً إلى الشمال في يونيو عام 1915. وفي الشهور الستة اللاحقة، استرد الجيش التركي تدريجيا قوته. وفي نهاية العام، هُزمت القوة (د) التي كانت، حينها، تبعد عشرين ميلاً عن بغداد في مدينة المدائن، وتم دحرها إلى نهر الكوت، فأصبحت رهينة حصار مشين دام خمسة شهور، تبعه استسلام كامل في إبريل عام 1916. وفي واحدة من أكثر حلقات الحرب العالمية شناعة وأقلها ذكراً، غاص في الوحل ما يزيد عن عشرة آلاف رجل –سبعين بالمائة

منهم كانوا هنوداً– في أمطار الشتاء وفيضانات سهول العراق الجنوبية النهرية الربيعية، وهلك اثنان من كل ثلاثة من الحملة، معظمهم خلال الحصار، وفي ظروف الأسر المروعة اللاحقة من أسرٍ، ودزنطاريا، وكوليرا، وجروح في المعركة[1].

وفي هذه الأثناء، تم إقامة حكومة بريطانية محلية في البصرة مباشرة عقب الاحتلال، ونظراً لتطور أهداف الحملة، تم تشكيل إدارة مدنية محنكة لكل منطقة تم «تحريرها» من قبضة العثمانيين[2]. كان منصب المقيم البريطاني في بغداد شاغراً منذ فبراير 1914، عندما توفي فقيد شبابه جَ.ج. لوريمر صهر إيميلي لوريمر ومؤلف المعجم، الذي شغل هذا المنصب، عن عمرٍ لم يناهز 44 سنة[3]. رافق القوة (د) السير بيرسي كوكس؛ المقيم البريطاني في الخليج منذ عام 1904، ومرشد ديفيد، وإيميلي لوريمر، وناصحهم خلال فترة عملهم في البحرين. وإلى جانب منصبه مقيماً سياسياً، أصبح كوكس المسؤول السياسي الرئيسي في طاقم الحاكم العام العسكري، وأُوكل إليه إدارة علاقات الجيش في بلاد ما بين النهرين. انتقل كوكس برفقة زوجته من بوشهر إلى البصرة، وأصبح مسؤولاً إلى جانب فريق صغير من موظفي الخدمة الخارجية البريطانية الهندية عن حل المشاكل السياسية، والإداريّة والدبلوماسيّة الناتجة عن تقدم الجيش البطيء على طول النهر في اتجاه بغداد. وهناك أصبح كوكس، وأهل بيته قطب الرحى الاجتماعي، إذ التف حولهم المجتمع البريطاني السياسي الصغير.

(1) وتضم المصادر الثانوية حول الجوانب العسكرية لحملة بلاد الرافدين الكتب التالية: Barker, A. J., The Neglected War: Mesopotamia, 1914-1918, London: Faber & Faber, 1967; Moberley, F.J., History of the Great War based on official Documents: the Campaign in Mesopotamia, London: Committee of Imperial Defence Historical Section, 1923.

(2) للمزيد عن التطورات السياسيّة والإدارية للإدارة في بلاد الرافدين خلال فترة الحرب. انظر: Wilson, Lt Colonel Sir Arnold T., Loyalties: Mesopotamia, 1914-1917, a Personal and Historical Record, London: Oxford University Press, 1930; Busch, Briton Cooper Britain, India and the Arabs, 1914-1921, Berkeley: University of California Press, 1971; Sluglett, P., Britain in Iraq, 1914-1932, London: Ithaca, 1976.

(3) أطلق لوريمر النار على نفسه، بالخطأ على ما يبدو، عندما كان يفرغ مسدسه من الرصاص.

أبحرت القوة (د) من البحرين في أكتوبر من عام 1914، استجابة لتقارير مفادها ازدياد التعزيزات العسكرية التركية في منطقة شمال الخليج، وظهور مراكب بحرية مائية في المحيط الهندي. وفي بداية نوفمبر رفع وكيل البحرين في تلك الفترة –الكابتن تيرينس كييس– تقريراً إلى الحكومة يخبرهم فيه عن وصول القوة (د)، وتحدّث عن التوتر المحتوم في المجتمع المحلي، وأضاف قائلاً أن سيدات الإرسالية التبشيرية الأمريكية يقمن «بعمل جيد» من أجل تهدئة روع سكان المدينة الرئيسية –المنامة– في البحرين؛ لا سيما النساء[1]. كما وصف المبشر الأمريكي المبجل جايمس ميردوك، الذي كان يعمل حينها في البحرين –بحيوية– الشعور العام بعدم الارتياح، الذي تولد مع إعلان الحرب المبكر في أوروبا في أغسطس:

عندما بدأت أخبار العرب بالتوارد على البحرين. بدا الناس في بداية الأمر كثيري الأسئلة، ثم أصبحوا مهتمين. رغب الرجال بمعرفة القصد من وراء هذه الحرب والأطراف المتقاتلة، وازداد الطلب على الجرائد فجأة، واستقبلت غرفة القراءة التابعة لدكان بيع الكتاب المقدس العديد من الزوار، الذين أمعنوا في قراءة الصحف والمجلات، وأصبح الرجال يقرأون بذكاء. جاء كثير من الناس لشراء كتب جغرافية وأطالس من مختلف الأنواع حتى نفد المخزون. كان الناس، الذين لا يحسنون القراءة يجتمعون حول الرجال، الذين جمعوا معلوماتهم من مصادر مختلفة، وكانوا فخورين ببثها، كما كانوا في كثير من الأحيان يضيفون ملاحظاتهم وتعليقاتهم الخاصة. وقبل أيام من دخول تركيا الحرب، دخلت أولى سفن بريطانيا العظمى الميناء حاملة جنودا من الهند، ورست في الميناء –أيضاً– بعض المواكب البحرية الصغيرة. أدت هذه الحادثة إلى إثارة مشاعر الناس، وقادت إلى كثير من اللغط حولها. بيد أن أقدام هولاء الجنود لم تلمس أرض البحرين؛ لأنهم واصلوا مسيرهم إلى الفاو والبصرَة في القسم، الذي تحكمه تركيا من الجزيرة العربية. ولهذا انخفضت حدة

(1) كييس إلى المجيور إس. ج. نوكس، القائم بأعمال المقيم السياسي، 4 نوفمبر، 1914، ب 14/5020، انتقل نوكس من وكالة البحرين إلى مسقط عام 1911، ثم أصبح مسؤولاً عن إقامة بوشهر في مارس من عام1914.

الفزع، الذي تشكل عند ظهورهم[1].

مضى ميردوك يحدثنا عن تعاطف ضئيل، شهده لدى الناس مع الأتراك والألمانيين، ولكن ضد البريطانيين، كان يعتقد أن فئة قليلة من الناس في البحرين قد ترغب بتغيير الحماية الإنجليزية بنظام آخر. غير أن ما كان يشغل بال البحرينيين دوماً، هو العواقب الاقتصادية الوخيمة للحرب التي تلوح في الأفق. وخلال شهر من اندلاع الحرب، انخفضت الأعمال التجارية البحرينية، القائمة كون البحرين مركز توزيع لبعض الموانئ الصغيرة القابعة على طول الشاطئ إلى النصف، وأصبح الحاكم، الشيخ عيسى بن علي آل خليفة، الذي كان يعتمد دخله على عوائد الجمارك، غير قادر على دفع رواتب موظفيه، وتأثرت جميع الأعمال الأخرى في الجزر تأثراً سلبياً[2]. غير أن القشّة التي قصمت ظهر البعير كانت انهيار تجارة اللؤلؤ، ومغادرة التجار الأوربيين، وخاصة عائلة روزنتال صاحبة الاسم المعروف في عالم المجوهرات. تُرك تجار اللؤلؤ المحليين بما كانوا يملكون من لؤلؤ حينها وحدهم، كما تُرك الغواصون أنفسهم، وهم آخر من يتلقى أجره، بلا أجر. وفي نهاية سبتمبر، كتبت إيميلي لوريمير إلى أمها وأبيها، وكانت حينها في مدينة كرمان الإيرانية، تقول أن بيسي ميلري، المبشرة الأمريكية التي عرفتها عائلة لوريمير في البحرين قد أخبرتها بقرب حدوث كارثة اقتصادية:

تقول السيدة ميلري، من الكويت، أنهم يتوقعون حدوث أزمة عظيمة في الخليج، فلم يجدوا حتى الآن سوقاً للآلئهم التي تساوي ما قيمته 3 ملايين جنية إسترليني، وسيكون الوضع نفسه في جميع أنحاء العالم، لكن معمل الآجر،الذي قد يعمل بها الشخص، تبدو أكبر من مساحة فرنسا، عندما نَراها من كيرمان[3].

كان كييس قد كتب إلى ستيورات نوكس، القائم بأعمال المقيم في بوشهر في غياب

---

(1) المبجل جايمس إي موردك. «بحرين منذ الحرب. جزيرة العرب المهملة، رقم 93، أبريل-يونيو 1915، ص3.

(2) المرجع السابق.

(3) إيميلي لوريمير إلى والدتها ووالدها، 30 سبتمبر، 1914، المخطوطات الأوروبيّة ف 14/177. كانت بيسي ميلري قبل انتقالها إلى الكويت، تقدم المساعدة في قسم النساء في مستشفى ماسون ميموريال في البحرين، حيث كان زوجها الدكتور ستانلي ميلري مسؤولاً عن المستشفى.

كوكس؛ ليحذره من احتمالية وقوع مشاكل عقب اندلاع الحرب. وليخبره أنه قد بدأ هو نفسه باتخاذ إجراءات احتياطية لتحسين الموقف. وتضمنت رسائل كييس خططاً عديدة لمساعدة اقتصاد البحرين والغواصين البالغ عددهم 15 ألفاً، الذين أصبحوا بلا دخل. ومن هذه الخطط: الإعداد لحظر استيراد المواد الغذائية، ومنح الغواصين قروضاً لمساعدتهم خلال الشتاء، وإبعادهم عن مظلة المجاعة[1]. واقترح، أيضاً، أن تقوم الحكومة ببناء مشاريع قد توفر فرصا بديلة للعمل. وفي إشارة نادرة ومثيرة –لكن ممتعة– إلى قوة النساء، وتأثيرهن في العائلة البحرينية الحاكمة، وإلى النظرة البريطانية المعاصرة القائمة على تصور مسبق، التي قد تكون، في بعض الأحيان، مغلوطة تجاه هذه العائلة، سئل كييس نوكس عما إذا كانت الحكومة في الهند تستطيع أن تقرض حاكم البحرين بعض المال لإعادة سيطرته على الأرض؛ لبناء رصيف بحري جديد:

إن الوضع المثالي هو أن تقوم زوجة الشيخ بمده بالمال اللازم من مكتنزاتها. علمت من بعض المبشرات ومن يوسف كانو أنها شخصية قوية جداً، قاسية ومؤثرة في البحرين. سَأَعَدُّ إقناعها بجدوى أعمال الإغاثة التي وصفتها مغنماً كبيراً[2].

وبحلول سبتمبر أصبح كييس أكثر تفاؤلاً، واعتقد بأنه تمكن من «إقناع الشيخ عيسى بمعالجة الوضع وتوفير عملٍ للناس المُعْدَمين خلال الشتاء». فضلاً عن ذلك، أخبره ابن الشيخ؛ «عبد الله أن والدته لن تقف مكتوفة اليدين، إذا أصبحت جهود الإغاثة لازمة»[3]. ووالدة عبد الله الزوجة غير المسماة للشيخ عيسى هي في الحقيقة «عايشة بنت محمد، وهي عضو قوي جداً، ومتنفذ في عائلة خليفة. لكن لم يتم –إطلاقاً– ذكرها باسمها في التقارير

(1) كييس إلى نوكس، 8 أوغسطس، 1914، ومتعلقات بهذا الملف. سجلات وزارة الهند: أر/67/2/15.

(2) كييس إلى نوكس، 16 أوغسطس، 1914، كان يوسف كانو تاجراً بحرينياً بارزاً. (سجلات وزارة الهند: أر/67/2/15).

(3) كييس إلى نوكس، 4 سبتمبر، 1914، سجلات وزارة الهند: أر 67/2/15، سجلات وزارة الهند: أر/67/2/15.

البريطانية، وإنما كانت تذكر «بزوجة الحاكم»، أو «زوجة الشيخ»[1]. قام نوكس بدوره بتمرير المعلومة إلى حكومة الهند، مورداً في تقريره أن استغاثة ناجحة سيتم التحضير لها وأضاف أن الشيخ نفسه قد تبرع لصندوق أمير ويلز لغوث المتضررين من الحرب في إنجلترا. «تُعدّ هذه الحادثة» حسب قول كييس «نقطة تحول جوهرية من جانب الشيخ، وهو الذي اعتدنا على رؤيته لسنوات شخصية متقلبة الأهواء، حتى أني، اندهشت لمعرفتي ذلك»[2]. وفي أكتوبر تمكن كييس من القول أن التبرعات كانت آخذة «في الازدياد في صندوق الإغاثة»، وأن العديد من السيدات «بشكل خاص التركيات المسيحيات واليهوديات» كُنّ يبدين اهتماماً باتحاد النساء، وختم بقوله: «كنت أشعر بالخجل لأخذ أموالهن في هذا الوقت العصيب»[3]. واصل الشيخ عبد الله مساعداته في المجهود الحربي، وتم بمساعدته التغلب على مشاكل تجهيز أسطول اللؤلؤ لموسم الصيد القادم. وفي الحقيقة، تمكن الشيخ عيسى، «بمساعدة الشيخ عبد الله ووالدته فقط، وهي زوجة الشيخ عيسى الوحيدة التي على قيد الحياة، من إدراك مسؤولياته» تجاه عدد كبير من الغواصين، الذين لولا مساعدته «لما تمكنوا من اجتياز أيام الشتاء العصيبة». لذلك اقترح كوكس منح الحاكم وسام شرف G..M.C (رفيق القديس مايكل والقديس جورج) لقاء تفانيه[4].

(1) كانت عائشة بنت محمد ابنة محمد بن خليفة، الذي تم ترحيله من البحرين من قبل البريطانيين عام 1869: إم. ج. رميحي، البحرين: التغير الاجتماعي والسياسي منذ الحرب العالمية الأولى. (لندن: بوكر، 1976). ص 186. وناقشت جياتري شاكروفورتي سبيفاك في مقالتها حول «راني سيرمور» قضية مشابهة لقضايا التسمية والصمت في تأريخ المرأة الاستعماري. انظر المقالة: A Critique of Postcolonial Reason: Toward a History of the Vanishing Present, Cambridge MA and London: Harvard University Press, 1999. الفصل الثالث، وصفت سبيفاك المشاكل التي واجهتها عندما بدأت البحث في حياة امرأة حاكمة في القرن التاسع عشر لولاية أميرية في شمال الهند. اكتشفت سبيفاك، بعد أن واجهت صمتاً أو «حذفاً» لبعض النقاط من أراشيف الحكم الإمبريالي البريطاني، أنه من الصعب أن نستجمع المعلومات كاملة حول راني التي كانت تشبه عائشة بنت محمد، في أن كلتيهما نادراً ما كان يشارُ إليهما بأسمائهن.

(2) نوكس إلى حكومة الهند، 30 سبتمبر، 1914، سجلات وزارة الهند: أر/67/2/15.

(3) كييس إلى نوكس، 8 أكتوبر 1914، سجلات وزارة الهند: أر/67/2/15، كان الاتحاد النسائي صندوق إغاثة أُسّس في الهند تحت رعاية زوجة نائب الملك.

(4) كييس إلى كوكس، 5 نوفمبر 1914، سجلات وزارة الهند: أر/67/2/15.

وفي البصرة التي كانت ما زالت بأيدي الأتراك، في اليوم الذي تلا إعلان الحرب، زار الدكتور آرثر بينيت والمبجل جون فان إيس الحاكم التركي، وعرضوا عليه استخدام مدارس ومستشفيات الإرسالية التبشيرية الأمريكية؛ لعلاج الجرحى الأتراك. ولهذا استخدم مستشفى لانسنغ ميموريال التبشيري قاعدة لجمعية الهلال الأحمر في البصرة، وكانت حسب أقوال ماسون وباري مؤرخي الإرسالية التبشيرية، الوحدة الفعالة الوحيدة التي كان الأتراك يعتمدون عليها[1]. وخلال فترة وجيزة أصبح المبشرون يقدمون علاجاً لما يزيد عن مائة تركي من ذوي الجراح البالغة في مستشفى مصمم لاستقبال 45 مريضاً. بيد أن عمل المبشرين لم يكسبهم احترام السلطات التركية المحلية فحسب، بل مكنهم قبل الاحتلال البريطاني من توفير حماية للمجتمع المسيحي المحلي المستنفر، حتى إن بعضهم قد أصبحوا مساعدين للبعثة[2]. وبعد قدوم القوات البريطانية استمر المستشفى في عمله، لكن تحت إشراف الصليب الأحمر عوضا عن الهلال الأحمر، وأصبحت الوحدة الاعتيادية لأسرى الحرب المصابين من العرب والأتراك.

ويذكر باري وماسون في كتابهما «تأريخ الإرسالية التبشيرية العربية» أن المبشرين شعروا بامتنان غامر لاختفاء جميع مظاهر الحياة التركية، وانحسار النظام السابق[3]. وعلى الرغم من أن الارتدادات العسكرية اللاحقة قد أشارت بشكل واضح، إلى أن التفاؤل المبكر سابق لأوانه، إلا أن بول هاريسون، الذي أصبح واحداً من أمهر المبشرين من الأطباء، وأنجحهم في الجزيرة العربية أشار في «تقريره السنوي للبعثة التبشيرية العربية الصادر عام 1914» إلى سعادته الغامرة بانتهاء «أيام الحكم التركي التي كانت كما لو أنها

(1) ألفرد ديوت ماسون وفردريك. جَ. باري «تأريخ الإرسالية التبشيرية العربية» (نيويورك: هيئة الإرساليات التبشيرية في الكنيسة الإصلاحية في أمريكا، 1926)، ص 172-174. أكد السير أرنولد ويلسون في مذكراته تقييم ماسون، وباري للوضع، واستدعى بالذكر «الدور الجليل» الذي لعبته الإرسالية التبشيرية (في البصرة) تحت إمرة الدكتور بينيت، والمبجل جون فان إيس (الذي اكتسب خلال السنوات الخمسة عشرة التي قضاها في «الخليج احترام كل الطبقات في المجتمع») وأضاف ويلسون إلى أن الإرسالية التبشيرية، كانت تملك مدرسة أساسية وثانوية ممتازة في البصرة، وواصلت المدرسة أعمالها خلال الحرب. ويلسون ولاآت، 77.

(2) ميردوك، «البحرين منذ الحرب» ص 7-8.

(3) ماسون وباري، تأريخ الإرسالية التبشيرية العربية، ص 174-175.

اقتطعت من العصور الوسطى»، وقال: «إن البصرة وبلاد ما بين النهرين تواجهان في ظل السيطرة البريطانية فترة جديدة وفرص جديدة، لن نعرفها حتى يكشفها لنا الرب»[1]. وفي حملة جديدة لتجنيد مبشرين جدد، وظف المبجل ديرك ديكسترا الرمزية العسكرية «للحملة» العربية إلى أقصى حد، عندما قارن تجنيد المزيد من المبشرين للعمل في الجزيرة العربية بتجنيد الجنود في أوروبا، وبدعم الحملة بقصة حركة «الريشة البيضاء»:

تروي القصة أن النساء في بعض أجزاء إنجلترا كُنّ يمشين وهنّ حاملات ريشات بيضاء، يضعنها على كل رجلٍ قادرٍ على القيام بعمل عسكري، ولما ينضم إلى الجيش بعد. فهل هناك من رجال أو نساء قادرين بدنياً أو ذهنيا من الكنيسة الإصلاحية، يرغبون في استلام الشرف المشكوك به بالتزين بريشة بيضاء؟... لم ينكر أي بريطاني يوماً حق الحكومة في الملايين التي تحتاجها لبناء أسطولها الفاعل، ألا يجدر بنا أن نفتح لهم قلوبنا، ونمد لهم أيدينا ليرسلوا تعزيزات وافرة على الفور إلى أولئك، الذين عانوا الأمرين على خطوط المواجهة في المعركة[2].

أعاد المبشرون مبدئياً توزيع أنفسهم بسرعة، وأكدوا على دورهم وكيانهم جنوداً للمسيح، ومنقذين للعقول قبل الأبدان، ووسطاء سمحين بين الإداريين الاستعماريين البريطانيين، والمجتمعات المحلية. لكن تطبيقياً، تعثرت جهود التبشير؛ نتيجة تدهور ظروفها المالية عند اندلاع الحرب، وتركت فكرة تجنيد المزيد من المبشرين لفترة من الزمن. فلم يشهد عام 1915 سوى وصول مجندة جديدة واحدة، وهي كاترين ب. كيلين السكرتيرة السابقة لصموئيل زويمر خريجة جامعة ميتشيغان. كانت البصرة المحطة الأولى لكيلين؛ لتباشر تدريبها اللغوي[3]. وفي هذه الأثناء، وجد حفنة الرجال والنساء المؤهلين،

(1) بول هاريسون «تقرير الإرسالية التبشيرية العربية لسنة 1914» جزيرة العرب المهملة، رقم 93، إبريل–يونيو، 1915، ص 10، وُلِد بول فورس هاريسون في سكريبنر، نبراسكا، وتلقى تعليمه في جامعة نبراسكا، وكلية الطب في جامعة جون هوبكنز. التحق بالإرسالية التبشيرية العربية عام 1909، ووصل الكويت عام 1912.

(2) ديرك ديكسترا «مطلوب مجندون يحملون الريشة البيضاء» جزيرة العرب المهملة، رقم 93، يناير–مارس، 1916، ص 6.

(3) ديرك ديكسترا «مطلوب مجندون يحملون الريشة البيضاء» جزيرة العرب المهملة، ص 4.



الدكتور ستانلي والسيدة بيسي ميلري في لباس عربي، منشورة في جزيرة العرب المهملة، 1915

أنفسهم تائهين في خِضَم الإصابات، ومتاهات المعركة.

كان لدى المبشرين عند اندلاع الحرب ثلاث مستشفيات مجهزة جيداً في الخليج، تعاملت مع 25 ألف مريض خلال السنة السابقة[1]. وفي البحرين، كان مستشفى ماسون ميموريال يدار من قبل السيدة جوزفين سبات فان بيرسون، المشرفة العامة على المستشفى، ومسؤولة عن عمل النساء الطبي. أصبحت جوزفين سبات عند وصولها إلى البحرين صديقة لإيميلي لوريمر، بعد أن عالجت الأخيرة من التهاب حاد في الأذن. تنحدر سبات من أسرة سويسرية كاثوليكية مخلصة، وقضت سنوات مراهقتها في أمريكا مع جدتها لأمها، وتلقت بعد ذلك تدريباً ممرضةً في المستشفى الألماني في نيويورك، وتحولت خلال تدريبها إلى البروتستانتية، والتحقت بالكنيسة الإصلاحية الهولندية. وبعد انتقالها

(1) هاريسون، «تقرير الإرسالية التبشيرية العربية، لعام 1914».

إلى البحرين تلقت مضايقات، حسب قول إيميلي، عبر رسائل تلقتها من كاهن عائلتها الكاثوليكية السابق في سويسرا، يخبرها فيها أن والديها غاضبين، وبالغ في وصف محنتهما ليمارس ضغطاً كبيراً عليها. بيد أن ارتباطها مع المبجل غيريت ديريك فان بيرسون «كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، وجعلتهم يفقدون أي أمل بعودتها بابوية مرة أخرى». أقنعت إيميلي جوزفين أن تُعيد رسائل القسيس غير مفتوحة، أما بالنسبة لفان بيرسون فلقد كان «رجلاً سميناً لطيفاً حسن الطباع»، مملاً بشكوكه. غير أنه «لم يكن بذكائها، ولا بمستوى تعليمها»، إلا أنها كانت تحبه، وتوقعت إيميلي لهما السعادة لاهتماماتها المشتركة في العمل، والدين[1].

وفي هذه الأثناء اكتمل بناء المستشفى التبشيري الجديد في الكويت، كانت مهمة الإشراف عليه ستوكل إلى ستانلي ميلري، التي ستساعدها في هذه المهمة لاحقاً إيلنيور كالفرلي، على الرغم من أن عائلة كالفرلي قد غادرت؛ لقضاء إجازة في أمريكا قبل إندلاع



دوروثي فان إيس، ومعلمات أخريات في مدرسة البصرة الثانوية للبنات. منشورة في جزيرة العرب المهملة، 1916

(1) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 17 يونيو 1912 (لاحقة في 21 يونيو) المخطوطات الأوربيّة، ف 177/7. وإلى والدتها ووالدها، 12 أغسطس 1912، المخطوطات الأوروبيّة، ف 177/8.

الحرب. وعلى الرغم من مخاطر السفر في الحرب، إلا أنهم غادروا عام 1916، بصحبة طفليهما الصغيرين ورضيع يبلغ من العمر ثمانية أشهر عبر اليابان، والصين وسنغافورة، والهند؛ بغية تجنب الغواصات في المحيط الأطلسي. ويستذكر إيلينور، أنهم من غير أن يراودهم شعور بالتردد، أو الشك تجاه المخاطر، التي قد تحيط بهم وأولادهم، «كانت هي وإيروين تواقين للعودة! كنا مشغولين بالدراسة في أمريكا، لكننا انقطعنا فترة ليست قصيرة عن عملنا وأهلنا»[1]. لم يكن هناك مستشفى في مسقط، وإنما كان هناك مستوصف طبي نسائي آخذ بالازدهار، تم تأسيسه مؤخراً. وكان المستوصف تحت إشراف الدكتورة سارة هوسمان، التي كانت تتعامل مع مجتمع مسقط المتعدد العرقيات بما فيه من عرب محليين، ومسلمين، وهندوس من شرق إفريقيا، وشبه القارة الهندية. وخلال الأشهر الثلاثة الأولى من نشاطات المستوصف، تعاملت هوسمان مع ما يزيد عن مائتي مريض، وساعدتها على القيام بهذا إيما وورال، التي ورد عنها أنها قالت: إنها كانت تلقح 90 مريضاً يومياً ضد أمراض معدية[2].

كان المستشفى «الرائد» في المنطقة هو مستشفى لانسنغ ميموريال في البصرة، وكتبت هاريسون عنه تقول: «تخطت سمعة الدكتور والسيدة بينيت حدود بعثتنا التبشيرية كاملة»[3]. ولدت الدكتورة كريستين إيفرسون بنيت في الدنمارك، وهاجرت إلى أمريكا مع والديها، عندما كان عمرها 12 عاماً. تلقت كرستين تعليمها الجامعي في جامعة ميتشغان، وكحال العديد من المبشرات الطبيبات سافرت إلى الجزيرة العربية عام 1909، تحت إشراف الجمعية المسيحية التابعة للجامعة. وبعد انقضاء سنتين درست خلالهما اللغة العربية، تزوجت من الدكتور آرثر بنيت، ولحقت به في نهاية عام 1911 في مستشفى لانسنغ ميموريال؛ لتشرف على عمل النساء الطبي، وفي عام 1914، جاء تعيين ميني. س.

(1) Calverley, Eleanor T., My Arabian Days and Nights, New York: Thomas Y. Crowell Company, 1958,p 65

(2) هاريسون «تقرير الإرسالية التبشيرية العربية لعام 1914»، ولدت سارة هوسمن في كنتاكي وتلقت تعليمها في جامعة إيلنيوي، التحقت بالإرسالية التبشيرية العربية عام 1911.

(3) هاريسون، «تقرير الإرسالية التبشيرية العربية لعام 1914»، ص 11.

هولزهاوسر، وهي ممرضة متدربة وعضوة في الجمعية المسيحية التابعة لجامعة ميتشغان، مشرفة على المستشفى، ليفتح الباب واسعاً أمام مزيد من تحسين جودة العمل. وحتى بعد اندلاع الحرب كانت النساء، حسب ما تقول السيدة بنيت، يملأنَ العيادات الصباحيّة، وتمضي لتخبرنا أنه في سبتمبر من عام 1914، وصل عدد النساء اليومي عدداً قياسياً إذ بلغ (440)، لكنها تعترف أن ندرة الأدوية التي كانوا يعانون منها، شكلت مشكلة خطيرة، وكان على الأطباء أن يميزوا بين المرضى بغية إيجاد وفرة في الأدوية، ليتم استخدامها مع أولئك الذين في أمسّ الحاجة إليها[1]. ومع هذا كله، واصلت عائلة بينيت والآنسة هولز هاوسر، وإلى جانبهما عدد قليل من الممرضات الهنديات نضالهما لما يزيد على عام، مستقبلين خلاله جنوداً أتراكاً وعرباً جرحى، هذا إلى جانب معالجة المرضى من سكان المنطقة في عيادات منفصلة للرجال والنساء. وعندما أصبح عدد الجنود الجرحى يفوق استيعاب المستشفى، قاموا بنصب خِيم في الأراضي الملحقة. وفي بداية عام 1916 انتشر التفوئيد، الذي وصل إلى المستشفى عن طريق الأسرى الأتراك، بين جميع أفراد طاقم المستشفى. وكان أول من أصيب به ممرضتان هنديتان، ثم ميني هولز هاوسر، وتبعها آرثر بنيت. وقامت كرستين بينيت بتطبيبهم حتى سقطت أخيراً فريسة المرض، وماتت عن عمر يناهز 35 عاماً، بعد أن أوصلت زوجها وزملاءها إلى بر الأمان[2]. كانت كرستين إيفرسون زوجة أرثر الثانية، وتزوجها بعد وفاة زوجته الأولى جيسي فال بالتيفوئيد أيضاً عام 1906 في البحرين[3].

وتضمن نعي كريستين بينيت، الذي خطّه جامس كانتين، مدحا لمهاراتها الطبية واللغوية وعلاوة على ذلك كله، تكريسها نفسها للقيام بالواجب، هذا إلى جانب «رقة قلبها وصفائه»[4]. مدح ستانلي ميلري إلى جانب ذلك جَلَدَها الأنثوي:

(1) كرستين بيينت، اقتبسها هاريسون في «تقرير الإرسالية التبشيرية العربية عام 1914»، ص 12.

(2) رسالة من س. ستانلي ميلري إلى المبجل جون. أ. فان نسته، ريدج وود، نيوجيرسي، 27، إبريل 1916، جزيرة العرب المهملة، رقم 98، يوليو–سبتمبر 1916، ص 15–17، كانت كنيسة ريدج وود الراعي المالي للسيدة بينيت.

(3) انظر: الفصل الثالث.

(4) جيمس كانتين «كريستين أيفرسون بينيت من الإرسالية التبشيرية العربية»، جزيرة العرب المهملة، رقم 97، إبريل–يونيو، 1916.

كانت تملك الحذاقة لتدير مستشفاها، وتقوم بأعمال بيتها من غير أن يتأثر أي منهما بشكل يتجاوز الحد المعقول، وكانت طبعاً امرأة ذات طاقة عجيبة أحبها الجميع. كانت البصرة بجميع أطيافها بدءا بأعلى موظفي الحكومة، إلى أقلهم رتبة موجودين في جنازتها[1].

تساءلت كانتين فيما إذا كانت الإرسالية مخطئة في السماح لها بالبقاء في الميدان لفترة أطول من الفترة المقررة لها بسنة؛ لأننا وفقاً قولها- «لا نستطيع سوى تقدير الإجهاد البدني لهذه المرأة التي كانت إلى جانب عملها، زوجة وأُماً... وتنظر إلى قوة جسمها على أنه آخر شيء يجب أن يؤخذ بالحسبان عند تلقيها نداء الواجب»[2]. كانت الحاجة للنساء في أن يجمعن، بكل ما أوتين من جلد نسائي، بين صفات، وواجبات الزوجة، والأم، والملاك الحارس ما زالت واضحة للعيان، بل وأصبحت أنموذجاً يحتذى خلال سنوات الحرب. عاد أرثر بينيت، بعد وفاة زوجته كرستين إلى وطنه في إجازة برفقة ابنه الصغير ماثيو. يضم كتاب «جزيرة العرب المهملة» رسالة من السير بيرسي كوكس عبر فيها عن تعاطفه مع الإرسالية التبشيرية، واعترف بخسارة جهود كرستين بينيت وفي الوقت نفسه، عَبّر عن تقديره العميق للأعمال التي تقوم بها الإرسالية[3]. وفي عام 1915، قدمت الحكومة البريطانية الهندية إلى مستشفى لانسنغ ميموريال منحة تقدر بعشرة آلاف روبية (3330 دولاراً أمريكي) تقديرا لجهودها في العناية بأسرى الحرب المصابين. وقد جُمع جزءٌ من هذا المبلغ من المجتمع المسلم في بومباي[4].

وفي الوقت الذي وجه الأميركيون فيه كل جهودهم تجاه توفير العناية الطبية، والأعمال الخيرية الاجتماعية، كان البريطانيون يركزون على الخطط العسكرية، والسياسات الحربيّة.

(1) رسالة ميلري إلى المبجل جون أ. فان نسته، 27، إبريل، 1916.

(2) كانتين «كرستين إيفرسون بينبت من الإرسالية التبشيرية العربية»، ص 8.

(3) رسالة من السيد بيرسي كوكس إلى المبجل دبليو. أي. تشامبرلان، السكرتير الخارجي لهيئة الإرساليات التبشيرية الخارجية، 6 مايو 1916، جزيرة العرب المهملة رقم 97، يوليو/أغسطس، 1916.

(4) «أخبار وملاحظات من الميدان»، جزيرة العرب المهملة رقم 94، يوليو-سبتمبر، 1915، وماسون وبارني تأريخ الإرسالية التبشيرية العربية، ص 186.

وعندما كان الجيش غارقاً بالوحل في نهر دجلة، نقل كوكس مركز إدارته إلى البصرة، فتم إنشاء مكتب للخدمة المدنية على غرار النموذج الهندي البريطاني، وتم أيضاً تزويد الدائرة القضائية بقوانين عقوبات جديدة، وتوفير التجهيزات المحلية اللازمة للصرف الصحي والعناية الطبية بما فيها خدمات المستشفى التبشيري. وفي عام 1915، تم تعيين مندوب ضرائب اسمه هـ. أر. سي. دوبس، وتم توزيع بعض الموظفين السياسيين المحليين في المدن المنتشرة على ضفاف النهر حالما تتم السيطرة عليها. وفي ديسمبر من عام 1915، تم ضم دافيد لوريمير إلى القوة الهندية الاستطلاعية (د) ضابطاً سياسياً مساعداً، تحت إمرة كوكس، وتم تعيينه في العمارة.

غادرت عائلة لوريمير البحرين في سبتمبر من عام 1917، وكانت الشكوك تراودهم إزاء مكان تعيين لوك الجديد، الذي قد يكون كرمان أو كشمير، لكنهم كانوا سعداء بترك الخليج. وكتبت إيميلي إلى والدتها تخبرها فيها «أننا لم نعرف البحرين، إلا بعد أن غادرناها، والآن لا نمانع في أن نستمع لرأي كلينا فيها»[1]. وفي أكتوبر، علموا أنه سيتم تعيينهم في كرمان جنوب فارس، التي كانت تُعد الأفضل في كل تعيينات الخليج. ومكثا هناك سنتين، استمتعا خلالهما بالطقس، وفرصة تعلم الفارسية، وكذلك الحياة الاجتماعية التي كانت تختلف إيجابياً عن الحياة في البحرين، على الرغم من كل الظروف الصعبة التي مرّا بها:

من الجميل أن تتمتع السيدات الإنجليزيات بالذوق والمشاعر التي أحملها. فمهما كانت الأمريكيات لطيفات، إلا أنهنّ كُنّ دوماً يمثلن نوعاً غريباً ... وهنا يبدو البيت والخدم أكثر حميمية، ولطفاً من البحرين. ففي حديقتنا الكبيرة، كنا نتمتع بخصوصية فريدة حرَمنا منها في البحرين جموع المتقاضين، الذين كانوا يتجمعون حول أبواب المكتب، خدمنا هنا أشخاص مبتهجون طيبو النفوس. وما أسعدني أنهم كانوا يتكلمون لغة واحدة. أشعر بسعادة غامرة؛ لأنني أستطيع التجول في المطبخ حيناً، وفي غرفة الخزين حيناً آخر، وأن أتمشى في الحديقة جيئة وذهاباً. وحينها كنت أشعر كما لو كنت حاكمة على كل ما في حوزتي، وبعيدة عن عين الرقيب. أما في البحرين، فكنت لا أستطيع الحركة إلا في الطابق

(1) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 14 أكتوبر، 1912، المخطوطات الأوروبيّة، 8/177.

العلوي، كما أن مباهج الطقس في كرمان لا تقل روعة عن كل ما ذكر[1].

وفي الحقيقة، يبدو أن إيميلي، وهما في طريقهما إلى كرمان، قد رمت عن كاهلها كثيراً من المتطلبات الاجتماعية، والثقافية الناجمة عن كونها خاتوناً إيدواردية، وفضلت اكتشاف مغريات السفر المتحررة. قطعت إيميلي لوريمير وزوجها المرحلة الأخيرة من الرحلة من بندر عباس إلى كرمان على ظهور الخيل، عبر السبل الجبلية الوعرة، وكانا خلال الرحلة يتمتعان بالمناظر التي كانا يَريانها، وكانا يخيمان ويمكثان في خان. وكانا أيضاً يقابلان سكان المنطقة، ويتعرفان عليهم، وهذه خبرة تجنبتها إيميلي، أو وُضِعت في مكان لا يمكنها القيام بها في البحرين. وكتبت إلى والديها تقول: «لا أستطيع ان أصف لكم روعة إحساسي خارج المنازل، ولا جمال تتبعك لمسار رحلتك عبر الخرائط والبوصلات، والتعرف على المعالم الواحد تلو الآخر. هذا هو السفر بمعناه الحقيقي، وهو النوع الوحيد، الذي كنت متأكدة من أنكما ستستمتعان به أنت ووالدي»[2].

لم يعكر صفوة حياة عائلة لوريمير في كرمان سوى الموت المفاجئ الغامض لأخ لوك الأكثر شهرة؛ جون غوردن في بدايات عام 1914، فإلى جانب السنوات التي قضاها في العمل المضني على (دليل الخليج العربي)، عمل غوردن قنصلاً عاماً في بغداد من شهر مايو من عام 1910، وأصبح في فبراير من عام 1914، آخر من تَقلَّد منصباً مؤقتاً في بوشهر خلال وجود كوكس. حاول الأخوان لوريمير وزوجتاهما أن يلتقوا في أثناء وجود إيميلي ودايفيد في البحرين غير مرة، لكنهم فشلوا. التقى الأخوان لفترة وجيزة في البصرة في سبتمبر من عام 1912، عندما كان دايفيد وإيميلي يشقان طريقهما من البحرين إلى كرمان، وكان غوردن وزوجته نستا في طريقهما إلى سملة، لتلقي تعليمات موجزة من حكومة الهند[3]. لكنهم لم يتقابلوا بعد هذه الحادثة. وفي فبراير من عام 1914، صدم ديفيد وإيميلي

(1) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 9 فبراير، 1913، المخطوطات الأوروبيّة، 10/177، و«خوخ سكري، رسالة إيميلي لوريمير إلى والدها ووالدتها، 1. أغسطس، 1912، المخطوطات الأوروبيّة، ف8/177.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 20 ديسمبر، 1912، المخطوطات الأوروبيّة، 9/177.

(3) إيميلي لوريمير في القنصلية البريطانية، في المعمرة، إلى والدها ووالدتها، 12 سبتمبر، 1912، مخطوطات الأوروبيّة، 8/177.

عند تلقيهما خبر وفاة غوردن المفاجئة نتيجة إصابته بعيار ناري خرج من مسدسه. أوردت جريدة «ذا تايمز أف إنجلند» في 28 فبراير بإيجاز أنَّ لوريمير قد توفي في بوشهر في الثامن من فبراير نتيجة «انطلاق عيار ناري مفاجئ من مسدسه الأتوماتيكي، الذي كان في يده». وفي الثالث عشر من مارس نشرت «بيونير مال» التفاصيل الكاملة للحادثة. ووفقاً للتقرير، ترك لوريمير اثنين من مساعديه في مكتبه بعد أن تحدث مع حاكم بوشهر، وتوجه إلى غرفة الملابس في الطابق الثاني ليعرف القياس الدقيق لمسدسه الأتوماتيكي، من أجل أن يطلب المزيد من الذخيرة من بومباي عبر قارب البريد، الذي كان على وشك المغادرة. وعندما لم يعد، تحرك المساعدان للبحث عنه، فوجداه ميتاً ممداً على الأرض. «وكان واضحاً عند فحص المسدس أنه قد سحب الزناد، وأفرغ الطلقة الأخيرة التي لم يستطع رؤيتها بسبب المجلة التي حجبت الرؤيا عنه». وعند فحص الجثة وجد جرَّاح الإقامة أن الرصاصة كانت قد دخلت المعدة، ومرت خلال الجسم إلى العمود الفقري. وحسب رأي الرائد هنت «لا بد أن الصدمة قد أدخلته في غيبوبة فملامح الوجه هادئة ورائعة، وتبع الغيبوبة موت مباشر نتج عن فقدانه الوعي». وبعد تحقيق في المنطقة، صدر حكم رسمي بأن لوريمير مات نتيجة جراحه التي سببها انطلاق مفاجئ من مسدس أوتوماتيكي. وفي مايو اللاحق، كتب اللورد كورزون، الذي كان قد سافر إلى الخليج مع غوردن عام 1903، إلى نستا ليعبر عن تعازيه الحارة:

أفترض أنني كنت مسؤولاً عن عمل زوجك، فأنا من أعطاه المنصب، الذي تميز من خلاله وأخذته معي إلى الخليج العربي، وهذا قاده إلى العمل هناك. وما يحزنني بعمق هو أن هذه المسيرة الوظيفية قد انتهت، فهي مسيرة رجل كان لديه حس عالٍ بالواجب، وقدرات طبيعية فذة وغريبة لا تخبو، ورغبة جميلة بالتعامل مع الناس والمشاكل في الشرق. كان هذا الرجل صرحاً شامخاً، وكان من القوة بحيث أظهر العز البريطاني وحكومتة النبيلة أينما ذهب[1].

(1) قصاصات من الجرائد ونسخة من رسالة لكورزون إلى أرملة لوريمير، 21 مايو 1914، أوراق ديفيد، لوريمير، المخطوطات الأوروبيّة د 922.

وبعد وفاة أخيه، أصبح لوك، الذي لم يكن يكترث بصحته، صريع الحمى الدائمة التي لم يكن ليشفى منها إلا نادرا في الربيع. واصلت إيميلي إرسال رسائل مفعمة بالحيوية، مليئة بالتفاصيل إلى عائلتها، وكانت نادراً ما تشير إلى حزنها حتى شهر إبريل، عندما كتبت إلى والدَيْ لوك:

أنا واثقة، بأنه لن تساوركم أيّة مخاوف إزاء عدم فهم هذا الهذر السخيف طي هذه الرسالة وغيرها من الرسائل، فتفهم أنها نوع من إنعدام المشاعر، أو الرغبة في أنْ أنأى بنفسي عن مصابكم ومصاب لوك، أو أنها استخفافٌ، لكنني كنت أحاول أن أستذكر أن كل ما أكتبه لكم يصلكم بعد ستة أسابيع؛ ولهذا كنت طوال الوقت أؤجل الحديث في الموضوع؛ لكيلا أوقظ من جديد حزناً عميقاً حاداً كاد لحسن الحظ أن يختفي. لكن قلبي معكما. أعلم أنكم ستكونون فخورين بشجاعة لوك والطريقة التي واصل بها عمله، لكنه فقد نوراً وفرحة عظيمتين، وهو الآن يتماثل للشفاء بشكل أبطأ مما ينبغي، كما لو أن حزنه كان حملاً ثقيلاً[1].

وعندما اندلعت الحرب في أوروبا في أغسطس من عام 1914، تصرفت إيميلي بحماس نمطي منقطع النظير، وفي السادس من أغسطس كتبت إلى والديها حول صدمتها وحزنها، إزاء احتمالية فقدانها لشخص عزيز، وحول أملها أن تغير الحرب الناس من «قطيع من الأطفال الشحاذين بأفواه فاغرة منتظرة أن تطعمهم الدولة إلى رجال كما كان آباءنا»[2]. وبعد انقضاء شهر كامل، كانت تشعر بالتوتر نفسه، لكن شعورها مرة أخرى —وكما يظهر غالباً في رسائل إيميلي— ظهر بمصطلحات ذكورية، وعبرت عن خوفها بصور من الفخر الإمبريالي:

جزعنا إلى أعماق أرواحنا من هذه الحرب، لكن فظاعة الحرب أقل سوء من فظاعة اكتشافنا أنفسنا، بأننا ما زلنا الرجال أنفسهم من عهد أجدادنا، وبأن إله آبائنا لن يحمرَّ خجلاً من أن يكون إله الأجيال اللاحقة. حاولنا ألا نشكك في هذا، لكن السياسة في

(1) إيميلي لوريمير إلى والدي دايفيد لوريمير، 2 إبريل، 1914، المخطوطات الأوروبية، د. 922.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدتها ووالدها، 6 أغسطس، 1914، سجلات وزارة الهند: إف/177/14.

الوطن بدت قذرة ودنيئة إلى درجة أصبح من الصعب علينا ألا نشكك فيها بعض الأحيان. وحمداً للرب أن 99٪ من الأمة لا يعبثون بالسياسة، لهذا استطاعوا أن يحفظوا أنفسهم نقية. نحن ننسى هذه الحقيقة في أوقات السلم لكن في الأزمات الكبرى، الكلمة الأولى للأمة لا للسياسيين المأجورين، الذين باعوا أنفسهم لقاء ثمن بخس. ومن المفيد لنا في هذه الحالة أن نبرهن لأنفسنا ولمستعمراتنا، وللعالم أجمع معدننا الأصيل[1].

وعلى الرغم من تطبّعها في أثناء دراستها على محبة الألمان، إلا أنها اتخذت ردة فعل قوية ضد «الغزو الألماني» وحالها هنا هو كحال معاصراتها الأكاديميات، اللواتي كن داعمات لكل ما هو ألماني. كانت إيميلي قد أخبرت والدها، بمشاعر ضعيفة جافة وغير مهادنة، «أنه من غير الممكن لها ألا تشعر بالأسف العميق تجاه الجزء الأكبر من الأمة الألمانية، لكن بالنسبة لنا، لن يكون هناك فرصة أفضل لقتالهم من هذه الفرصة، وقتالهم محتوم علينا عاجلاً أم آجلاً، على الرغم من حديث الأحرار والسخافات»[2]. وبحلول أكتوبر من عام 1914، أصبح ديفيد لوريمير يندب حظه لعدم قدرته على الانضمام إلى الجيش، والقتال معه؛ لأنه كان ضابطاً سياسيا، هذا على الرغم من أن إيميلي نبهته إلى «أنَّ هناك عدة طرق لخدمة البلد، فالشخص منّا ليس له الحق باختيار طريقته». ومضت بقولها: «إن من نقاط القوة في الإمبراطورية، أننا نستطيع الاعتماد على كل فرد، لا يستطيع المساعدة بطرق أكثر رومانسية، في أن يقوم بواجبه اليومي بلا تحريض ومن دون استراحة. ومن المبهج أن نكون أحياء»[3]. وفي ديسمبر، تم نقل لوريمير إلى جيترال، على الواجهة الشمالية الغربية للهند، ليشغل منصب مساعد الوكيل السياسي.

كانت جيترال مكاناً وعِراً وقصياً، وكانت حكومة الهند ترى فيها مكاناً قاسيا على الزوجات، لهذا لم يُسْمَح لإيميلي أن ترافق زوجها[4]. فوجدت عملاً لها في إنجلترا مع

(1) إيميلي لوريمير إلى والدها، 3 سبتمبر، 1914، المخطوطات الأوروبيّة، 14/177.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدها، 10 سبتمبر، 1914، إلى والدتها ووالدها، 6 أغسطس 1914، المخطوطات الأوروبيّة، 14/177.

(3) إيميلي لوريمير إلى والدتها ووالدها، 29 أكتوبر 1914، المخطوطات الأوروبية، ف 15/177

(4) إيميلي لوريمير إلى والدتها ووالدها، 8 ديسمبر 1914، المخطوطات الأوروبية، ف 15/177.

الصليب الأحمر عام 1915، وعملت على مسودات مقالة حول لهجة فارسية، كان لوك قد بعث بها إلى مجلة الجمعية الآسيوية الملكية. وفي يوليو كانت «في غاية السعادة والفخر»؛ لأنه تم تعيينها في الإسكندرية، حيث ستتمكن من استخدام عربيتها[1]. ومن هناك تمكنت من الانضمام إلى زوجها، في نوفمبر عام 1915، في الخليج حيث قضى الزوجان «ثلاثة أيام رائعة هادئة وشهر عسل بهيج»، مبحرين على متن قارب بخاري في شط العرب شمالاً، وأخبرت أمها تقول: «كنا في أتم صحة وعافية وكنا سعداء كما الملوك، فلم نكن نكترث بالمستقبل وما يحمله لنا»[2]. وفي بدايات ديسمبر تم نقل لوك إلى مكان آخر، العمارة، التي تبعد يومين على طول النهر شمالاً، ومكثت إيميلي مع السير بيرسي كوكس في البصرة[3].

كونت إيميلي لوريمر ارتباطاً آنياً مع بيلا كوكس، وذلك عندما تقابلت السيداتان في بوشهر عقب مغادرة عائلة لوريمر البحرين. ووصفت إيميلي السيدة كوكس حينها أنها: «سيدة بهية الطلعة ووقورة، لها قدّ جميل على الرغم من بدانتها الواضحة، ولا بد أن شعرها كان بنياً جميلاً، لكنه تحول الآن على الأرجح إلى رمادي، وكانت ملابسها على بساطتها جميلة»[4]. أحبت إيميلي السيدة كوكس أكثر من غيرها، لقدرة الأخيرة على الإشراف على بيت إمبريالي يدار بشكل جيد. كتبت إلى والديها في يوليو من عام 1912، تقول:

أحب لوك السيدة كوكس كثيراً، فقد كانت تبدو سيدة قادرة ومتمكنة ... بعض الناس يعدونها محبة للنفوذ نوعاً ما، لكن على الأرجح، إن أي شيء آخر غير التسلط لن يجدي في الحفاظ على ترتيب هذا الكيان الضخم، ولكونها سيدة متألقة وذات وقار، تأتى لها أن تحظى ببعض الصفات السيادية، بل وتمكنت منها[5].

---

(1) إيميلي لوريمر إلى والدتها، 13 يوليو 1915، المخطوطات الأوروبية، ف 16/177.

(2) إيميلي لوريمر إلى والدتها، 18 ديسمبر، 1915، من على إس. إس. دوراكا في شط العرب. المخطوطات الأوروبية، ف 77/177.

(3) إيميلي لوريمر إلى والدتها، 11 ديسمبر، 1915، المخطوطات الأوروبية، ف 18/177.

(4) إيميلي لوريمر إلى والدتها، 20 ديسمبر، 1915، المخطوطات الأوروبية، ف 8/177.

(5) إيميلي لوريمر إلى والدتها ووالدها، 14 يوليو 1913، ولاحقة في 18 يوليو 1912، المخطوطات الأوروبية، ف 8/177.

وعلى النقيض من السيدة هاورث، زوجة القنصل في المحمرة، التي لم يكن أحد يخبر خدمها بما يجب أن يفعلوا، حتى أصبحت غرفة ضيافتها مليئة بنسيج العنكبوت، كان بيت السيدة كوكس كما الساعة، بحكم التَّسيد الرؤوف للسيدة كوكس لا بحكم الترهيب المعتاد. وإضافة إلى ذلك، أحبت إيميلي لوريمير بيلا كوكس، لأنها كانت ترى فيها امرأة إيرلندية «حنونة»، تتحدث عن الملابس أيضا. وبدورها كانت بيلا مسرورة لمعرفتها أن إيميلي لم تكن «امرأة تهتم بالأدب والعلم فقط»[1]. وعندما أصيب ديفيد وإيميلي بالملاريا في بوشهر اعتنت بيلا بكليهما، وحضّرت لهما الشوربات، واهتمت بالجلي، وبإعداد «أطباق شهية» ليرضوا شهيتهما المريضة[2]. وحالما استردت إيميلي عافيتها، أعطتها الليدي دروساً في التدبير المنزلي.

أظنكم تستطيعون تخيل الكم الهائل، الذي ستعلمني إياه، ويعدّ نزراً يسيراً من تجربة كبيرة عمرها 25 سنة، تلقفت كلماتها ودروسها بتلهف، وسوف أطبقها دوماً. كانت من غير تخايل أو تمييز تتقن كمعظم الخاتونات الهندوستانية، وهي لهجة ممزوجة خاصة بالخدم، والتفكير بها يعد مزعجاً. كانت الليدي كوكس قد تعلمت هذه اللهجة في لوكناو، ويبدو أن عدم تعلمها كلمة فارسية واحدة، وهي المرأة الاستثنائية التي عرفنا، على الرغم من السنوات الثماني التي قضتها في بوشهر، هفوة محيرة. لا أملك إلا أن أعتقد أن بعض علل الجنس الفارسي، التي كانت دوماً تشكو منها من منظور سيدة البيت الحاكمة، كانت على الأرجح هي السبب وراء توجيه الكلام إليهم بالهندوستانية. لكن على أي حال، لا يستطيع أي شخص أن يقوم بكل شيء، ليس هناك شيء يفوق لطفها في الاعتناء بنا، عندما كنا مرضى[3].

والآن، وبعد انقضاء ثلاث سنوات، وجدت إيميلي السيدة كوكس «عطوفة جداً، تتصرف على طبيعتها، من غير تكلف أو تكبّر. ولأني كان لي خادمي الخاص، وغرفة

(1) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 20 سبتمبر، 1912، المخطوطات الأوروبية، ف 8/177، أدانت إيميلي السيدة هاورث بوصفها إياه «بأكثر شخصٍ غير كفؤٍ وغير فعال قابلته».

(2) إيميلي لوريمير إلى والدها، 28 سبتمبر، المخطوطات الأوروبية، ف 8/177.

(3) إيميلي لوريمير إلى والدها ووالدتها، 10 أكتوبر، 1914، المخطوطات الأوروبية، ف 8/177.

جلوسي الخاصة كذلك، التي أستطيع أن أستقبل فيها ضيوفي الشخصيين، أعتقد أنه ليس هناك داعٍ لشعوري أني سأكون عبئاً عليها، أو شعوري أنه سيكون هناك مناكفة بيننا».
كان السير بيرسي كوكس في هذه الأثناء، يجسد في عيون العامة الإداري العظيم، قد «التزم بيته إما بسبب الحياء، أو الاسترخاء، أو التعب الزائد... ليتنحى جانباً»[1].

ورغم المُتع المنزلية التي احتواها منزل كوكس، إلا أن إيميلي لم تضع دقيقة واحدة في الانصراف إلى بعض النشاطات الفكرية الخاصة بها، وسرعان ما عثرت على صبي يبلغ من العمر 14 عاماً، كان قد تعلم في مدرسة التبشير الأمريكية، ليعطيها دروساً في العربية[2]. قررت إيميلي في فبراير من عام 1916، أن توسع الدائرة الاجتماعية الخاصة بها، عن طريق إقامة حفلة شاي دعت إليها امرأة أخرى، وصلت مؤخراً للمنطقة، و«هي زوجة أحد العاملين في البنك»، وفي شكوى تذكرنا بأيامها في سومرفيل، أخبرت إيميلي والدتها أنها كانت مسرورة عندما قررت تلك المرأة المغادرة؛ «لأنها لم تكن مسلية كفاية رغم طرافتها ولطفها... رغم هذا، مكث الرجال بعدها فترة طويلة، وتجاذبنا أطراف الحديث المنطقي، الذي اقتصر حينها على كونه حواراً حول الخدم، والمطابخ الكبيرة، وأسعار الوقود»[3]. فضلا عن ذلك، ساعدت إيميلي أحد الضباط في تحسين لغته العربية، ونظراً لميلها المتواصل إلى الجلوس مع الرجال وتفضيل الحديث معهم على الحديث مع النساء، لم تجد رادعا من قبل مجموعة الضباط السياسيين، والمستعربين الصغيرة، الذين كانوا يتجمعون حول كوكس، وإدارته في بلاد الرافدين. أخبرت أمها تقول: إن «خيارات المجتمع بالتأكيد أوفر في البصرة، منها في كرمان أو البحرين، على الرغم من عدم تقديري لهذه الخيارات نظراً لغياب لوك، الذي لو كان بيدي لاستبدلته، ومعه جزيرة صحراوية بكل ما أرى من رفاه من غير إهمال أو تقصير في الواجب»[4]. وفي الوقت نفسه، تمكنت إيميلي، على الرغم من فعل مقص الرقيب العسكري على رسائلها، من إعطاء عائلتها في الوطن صورة

(1) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 4 نوفمبر، 1915، المخطوطات الأوروبية، ف 18/177.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 3، 24 ديسمبر، 1915، المخطوطات الأوروبية، ف 18/177.

(3) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 5 فبراير، 1916، المخطوطات الأوروبية، ف 18/177.

(4) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 28 يناير، 1916، المخطوطات الأوروبية، ف 18/177.

حيوية للحياة خارج الإدارة المدنية البريطانية، ومدتهم بروايات مفرطة بالكآبة لأوضاع الجيش البائسة، وهم يغوصون بالوحل. عندما بدأ المطر يتساقط في يناير، تحول الريف بكاملة إلى مستنقع، حتى إن الجنود في القاعدة العسكرية في البصرة وجدوا أكواخهم غارقة بطين كثيف، واضطروا للبحث عن رفوش، والحفر بحثاً عن ألحفتهم بكل ما لكلمة «حفر» من معنى. وحال الجنود في الميدان كان أسوأ من حال هؤلاء بعشرين مرة، كانت الأوضاع في بلاد الرافدين -حسب ظنها- أسوأ من الأحوال في أوروبا بكثير. وكانت الكثير من التعزيزات القادمة من فرنسا «تعتقد أنهم ذاهبون في نزهة حربيّة، وهم الآن يرون أن فرنسا هي النزهة إذا قورنت بالوضع هنا. وفي هذه الأثناء، كان الجنود الأتراك الجرحى يخبرون الأطباء حول مذابح الشعب الأرمني:

بعضهم اعترف بالفظائع التي حلت بالأرمن، وبدا واضحاً، كما يقول بعض المسلمين إننا قد نصدق أسوأ ما نسمع حول هذه المذابح. فلا أحد منا يستطيع أن يتصور أسوأ منها، ففي مدن بأكملها تم قتل جميع الرجال، وإغراق جميع النساء والأطفال، أو اقتيادهم إلى الصحراء، وتركهم هناك ليقضوا جوعاً[1].

ولم تنقض مدة طويلة حتى إنشغلت إيميلي في أعمال الحرب. فلقد كتبت إلى أمها في فبراير؛ لتخبرها أن السير بيرسي كوكس قد «صدمها»، عندما سألها إذا كانت راغبة في تولي تحرير «البصرة تايمز». وافقت إيميلي فوراً موضحة له قلة خبرتها الصحفية، ومبدية بعض «تخوفاتها الشخصية» اللاحقة[2]. و«البصرة تايمز» جريدة يومية بدأت في الصدور في نهاية نوفمبر عام 1914 تحت إشراف عسكري، ثم استولت عليها الإدارة المدنية، بعد ثمانية عشر شهراً من تأسيسها. كانت الجريدة توزع في الخليج، وقد كان يوزع من نسختها الإنجليزية ما بين 600 إلى 800 نسخة يومياً، وكان هناك نسخ عربية وفارسية تطبع من الصفحة نفسها، وكان يوزع منها ما بين 600 إلى 700 نسخة يومياً[3]. وقد ارتبطت

(1) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 13 و22 يناير 1916، 1915، المخطوطات الأوروبية، ف 18/177.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 17 فبراير، 1916، المخطوطات الأوروبية، ف 18/177.

(3) Wilson, Lt Colonel Sir Arnold T., Loyalties, pp72-3

إيميلي لوريمير إلى والدتها، 25 فبراير، 1916، المخطوطات الأوروبية، ف 18/177.

بوظيفة المحرر وظيفة القائم على المطبعة الحكومية المحلية، كتبت إيميلي تقول: «ليس هناك داعٍ للقول أن هذه الصحيفة تخضع لإشراف الحكومة، وتستمد أفكارها من مكتب الضابط السياسي الرئيسي». ومضت بقولها: «اليوم هو آخر يوم من أيام الحرية»[1].

دفعها عملها في المطبعة إلى الإنخراط في نشاط فكري، وإداري غير مسبوق. وكانت تعتقد أنَّ هناك طاقماً جيداً إلى حدٍ ما من المترجمين والكتبة، والمحاسبين من الفرس والعرب، «لكنهم كانوا جميعاً ينتمون إلى منطقة ما أو أخرى، مما يستدعي مراقبتهم»، وحالما عينها كوكس، أرسلت إلى كراتشي تطلب موسوعة، وإلى بومباي للحصول على بعض الخرائط الحربية. واعترفت أنها كانت «كسولة إلى حد القلق في قراءة الصحف القادمة من الوطن؛ لأن لوك لم يكن موجوداً لتتحادث معه». ولهذا ستضيف هذه الجريدة «معنى مختلفاً للحياة». لكن وفي الوقت نفسه، اعترفت بشعورها بالتوتر، لأن لوك «سيتضايق كثيرا» إذا لم تحسن التصرف:

اشترطت عليهم عند موافقتي أن يسمحوا لي بالاستقالة بهدوء، إذا لم أكن مقنعة في عملي ... لكني أعتقد أنّه من الأفضل أن نجرب أنفسنا أولا، وأن نفكر في عيوبنا لاحقاً... إذا قرروا أن يبقوني في منصب المحرر، بعد تقييم عادل لي، فسيكون من الممتع أن أشعر بأصغر حشرة راتلة جاثمة على جدار. آمل أن يكون لوك مسروراً. أعلم أن ليس هناك من طريقة أطلب عبرها رأيه، لكني أعلم أنه لا يتوقع مني سوى الموافقة. وبعيداً عن المشاعر الشخصية، أعتقد أنني سأكون أول امرأة تشغل -ولو مؤقتاً- منصب «القائم على المطبعة الحكومية»، ولهذا عليّ بذل جهدٍ إضافي، كي لا تكون هذا السابقة كاملة تحذيراً خطيراً لأولئك، الذين يرغبون بالإقدام على مثل هذه الخطوة[2].

في حقيقة الأمر شغلت إيميلي هذا المنصب ما يزيد على السنة، أعادت خلالها تشكيل شخصيتها المهنية، والفكرية المستقلة السابقة، جاعلة هويتها زوجة موظف بريطاني نصب عينيها. غير أنها ظهرت في هذه المرة بوصفها عاملة حرب، اعتبرت واجبات المنزل شيئا

(1) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 17 فبراير، 1916.

(2) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 25 فبراير 1916، المخطوطات الأوروبية، ف 18/177.

أساسيا، وكانت في غاية السعادة، وهي تصف حالها في خدمة مستمرة. أخبرت إيميلي أمها أنها تستمتع بكل دقيقة من حياتها الجديدة، كانت سعيدة لامتلاكها هدف تعيش من أجله، «ناهيك عن قدرتها على عنونة رسائلها بـ «خدمة الميدان». رغم هذا تضمنت رسالتها إشارة إلى أنّ البعض في الإدارة البريطانية التي يهيمن عليها الرجل إلى حد صارخ، كانوا غير راضين عن مشاركة النساء في القوة العاملة:

لا نستطيع أن نتصور كيف أن الجميع كانوا كرماء حيال هذه القضية، بدوا جميعاً سعداء، وكانوا يرون قبولي لهذه المهمة أمرا لا يخلو من المحذور، وهذا التعبير هو الوجه الحسن «لصفاقة وحشية»، أعتقد أنها ببساطة وقاحة، لكن الأمر يبدو سخيفاً ألاّ نحاول عمل أي شيء، وإذا لم أستطع أن أتدبر الأمر فلهم الحق بالتخلص مني[1].

أسهمت الظروف الاستثنائية الناجمة عن الحرب في إشراك الرجال والنساء على حد سواء في أدوار جديدة وهويات جديدة، وأخيراً، وفي الفترة التي تلت عام 1918، أصبح هناك مساجلات واختلافات عامة وشخصية حول الإمبراطورية والإمبريالية، وأهدافهما ومبرراتهما، وخلال فترة قصيرة، دفع الصراع العسكري الرجال، والنساء على حد سواء إلى جانب الدبلوماسيين والمغامرين الهواة من البريطانيين، والأمريكيين، والعرب في علاقات جديدة غير مسبوقة وصراعات على السلطة.

كان مجتمع البصرة عام 1914 لا يعدو أن يكون خليطاً معقداً من موظفي السلك الإمبريالي، وضباط جيش، ومبشرين ومستعمرين، وكان على رأس المجموعة المقدم السير بيرسي زاكريا كوكس، الذي يجسد النموذج الأصلي للضابط الإمبريالي. وبحلول عام 1914، كان بيرسي كوكس قد خدم في الخليج ما يزيد عن 14 عاماً (تقلد خلالها مناصب كثيرة) منها: وكيلاً سياسياً في مسقط، ثم مقيماً سياسياً مشرفاً على كل العلاقات البريطانية في المنطقة. عمَل كوكس ساعات طويلة –وكان يجيد العربية، حسب قول معاصريه– كان يلقى تقديراً من قبل زملائه وأمراء المنطقة[2]. ويتبع كوكس مباشرة، الرائد ستيورات

---

(1) المرجع السابق، ص 67–68 وقائمة وزارة الهند.

(2) Wilson, Lt Colonel Sir Arnold T., Loyalties, p 65 وقائمة وزارة الهند نال كوكس لقب فارس عام 1911.

نوكس، سَلَفُ دافيد لوريمر في البحرين، الذي كانت زوجته قد أعطت إيميلي دروساً في الإدارة المنزلية عند وصول عائلة لوريمر إلى الإمارة. كان الرائد محاميا وعالماً باللغة العربية. وفي إبريل من عام 1915، وبعد فترة قضاها قنصلاً بريطانياً في مسقط، وتعيينه قائماً بأعمال المقيم البريطاني في بوشهر، تم تعيينه رئيساً للمكتب القضائي في البصرة[1]. ومن بين الضباط صغار السن، أعجبت إيميلي أكثر ما تكون بأرنولد ت. ويلسون وريدر بولارد. أخبرت إيميلي أمها في يناير من عام 1916 أن «هذين الضابطين كانا الأجدر بالاهتمام من الرجال الأصغر سنا، الذين قابلتهم»[2]. وغدت إيميلي مفتونة بويلسون عندما زارهم في البحرين عام 1912. وصفت إيميلي ويلسون بقولها « بإجماع الجميع، أن الرجل القادم لا يعدو كونه واحداً من المبتدئين»[3].

وعلى أية حال، كونت إيميلي علاقة صداقة مميزة مع الشاب بولارد، الذي اعدته مقروءا بشكل جيد، و«يفيض بحديث ممتع»، و«يُعدّ من أكثر الشباب، الذين قابلتهم متعةً وخبرة، فأيامه الأولى وصراعاته لا تذهب بعيداً عن تلك التي عاشها والده»[4]. كان لبولارد خبرات سابقة كضابط في السلك الاستعماري. وُلدَ بولارد لعائلة عامل ميناء لندني عاطل عن العمل، وعلَّمَ نفسه بنفسه. كان بولارد لغوياً متميزاً، وهذه الحقيقة زادت من إعجاب إيميلي به. وتمكن بولارد من اجتياز جميع مساقات المراسلة بنجاح، بالإضافة إلى اختبارات الخدمة الخاصة بشرق البحر المتوسط ومساقات جامعة كامبريدج. عُين

(1) المرجع السابق.

(2) إيميلي لوريمر إلى والدتها، 28 يناير، 1916، المخطوطات الأوروبية، ف 18/177.

أصبح ويلسون نائب الضابط السياسي الرئيس في البصرة في يناير عام 1916، بدأ عمله في الجيش الهندي ثم انتقل إلى السلك السياسي وخدم جنوب غرب بلاد فارس والخليج. وعمل مساعداً لدايفيد في الأهواز، وأصبح تحت إمرة كوكس المقيم المساعد في بوشهر من عام 1912 إلى 1913، لم يتزوج حتى عام 1922. كان بالارد قائماً بأعمال القنصل في البصرة عام 1914، ثم أصبح المستشار المدني للحكومة العسكرية. أصبح فيما بعد الوكيل البريطاني والقنصل في جدة (1923-1925)، وأصبح لاحقاً، الوزير البريطاني هناك (1936-1939). وُلد بالارد عام 1885، ولم يتزوج أيضاً حتى عام 1921.

(3) إيميلي لوريمر إلى والدتها، 25 إبريل، 1912، المخطوطات الأوروبية، ف 7/177.

(4) إيميلي لوريمر إلى والدتها، 28 يناير و23 إبريل، 1916، المخطوطات الأوروبية، ف 177/18-19.

بعد الانتهاء من هذه المتطلبات في تركيا لست سنوات بين الأعوام 1908 و1914، وبلغ عدد اللغات التي يتكلمها ست لغات هي: العربية، والفارسية والتركية، والروسية إلى جانب الفرنسية، والألمانية[1]. ومن ضمن المبشرين، عَدَّت إيميلي جون فان إيس «رغم كونه جوهرة غير مصقولة إلى حد ما أكثر المبشرين الرجال إمتاعا، كما أنه مقروءٌ بشكل كبير». وهذه الصفة الأخيرة كانت دوماً تبهر إيميلي أوفيرند، المرأة التي تهتم بشؤون العلم والأدب. وفضلاً عن ذلك، كانت تعد دورثي فان إيس «امرأة ذكية»، واعترفت لاحقاً أنها كانت تستمتع بصحبتها أكثر من أي مبشر آخر[2].

وكان أيضاً في البصرة هاري إس. ت جون بريجر فيلبي، الذي كان حسب رأي إيميلي «شخصاً لطيفاً جداً». خدم فيلبي في البنجاب مساعداً للمفوض العام، وفي عام 1910، وفي خطوة عُدّت تحدياً صارخاً لاعتراض حكومة الهند على زواج الموظفين خلال السنوات الأولى من الخدمة، تزوج فيلبي من دورا جونسون، ابنة مهندس متنفذ في سكة حديد بريطانيا، بعد أن قابلها في حفلة في راوول بندي. وصل فيلبي إلى الخليج في نوفمبر عام 1915، ولم تحصل دورا على إذن اللحاق به في البصرة، قبل عام 1916 [3]. كان فيلبي رغم كونه في تلك المرحلة من عمله موظفاً في السلك المدني الهندي –مغامراً ومستكشفاً– وكان يمثل حلقة الوصل بين دبلوماسيي الوظيفة، وإداريي السلكين العسكري، والمدني للهنديين البريطانيين والمستشرقين الأكثر غرابة، الذين أصبحوا يسمون بـ «المستعربين»،

---

(1) Bullard, Sir Reader, The Camels must go: an Autobiography, London: Faber and Faber, 1961.

الفصل الأول: أعاد بالارد لإيميلي لوريمر اعتبارها، عندما كتب في سيرته الذاتية «ستعدّ قائمة الناس غير العاديين، الذين جندهم كوكس غير مكتملة، دون أن تذكر عائلة لوريمر. كان لوريمر، وهو ضابط في السلك السياسي الهندي، عالماً بفقه اللغات. أما السيدة لوريمر، فلقد كانت أيضا عالمة بفقه اللغة لها مكانتها، وأستاذه سابقه في كلية سومرفيل، وكانت أيضاً صاحبة فطنة وضحكة» ص 92.

(2) إيميلي لوريمر إلى والدتها، 28 يناير، 1916، المخطوطات الأوروبية، ف 18/177. ولدت دوروثي فيرمَنْ فان إيس في واكفيلد، ماستشوستس، وتلقت تعليمها في كلية ويزلي، فالتحقت بالإرسالية التبشيرية العربية عام 1909، أما زوجها المبجل جون فان إيس فلقد تلقى تعليمه في كلية برنستون الألوهية، والتحقت بالإرسالية التبشيرية عام 1902.

(3) إيميلي لوريمر إلى والدتها، 18 ديسمبر، 1915، المخطوطات الأوروبية، ف 18/177، وإليزابيث مونرو فيلبي جزيرة العرب (لندن: فابر وفاير: 1973)، ص 32–33، 55.

الذين كان لهم أكبر الأثر في سياسة الحرب، وفي تطور الاستعمار في الشرق الأوسط خلال فترة ما بعد الحرب.

تذكر كاثرين تيدريك في إطار حديثها، الذي روته عام 1981 عن الاستغراب والترحال العربي، أن الحرب العالمية الأولى كانت «لحظات حاسمة في تأريخ المستعربين، عندما «تم دفع الكثير من هواة التأريخ العربي الموهوبين أمثال غيرترود بيل، وت.ي. لورنس والسير مارك سايكس عبر سبل الحرب إلى مناصب، كان يرجى منهم التأثير من خلالها على سير الأحداث»[1]. وفي ظروف الحرب العالمية الأولى، أصبح هناك حاجة ملحة إلى هواة متمرسين، ومتحمسين؛ لدعم المسؤولين المضغوطين ومدهم بالأخبار، وبذلك تشكلت فرصة نموذجية للرحالة والمستكشفين، لكي يجدوا دوراً في السياسة الإمبريالية. وفي يناير عام 1916، تم إنشاء المكتب العربي في القاهرة، وكان مسؤولاً عن جمع المعلومات حول العرب وشؤونهم، وتنسيق السياسة البريطانية في الشرق الأوسط. كانت هذه الفكرة إحدى بنات أفكار مارك سايكس، وكان أول مدير له جيلبرت كلاتون، على الرغم من أن دافيد هوغارث هو من كان يدير المكتب عملياً. كان دايفيد هوغارث، عالم آثار، ومستعرب من أكسفورد، وكان يشغل خلال الحرب منصب ضابط استخبارات بحري[2]. تم إنشاء فرع أصغر حجماً، لكن شبه مستقل في البصرة تحت مظلة المشرف المحلي العام، والضابط السياسي الرئيسي (كوكس)؛ بهدف جمع المعلومات المتعلقة «بقضايا» الشرق الأدنى بشكل عام، وبالإمبراطورية التركية بشكل خاص ونشرها، وكذلك التنسيق لحملات الدعاية الإعلامية. كانت المعلومات ترسل إلى لندن، والقاهرة والهند، وكانت تشمل تقارير حول العلاقات مع الحكام العرب المستقلين، مثل: حاكم السعودية الأمير عبد

---

(1) Tidrick, Kathryn, Heart-Beguiling Araby, Cambridge: Cambridge University Press, 1981, p 163.

(2) كان سايكس رحالة وكاتباً ذا خلفية عسكريّة، بدأ كلاتون سيرته الوظيفية ضابطا في الجيش، ثم انتقل إلى سلك الحكومة السودانية. وأصبح في عام 1914 مديراً للمخابرات العسكرية في القاهرة. أصبح هوغارث لاحقاً قيّماً لمتحف آشولن في أكسفورد، ورئيساً للجمعية الجغرافية الملكية.

العزيز بن فيصل آل سعود، وحول السياسة القبلية[1]. وفي عام 1916، تم تعيين غير ترود بيل ضابط مراسلة، لتعمل تحت توجيه كوكس نفسه.

شكل اختراق بيل لبيئة الإدارة الإمبريالية الذكورية في بلاد الرافدين نقطة مفصلية واضحة في تأريخ الإدارة الإمبريالية هناك، فخلال السنوات الأولى من الحرب، بدأت النساء الموجودات في المنطقة حينها بخلق هويات جديدة لهن، ومبررات لانخراطهن في السلك الإمبريالي. تولت المبشرات الأمريكيات زمام المسؤوليات الخيرية التي يحتاجها الناس كثيراً هناك. اتخذت بيلا كوكس كونها زوجة الضابط السياسي الرئيسي مسؤوليات اجتماعية، ومنزلية أوسع تجاه الموظفين الحكوميين المُجْهَدين والبائسين، الذين فاتتهم عين العناية. وتمكنت إيميلي لوريمر من الانتقال من العمل المنزلي إلى «العمل الميداني»، من دون أن تدع الأخير يطغى على أهمية الأول، بيد أن غيرترود بيل كانت بشكل عام تفتقد أية صورة من صور الحضور الأنثوي الشائع في المنطقة، فهي ليست بالزوجة السياسية، ولا خاتوناً، ولا مبشرة. وعندما وصلت إلى البصرة، في أواخر الأربعينات من عمرها، كانت مستكشفة ذات سمعة ودراية، فلقد جابت الكثير من المواقع، وكانت غير متزوجة. وجاءت إيميلي لوريمر على ذكر بيل إلى أمها بقولها: «الآنسة بيل الرحالة، التي تذكرين أنّي قابلتها في الصليب الأحمر، والتي كانت رئيستي في العمل عندما كنت في أليكس، وصلت توّاً هنا للقيام ببعض الأعمال الصحفية، ولا شك أن خبرتها بالعربية، وبالقبائل هناك تمكنها من القيام به على أتم وجه. هي لطيفة جداً وودودة»[2]. وبعد أسبوعين أضافت أن بيل كانت:

امرأة ممتعة جداً من غير ملامح تحيز لشئ، كانت تعرف جميع أعضاء مجلس الوزراء شخصياً، وكانت تقيم مع المفوض السامي في مصر، ونائب الملك في دلهي في أثناء رحلتها إلى هنا، لكن لم يكن عندها تكبر إطلاقاً. أظن أن والدها السير هيو بيل كَوَّنَ ثروته من

(1) ملاحظة غير مؤرخة (ديسمبر 1915 لكوكس سجلا وزارة الهند: أر/68/2/15)، للمزيد حول التأريخ السياسي للفرع الشرقي من المكتب العربي، وإدارته وعلاقته مع القاهرة، انظر Busch, Briton Cooper, Britain, India and the Arabs, 1914-1921, Berkeley: University of California Press, 1971.

(2) إيميلي لوريمر إلى والدتها، 4 مارس 1916، المخطوطات الأوروبية، ف 19/177.

حديد الخردة أو ما شابه. على أي حال هم أثرياء بلا اكتراث لمدخولهم، لكنهم أرباب عمل نموذجيين[1].

وكما إيميلي تماماً قضت بيل شهورها الأولى من الحرب في العمل مع الصليب الأحمر، وتلقت تعليمها في أكسفورد، لكن على الرغم من إنجازاتهما الفكرية والأكاديمية المتشابهة، ورغم إحساسهما العميق بالمسؤولية، والالتزام تجاه الإمبراطورية، إلا أنهما سياسيا وثقافياً كانتا شخصيتين مختلفتين. ولدت غيرترود لوثين بيل، التي كانت تكبر إيميلي بثلاث عشرة سنة، عام 1868[2]، كان جد غيرترود، إسحاق لوثيان بيل، أحد أقطاب صناعة الفولاذ الأثرياء في نيوكاسل، وكان عالماً أيضاً. تلقى والدها، هيو تعليمه في الكيمياء والرياضيات في السوربون وألمانيا، ورغم انضمامه إلى والده في العمل، إلا أنه كرس وقتاً للقضايا التحررية كنشر التعليم، والصحة العامة، وإصلاح عمل الأطفال، كانت أمها، واسمها

(1) إيميلي لوريمر إلى والدتها، 18 مارس ، 1916، المخطوطات الأوروبية، ف 19/177.

(2) حياة بيل وعملها مستكشفة، وكاتبة معروفة جداً. أوراقها محفوظة في أرشيف غيرترود بيل في جامعة نيوكاسل-أبون-تاين. غَدَت بيل موضوع سيرتين رئيسيتين، وكانت متميزة في الدراسات العلمية والشعبية في تلك الفترة، أحدث سيرة عن حياتها هي تلك التي وضعتها جانيت واليش: Wallach, Janet, Desert Queen: The Extraordinary Life of Gertrude Bell, Adventurer, Adviser to Kings, Ally of Lawrence of Arabia, New York: Doubleday, 1996 أما السيرة الأقدم فهي تلك التي وضعها Winstone, H.V.F.,Getrude Bell, London: Cape, 1978 وتضم معلومات مفصلة أكثر حول السيرة المهنية لبيل عندما كانت ضابطاً سياسيا في بلاد الرافدين. وفي سياق حديثها عن تنوع مواد المعلومات الأساسية حول حياة بيل، تذكر وينستون» ليس هناك مِنْ حياة تسنّى لها أن تُؤرخ وتُوثّق أكثر من حياة غيرترود بيل. فلقد وثقت كل خطوة في حياتها من طفولتها المبكرة، وحتى آخر أيامها، وثقت كل حدث مهم برسائل إلى عائلتها وأصدقائها (ص xi) نشرت زوجة أبيها الليدي فلورنس بيل عام 1927، مختارات من رسائل بيل بعد وفاتها في كتاب من مجلدين بعنوان (رسائل غيرترود بيل) (لندن: إيرنست بين). وقامت إليزابيث بيرغوين أيضاً بنشر مختارات من رسائل بيل عامي 1958 و1961، تحت عنوان (غيرترود بيل: من خلال أوراقها الشخصية) (مجلدين، لندن: إيرنست بين). أما رسائل غيرترود إلى حبيبها تشارلز دوتي-ويلي، فلقد قامت بتنقيتها ونشرها روزماري أوبريان (غيرتورد بيل: المذكرات العربية، 1913-1914، مطبعة جامعة سيراكيوز: 2000). وجميع هذه المجلدات المنقحة مُستَمدة من شهادة بيل الذاتية، ويمكن دعمها بملفات تحوي مختلف آراء موظفي وزارة الهند، وأوراق معاصريها. وعلى الرغم من أن الكثير قد كتب حول علاقاتها الشخصية والعاطفية المحتومة، إلا أن القليل من الانتباه في جميع هذه السرديات قد تم توجيهه نحو مكانة غيرترود الكبرى المرتبطة بالجنوسة والإمبراطورية؛ لدورها السياسي والمهني خلال الفترة التي قضتها في بلاد الرافدين وعراق ما بعد الحرب.

ماري، تنحدر من عائلة عريقة في نيوكاسل متخصصة في تجارة الأغذية. توفيت والدة غيرتود عندما كان عمرها سنتين، وتزوج والدها بعد وفاة زوجته بخمس سنوات من فلورنس أوليف التي كانت كاتبة مسرحية، وكان صهرها فرانك لاسلاس دبلوماسيا، يعمل حينها سفيرا لبريطانيا في واشنطن. بقيت فلورنس صديقة مقربة من غير ترود خلال حياتها اللاحقة.

وانطلاقاً من حرصها على التحصيل الأكاديمي الأفضل، توجهت غيرترود عام 1886 إلى أكسفورد، وتحديداً إلى الليدي مارغريت هول، وأصبحت أول امرأة تحصل على علامات التميز في التأريخ الحديث[1]. وفي أكسفورد قابلت إحدى أكثر رفيقاتها قرباً، التي أصبحت صديقة عمرها، ألا وهي جانييت هوغارث، أخت رئيس المكتب العربي المستقبلي دايفيد هوغارث. وصفت جانييت هوغارث لاحقاً ذكاء بيل بوصفها طالبة بقولها:

تعدُّ غير ترود لوثيان بيل، أكثر الطلاب تميزاً، وتألقاً في تأريخ مارغريت هول، أو بالأحرى علي أن أقول في أية كلية نسائية أخرى... أقبلت بطاقتها التي لا تفتر على تلقي العلم في كل مرحلة من مراحل الحياة الجامعية، كانت تسبح، وتجذف، وتلعب التنس والهوكي. كانت أيضاً، في بعض الأحيان، تمثل، وترقص، وتشترك في المناظرات، وكانت أيضاً على إطلاع على الأدب الحديث، كما أخبرتنا قصصاً لكتاب معاصرين، معظمهم كانوا أصدقاء طفولتها، لكنها كانت تواظب على العمل لمدة سبع ساعات يومياً. وفي نهاية العامين، حصلت على علامة تميز في كلية التأريخ الحديث مثلها مثل الرجال، الذين سبقوها في الحصول على تلك الدرجة[2].

وبعد التخرج من أكسفورد، بدأت بيل سلسلة رحلات حول العالم ورسخت– أو بالأحرى عززت– علاقاتها الاجتماعية والدبلوماسية القديمة، التي زودتها بالخبرة،

(1) Wallach, Janet, Desert Queen,pp24-5; Winstone,Getrude Bell, p 10

استمدت المعلومات السيرية العامة لحياة بيل وعملها من هاتين السيرتين ومن رسائل بيل أيضاً.

(2) جانيت هوغارث، اقتبستها الليدي فلورنس بيل، رسائل غيرترود بيل، المجلد الأول، ص 11، نشرت هوغارث فيما بعد قراءتها لبيل في معرض أكسفورد للسير. (لندن: تشايمان وهال، 1931).

والمعرفة اللازمتين لتعيينها في آخر المطاف في بلاد الرافدين. وفي عام 1886، سافرت إلى بوخارست للإقامة مع لايسلس، الذي كان يشغل منصب الوزير البريطاني في رومانيا، وزوجته ماري. وهناك قابلت تشارلز هاردنج، الذي كان مسؤولاً عن إرسالها إلى البصرة عام 1916، عندما أصبح نائب ملك الهند[1]. زارت بيل لسلاس مرة أخرى عام 1892، عندما كان في طهران، إذ بدأت تتعلم الفارسيّة، وبعد سنة سافرت مع والدها إلى الجزائر فبدأت تتعلم العربية. وخلال الفترة التي تلت سفرها إلى الجزائر وقبل نهاية القرن، سافرت إلى القدس ودمشق، وقامت برحلة حول العالم، ذهبت فيها إلى سان فرانسيسكو وطوكيو، وتخللها وقوف في سويسرا، فأصبحت متسلقة جبال متمرسة وشجاعة. وخلال رحلتها إلى الشرق الأوسط عام 1899، اتخذت بيل معلماً لتعليمها العربية. وبحلول فبراير من العام التالي، أصبحت تقرأ من كتاب (الليالي العربية) «لأجل المتعة حسب». وتعلمت أيضاً قراءة الإنجيل بالعربية، وكتبت لأبيها من القدس تخبره «أن الأمر مبهج إلى أبعد حد... فالعبرية تشبه العربية بشكل استثنائي، لا بل إن اللغتين متقاربتان أكثر من أي لغتين أوروبيتين تخطران على بالي»[2].

وفي عام 1902 سافرت بيل برفقة أخيها الآخر، هيوغو إلى الهند؛ لحضور الاحتفالات المرافقة لتتويج الحاكم في دلهي، التي وثقتها بالتفصيل لزوجة أبيها[3]. وخلال الغداء مع مراسلة التايمز فلانتاين شيرول في مخيم للصحفيين، قابلت بيل بيرسي كوكس لأول مرة وسمعت منه «آخر الأخبار حول وسط الجزيرة العربية»[4]. قامت بيل خلال السنوات اللاحقة ببعض الرحلات، ونشرت سرديات لهذه الرحلات، وتعلمت المزيد من اللغات، ودرست علم الآثار، ومنهجية الاستكشاف التقنية، وقبل رحلتها إلى بلاد الرافدين عام 1916، أعدت بيل نفسها عبر قيامها بزيارة إلى الجمعية الجغرافية الملكية، إذ تعلمت تقنيات

(1) كان تشارلز هاردينج، بارون هاردنج من بنشورست، نائباً للملك من نوفمبر 1910 إلى إبريل 1916.

(2) Winstone,Getrude Bell, pp 58-59; Burgoyne, Elizabeth, Gertrud Bell: from her Personal Papers, 2 vols, London: Ernest Benn, 1948-61.

(3) انظر الفصل الأول.

(4) Winstone,Getrude Bell,p 139.

القيام بالاستطلاع، والملاحظة الفلكية، ورسم الخرائط.

عادت بيل إلى دمشق عام 1913 للإعداد لأشهر رحلة لها، إلى هضبة نجد في وسط الجزيرة العربية، وكانت عازمة على زيارة الرياض وحائل؛ عاصمتي مناطق سيادة آل سعود وآل رشيد على التوالي في الجزء الداخلي من الجزيرة العربية[1]. وعلى الرغم من معارضة كلٍّ من وزارة الخارجية، والإدارة التركية المحلية، ورفضهما المتلاحق التكفل بحفظ سلامتها، إلا أن بيل سافرت إلى صحراء النفوذ، ووصلت إلى حائل في فبراير عام 1914. وقبل مغادرتها عُمان وقّعت بيل تعهداً صريحاً للسلطات التركية مفاده أنَّ سفرها كان على مسؤوليتها الخاصة[2]. مكثت في حائل أسبوعين كانت خلالهما شبه سجينة، ولم يعجبها نظام حكم آل رشيد إطلاقاً. وتذكر لاحقاً أن حائل تركت عندها انطباعاً حازماً، وتنبأت –بشكل صحيح– المستقبل السياسي لوسط الجزيرة العربية:

أعتقد أن آل رشيد يمشون نحو الهاوية... وينبغي عليّ أن أعتقد أن المستقبل هو لابن سعود... لا أكنُّ لابن رشيد في قلبي كثيراً من الخير. فتاريخهم لا يعدو عن كونه قصة مطولة من التذبذب... لا أعرف كيف يبدو ابن سعود، لكنني متفائلة ستقودني رحلتي العربية إليه. ولقد وضعت كل خططي للقيام بهذه الزيارة[3].

غادرت بيل حائل أخيراً، وفق طُرق السفر، وتقاليده المتبعة عادة بين الرحّالات المستقلات من بنات طبقتها وحضارتها، وذلك بعد أن طالبت باسترجاع جِمالها، وأموالها المحجوزة لدى سلطات آل رشيد. وعند مغادرتها عدلت عن خطتها في زيارة العاصمة السعودية، وتوجهت مباشرة إلى بغداد، ودمشق، ثم القسطنطينية حيث قدمت

(1) كانت كونفدرالية آل رشيد، قبل هزيمتها النهائية على يد عبد العزيز آل سعود عام 1921، قوة قبلية مؤثرة في وسط جزيرة العرب، وللمزيد من التفاصيل التاريخية. انظر: Al Rasheed, Madawi, Politics in an Arabian Oasis: the Rashidi Tribal Dynasty, London: I.B. Tauris, 1991.

(2) سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس،79،11، بِ 222/14، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/10/259، Wallach, Janet, Desert Queen,113-22

(3) رسالة، 17 مارس، 1914، Burgoyne, Elizabeth, Gertrud Bell,p302.

تقريراً حول رحلتها إلى السفير البريطاني ووزارة الخارجية. وعند عودتها إلى لندن تم منحها الميدالية الذهبية للجمعية الجغرافية الملكية[1]. لم تكن رحلة حائل ببساطة «حملة استطلاعية»، بل زودت الحكومة البريطانية -ومن خلالها-، بمعلومات استخبارية سياسية مهمة حول فترة بالغة الحساسية عند بداية الحرب العالمية الأولى. فالمعلومات المتعلقة برسم الخرائط التي جمعتها تم استخدامها من قبل وزارة الحرب، لوضع خريطة جديدة للمنطقة[2]. وفي الاجتماع الذي عُقد في الجمعية الجغرافية الملكية عقب وفاة بيل في فترة وجيزة، ذكر ديفيد هوغارث زميلهما إبّان فترة الحرب، إنجازاتها الواسعة خلال رحلتها عام 1914:

أعتقد أن أهمية هذه الرحلة، وقيمتها تكمن بلا شك في كونها برهان بارز على قدرة امرأة إنجليزية مسيحية على اختراق نجد وحدها والعودة بسلام، فضلا عن أصناف كثيرة من المنافع التي أضافتها الرحلة إلى علوم الجغرافيا والآثار، ناهيك عن توسيع معارفنا السياسية والاجتماعية حول العرب... تبيّن أن معلوماتها على قدر كبير من الأهمية خلال الحرب... أصبحت الآنسة بيل، خلال عام 1915 وما تلاها المترجمة لجميع التقارير الواردة من وسط الجزيرة العربية[3].

وعند وصولها القسطنطينية وَرَد عن السفير البريطاني السير لويس ملات قوله لوزارة الخارجية: أن تقرير بيل «حول رحلتها سيكون ذا فائدة، وقيمة جمة، وأضاف أن رحلة الآنسة بيل، التي تُعَدّ بجميع المقاييس عملاً بطولياً قد لاقت بطبيعتها اهتماماً منقطع النظير»[4].

---

(1) Wallach, Janet, Desert Queen:p 125.,

(2) Hogarth, David George, 'Gertrude Bell's journey to Hayil', The Geographical Journal 70, 1927k pp.1-21.

(3) Hogarth, David George, 'Gertrude Bell's journey to Hayil', p 15-6.

(4) ماليت إلى وزير الخارجية، السير إدوارد غري، 20 مايو 1914، الهند: إل/بِ إس/11/79.

وقبيل اندلاع الحرب، كانت بيل قد نشرت مقالات عدة وكتابين حول رحلاتها[1]. تلقى كتابها الأول «البادية والحضر»، الذي نشر عام 1907، ردود فعل إيجابية جداً، أكدت جميع الشكوك التي كانت تحوم حول تصنيفها مستكشفة، حتى إن الملحق الثقافي لجريدة التايمز، على سبيل المثال، أعلن بغير رغبة صادقة أن:

النساء قد يكنَّ أفضل رحالة، فهُنَّ عندما يتحلين بروح الجوال الصادق يكنُ أكثر تحملاً. ومن الغريب أنهن، على النقيض من الرجال، لا يولين أدنى اهتمام للصعاب والمشاق. فهن مما لا شك فيه أكثر ملاحظة للتفاصيل، وأسرع في تلقي ردود الفعل أو الانطباعات، والتعاطف بينهن ومعهن قوي جداً، ويختلطن بالغرباء بسرعة كبيرة.

لكن جريدة نيويورك تايمز رأت «أن سبل النساء الإنجليزيات غريبة، فهن على الأرجح أعظم عبيد للتقاليد في العالم، لكن عندما يتمردنْ على هذه التقاليد، يأتي هذا التمرد مترافقاً مع روح الانتقام[2].

لم يكن هناك شك أن بيل كانت قادرة «على الاختلاط بالغرباء» فهي، على النقيض من إيميلي لوريمير، وفي تناقض صارخ مع تصرفات وآداب السلوك المتبعة عند الخاتونات التقليديات، سافرت وحدها، وكانت –خلال ترحالها– تفضل رفقة الناس المحليين، والمكوث في منازلهم، بل كونت صداقات وثيقة مع العرب. وفي كتابها «البادية والحضر» أكدت أن «طبيعة الإنسان لا تتغير كلياً إلى الشرق من السويس وليس مستحيلاً أن تكوّن صداقات، أو أن تتعاطف مع القاطنين في تلك المناطق، بل إن تكوين مثل هذه الصداقات هنا في بعض الجوانب أسهل من تكوينها في أوروبا»[3]. وعلى الرغم من استعانتها الواضحة بالإثارة والخطر، وغموض الجانب الآخر من تجربة السفر «الاستشراقية»، إلا أنه بدا واضحاً، من خلال بعض كتاباتها الخاصة، أنها لم تعد نفسها «مستكشفة». وإلى جانب رسائل بيل إلى أبيها وزوجته حول حائل، كان هناك مفكرة أخرى خاصة، موجهة

(1) نُشِرَ الكتاب الأول: الصحراء والحضر، وهو سرد لحملته إلى سوريا عام 1905، في عام 1907، (لندن: ويليم هينيين)، ونشر كتابها أماروث إلى أماروث/ مراد إلى مراد، عام 1911، (لندن: وليم هاينمان).

(2) وكلاهما اقتبستهما واليش، ملكة الصحراء، ص 79–80.

(3) Bell, Gertrude, The Desert and the Sown, London: William Heinemann, 1907, p x

إلى صديقها وعشيقها السري الرائد تشارلز (ريتشارد) دوتي- ويلي ابن أخ الرحالة تشارلز دوتي، الذي تجول في الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر. وفي هذه المفكرة أباحت لنفسها الكشف عن شكوكها إزاء جدوى الترحال في الجزيرة العربية، خاصة لعزباء مثلها، وأشارت إلى مغريات النشاطات الفكرية المنتظمة للإداري السياسي، الذي سيؤول إليه في نهاية المطاف:

أعاني اليوم من موجة كآبة حادة... الاكتئاب ناجمٌ عن شكٍ عميق فيما إذا كانت المغامرة بمجملها، تستحق العناء... جئنا إلى بلد يمكن القول أنه معروف، أضفنا أسماء قليلة جداً للخارطة- أسماء جبال حجرية، وسهول قاحلة، وبئرين عميقين - هذا كل ما فعلناه على الأرجح. فالرحلة إلى نجد، إذا نظرنا إلى المغامرة الحقيقة أو أية فائدة علمية تمت إضافتها تُعدّ لا شيء. لكني بدأتِ أرى المشهد بوضوح، فهذا كل ما أستطيع القيام به. هناك طريقان لا ثالث لهما للسفر المفيد في الجزيرة العربية: الأول هو طريق الصحراء العربية، الذي يقضي أن تعيش مع الناس ومثلهم لأشهر وسنوات. وحينها نستطيع أن نتعلم شيئاً، وهذا ما فعله دوتي، ويبدو واضحاً أنني لا أستطيع سلوك ذلك السبيل. فحقيقة كوني امرأة تقف حجر عثرة أمام سلوكي إياه. أما الطريق الآخر فهو طريق ليجمان، الذي يقضي أن تقود فرسك، وتجتاز البلد بسرعة حاملاً بوصلتك. والغاية من هذا الطريق تتبع الخارطة، لا شيء آخر. قد أتمكن من القيام بهذا خلال فترة محدودة من الوقت، لكنني لست متأكدة. وعلى أي حال هذا ليس ما أقوم به الآن، وخلاصة القول، أعتقد أنه يجب الاستفادة من خبرتي في أعمال في الدول المتحضرة حيث أعلم ما أبحث عنه، وكيفية توثيقه. أكثر ما أخافه أنني عند وصولي النهاية سأقول «كانت مضيعة للوقت».. «من المضجر جداً أن نكون نساء موجودات في الجزيرة العربية[1].

وعندما بدأت الحرب تلوح في الأفق طلبت الحكومة البريطانية من بيل أن تقدم تحليلاً

(1) Burgoyne, Elizabeth, Gertrud Bell: 296-297. وتم نشرها أيضاً في أوبراين، غيرترود بيل، ص 73-74، عندما قابلت بيل دوتي-ويلي وزوجته للمرة الأولى كان دوتي يشغل منصب القنصل البريطاني في كونيا. لقي حتفه في جاليبولي عام 1915، كان العقيد جيرالد ليجمان ضابطاً سياسياً، وكان قد سافر كثيراً في جزيرة العرب. انضم أيضاً إلى طاقم الإدارة في بلاد الرافدين في بدايات عام 1915.

للوضع السياسي في الشرق الأوسط. وبناءً على تقريرها، وسمعتها كخبيرة ملمة كثيرة الترحال، طُلُب منها عام 1915 أن تعمل للمخابرات العسكرية، وانضمت إلى كلاتون وهوغارث وت.ي. لورنس في القاهرة. وفي يناير عام 1916 سافرت بيل إلى الهند، لتقديم إيجاز لنائب الملك –اللورد هاردنج– حول نشاطات المكتب العربي. وفي مارس من عام 1916، وصلت البصرة بعد أن اوصى بها اللورد هاردنج بقوله: «هي امرأة ذكية بشكل خارق، ولكن بعقل رجل»[1]. وفي البصرة، شغلت منصب ضابط ارتباط بين المخابرات البريطانية في القاهرة، ومخابرات حكومة الهند في دلهي، وبدأت بتحليل بناء المعلومات حول الشخصيات العربية والعشائر، كما بدأت تَعدُّ لإصدار «مجلة الجزيرة العربية السياسية». وفي ملاحظة صادرة من وزارة الهند خلال مايو اللاحق، ذكر وكيل الوزارة الدائم أرثر هيتزل في تعليقه حول مكانة المكتب العربي وعمله «أنه يتنبأ للمكتب أن يستمر خلال الحرب كدائرة مخابرات. فحصيلة معلومات الآنسة بيل بالطبع زاخرة»[2]. ومع هذا، لم يتم منح بيل منصباً رسمياً حتى يوليو التالي، عندما أُلحقت رسمياً بالطاقم السياسي للبعثة الاستكشافية الهندية (د) كضابطة ارتباط ومراسلة للقاهرة. وأصبحت بهذا التعيين الضابطة السياسية الوحيدة في القوات البريطانية، وكان مقرراً لها البقاء في بلاد الرافدين، وفي دولة العراق التي تأسست عقب الحرب، وفي غمار الأحداث السياسة حتى وفاتها عام 1926.

يذكر اللورد أرنولد ويلسون لاحقاً أنه عند وصول بيل في مارس من عام 1916، كان مقرراً أن تكون إقامتها زيارة خاطفة في طريق عودتها إلى القاهرة من الهند، لكن «منذ أن حطت قدمها أرض بلاد الرافدين، وحتى وفاتها في بغداد بعد عشر سنوات، كان مقدرا لها أن تكرس كل مواهبها الاستثنائية، وعزمها، الذي لا ينضب في خدمة الإدارات المتلاحقة في بلاد الرافدين»[3]. شكل حضور بيل في البصرة عاملاً راديكالياً،

(1) هاردنج إلى السير بيشامب، دف، القائد الأعلى للقوات المسلحة في الهند، 11 فبراير 1916، أوراق هاردنج، مكتبة جامعة كامبردج، اقتبسها بوش، بريطانيا، والهند، والعرب، ص 123.

(2) ملاحظات وزارة الهند التي أعدها أرثر هيرتزل، 29 مايو 1916، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/ 10/576.

(3) Wilson, Lt Colonel Sir Arnold T., Loyalties, p157-8

شتت في مكنونه البيئة الحربية العسكرية الطابع التي هيمن عليها الرجل. عندما وصلت بيل لأول مرة، كان السير بيرسي كوكس مسافراً إلى بوشهر، وكانت الليدي كوكس هناك لاستقبالها. في بداية الأمر، مكثت بيل في منزل كوكس. وعلى النقيض من إيميلي لوريمر، لم يكن لدى غيرترود متسعٌ من الوقت لعطف، وحنان بيلا كوكس، وكتبت لزوجة أبيها «لا يمكن عَدُّ الليدي كوكس مخلوقاً، هي غبية جداً، لكنها طيبة القلب دوماً، ولهذا ليس هناك من موضوع أستطيع أن أحادثها فيه»[1].

تناول المؤرخون وخاصة مؤرخها الذكر -فيكتور وينستون- حياة بيل وعملها في البصرة بكثير من التحليل، فمع اقتصار دور بيلا كوكس على الكون المنزلي المحدود، ومع شح عدد زوجات العسكريين والسياسيين في البصرة، يقدم طرح وينستون سيناريوهاً جيداً، لعبت فيه كل من إيميلي لوريمر، وغيرتورد بيل دور المسيطر بين مختلف الموظفين المتعددي المواهب في إدارة بلاد الرافدين. «أخذت هاتان السيدتان اللتان تجمعهما هذه العلاقة، وأقصد هنا غيرترود والسيدة لوريمر على عاتقهما مسؤولية إقرار النظام بين كثير من الرجال البائسين والعنيدين، فتعاملتا معهم كما لو كانتا أستاذتين في المدرسة، أو زوجتي أب عندما كانت تستدعي الحاجة[2]. ومضى ونيستون ليصف كيف أن إيميلي قد وجهت توبيخاً لفيلبي بعد اختلافه مع زوجها في العمارة؟ وعلى نحو مفصل، كتبت إلى فيلبي لتبدي تذمرها إزاء الطريقة التي تعامل بها مع الآخرين. وقالت: قد يجد الشاب، «الذي تعوزه الخبرة نفسه، في بعض المواقف على خلاف حول سياسة إجرائية مع رجل يكبره عمراً، ويفوقه مرتبة، وكان قد عمل في ظروف ليس للأول أدنى معرفة بها. لذا من الأجدر بذلك الشاب أن يفترض أن هناك وجهين لكل قضية». واقتبس وينستون من بيل ذاتها قولها لفيلبي إنه: «مستبد وصعب المراس»[3].

لو تأتى لونستون الحصول على أوراق إيميلي لوريمير؛ لكان مسروراً بمحاولاتها الجازمة

---

(1) Burgoyne, Elizabeth, Gertrud Bell,pp 39-40

(2) Winstone,Getrude Bell, p192. من الغريب، ألا يأتي وينستون على ذكر بيلا كوكس في كتابه إلا في مواقع قليلة جداً، قد يكون السبب في هذا على الأرجح قلة المواد الأرشيفية ذات الصلة.

(3) المرجع السابق. ص 192. واقتبسها أيضاً مؤرخة فيلبي إليزاميت مونرو فيلبي جزيرة العرب ص 53.

على تدليل ريدر بولارد، وايجاد «أفضل زوجة» له ممارسةً دور الأم. وفي أغسطس من عام 1916، كتبت إلى أمها، لتعلن مساعدتها في البحث عن بنت متعلمة مهذبة مناسبة له[1]. بيد أن بيل لم تكن إطلاقاً مهتمة بممارسة دور الأم البديلة، أو بآراء النساء الأخريات في هذا الخصوص. ومن المدهش أن بيل لم تأت على ذكر إيميلي لوريمير في رسائلها إلا في حالات نادرة رغم كونهما المرأتين البريطانيتين الوحيدتين اللتين شغلتا مناصب في إدارة البصرة. لكنها رغم هذا، كانت تحمل آراء مطابقة حول القدرة الذهنية للنساء الأخريات وخاصة الخاتونات، اللواتي اعتبرتهن مملات ومنساقات للأعراف والتقاليد. وفي زيارة قامت بها بيل في وقت سابق، استضافها خلالها على نحو دمث صهر إيميلي –غوردن وزوجته نيسته– ورد عن بيل أنها تناولت الغداء مع القنصل البريطاني في بغداد؛ العقيد رامسي وزوجته. وصفت بيل زوجة العقيد «بالبرود، فلقد كانت امرأة إنجليزية متيبسة في تصرفاتها، وضيقة الأفق ورسمية. كانت أكثر ما تخشاه أن تفشي مكنونات صدرها، وأن تقوم بفعل ما لا يليق إطلاقاً مع واجبها وكرامتها كزوجة وابنة موظف هندي»[2].

لم يكن لدى بيل وقتاً تضيعه في ما اعتبرته اهتمامات أنثوية مملة، بل أعلنت صراحة تفضيلها رفقة الرجال. وكانت بيل في تلك الفترة، وحالها هنا حال إيميلي لوريمير، تعارض بشدة منح المرأة حق الانتخاب، وكانت نشطة في حركة مناهضة منح المرأة حق الانتخاب منذ بداياتها[3]. لكن لم يبد عليها قط أنها سمحت للسياسة المحلية في أن تقف حجر عثرة في وجه المصالح الخارجية الملحة. وفي نوفمبر من عام 1912، وبعد عملها مع الاتحاد في شمال إنجلترا، ومقابلتها رئيس أساقفة يورك، وتنظيمها اجتماع مناهض لمنح المرأة حق الانتخاب

(1) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 5 أغسطس، 1916، المخطوطات الأوروبية، ف 20/177

(2) Wallach, Janet, Desert Queen, p 88.

(3) انظر: المقدمة. تم تعيين بيل، عام 1908، كأول سكرتيرة فخرية للاتحاد الوطني النسائي المعارض لمنح المرأة حق الانتخاب، وبعد دمج هذا الاتحاد مع اتحاد الرجال عام 1910، ليصبح الاتحاد الوطني لمناهضة انتخاب المرأة وفي معرض تعلقيها على رسائل بيل، أشارت إليزابيث بيرغوين إلى «أنه لاحقاً، كما أخبرتني صديقتها جانيت كورتني [نيي هوغارث]، استمتعت بيل بموقعها تجاه حملة الانتخاب، لكن في الوقت الراهن، وفي ظل اشتداد الحملة رمت بيل بنفسها عن حيوية واقتناع في دور المعارضة، بيرغوين، غيرترود بيل المجلد الأول، ص 274.

عقد في ميدلزبرو، كتبت إلى فالنتين شيرول تتذمر من أن حياتها «كادت أن تتحطم» من العمل، الذي كان «يستغرق جزءاً كبيراً من الوقت»، بل إن معظمه لم يكن ملائماً لطبيعتها واهتماماتها، كاشتراكها اللاحق في صندوق الإغاثة العالمي، الذي تم تأسيسه بعد الحريق الكبير في القسطنطينية، وتفشي الكوليرا هناك[1]. وفي الوقت نفسه، كانت شخصيتها القوية ترهب –في بعض الأحيان– أكثر زعماء حركة (مناهضة منح المرأة حق الانتخاب) حنكة وثقة بالنفس. وفي وقت سابق من العام نفسه، وفي أثناء مناقشة خطط لعقد اجتماعات عامة وتعيين خطباء، كتب الأيرل كرومر إلى اللورد كورزون محذراً إياه من دعوة السير هيو بيل:

أوصي بشدة ألا تتم دعوة السير هيو بيل. فأنا على دراية جيدة به فهو سيد الحرية العظيم في ميدلزبرا، وتاجر متحرر قوي، ورجل ذكي جداً، ويمتلك قدرة خارقة على الكلام، فهو سياسيا ينتمي إلى الأحرار ويصوّت لهم، لكن أفكاره إجمالاً، كغيره من الأحرار الآخرين، لا تعدو أن تكون محافظة... فالأحرار لا يعدونه أفضل حامل لأفكارهم، وهذه النقطة كفيلة باستثنائه، وفضلا عن ذلك، هو لعبة في يد ابنته الآنسة غيرترود بيل، التي كانت موجودة في الاجتماع أمس. هي امرأة ذكية جداً، وسافرت كثيراً إلى الشرق وكتبت كتباً، أهدتني أحدها، لكنها لا تملك كثير من الحكمة ولسانها سليط[2].

وأضاف فيكتور وينستون أن بيل «لم تكن نسائية»، و«لم تعد وجودها المتحرر سوى تعبير طبيعي عن قدراتها الذاتية وإقدامها». وختم وينستون بقوله إنها كانت محظوظة؛ لأنها انحدرت من عائلة متنورة وميسورة، فلقد كانت تبغض النساء ولا تسامحهن قيد أنملة، بل إنها لم تفوت فرصة انتقاد عدم لياقتهن، أو عدم ملائمتهن للقيام بعمل كان الأجدر أن يقوم به الرجل. لم تطالب بيل بحقوق خاصة، «لكنها كانت تعتقد أنها تستحق الحرية التي مُنحت لها»[3]. غير أن الحكم كان على الأرجح مبسطاً وقاسيا، بل

(1) Burgoyne, Elizabeth, Gertrud Bell: p 280

(2) كرومر إلى كورزون، 23 فبراير، 1912، المخطوطات الأوروبية ف م 11، 35.

(3) Winstone,Getrude Bell,p 81.

ولم يأخذ بالحسبان المصاعب، والتجهيزات التي كانت النساء المستقلات ذوات التطلعات السامية، يواجهنها، ورغم هذا، لم تتمكن بيل مطلقاً، وحالها هنا هو حال إيميلي لوريمر، من الاعتراف بوجود فروقٍ سياسية ضمنية في الفرص المتاحة أمام النساء، ولم تبد اهتماماً يذكر بالعلاقات الجنوسية في العالم العربي، رغم أن عدم الاهتمام هذا كان نتيجة فقدانها التعاطف المتزايد مع المواقف المحسنة الأبوية (والأمومية) للإمبريالية الغربية. كانت دورثي فان إيس —وهي المرأة الوحيدة التي أقامت بيل معها علاقة صداقة– قد وبَّخت بيل لاحقاً لعدم الاهتمام، الذي أبدته بيل إزاء ظروف المرأة العربية، ورفضها التعاطف مع وجهة نظر المبشرين الأمريكيين، التي ترى أن الإسلام هو المسؤول عن فشل المجتمع العربي في أن يحذو حذو الثقافة الغربية بما فيها من حريات ظاهرة للعيان(1). لم يكن لدى بيل، على أي حال، أي اهتمام بالإسلام أو المسيحية، فهي هنا تشبه إيميلي لوريمر أيضاً. فلم يكن لديها وقت تخصصه للمبشرات، اللواتي كُن يسعين إلى ردّ الناس عن دينهم في الجزيرة العربية. لكن، على النقيض من إيميلي، كانت بيل لا دينية صريحة منذ صغرها. كتبت من حيفا في الخامس من إبريل من عام 1902، أنها قامت بزيارة إلى المبشرين هناك، وقالت: «فليحمنا الرب، هُنَّ لَسْنَ سوى زمرة من الفزاعات. من المحزن أن تقوم تلك الزمرة من النساء بشعورهن الطويلة المتلمة، ونظراتهن بتمثيل الدين المسيحي. لكن الرب هو من يعرف»(2). وبالإضافة إلى خلفيتها العائلية ذات الميول التحررية، أثر هذا المنظور الإلحادي كثيراً على كثير من آرائها، وتفسيرها للكثير من القيم القانونية والإمبريالية، والثقافة المرتبطة بهما. وميَّز هذا المنظور بينها وبين شبيهتيها: إيميلي لوريمر ودوروثي فإن إيس. وعلى الرغم من قلة ذكرها لإيميلي في كتاباتها، إلا أنها كانت كإيميلي تماماً، تكتب عن الاحترام المتبادل والإعجاب، اللذين كانت تكنهما لفطنه دوروثي فإن إيس وعطفها:

تسرب الملل والتعب إلى نفسي لرؤيتي الرجال فقط ... إن مؤازرتي العظيمة هي السيدة

(1) Van Ess, Dorothy, Pioneers in the Arab World, Grand Rapids Ml: Historical Series of Rdformed Church in America, 1974,p98

(2) Burgoyne, Elizabeth, Gertrud Bell:p 127 وصفت إحدى صديقاتها في الجامعة، وجهة نظر بيل بكونها «إلحاد لاشك فيه».

فان إيس زوجة المبشر الأمريكي. أكن لكليهما محبة كبيرة، وهي تحديداً لطيفة جداً. وهو لديه معرفة لا تضاهى بالبلد، وكان دوماً يمدني بمساعدة كبيرة، كان يتكلم العربية أفضل من أي أجنبي آخر سمعت عنه[1].

بيد أن آراء بيل بغيرها من النساء، وعدم تعاطفها مع الفروق الجنوسية على الصعيدين المحلي والإمبريالي السياسي، وكذلك على الصعيد الاجتماعي كانت لا تتلائم مع عقليتها المتفردة، وثقتها الواضحة بنفسها اللتين كانتا من ركائز انطلاقها في تحقيق طموحاتها. كان واضحاً من خلال «مفكراتها حول دوتي ويلي» ومن خلال تلميحاتها المبعثرة هنا، وهناك في رسائلها إلى والديها، وأصدقائها وزملائها في البصرة، أنه كان هناك شكوك تراودها إزاء إنجازاتها وقبولها لدى الطبقات التي يسيطر عليها الذكور في الإمبراطورية البريطانية. فمنذ البداية، واجهت معارضة وشكوكا، غير أنها واجهتها إلى حد كبير بعزل نفسها عن بنات جنسها، وعَبْرَ بناء صورة متفردة لها، تظهر فيها أقرب ما تكون إلى صورة الموظف الإمبريالي الذكوري. وكان الوصف الوظيفي لعمل بيل يقضي أن تقوم بيل بإعداد تقارير للسلطات العسكرية، والسياسية البريطانية في القاهرة، والهند، ولندن. وكانت التقارير تتضمن معلومات حول العلاقة مع الحكام العرب في المنطقة، ومع القبائل[2]. كان الحصول على معلومات كهذه يتم جزئياً من خلال البحث وقراءة التقارير الرسمية، والاختلاط الشخصي مع الحكام والقبائل بعينها، وهو الأهم هنا. إن التوقع بأن امرأة تستطيع الحصول على هذه المعلومات، وتقديمها عبر الوسائل المتبعة، ليشير بصراحة إلى قُدرات بيل الخارقة في التّكيّف مع الشخصية الجديدة، كما يشير إلى أسلوب موظفٍ سياسي ذكوري عادةً. وقد قيل إن إيكال هذه المهمة الفريدة إلى امرأة يُعدَّ بُعد نظر فريد، وعُدّ أمراً مفاجئاً من عليّة القوم.

لم يكن زملاؤها في المنطقة متعاطفين مع نشاطاتها، ويستشهد واليش بالعديد من مواقف العَدَاء مع زملائها العسكريين، والسياسيين في البصرة. فعلى سبيل المثال، قام

(1) Burgoyne, Elizabeth, Gertrud Bell, p39-40

(2) الوصف الوظيفي لغيرترود بيل.

هوبرت بونغ، ضابط سياسي آخر بتجاهلها، أما أرنولد ويسلون، الذي كان متوقعاً لبيل أن تقضي معه سنوات طويلة في علاقة متقلبة، فقد رفض أن يمكنها من الوصول إلى كل معلومات المكتب الصادرة، ورفض أيضاً أن يعطيها رموز التليغرام الواردة[1]. ورغم كل هذا، استمرت بيل في إصدار تقارير مطولة متعمقة، لا تختلف عن لغة التقارير الرسمية التي كان يحيكها زملاؤها الذكور، ولم تنسب هذه التقارير إليها إلا من خلال الإشارات الجانبيّة الواردة في ملفات وزارة الهند[2]. وفي هذه التقارير، قدمت نفسها بجدارة بوصفها موظفاً حكومياً دون أن تذكر الجنس. وردَّت عن نفسها النقد من خلال مِهَنيَتها وقدرتها اللتين لا تلينان. وفي يناير من عام 1917، قدم المفوض السامي في القاهرة السير هنري مكماهون تقريراً إلى لندن حول عمل المكتب العربي، مَدَحَ فيه عمله، وختم تقريره «بلفت الانتباه إلى الخدمات القيمة التي تقدمها الآنسة غيرترود بيل تحت توجيه السير ب. كوكس. ومضى يقول، «إن الطريقة التي كرست بها هذه المرأة نفسها للعمل في المكتب العربي في ظل أقسى الظروف التي يمر بها البلد، وأقسى طقس لتستحق الإشارة ... إن معرفتها الوثيقة بالجزيرة العربيّة إضافة إلى تدربها، وطاقتها جعلت خدماتها ذات قيمة عظيمة»[3]. اقترحت وزارة الخارجية أن يطلب من كوكس نقل تقرير الحكومة البريطانية لبيل. وفي ملاحظة مكتوبة بخط اليد على الملف، أضاف آرثر هيرتزل:

تستحق الآنسة بيل التوصية ... فقبل ذهابها إلى البصرة، كان الفرع العراقي من المكتب العربي عقيماً، فلم يكن هناك معلومات ترد القاهرة أو تردنا نحن في لندن. وعند وصولها، تلقت معاملة مليئة بالشك، وتم وضعها تحت أوامر السلطات العسكرية السياسية في البصرة، التي كانت تنتقدها. وفضلاً عن ذلك، حاضروا بها حول قانون أسرار

---

(1) Wallach, Janet, Desert Queen, 181-182.

(2) تم إرسال معظم المراسلات إلى لندن تحت توقيع الضابط السياسي الرئيسي. وعند دراسة الملفات عن قرب، تبين لنا أن بيل هي التي صاغت معظم التقارير الإدارية التي أنتجت خلال عامي 1916 و1917، وأفضل الأمثلة على ذلك «إدارة العدل في المناطق المحتلة في العراق» «الشيعة ومكانتهم في العراق»، «ملاحظة الآسياد القبليين»، «أساس الحكومة في جزيرة العرب التركية»، (يوليو 1916)، سجلات وزارة الهند: إل/ب. إس/10/67.

(3) وزارة الخارجية إلى وزارة الهند، 20 يناير 1917، سجلات وزارة الهند: إل/ب. إس/10/576.

الموظف الهندي، و في الحقيقة، فقد طال مقص الرقيب رسائلها. ويعد المنصب، الذي تقلدته بالنسبة لامرأة في مكانتها، بشكل لا يدع مجالا للشك مغيظاً، ولا سيما أنها تمكنت من التعاطي معه. وأعتقد جازماً أن التحسن، الذي طرأ على الموقف السياسي للبصرة لدى القاهرة وحكومة جلالة الملك يمكن أن يعزى إلى عمل تلك المرأة، التي عانت صحتها الأمرين أيضاً[1].

وفي الحادي عشر من مارس عام 1917، تم الاستيلاء على بغداد، أخيراً، وعَيّن كوكس غيرترود بيل «سكرتيرة استشراقية»، وهو المنصب الاستخباري المفتاحي. وعلى الرغم من خبرة بيل ونجاحها، إلا أن الجنرال مود، الذي كان قد عين حديثاً حاكماً عسكرياً لبلاد الرافدين، حاول أن يوقف هذا التعيين. ويستذكر فيليب غرافس، في سرده لحياة السير بيرسي كوكس أن مود «في بداية الأمر عبَّر عن شكوك كبيرة» حيال فكرة أن امرأة، مهما بلغ ذكاؤها، ستنظَّم إلى السكرتارية؛ لأنه كان خائفاً من أن يعد بعض الضباط الراغبين في ضم زوجاتهم إليهم هذا الأمر سابقة تدفعهم للمطالبة بذلك»[2]. وفي هذه الأثناء، تم السماح لإيميلي لوريمير بعد طول انتظار بمغادرة البصرة، والانضمام إلى زوجها في كرمان في إبريل من عام 1917، حيث تم إعادة تعيين لوك في منصبه السابق. وكانت إيميلي في أثناء وجودها في البصرة، قد أسهمت في زيادة توزيع النسخة الإنجليزية من (البصرة تايمز) إلى أربعة أضعاف[3]. اختار أرنولد ويلسون في مذكراته أن يتناسى الصعاب التي شابت علاقته مع بيل، بل مدح إسهام المرأتين في الجهد العربي: «لم يحدث مطلقاً أن كانت الجريدة تُحرّرُ بشكل أفضل، وتخضع لأقل رقابة إلا في عصر السيدة لوريمير، ولم تكن الترجمات إلى العربية تراقب بشكل أفضل إلا بوجود الآنسة غيرترود بيل. وقد كان لدى الإدارة ما يدفعها إلى تهنئة نفسها بوجود هاتين المعاونتين»[4].

---

(1) ملاحظة من هيرتزل، 24 يناير 1917، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/576/10.

(2) Graves, Philip. The Life of Sir Percy Cox, London: & Co., 1941, p 225.

(3) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 10 ديسمبر، 1916، المخطوطات الأوروبية، ف 18/177، سجلات وزارة الهند: إل/ب إس/617/10. مذكرة بعثتها إيميلي لوريمير إلى كوكس، 14 أغسطس 1916.

(4) Wilson., Loyalties, p72.

خلقت بيل ولوريمير إلى جانب النساء البريطانيات، والأمريكيات الموجودات في بلاد الرافدين أمثال: بيلا كوكس، دورا فيلي، وزوجات الموظفين المدنيين والعسكريين، مثل: كرستين بنيت ودوروثي فان آيس، وزميلاتهن من المبشرات، لأنفسهن أدواراً وكيانات جديدة تختلف عن بعضها بعضاً، وفي خضم بلاء الحرب، اختارت كل واحدة منهن أن تمثل نفسها ناشطةً فاعلةً في المجهود الحربي الإمبريالي. كما كافحت كل واحدة منهن، كلٌّ على طريقتها، لتعزيز علاقتها مع الإمبراطورية، والتراتبية الذكورية المهيمنة، والرعايا في الخارج. في بعض الأحيان، كُنّ يُعِدْن تقييم هذه العلاقة. إن الفروق بين حياة الأمريكيين والبريطانيين وتطلعاتهم ربما كانت الأكثر بروزاً هنا. غادرت عائلة لوريمير الخليج في شتاء عام 1917؛ لسوء حالة لوك الصحيّة. وبسبب ظروف الحرب، لم يتمكنوا من السفر إلى أوروبا مباشرة، وعوضاً عن ذلك توجهوا شرقاً عبر الهند وسنغافورة وكندا. وفي طريقهم من كولومبو إلى سنغافورة، قابلوا السيدة إيلينور فرانكلين إيغان؛ صحفية من جريدة «شيكاغو ساترداي إيفننغ بوست»، التي كانت قد أنهت زيارة إلى بلاد الرافدين دامت ستة أسابيع «لاستكشاف طبيعة عملنا في المنطقة، ومن ثم تقديمه إلى القارئ الأمريكي». كانت إيغان كثيرة الترحال، وقد سجنت في القسطنطينية، وكانت على متن قارب تم نسفه بالطوربيد، لكنها رغم هذا كله كانت سعيدة مرحة، ولم تكن «مضجرة جداً كسائر الأمريكيات اللواتي كدن أن «يفجّرن رأس الواحد منا»»[1]. نشرت إيلينور إيغان سرداً لتجاربها وإدارتها في الحرب، والإمبريالية، وحول عودتها إلى أمريكا عام 1918، وجدت بعض التغييرات الملحوظة المتعلقة بالنساء في المستشفيات والخدمات الطبية:

بدت النساء هنا كما لو أنه تربطهن علاقة أخوة. في بداية الأمر، كان يُعتقد أنه من المستحيل وجود ممرضات في بلاد الرافدين؛ لأن الظروف كانت تدفع بالرجل الإنجليزي إلى الاعتقاد، أنه لا يستطيع مطالبة امرأة بتحملها. لكن القول الفصل كان للنساء في هذا الشأن، وأخيراً بدأن بالتوافد بأعداد صغيرة. وفوراً برهنَّ على قدراتهن الخارقة في تحمل

(1) إيميلي لوريمير إلى والدتها، 18 يناير، 1918، المخطوطات الأوربية، ف177 /23.

الظروف جسمياً، ونفسياً[1].

وعندما كانت بعيدة عن مسرح الحرب المباشرة مع الحاكم اللورد وينلغتون، وفي أثناء إقامتها في بومباي، رأت برهاناً خارقاً على تمنّع المجتمع الإمبريالي الإنجليزي أمام التغيير. فلقد أصيبت بجرح بالغ، عندما رأت ضيفة أخرى متأنقة على العشاء «بفستان حريري أبيض وعقد لؤلؤ وتتويجه»؛ ولأنها كانت معتادة على البساطة التي تقتضيها الحرب، باحت إيغان لمرافقها الذكر عن دهشتها بالاستمرار في المحافظة على هذه الرسميات، وردَّ عليها قائلاً: «لكن هذه هي الهند، وإذا تخلينا عن إنش واحد، أو عن شيء واحد من عملياتنا المعتادة، فقد يسيطر عليها الهنود كعلامة على ضعفنا». بيد أن إيغان وجدت أن هذه المخاوف غريبة ومتوارثه. بدأت الحرب في إبان الفروق بين المواقف البريطانية، والأمريكية حيال العالم العربي، والإمبريالية والاستعمارية في الشرق الأوسط. وخلال السنوات التي تلت الحرب، أصبحت هذه الفروق وتأثيرها على أدوار النساء أكثر وضوحاً.

---

(1) Egan, Eleanor Franklin, The War in the Cradle of the World: Mesopotamia, New York and London: Harper & Bros., 1918, p 131-32.

الفصل الخامس

النساء و«النظام العالمي الجديد» المنظور الإنجلو-أمريكي حول الاستعمار 1918-1926

أشاد كل من الفرد ديويت ماسون، وفريدريك جَ. بارني في تأريخهما للبعثات التبشيرية العربية المنشور عام 1926، بفوائد الحكم الاستعماري البريطاني، والعون الذي قدمه هذا الحكم للمبشرين الأمريكيين:

ومهما كان هناك من آثام سياسية إجتماعية قد تنسب للعلم البريطاني، إلا أنه أصبح من المعلوم أنّ قَدْراً كبيراً من الحرية الدينية، والفكرية كان من الممكن أن يغيب عن الساحة العالمية، بغياب العلم البريطاني حول العالم. فالإنسانية جمعاء مدينة لذلك العَلم، وسلطته بكثير من الشكر لنقلهما -ولو على نطاق إنساني- الكتاب المقدس إلى ملايين من الرجال، الذين لولا ضمان سماحة بريطانيا العظمى الحرية الدينية، لما تمكنا من الوصول اليهم[1].

حدّد ملخص ماسون وبارني الجامع أوجه التشابه الحضاري بين المصالح البريطانية، والأمريكية في الشرق الأوسط في فترة مبكرة من القرن العشرين واعترف بالتعاطف تجاهها. وكما لاحظنا سابقاً، فقد كان البريطانيون شاكرين أيضاً إسهام الأمريكيين في توفير الخدمات الطبية، والاجتماعية التي كان يفتقدها الناس في الخليج خلال سنوات حملة بلاد الرافدين العجاف. لكن على الرغم من الحس المشترك للدور الغربي في التَّحضِير، ورغم العلاقات الدافئة، على المستوى الشخصي، إلا أن العلاقة السياسية الإنجلو-الأمريكية في المنطقة كانت بأفضل صورها حذرة، وفي أسوأ صورها عدوانية بشكل علني، خاصة من جانب الإنجليز.

وفي السنوات التي سبقت الحرب مباشرة -وخلال الحرب نفسها- شكّل نشاط المبشرات نقطة إزعاج للبريطانيين لاسيما العمل على تقوية تأثيرهن في منطقة الخليج

(1) ألفرد دي وث ماسون وفردريك، جَ. بارني، تأريخ الارسالية التبشيرة العربية، نيويورك: لجنة الإرساليات الأجنبية في الكنيسة الإصلاحية في أمريكا، 1926، ص 76.

ومحاولاتهن المتكررة لاختراق وسط الجزيرة. كان البريطانيون لا يشعرون بالراحة إزاء ميل الأمريكيين المتزايد -كما كانوا يرونه- بالتدخل في الحياة الاجتماعية والثقافية لإمارات الخليج. وفي عام 1916، على سبيل المثال، دَوّن الوكيل السياسي في البحرين، الكابتن بيرسي لوك، خليفة ديفيد لورمير، ملاحظة حول حوار أجراه مع الأمريكيين بشأن امرأة محلية مسلمة -لم يذكر اسمها- كان زوجها قد هجرها، وعاملتها أمها معاملة سيئة، وقامت المبشرات بإيواها[1]. وعندما طالبت الأم بعودة ابنتها، خاف لوك من وقوع مشاكل؛ لأن المبشرات لم يرغبن في إعادة الفتاة من دون تقديم ضمان بعدم إيذائها. قام المبجل ديريك ديكسترا، الذي كان مسؤولاً إلى جانب زوجته ويني عن «أعمال التنصير» في البحرين، بزيارة لوك لمراجعة الموقف كاملاً، وليتأكد فيما إذا كان هناك حق للأم في استرجاع ابنتها حسب القانون الإسلامي[2]. وقد نتج عن هذا اللقاء، اقناع لوك حاكم البحرين، والأمير المحلي لمدينة المنامة بمنع عائلة المرأة من الإساءة إليها، ورغم هذا، طلب ديكسترا أن تتمكن المرأة من زيارة المبشرات متى أرادت ذلك. ودون لوك أنه وجد نفسه ملزما، أن يلفت انتباه ديكسترا إلى التعهد الذي قطعه البريطانيون -في وقت سابق- على أنفسهم أمام الشيخ، أن يقفوا إلى جانب المرأة البحرينية، ويضمنوا أن التعامل مع النساء سيتم في المحاكم الشريعة لإنصافهن. غَيْر أن ديكسترا ألحَّ، وتساءل إذا كان الأمريكيون ملزمين بهذه الاتفاقية، مضيفاً أنه سيتشاور مع زوجته، لأن هذه القضية تهمها أكثر منه. وبعد نقاش طويل، دَوّن لوك ملاحظة مفادها أن عائلة ديكسترا وافقت على عدم مواصلة هذه القضية[3].

تعد هذه القضية بالغة الأهمية؛ لأنها مثال على مواقف المشتركين ورؤاهم، وعلى الحدود التي شُيِّدت بعناية؛ لتحديد مدى التدخل الإمبريالي في الخليج قبل نهاية الحرب العالمية الأولى. كانت المبشرات الأمريكيات عاقدات العزم على مواصلة سعيهن، في

(1) ملاحظة في ملف وضعها لوك، 7 ديسمبر، 1916، سجلات وزارة الهند: أر/47/2/15.

(2) وُلد ديكسترا في هولندا، وانضم إلى الإرسالية التبشيرية العربية عام 1906، ولدت ويني ولتيردنك ديكسترا في هولندا، وعُينت في ميتشيغان عام 1907.

(3) ملاحظة في ملف وضعها لوك، 7 ديسمبر، 1916.

ملاحقة ما كان يمثل بالنسبة لهن قضايا العدالة الاجتماعية. وكُنَّ -أيضاً- واضحات إزاء المناصب النسبيّة، وغايات عمل النساء في تلك المهمة التبشيرية ومدى تأثيرها[1]. وفي مواقفهن تجاه النساء العربيات، كُنّ أيضاً واضحات حول واجبهن، وحقهن في تجاوز القانون الإسلامي، وإقحام القيم الغربية في حالات الظلم الواضحة. كان البريطانيون أقل اهتماماً ببؤس المرأة كفرد (أو المكانة الاجتماعية للمرأة العربية بشكل عام)، أو إقامة الحجة على الاتهامات المعروضة، إذ كان جُلّ اهتمامهم منصبا على علاقتهم مع حاكم البحرين. وفي ختام ملاحظته، أشار لوك إلى أنّه قد وثق هذه الحادثة «كونها حادثة فريدة اعترف بها المبشرون بإلزام أنفسهم بالاتفاقيات البريطانية مع الشيخ»[2].

وفي هذه الأثناء، حاولت المبشرات بشكل مضطرد، مواصلة تحقيق هدفهن السابق، القاضي بالتقدم نحو الداخل بعيداً عن الساحل، و«السيطرة على الجزيرة العربية»[3]. وبعد مغادرة صموئيل وآمي زويمر عام 1913، متوجهين إلى مصر للعمل والتدريس، تولى زمام الأمور الدكتور بول هاريسون وزوجته ريجينا. وكان هاريسون خريج كلية الطب في جامعة جون هوبكنز. ولدت ريجينا رابي هاريسون في كاتنزفيل، ميرلاند، وتلقت تدريباً في مدرسة تدريب الممرضات في مستشفى البروتستانت المتحدة في بولتيمور. تزوجا في نوفمبر من عام 1916 في بولتيمور، وغادرا لاحقا إلى البحرين سويّة في الشهر نفسه[4]. شكل هاريسون وزوجته مصدر إزعاج مستمر للبريطانيين على مدى سنوات عديدة، فقد كانوا في البداية موضع شكٍ؛ لأن مكتب الرقابة العسكرية في كراتشي اعترض في فبراير من عام 1915 رسالة «معاديّة جداً» للإنجليز، وموجهة إلى هاريسون

(1) لسوء الحظ ليس هناك قيود تبشيرية لهذه الحادثة تحديداً في التقارير المنشورة في جزيرة العرب المهملة.

(2) ملاحظة في ملف وضعها لوك، 7 ديسمبر، 1916.

(3) انظر: الفصل الثالث. كانت أولى محاولات كانتين وزويمر في التوسع بعد تمركزهما في البصرة تتجه إلى داخل جزيرة العرب، في أكتوبر من عام 1892، أخبرا لجنة الأمناء أنه «إذا قُدر للبعثة العربية أن تكون موافقة لاسمِها وهدفها، فعليها أن تحتل جزيرة العرب». التقرير الميداني للبعثة التبشيرية العربية، رقم 3 يوليو-سبتمبر، 1892، ص 7.

(4) المبجل جون واي. بروك، «زواج الدكتور هاريسون» جزيرة العرب المهملة، رقم 99، أكتوبر- ديسمبر، 1916.

من أخيه. وقد أخبر الموظفون عن هذه الرسالة مسؤول مخابرات الخليج العربي المتمركز في بوشهر[1]. كانت ريجينا هاريسون موضع شك أيضاً؛ لأن البريطانيين كانوا يظنون أن لديها تعاطفاً مع الألمان[2]. فقد كان الأمريكيون، الذين يحملون أسماء ألمانية، وهولندية يشكلون دوماً مشكلة للبريطانيين؛ لأنَّ الموظفين الحاليين كانوا غير متأكدين من توازن أو تضارب الأولويات الناجمة عن أصل العائلة، والجنسية المكتسبة عند بعض المبشرات الأمريكيات. فغرابة أسمائهن أضفت بُعداً جديداً على الغموض، الذي كان يحيط بهنّ، والخطر المنظور، الذي تنطوي عليه بعض نشاطاتهن.

وفي مارس من عام 1917، كتب هاريسون إلى لوك يطلب تصريحاً له بالسفر إلى القطيف، التي تقع على الساحل، الذي يسيطر عليه آل سعود إلى الشمال من البحرين. واستشار لوك بدوره نائب المقيم الإنجليزي في بوشهر -الرائد آرثر تريفور والسير بيرسي كوكس في البصرة- وأخيراً نقل إلى هاريسون قرار كوكس أن ليس هناك من اعتراض على سفره، على أن لا يمتد المبشرون إلى الداخل أكثر[3]. وكان البريطانيون حينها مشتركين في مفاوضات مع السعوديين، ولم يكونوا يرغبون بتاتاً في تعريض سيادتهم السياسية في المنطقة، التي شيدت بحرص شديد، للخطر[4]. وعلى أي حال، تبين لدى لوك أن هاريسون كان فعلاً ينوي الامتداد إلى الأراضي الداخلية، إذا أتيح له مجال، وزيارة الإقليم

(1) برقية من مراقب كراتشي إلى ضابط مخابرات الخليج العربي بوشهر، 4 فبراير 1915، سجلات وزارة الهند: أر/81/2/15.

(2) حتى بعد انقضاء ست سنوات وتحديداً في عام 1923، كان المقيم السياسي (تريفور) ما يزال يضمّن رسائله إلى الهند إشارات إلى أن السيدة هاريسون «تنحدر من أصول ألمانية» (تريفور إلى حكومة الهند، 17 نوفمبر سجلات وزارة الهند/ أر/81/2/15. انظر أيضاً: الفصل السادس.

(3) لوك إلى هاريسون 18 مارس 1917، سجلات وزارة الهند: إل د/ب. إس/170/11. ب.2048، كان عنوان ملف وزارة الهند هذا «المبشرون الأمريكيون في البحرين: مشاعر مناهضة للبريطانيين، ومحاولات للتواصل مع ابن سعود». مؤشراً على الشكوك التي كان البريطانيون يرون من خلالها المبشرين خلال الحرب العالمية الأولى.

(4) للمزيد من التفاصيل حول التأريخ السياسي للعلاقات الإنجليزية-السعودية خلال هذه الفترة، انظر: بوش. بريطانيا والهند، والعرب، 1914-1921، (بيركلي: مطبعة جامعة بيركلي، 1971). ص 215-266، وغاري ترولر: ولادة الدولة العربية السعودية: بريطانيا وقيام آل سعود (لندن: فرانك كاس، 1967) ص 73-128.

السعودي المركزي في نجد. واكتشف لوك أن الرحلة كان مقرراً لها أن تكون «واقعة لا محالة ... غير أن السيدة ديكسترا كشفت عنها في أثناء تناولهم الشاي. ورداً عليهم، قلت إننا على الرغم من تفَهُّم وجهة نظرهم، إلا أننا نحن البريطانيين إذا حدثت مشكلة، سنكون أول من يطالب بإيقاع العقوبة المناسبة، أو قد نهيء أنفسنا لفقدان مؤلم لمجدنا»[1]. وفي يونيو تأزم الموقف أكثر عندما طلب عبد العزيز آل سعود طبيباً أمريكياً[2]. وأورد لوك في تقريره أنه يفضل إرسال ضابط طبي بريطاني، لكن لعدم وجود أحد هناك، لم يكن لديه خيار سوى السماح لهاريسون بالذهاب، مع تحذيره بألا يحاول أي شيء، من شأنه أن يؤمن لهم الحصول على أرضٍ للقاعدة المحلية الجديدة[3]. وبعد ذلك، تناهى إلى مسامع البريطانيين أنه تم سؤال ممرضة هندية من الإرسالية التبشيرية فيما إذا كانت تقبل بمنصبٍ دائم في القطيف. حينها أصبح البريطانيون أكثر اقتناعاً أن الأمريكيين يحاولون إحداث ما لا يمكن تجنبه[4]. ورداً على تقرير لوك حول النشاطات التبشيرية الأخيرة، أمر تريفور أن يتم تحذير ديكسترا من أن «ابن سعود، حليفنا ويساعدنا في الحرب» وأشار إلى أن محاولة إقامة فرع دائم للبعثة التبشيرية في المنطقة السعودية قد تؤدي بسهولة إلى مشاكل. وقال أيضاً: إنه «على الإرسالية التبشيرية أن تنتبه إلى لغتها».[5]

وفي ديسمبر، أورد لوك في تقريره أنه تمت دعوة هاريسون لزيارة شيوخ قطر، والبحرين، وأنه أيضاً كان قلقاً إزاء عودة مبشرة أخرى، تدعى جان سكاردفيلد، إلى البحرين. وهي التي عرف عنها خلال خدمتها السابقة هناك أنها كانت «تحمل آراء قوية مؤيدة للعدو»[6]. وكان لوك قد سمع إشاعات، رغم اعترافه أنه لم يثبت صحتها، مفادها أن سكاردفيلد «قد

(1) مذكرة من لوك إلى تريفور، 11 إبريل 1917، سجلات وزارة الهند إل/ب. إس/170/11.

(2) عبد العزيز آل سعود إلى لوك، 24 جون 1917، سجلات وزارة الهند: أل/ب. إس/170/11.

(3) لوك إلى تريفور، 4، 8، 11، يوليو، 1917، سجلات وزارة الهند: أر/47/2/15.

(4) لوك إلى تريفور، 14 أغسطس 1917، سجلات وزارة الهند: أر/47/2/15.

(5) تريفور إلى لوك، 26 أغسطس، 1917، سجلات وزارة الهند: أر/47/2/15.

(6) لوك إلى نائب المقيم السياسي في بوشهر 30 ديسمبر 1917، سجلات وزارة الهند: أر/47/2/15. ولدت جان إليس سكاردفيلد في مدينة نيويورك، وتلقت تعليمها في المعهد التدريبي التابع للبعثة التبشيرية الاتحادية. عُينت عام 1903، وتقاعدت عام 1925.

وقعت في مشاكل في الكويت، أو البصرة لتعبيرها الصريح عن هذه الآراء:

لا أعلم مدى صحتها، لكن على أي حال، قابلت هذه السيدة، ولا أثق بها إطلاقاً. وأقترح أن نراقب كل رسائلها قبل مغادرتها البحرين. هل عليَّ أن أقوم بهذا؟ وأجد لزاماً عليَّ أن أذكر أنها خضعت للرقابة، بسبب عباراتها البذيئة عن الرقابة، التي رأت فيها المكان المناسب لها[1].

أجاب مساعد المقيم السياسي، ماتلند را، لوك أن المقيم السياسي –العقيد تريفور– يعرف الآنسة سكاردفيلد شخصياً، ولا يرى سببا يحول دون عودتها إلى البحرين. وطلب را من لوك أن يكون أكثر تحديداً حول الآراء المزعومة المؤيدة للعدو وكذلك «العبارات البذيئة»، غير أن لوك أجاب أنه لا يستطيع توضيح هذه الأشياء، لكن مسؤولي الرقابة كانوا قد أعادوا لها رسالة، عبر مكتبها، رافضين ارسالها لأنها كانت «تحتوي على عبارات بحق رقباء البريد»[2]. بدا لوك عدوانياً بشكل واضح تجاه المبشرات، إلى جانب التوجس الرسمي من النشاط التبشيري بشكل عام.

وتم تلخيص توترات الوكيل السياسي المتزايدة في بداية العام الذي يليه، أي في عام 1918، في مذكرة موجهة إلى نائب المقيم السياسي في بوشهر، عدّد فيها الزيارات إلى الأراضي الداخلية التي قام بها أعضاء الإرسالية التبشيرية العربية. وأشار لوك إلى أنه يفضل أن «لا يكون عنده أشخاص لا يتحلون بروح المسؤولية، يزورون المناطق الداخلية المجاورة»، لكن كان حرياً بهم، وهم موجودون بيننا الآن أن يقوموا بسابقة «باستشارتنا قبل قيامهم بأية رحلة». إن موقف هاريسون تجاه بريطانيا، كما كان لوك يعتقد، بدا ودوداً تماماً غير أن بعض المبشرين الآخرين، لم يكونوا «ودودين في صميم قلبهم». ستتاح للناس، الذين كانوا ضد بريطانيا «فرصاً عظيمة للإساءة، بسبب تأثير الإرسالية التبشيرية عبر مستشفاها ومدرستها، وأصبح من الصعب جداً معرفة، أو وضع حدٍ لزيارات المبشرات إلى الحريم». وأوصى لوك أن يتم تحذير الحكومة الأمريكية من أن بريطانيا «تمتلك مكانة

(1) المرجع السابق.

(2) را إلى لوك، 6 ديسمبر، ولوك إلى نائب المقيم السياسي، 29 ديسمبر، 1917، سجلات وزارة الهند: أر/15/2/47.

فريدة في الخليج العربي»[1].

ولهذا كانت النساء في صلب الشكوك البريطانية، التي كانت ترى أن الأمريكيين قد يكونوا مصدر فتنة. ومما زاد هذه الشكوك الاستغراب المفترض للمنحدرين من الجنس الألماني والعلاقات السرية، وخباياها التي أقامتها، وحافظت عليها المبشرات في مناطق تُعدُّ محظورة لدى البريطانيين. ولم يخطر ببال الوكلاء والمقيمين السياسيين البتة، أن تقوم زوجاتهم بإقامة علاقات مع نساء المنطقة خلال تلك الفترة، كانت الخاتونات، إذا ما سافرن إلى الخليج ومكثن فيه فترة من الزمن، مصممات على البقاء بعيداً عن النساء العربيات، حتى إن بعضهن مثل إيميلي لورمير، كُنّ نافرات من صعوبة الحياة المحلية الواضحة للعيان. أصبحت الجنسوية قضية محورية في العلاقات الأمريكية الإنجليزية خلال الحرب وما بعدها. وأصبحت موضع جدل وذلك لوصول المبشرات إلى مناطق غريبة، عُدّت محظورة على البريطانيين ومتجاهلة من قبل البريطانيات. وفي سعي السلطات البريطانية لمنع حدوث مثل هذه الاتصالات، لجأت إلى جدلية الخطر الجنسي القديمة المجربة، لكن غير العلنية.

وفي مارس من عام 1918، نُقل لوك إلى الكويت، وبعد مضي أسابيع قليلة، أرسل الوكيل السياسي الجديد في البحرين، جورج منغوفن ببرقية إلى بوشهر يخبرهم أن الشيخ الحاكم قد وجه دعوة أخرى إلى هاريسون؛ ليزور قطر، وكشف هاريسون عن نيته تلبية هذه الدعوى، والإقامة هناك أسبوعين. وينوي هاريسون اصطحاب زوجته معه إلى مكان بعيد يدعى دارين، وهي مدينة تقع في جزيرة مواجهة لساحل القطيف، وترك زوجته هناك للإقامة مع عائلة الشيخ في أثناء غيابه. وتساءل مانغوفن إذا كان هناك اعتراض، وقال إنه شخصياً لا يجد اعتراض على زيارة الطبيب إلى قطر، لكنه لم يحبذ «فكرة بقاء امرأة بيضاء وحدها مع أبناء المنطقة»[2]. وجاء رد المساعد الأول المقيم في بوشهر عبر برقية ضمنها موافقته، وقال: «لا أعترض على زيارة الطبيب المقترحة إلى قطر، لكن لا أسمح

(1) مذكرة من لوك إلى جَ، إجْ. بيل، نائب المقيم السياسي 20 فبراير 1918، سجلات وزارة الهند. أر/47/5/10.

(2) برقية مَنْغافين إلى بوشهر، 25 مايو 1918، سجلات وزارة الهند، أر/47/2/15.

للسيدة بالذهاب إلى هناك»[1]. وفي ملاحظة غير مؤرخة إلى هاريسون أضاف مانغوفين يقول: «كلما قلّبت الأمر في فكري، كلما اقتنعت أن بقاء المرأة البيضاء بعيداً وحدها مع أبناء المنطقة لا يتلاءم مع طبيعتها. في البداية، كُنت أعتقد أن ليس هناك من ضير، لكني متأكد أنني لن أخلد للراحلة، ولا لحظة ما دامت هناك وحدها»[2].

تمكن البريطانيون وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى، من توظيف الظروف المُحَدِّدة للنزاع السياسي، والشك العسكري لتقييد حركة المبشرات، والمحافظة على التوازن الدقيق بين سيطرتهم الإمبريالية في المنطقة، ومحاولات المبشرات الاستباقية -التي لا تلين- لاختراقها، ومطالبة الحكام المحليين مساعدات طبية من الأمريكيين. وكانت نشاطات المبشرات في صلب الموضوع دوماً؛ لأن لها علاقة بالمصالح، كما كانت رمزا مناسبا للتوتر. وعندما انتهت الحرب بدأت مطالب الشيوخ للحصول على مساعدات طبيّة تزداد، وعُدَّ المبشرون أنفسهم أحرارا بالرد على هذه المطالب، وإقامة علاقات خاصة بهم. والأهم من ذلك، بدأ الشيوخ، حالما وضعت الحرب أوزارها، يطالبون على وجه خاص بزيارة طبيبات وممرضات، مما أدى إلى تعقيد أكثر في قضية الجنوسة، وخاصة التشابك الثلاثي- العلاقة في المنطقة الآنفة الذكر.

وفي نهاية عام 1918، طلب عبد العزيز آل سعود من د. هاريسون التوجه على وجه السرعة إلى الرياض، بقصد معالجة ضحايا تفشي الأنفلونزا[3]. أعطى البريطانيون الأذن لهاريسون بالذهاب، وطالبوه حينها بإبقائهم «مطلعين تماماً على التطورات الجارية»[4]. تمكن البريطانيون بحلول تلك الفترة من صياغة أسباب جديدة؛ لتقييد المبشرات من التوغل أكثر في الأرض الداخلية، وطُلِبَ من الوكيل السياسي أن يخاطب هاريسون؛ ليطلب منه، بشكل غير رسمي، ألا يقوم بمزيد من الزيارات دون الحصول على الموافقة البريطانية؛ لأن

(1) الرائد إم. إي. راء المساعد الأول للمقيم السياسي المسؤول في بوشهر، إلى منغوفين، 26 مايو 1988، سجلات وزارة الهند. أر/47/2/15.

(2) منغافين إلى هاريسون (مايو 1918)، سجلات وزارة الهند. أر: /81/2/15.

(3) الوكيل السياسي في البحرين إلى بغداد، 16 ديسمبر 1918، سجلات وزارة الهند. إل/ ب إس/ 170/11.

(4) برقية سياسيّة من بغداد إلى البحرين 16 ديسمبر 1918، سجلات وزارة الهند. إلْ/ ب إسْ/170/11.

«إحدى تبعات معاهدات السلام ستكون امتداد التجارة، والاتصالات بشكل تدريجي إلى وسط الجزيرة العربية. وبسبب سكان المنطقة المتشككين والمتعصبين، سيستغرق هذا الامتداد وقتاً طويلاً وستؤدي أيّة حادثة لم تكن بالحسبان لا محالة إلى الرجوع إلى نقطة الصفر»[1].

وفي فبراير اللاحق كتب الحاكم السعودي إلى الوكيل البريطاني في البحرين، وكان آنذاك الكابتن نورمان براي، يطالبه فيها بمنح السيدة هاريسون الإذن بزيارة المنطقة الشرقية من البلاد، إلى إقليم الحسا تحديداً. كان بول هاريسون قد أكمل تواً رحلته إلى الرياض، وانطلق عائداً إلى البحرين عبر الحسا، إذ قطع رحلته لمعالجة بعض المرضى. حذّر عبد العزيز براي من أن هاريسون سيتأخر:

أنا ممتن له كثيراً، وقد يرغب أن تنضم له زوجته خلال الوقت، الذي سيقضيه بالحسا لعلاج السيدات هناك، فلا يخفي عليك أن هاريسون لا يستطيع معالجة النساء بنفسه؛ لأن هذا العمل مُحَرَّم شرعا، وأطلب منك هنا أن تسمح لها بالانضمام إليه في الحسا[2].

أصيب براي بالفزع بسبب هذه الرسالة، ومما زاده فزعاً إشاعات مفادها، أن هاريسون كان ينوي المكوث في الحسا ثلاثة شهور، مما دفعه للكتابة إلى هاريسون، فوراً، يطلب منه دحض الإشاعات، التي تفيد أنه قد اتخذ الإجراءات اللازمة للبقاء في الحسا، وأنه يحاول الحصول على أرض لبناء مستشفى هناك دون الحصول على إذن البريطانيين الرسمي [3]. لم تتمكن السيدة هاريسون، على أي حال، من القيام بالرحلة، وعاد بول هاريسون إلى البحرين في أوائل مارس، وأعلن موافقته على عدم الذهاب إلى «أي مكان» من دون موافقة الوكيل

(1) ملاحظة في ملف وضعتها بيل، 20 يناير 1919، سجلات وزارة الهند. أر/47/2/15.

(2) ترجمة وكالة البحرين لرسالة من عبد العزيز آل سعود إلى الوكيل السياسي، 14 فبراير 1919، سجلات وزارة الهند. أر/81/2/15.

(3) براي إلى هاريسون، 23 فبراير 1919، سجلات وزارة الهند. أر/81/2/15.

السياسي[1]. وفي هذه الأثناء، كان البريطانيون راضين عن تلقي أية معلومة سياسية، يزودهم بها هاريسون وزوجته، وكانوا أيضاً يحاولون اعتراض رسائلهم الخاصة. وفي فبراير، نقل براي إلى بغداد، ملاحظة حول التعاطف السياسي مع السعودية:

وجدا لاحقاً مقتطفاً من رسالة هاريسون إلى زوجته، يبدأ بقوله: أتمنى لو أنك تستطيعين سماع كل ما يقوله ابن سعود عن الرئيس ويلسون، فهو يأمل أن يتدخل بين إنجلترا وألمانيا. فابن سعود قلق جداً، ويخشى أن تكون ألمانيا قوية إلى درجة عدم القدرة على وضع حد لقوتها. لم يكن يولي أي اهتمام لتركيا[2].

وبعد انقضاء سنة، وتحديداً في فبراير من عام 1920، ورد عن أحدث المُعينين البريطانيين في وكالة البحرين؛ الرائد هارولد ديكسون أنّه تسلم رسالة أخرى من عبد العزيز مفادها: أنه يريد من السيد، والسيدة هاريسون، وطبيبة أسنان هندية التوجه إلى الهفوف؛ المدينة التي تقع في واحةٍ في الحسا[3]. غير أن ديكسون، شأنه شأن أسلافه، لم يوافق على ذلك، لكن البريطانيين منحوا هاريسون وزوجته إذناً بالسفر إلى الهفوف بشرط ألا يتجاوزوها إلى الداخل. كان ديكسون قد تلقى أمراً بمخاطبة عبد العزيز، والطلب منه أن «يتوقف عن توجيه دعوة إلى الدكتور، والسيدة هاريسون بالتوغل إلى ما بعد الهفوف بغير إذن سابق من الموظفين البريطانيين»[4]. وخاطب– أيضاً– هاريسون مخبراً إيّاه أنّه شخصياً يأسف؛ لعدم قدرته على السماح للمبشرات بالسفر إلى أبعد من الحسا، وطالبه بألا يحاولوا السفر إلى الرياض

(1) برقية سياسية من البحرين إلى بغداد، 24 فبراير 1919، منطقة المحيط الهندي: آرْ/47/2/15 وبرقية سياسية من البحرين إلى برشاير، 12 مارس 1919، سجلات وزارة الهند. أر/81/2/15، برقية من بيل إلى بغداد، 17 إبريل 1919، سجلات وزارة الهند: أرْ/47/2/15.

(2) برقية سياسيّة من بغداد إلى البحرين إلى بغداد، 3 فبراير 1919، سجلات وزارة الهند. لـ إلْ/ ب إسْ/170/11.

(3) ديكسون إلى المفوض المدني في بغداد، 2 فبراير 1920، سجلات وزارة الهند. أر/15 /81/2. كانت التعيينات خلال فترة الحرب وما تلاها مباشرة وسلسلة بشكل مميز، وتعكس التقلبات التي حدثت في البحرين هذه الفترة.

(4) برقية سياسيّة من بغداد إلى البحرين 30 فبراير 1920، وديكسون إلى عبد العزيز، 25 فبراير، سجلات وزارة الهند. آر/81/2/51: «نصيحتي لك إذا واجهت مصاعب في الرياض هي أن تكتب لي رسالة مستعجلة، تطلب فيها ذهاب الدكتور هاريسون إلى هناك وحده لعدة أيام فقط، لكن لا تطلب أن ترافقه زوجته؛ لأن الحكومة لن توافق على ذهابها إلى نجد مطلقاً.

«وألا يكونوا قاسين جداً على السلطات في بغداد». ومضى ديكسون يقول: «هناك الكثير من المنهجيّة خلف عبثيتهم»، «فالظروف في الجزيرة العربيّة وسوريا بشكل عام، ترتبط كثيراً بما يبدو قراراً صعباً آنياً». وختم بقوله إنه «يتمنى للسيدة هاريسون دوام الصحة والعافية، آملاً منها ألا تراكم الكثير من اللعنات، فوق رأسي المسكين لمنعي إياها من قطف الفاكهة المحرمة»(1).

تثير صورة «الفاكهة المحرمة» مداً واسعاً من الأفكار، والمفاهيم السياسية، والحضارية، يمتد من الاستغراب الاستشراقي، وشهوانية الآداب، وفنون القرن التاسع عشر الغربية التي كانت تدور حول الحريم، إلى الحدود الحرفية، والحقيقية، وتراتبية الإدارة والدبلوماسية الإمبرياليتين في خليج ما بعد الحرب. كانت فكرة قدرة النساء على الوصول إلى المجهول والشكوك التي تحوم حولها، وإزعاجهن، أو تهديدهن للمساحات المقررة موضوعاً دائماً في العلاقات السياسية الإنجلو-أمريكية والعلاقات البريطانية الاستعمارية، المتعلقة بالجنوسة في فترة ما بعد الحرب. كان البريطانيون في الشهور التي تلت الهدنة في نوفمبر من عام 1918، قلقين بشأن ولاء حكام المنطقة، وتطور الروح الوطنية لدى العرب، وحماية مصالحهم الاقتصادية، والاستراتيجية في الشرق الأوسط. وكانت إحدى وظائف الوكلاء السياسيين رصد أي شكل من أشكال الحراك السياسي المبطن، وإبلاغ السلطات الحكومية الإقليمية، والمركزية في بغداد ولندن والهند عنه. فعلى سبيل المثال، أخبر نائب المقيم السياسي في بغداد أن هاريسون، قد وافق على إطلاع البريطانيين على تحركاته في إبريل عام 1919. وأضاف أن الوكيل السياسي في البحرين كانت تراوده شكوك تجاه تحركات المبشرين وقال: «إن السيدات على الأخص، كنّ على انسجام مع بيوت عددٍ من الأشخاص، الذين لم يكونوا يبيّتون لنا حسن النية»(2).

كانت تحركات المبشرات في البحرين خصوصاً موضع قلق للبريطانيين؛ لأنهم لم يكونوا متيقنين من الشكوك، التي كانت تحوم حول الانتماءات السياسية للعائلة البحرينية

(1) ديكسون إلى هاريسون 250 فبراير 1920، سجلات وزارة الهند: أر: 47/2/15.

(2) برقية من بيل إلى بغداد، 17 إبريل 1919، سجلات وزارة الهند: أر: 47/2/15.

الحاكمة، وخاصة أولئك المرتبطين بزوجة الحاكم ذات النفوذ الواسع عائشة بنت محمد وحاشيتها. وَرَدَ عن ديكسون في مفكرته السياسية لشهر مارس من عام 1920، أن الشيخ عيسى، «رغم أنه ما يزال قوي وصحيح الجسم، إلا أنه كان طاعناً في السن، ويعتمد أكثر فأكثر على نصح زوجته ذات الرأي الحازم ونصح ابنه عبد الله»[1]. ورغم ولاء الشيخ عيسى، إلا أن ديكسون كان يعتقد أنه لم يكنُّ للإنجليز أية محبة، لكنه كان ببساطة تامة «يعرف من أين تؤكل الكتف». كانت زوجته -التي تصغره كثيراً- طموحة وتواقة أن يعتلي ابنها العرش بعد وفاة أبيه. وصفها ديكسون أنها «امرأة حازمة» وأضاف:

ظاهرياً. كانت تحكم نساء البحرين فقط. وكانت تعقد مجالس يوميّة تحضرها مجموعات من النساء المثلومات الخاطر لبث شكواهن، ومن خلف الكواليس كانت، وإلى جانبها جاسم [الشيرواي]، تهيمن بشكل كبير على سياسة الشيخ عيسى ... ومما لا شك فيه أن السلطة الثلاثية المكونة من عبد الله، وجاسم، ووالدة عبد الله كانت ضد الغرباء، أي ضد البريطانيين. وكان هدفهم الأسمى التخلص من السلطة البريطانية كاملة من جزر البحرين ... ويبدو أن الأحداث الأخيرة في العالم هي التي كانت مسؤولة عن وجود هذه الأفكار. فكثيراً ما كُنّ نسمع صرخة «حقوق الأمم الصغيرة» هنا في البحرين ... كانت هذه الأفكار بالنسبة للعربي العامي أفكارا مثالية وسخيفة. غير أنها لم تكن كذلك بالنسبة للشيخ عيسى وعائلته، الذين كان يجهلون الشؤون العالمية إلى أبعد حد، فضلا عن أن طريقة تفكيرهم كانت بسيطة جداً[2].

جَسّد هذا الاستياء المتيقن المتعالي إزاء السياسة الوطنية المحلية التناقض، الذي كان الإداريون في المنطقة يحملونه في فترة ما بعد الحرب. ففي حين أبقوا على تفاؤلهم، ومضيهم في مهمتهم، وقيادة الأمم النامية في منطقة شبه الجزيرة العربية، إلا أنهم كانوا قلقين

(1) مذكرة البحرين السياسية لشهر ينقضي في 31 مارس 1920، كلية القدس أنطوني، أكسفورد، مركز الشرق الأوسط أوراق إج. أر. بِ ديكسون دِ ان 2أ/4/40-43.

(2) المذكرة السياسية في مارس 1920، كان جاسم الشيراوي تاجراً محلياً متنفذاً، وسكرتيراً للشيخ عبد الله. للمزيد من التفاصيل حول السياسة البحرينية خلال هذه الفترة، انظر: مهدي التاجر، البحرين 1920- 1945: وبريطانيا، والشيخ والإدارة، لندن: كروم هيلم، 1987).

لتجنب أي تهديد قد يمسُّ سيطرتهم الإمبريالية. وقد كان موقفهم تجاه المبشرين الأمريكيين يعكس هذا التضارب، فعلى الرغم من الشكوك التي كان البريطانيون يحملونها تجاه الأفكار الأمريكية السياسية، وعلاقاتهم الوثيقة مع سكان المنطقة، إلا أنهم كانوا شاكرين لهم عملهم الاجتماعي والطبي، الذي كانت المبشرات يقمن به، وكان البريطانيون أيضاً يميلون إلى جمع، وتوظيف المعلومات السياسية التي كانت تردهم من الأمريكيين، الذين كانوا بدورهم راضين عن تمرير هذه المعلومات إلى البريطانيين، عادِّين ذلك وسيلة تضمن لهم الحصول على تصريح، ومساندة للقيام بمشاريع طبية جديدة. وقد وجدت جميع تقارير بول هاريسون طريقاً لها إلى ملفات المكتب العربي خلال السنتين الأخيرتين من الحرب، وكانت هذه التقارير مصدر معلومات مفصلة حول الشؤون المحلية في إمارات الخليج. ولولا الأمريكيون لَعُدَّ الحصول على هذه المعلومات ضرباً من المستحيل[1]. وفي شهر إبريل من عام 1918، على سبيل المثال، خاطب هاريسون الوكيل السياسي في البحرين، بعد زيارته لـ (أبو ظبي) دامت شهراً واحداً، عالج فيها الحاكم الشيخ حمدان بن زايد آل نهيان. وقام هاريسون أيضاً بزيارات متفرقة إلى الإمارات المتصالحة وعالج خلالها أفراداً من العائلات الحاكمة، ومن عامة الشعب، وأورد هاريسون في تقريره أنه قال إن الشيخ حمدان كان أكثر الحكام قوة في المنطقة، وأنه كان موالياً جداً للبريطانيين. واحتوى تقريره معلومات عامة حول موقف مجتمعات المنطقة السياسي:

حينما ذهبت كانت الحاجة ماسة للخدمات الطبية، التي تلقى تقديراً كبيراً ... أما فيما يتعلق بالوضع السياسي. كل نشاط بريطاني في المنطقة كان يقابل ظاهرياً بأشد حالات الولاء للحكومة البريطانية، لكن ليس من الصعب أن نحكم على هذا الولاء أنه ولاء شائب. في البداية، كان الجميع يهابون تقوية السلطة البريطانية؛ لأنهم كانوا يشعرون أن ذلك قد يؤدي إلى القضاء على العبودية، لكن هذا الشعور كان مقتصراً على الطبقة العليا الصغيرة، التي كانت غنية بما يكفي لشراء العبيد.. وكان هناك تخوفٌ واسع الانتشار من أنّ

(1) سجلات وزارة الهند: إل/بِ إس/618/10، بلاد الرافدين أوراق متنوعة، تشمل تقارير الفرع الشرقي للمكتب العربي.

قدوم البريطانيين سيؤدي إلى تحرير المرأة من سيطرة الرجل إلى حدٍ لا تحمد عقباه. لم أتمكن بشكل مقنع من الوصول إلى مصدر ذلك الشعور الغريب. ومن جهة أخرى أصبح أغنى الناس هناك، وأفقرهم يدركون بمضاء اعتمادهم الاقتصادي على السلطة البريطانية[1].

إن المفارقة الكامنة في عبارة هاريسون حول حرية النساء، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تغيب عن عيون الموظفين البريطانيين، والمبشرات أنفسهنّ. فلقد كان تحرير المرأة وفق أنماط الحياة الغربية المعاصرة واحداً من الدوافع المعلنة للنشاط التبشيري، وكان في حينها أحد أسباب التلاسن مع السلطات البريطانية المحلية، التي كانت تعتقد بشكل قاطع بضرورة الابتعاد عن هذه القضايا. أكثر ما كان يهم البريطانيين، هو مواقف الشيخ السياسية. فمع نهاية الحرب، أصبح البريطانيون قلقين إزاء ملء الفراغ الإمبريالي الناتج عن هزيمة الأتراك، وضمان استمرار ولاء حكام الولايات ومساندتهم في الخليج وشبه الجزيرة العربية، إذ كانت بريطانيا تؤمِّن لهم الحماية. وأخيراً، تم إنشاء إدارة جديدة في منطقة الانتداب البريطاني في العراق، التي تم تأسيسها مؤخراً[2]. شغلت هذه الإدارة حيزاً كبيراً من النقاش الداخلي المطول بين أعضاء الحكومة البريطانية، هذا إلى جانب المفاوضات الدولية لما بعد الحرب. غير أن كلا الجانبين قد تأثر بشكل كبير بالتصريحات الأمريكية التي تؤازر نضالهم في تحديد مصيرهم بأنفسهم[3]. وبناءً عليه غدت المواقف الأمريكية في المنطقة، واشتراك المبشرين في السياسة المحلية تحت مراقبة الموظفين البريطانيين في كل ناحية من الخليج، لكنها من ناحية أخرى، أسهمت في استمرار الإدارات البريطانية في بغداد والبصرة.

---

(1) هاريسون إلى مانغوفين، الوكيل السياسي في البحرين 27 إبريل 1918، سجلات وزارة الهند: إل/بِ إس10/618.

(2) وللمزيد حول إدارة ما بعد الحرب والسياسة في العراق والخليج انظر: Busch, Briton Cooper, Britain, India and the Arabs, 1914-1921, Berkeley: University of California Press, 1971; Sluglett, P., Britain in Iraq, 1914-1932, London: Ithaca, 1976.

(3) ألقى الرئيس وودرو ويلسون خطبته «ذات النقاط الأربعة عشرة» أمام الكونغرس في 8 يناير 1918، وفي هذه الخطبة عَبّر عن اعتقاده ألا يتم تقسيم الشرق الأوسط بين القوى المتناحرة. وأن الشعوب التي خضعت وما زالت تخضع للأتراك يجب أن تصبح مستقلة.

وبعد الاستيلاء على بغداد في ربيع عام 1917، تم ترقية السير بيرسي كوكس، ليصبح المفوض المدني في بلاد الرافدين مع احتفاظه -ولو اسمياً- بمنصب المقيم السياسي في الخليج العربي[1]. وبهذا أصبح كوكس المسؤول الأوحد عن الإدارة السياسية البريطانية في منطقة الخليج العربي كاملة، انتقل كوكس مباشرة إلى بغداد واصطحب معه عدداً من الضباط السياسيين من البصرة، بمن فيهم غيرترود بيل، التي كانت السكرتيرة الاستشراقية، وإحدى النساء القلائل اللواتي تم السماح لهن بالسفر إلى بغداد. بقيت بيلا كوكس في البصرة. لقى ابن كوكس الوحيد، ديريك الذي قلما رأى والديه في أثناء طفولته في إنجلترا، حتفه في أغسطس من عام 1917، وكان حينها يخدم في القوة الجوية الملكية في فرنسا. خاطب كوكس اللورد كورزون لاحقاً، مشيراً في رسالته إلى الوحدة الشخصية التي كانت تملأ حياته وحياة زوجته»[2]:

كان فقداننا لابننا ضربة موجعة لنا؛ بسبب وقعها المباشر علينا، لكننا بعد ثلاث سنوات قضيناها في خضم مآس متواصلة، أصبحت قدرتنا على الإحساس بشكل حتمي أقل مضاءً في سعينا المتواصل للوصول؛ إلى كنه أكثر القضايا أهميّة. كان موت ابننا ضربة موجعة لنا، كونها نذيراً لنا عن مستقبلنا. فأنا لا أطمح، ولم يكن لدي طموح سوى القيام بالمهام الموكلة إليّ على أتم وجه، لكنني كنت أتطلع شوقاً إذا بقينا أحياء بعد الحرب، أن نعود إلى بيتنا مع ابننا في أثناء دراسته في الجامعة... ما زالت زوجتي تعيش في البصرة فالنساء -باستثناء الممرضات- غير مسموح لهن بالانتقال إلى بغداد؛ ولهذا قلّما أراها، مرتين خلال السنة الماضية. لكنها وجدت الكثير من أعمال الخير لتقوم بها في مناطق مختلفة، لا تصلها المنظمات العادية، وتفضل البقاء هناك على العودة للوطن

(1) كان العمل في مقيمية بوشهر ينجز في الواقع يوما بيوم، من قبل مجموعة متعاقبة من نواب المقيم السياسي بما فيهم جَ، إج. بيل وآ. بِ. تريفور.

(2) كوكس إلى كورزون، 9 فبراير 1918، اقتبسها فيليب غرافز حياة السير بيرسي كوكس (لندن، هاتشنسون، وشركاه، 1941) ص 235-236. منحت بيلا كوكس لقب فارسة في عام 1923 وذلك اعترافاً بالمصاعب التي تحملتها من جانب كوكس. لقي حفيدهم الوحيد حتفه أيضاً في شجار عام 1942. توفي بيرسي كوكس عام 1937 وتوفيت بيلا كوكس وكان عمرها حينئذ 90 عام 1956. جون تاونسن، مخطوطة غير منشورة لحياة السير بيرسي كوكس.

أو الذهاب إلى الهند.

تم استدعاء كوكس في بدايات عام 1918 إلى لندن، من أجل تقديم استشارة حكومية، ثم تم تعيينه لاحقاً في المفوضية البريطانية في بلاد فارس. غادرت عائلة كوكس بلاد الرافدين مصطحبة ريدير بولارد سكرتيرا استشراقياً مؤقتاً[1]. وفي بغداد تم تعيين آرنولد ويلسون قائماً بأعمال المفوض المدني، وبقيت غيرترود بيل في منصبها سكرتيراً استشراقياً، وتصاعد خلافها مع ويلسون، وآرائه الإمبريالية المتسلطة، وأصبحت متعاطفة مع قضية الدولة العربية. كتبت إلى أحد زملائها السير ويليام ديلكوكس تعلمه فيها أنها «أصبحت تحب هذه الأرض ومناظرها وأصواتها»، «لا أشعر بالضجر من الشرق، ولا أشعر أنها أرض غريبة إطلاقاً. لا أشعر أنني في المنفى هنا. فهي بلادي الثانية. لا أرغب في العودة إلى إنجلترا لو لم تكن عائلتي هناك»[2].

تم توثيق حياة بيل الشخصية والمهنية في عراق ما بعد الحرب، كما أصبحت تدعى -بشكل جيد- وكذا دورها في الجدل الدائم المحتدم في أوساط الحكومة البريطانية حول وضع سياسة ما بعد الحرب في الشرق الأوسط[3]. وضعت بيل في فبراير من عام 1919 مذكرة «حول تقرير المصير في بلاد الرافدين»، وحضرت إلى جانب أرنولد ويلسون لاحقاً مؤتمر السلام في باريس، لمناقشة مستقبل العراق[4]. كانت علاقتها مع ويلسون في هذه المرحلة تمتاز بالهدوء. وتضمنت المذكرة الرأي القائل أن التوجه العام في العراق يؤيد استمرار الحكم البريطاني لكن بحاكم عربي يخضع للحماية البريطانية. وعلى النقيض

(1) السير ريدر بولارد، آن للجمل أن تغادر، سيرة ذاتية (لندن: فابر وفابر، 1961) ص 101- 103. عاد بولارد إلى العراق بعد شهرين، وتم تعيينه في الموصول، وتم تعيينه في مايو من عام 1920 حاكماً عسكرياً لبغداد.

(2) رسالة إلى السير ويليم ويلكوكس يناير- فبراير 1918، اليزابيث بيرغوين، غيرترود بيل: من أوراقها الشخصية 1889- 1914. (لندن: ايرنيست بين، 1958). المجلد الأول ص 76-77.

(3) انظر على سبيل المثال، جانييت واليش ملكة الصحراء: الحياة غير الطبيعية لغيرترود بيل (نيويورك: دبلداي، 1996) وفيكتور وينستون غيرترود بيل (لندن: جوناثان كاب، 1978) وكذلك رسائل بيل الذاتية وبوش، بريطانيا والهند والعرب وسلقليت، بريطانيا في العراق.

(4) مذكرة حول تقرير المصير الذاتي في بلاد الرافدين. وزارة الخارجية 4150/371. انظر أيضاً: سجلات وزارة الهند: إل/ ب/إس /10/ 755-764. ب. 15/4722 حول تطور السياسة/ والإدارة البريطانيتين خلال وما بعد الحرب.

من إمبريالية ويلسون الثابتة، أخذت ميول بيل، واعتقاداتها تتغير مع مرور الزمن. وقد ورد عن أحد المؤرخين، الذين تناولوا تأريخ العراق قوله: أن قوة بيل تكمن «في مرونتها وقدرتها على التكيف مع الظروف المتقلبة». ففي الوقت، الذي كان ويلسون فيه لا ينظر إلى الروح الوطنية «بوصفها قوة يجب التكيف معها عوضاً عن إسكاتها، أصبحت بيل تدرك أخيراً أن علينا أن نُقرّ أن الناس يفضلون إدارة شؤونهم الخاصة بأنفسهم»(1). وعقب عودتها إلى بغداد، مارة بالقاهرة ودمشق ومشاهدتها للوضع السياسي، ومقابلاتها مع أبناء المنطقة العرب وتحدثها إليهم، «تغيرت آراء بيل تغيراً جذرياً عما كانت عليه قبل الرحلة»(2). وعقب مشاهدتها ما حدث في سوريا، أصبحت بيل تؤمن بمبدأ الحكومة العربية الذاتية -وبناءً عليه- وضعت تقريراً حول رحلتها ضمنته رأيها القائل أن قيام دولة عربية في بلاد الرافدين ستكون فكرة مقبولة، وقابلة للتطبيق خلال فترة وجيزة(3).

ومنذ ذلك التاريخ، قادها تعاطفها مع القضية الوطنية العربيّة إلى صراع دائم مع ويلسون، وغيره من الضباط السياسيين البريطانيين في بغداد، الذين كانوا مقتنعين أكثر بالحاجة للمحافظة على المصالح الاستراتيجية البريطانية في المنطقة المجاورة لحقول النفط في جنوب الخليج العربي. وكانوا يعبرون عن معارضتهم السياسية من خلال توجيه إهانات عميقة، وقوية مبغضة للنساء، موجهة إلى شخص بيل بشكل خاص. وقد أوردت مؤرختها، جانيت والش أنَّه تم تجاهلها في هذا التخبط السياسي، حتى إن الرجال «كانوا بامتهان يسمون بيتها المُسَّور «بصندوق العفة». وفي الوقت نفسه، كتب ويلسون رسالة إلى صديق له ضمنها قوله: «أنه كان يواجه مصاعب مع الآنسة بيل، فلقد كانت متعصبة

---

(1) Sluglett, P., Britain in Iraq, 1914-1932, London: Ithaca, 1976, p32-33

انضمّ ويسلون بعد استقالته من السلك الحكومي عام 1920، إلى الشركة الفارسية الإنجليزية للنفط. وأصبح عام 1933 أحد أعضاء حزب المحافظين في البرلمان. ويتضمن مدخله في قاموس السِّير الوطنية لعام 1949، وصفاً له «مؤمناً عميقاً في الإمبراطورية البريطانية قوةً لحفظ السلام وتطوير الشعوب المتخلفة».

(2) Wallach, Janet, Desert Queen, p242.

(3) غيرترود بيل: «سوريا في أكتوبر من عام 1919، 15 نوفمبر 1919، مع ملاحظة تغطية، وتعليقات متناقضة قدمها آ. ت. ويلسون خاطب بها وزارة الهند، 15 نوفمبر، سجلات وزارة الهند: إل/ ب إس/ 18/ ب 337.

جداً فيما يتعلق بالقضايا السياسية [1] ورغم كل هذا، بعثت بيل رسالة إلى زوجة والدها في يناير من عام 1920، أعادت فيها التأكيد على معتقداتها الجديدة:

أتمنى أن يسلك الناس سبيل الرشد، ويدركوا أن الطريقة الوحيدة لتحقيق مآربنا السياسية هنا منذ البداية، لا تتم عبر قولبة العرب وتصفيد أياديهم ... أتمنى أن يكون لي وزن أكثر في هذه اللعبة... الحقيقة هي أنني أمثل أقلية لا يتجاوز عدد أفرادها واحداً أو تقريباً واحداً في الخدمة السياسيّة في بلاد الرافدين، ومع هذا أدرك تماماً أنني على حقٍ، وأن آرائي قد تضع نهاية لعملي. عليهم في الوطن أن يروا ويعرفوا، عليهم ألا يبقوا عميان لا يرون الخطوط الضخمة التي خطّها العالم أجمع على الجدران أمام عيونهم[2].

وفي مؤتمر سان ريمو، الذي انعقد في شهر إبريل من عام 1920. تقاسمت فرنسا وبريطانيا المناطق في بلاد الشام والعراق، فأصبحت فلسطين والعراق تخضع للإنتداب الاستعماري البريطاني وسوريا، ولبنان للإنتداب الفرنسي. في حين كانت القوى الأوروبية تهدف من وراء هذه الانتداب تشكيل وصاية مؤقتة. كان القوميون العرب ينظرون إلى الإنتداب كذريعة للإبقاء على الحكم الاستعماري. تأزم الوضع في العراق نتيجة فشل البريطانيين في إقامة أي شكل من أشكال الإدارة التمثيلية. وفي صيف عام 1920 اندلعت الثورة[3]. واشتملت إجراءات البريطانيين القمعية في أثناء ولاية ويلسون على سياسة الأرض الملسوعة، التي تقضي بتسوية القرى المتمردة بالأرض. كانت بيل ترى أن هذه السياسة عنيفة جداً، ونظراً لتعاطفها مع العرب دخلت مع ويلسون في علاقة عدائية متبادلة متماثلة[4]. وأبرز ما ميز بيل أنها بقيت واثقة من أن سياستها هي السياسة الصحيحة، وعندما قام السير بيرسي كوكس بزيارة إلى بغداد في يونيو من عام 1920، ناشدته بيل دعمه لها:

---

(1) Wallach, Janet, Desert Queen, p248-9.

(2) المرجع السابق، ص 249.

(3) كانت أسباب ثورة 1920، وتطوراتها موضوعا للعديد من الدراسات التاريخية، وتناولها بالتحليل كلّ من بوش وسلقليت.

(4) Wallach, Janet, Desert Queen, p252-278; Winstone,Getrude Bell, p 217-228.

جاء السير بيرسي بعد العشاء وقدمت له ما أظنه الرأي الصائب في الموقف العربي كاملاً، وكيف كان يتم التعامل معه بشكل بالغ السوء خلال الشهور الثمانية الأخيرة. وقد بدا متفهماً جداً. إذ جعلني جلوسي معه أشعر كما لو كنت قد وجدت صخرة، بعد التخبطات التي مررت بها خلال الأسبوعين الماضيين[1].

وفي يوليو، على أي حال، بعث ويلسون برسالة إلى كوكس، الذي كان قد وصل توّاً إلى وزارة الهند، يقترح فيها «أن تجد وظيفة للآنسة بيل في الوطن، حريٌ بك أن تفعل ذلك... فنشاطاتها غير المسؤولة، كانت مصدر قلق كبير لي هنا، والضباط السياسيون يمقتون هذه النشاطات أيضا»[2]. وفي هذه الأثناء كان ويلسون وغيره من الضباط السياسيين يقفون بحزم ضد تعاطف بيل مع استقلال العرب، وفي نهاية المطاف تلقت توبيخاً من وزير الدولة لشؤون الهند، لأنها لم «تساند» الآخرين في وقت كان فيه مستقبل العراق على المحك[3]. وبحلول خريف 1920، تم إخماد الثورة، التي لاقى فيها الآلاف من العرب، والمئات من الموظفين المدنيين والعسكريين البريطانيين حتفهم، وقد كلّف إخمادها مبالغ طائلة، وتبين أن الثورة نفسها كانت موضع جدلٍ في الجو السياسي المحلي في بريطانيا ما بعد الحرب، حتى إن جريدة «التايمز» انتقدت السياسة البريطانية في مقالة رئيسية لها، وأخبرت قرّاءها أن السبب الرئيسي للثورة هو: «أن السلطات البريطانية بعد أن قطعت وعوداً للعرب، أن يتولوا زمام أمرهم مع إسداء النصح لهم، واصلت التصرف كما كانت تريد أن تملك البلد كاملاً»[4].

لم تكن آراء النساء على اختلافها متجانسة، أو متأثرة بمنظور «جنسوي» بعينه حيال سياسة ما بعد الحرب، ويمكن أن نستشف هذه الحقيقة من تقلبات آراء إيميلي لوريمر الواضحة حول الظروف في بلاد الرافدين عقب الحرب، وخلال الثورة أيضاً. وصلت

(1) رسالة، 20 يونيو 1920، Burgoyne, Elizabeth, Gertrud Bell, 142

(2) اقتبسها وينستون، غيرترود بيل، ص 217-218.

(3) برقية سرية خاصة من إدوين مونتاغو إلى بيل، 6 أغسطس 1920، أوراق بيل، جامعة نيوكاسل أبون-تاين، اقتبستها Wallach, Janet, Desert Queen, p242.

(4) التايمز: 6 سبتمبر 1920.

إيميلي لوريمير وزوجها بريطانيا في شهر أكتوبر من عام 1918، ثم مكثوا في إيرلندا ولندن حتى نهاية عام 1919. وانطلقوا في بداية عام 1920 إلى بومباي، ولورالي، وكشمير، وسرينيغار، حتى وصلوا أخيراً إلى جيلجيت، فعمل دايفيد لوريمير وكيلا سياسيا حتى تقاعده في عام 1924. كانت عائلة لوريمير خلال رحلتها من العراق إلى لندن، وخلال رحلتها اللاحقة مطلعة على الظروف في الخليج والهند، وإيرلندا أيضاً. وبدا جلياً أن آراء إيميلي الإمبريالية التى تدعو إلى حكومة متسلطة قد أصبحت متشددة في هذه الفترة. وفي يوليو من عام 1918 كتبت إيميلي إلى أمّها من فان كوفر تخبرها أنها قد سمعت أخباراً من ريدير بولارد حول تحسن الإدارة في العراق، وبدت مندهشة من حجم العمل، الذي تم إنجازه، لدفع البلد «إلى النظام والثقافة، بدءا من المدارس والشوارع الممتدة والمحاكم القانونية ... الخ. وهذا يُعدّ تناقضاً واضحاً مع النشاطات الألمانية في المناطق المحتلة»[1]. لاقى هذا التناقض ترحيباً من سكان فانكوفر –التي حسب قول إيميلي– قد شُلّت تماماً نتيجة إضراب عمال القطارات، وعدم مسؤولية الطبقة العاملة بمجملها. وعندما أخبرت إيميلي أمها عن الإضراب، شكت كثيراً، وقالت إنها تتمنى «لو تستطيع دفع كل الرجال في فانكوفر إلى العمل في لجان للعمل في بلاد الرافدين. عَلَّهم يقومون بعمل أمينٍ مرة واحدة»، وختمت بقولها: «لا، فالديمقراطية عند تفحصها عن كثب، ليست جميلة»، وهذا ينطبق على الكاثوليكية، والروح الوطنية الإيرلندية كذلك، وكانت إيميلي لوريمير لا تتوانى عن كيل أفحش الكلام للأخيرتين. وقد طبعت هذه العداوة تصور إيميلي للاستعمار في جميع أنحاء العالم. وفي مايو كتبت إلى أمَّها لتعبر عن رأيها في الوضع الحالي في إيرلندا:

تعد أخبار ليلة أمس اعتقال أعضاء الشين فين عشية الثورة الجديدة، أفضل شيء سمعناه منذ زمن طويل ... وكم أتنمى لو يتم اقتلاع أساقفة الروم الكاثوليك أيضاً. قد تكون هذه الحادثة بداية تسوية عملية دون تسليم البلد إلى متأمرين هولنديين ومؤيدين للألمان ومناهضين للبريطانيين وهم كثر[2].

(1) إيميلي لورير، فانكوفر، إلى أمها، 7 يوليو 1918، المخطوطات الأوروبية ف 24/177.

(2) إيميلي لوريمير، فانكوفر إلى أمها، 19 مايو 1918، المخطوطات الأوروبيّة ف 177/ 24.

أصبحت آراء إيميلي لوريمير خلال الفترة ذاتها، وخلال وجودها في لورالاي على الواجهة الشمالية الغربية أكثر استحكاماً، وأكثر تعزيزاً من خلال نظرتها الدفاعية، والمحافظة على نفسها عضوةً في الطبقات البيضاء الحاكمة. وبعد انقضاء سنتين، كانت غيرترود بيل تتابع التغييرات الاجتماعية، والسياسية في المناطق الإمبريالية السابقة، وقد تقولب مواقفها وفقاً لهذه التغيرات.

أتفق تماماً مع والدة دافيد أن الناس الوحيدين في إيرلندا، الذين يملكون الحق في تظلم مشروع ضد وجود الحكومة البريطانية خلال الخمسين سنة الأخيرة هم أُناس «ذوو بشرة بيضاء» يشبهوننا تماماً. فالأمر كاملاً يدور حول امتياز كون الشخص إنجليزياً، وأن إنجلترا ستخذلك في كل مرةٍ تتعرض فيها لاجتياح قادم[1].

كانت ردة فعلها عندما سمعت عن أنباء الثورة، والقتل في بلاد الرافدين عام 1920 متوقعة إلى حدٍ ما، ويمكن تلخيصها في مقال لها، نشرته «مجلة» كنتمبرري رفيو« ردت بها علىٰ مقالة العالم الكلاسيكي المشهور، جيلبرت موراي[2]. كان موراي أستاذاً فخريا في اللغة اليونانية في جامعة أكسفورد بين عامين 1908 و1936، وكانت تربطه بكلية إيميلي القديمة، سومرفيل روابط قوية. كان موراي وزوجته قد أرسلا عام 1911، نسخة من كتابه «نشوء الملحمة الإغريقية» إلى ديفيد لوريمير وزوجته إيميلي هدية زواج[3]. وكان مواري مشهور أنه داعٍ إلى الكلاسيكية والعالمية. تحدث موراي في مقالته عن العداوة المحتومة التي قد تنشأ لدى الشعوب الخانعة، عندما يتم فرض الحكم الاستعماري عليها، وتحدث عن الثقة العمياء لدى الطبقات الإمبريالية الحاكمة بحقها، وقدرتها على إدارة الأمور. يعتقد موراي أن الحرب كشفت النقاب عن أن البريطانيين «يجسدون المثل الأسمى لعزم الرجل الأبيض، وقدرته على حكم رجالٍ من مختلف الأجناس بحجة أن البريطاني داعمهم، ومساندهم»، ومضى موراي بقوله «تعلم الشعوب ذات الخبرة الواسعة في مختلف أرجاء

(1) إيميلي لوريمير، لورالي، إلى أمها، 4 إبريل 1920، المخطوطات الأوروبيّة ف 27/177.

(2) Murray, Gilbert, 'Satanism and the New World Order', Contemporary Review 117, 1920, pp. 465-76

(3) إيميلي لوريمير إلى والدها وأمها، 270 سبتمبر 1911، المخطوطات الأوروبية ف 6/177.

العالم أن البريطانيين هم كأسياد أفضل من غيرهم، ولأنهم أسياد؛ فقد اكتسبوا كراهية الجميع»[1].

أشار موراي إلى مذبحة عام 1919، في أمريستار شمال الهند حيث «تأزم الوضع بين الحكام والمحكومين إلى حد دفع بضابط بريطاني –وكان جندياً جيداً على ما يبدو– إلى الاعتقاد أن من حقه إطلاق النار على مئات الرجال غير المسلحين دون تحذيرهم». وفي سيلان عام 1915، تعرض عددٌ كبير من الأبرياء «للقتل والجلد، وسُجِنَ أعداد أكبر، نتيجة ذعر الحكومة». ومضى موراي بقوله: «إن بعض قرى بلاد الرافدين التي لم تدفع الضرائب، وكانت تُعَدُّ عقب انتهاء الحرب مثالاً سيئاً، كان يتم نسفها في الليل، وهي الفترة التي يجتمع فيها معظم السكان في غرفهم». اعترف موراي أن إطلاقه أحكاماً، وهو جالس في بيته في منأى عن كل هذا، يعد نوعاً من الاجترار، لكنه ختم بقوله إن أفعالاً كهذه تجعل من السهل علينا أن نرى الأسباب المؤدية إلى كراهية البريطانيين. فضلا عن ذلك، لا تعدو هذه الأفعال عن كونها حماقات غير نمطية، «وغير ضرورية للحفاظ على الإمبراطورية»، التي –حسب قوله– ينبغي أن تدار تبعاً للمبادئ التي وضعها عظماء المنظرين السياسيين في القرن التاسع عشر أمثال ريتشارد كويدن، وجون ستاورت ميل، وتوماس بابينقتون ماكولاي:

ننظر إلى الإمبراطورية بوصفها أمانة ألقاها على عاتقنا المحكومون، وكعقار يجب استغلاله. ونحن نحكم الشعوب لتتمكن من حكم نفسها لاحقاً. نحن لا نستخدمهم لمصلحتنا، ولا نستخدمهم كطعام لمدافعنا. وفضلا عن ذلك، نحاول في الحكومة وفي إدارة القضاء، أن نتصرف دون خوف أو وجلٍ أو مِنّة، ونعامل الرجل الفقير بالاحترام نفسه، الذي يلقاه الغني، كما نعامل الرجل الملون بنفس احترام الأبيض، والغريب بذات احترام الإنجليزي. يجب أن نجعل هذه المبادئ نَصْبَ أعيننا. تجسدت هذه المبادئ في اتفاق عصبة الأمم، الذي يباع في كلِ مكان مقابل سعرٍ زهيد، علينا ان نتقيد بهذه المبادئ[2].

(1) Murray, Gilbert, 'Satanism and the New World Order', p 472.

(2) المرجع السابق ص 473–475.

ارتاعت إيميلي لورمير مما سمعت، وفي يونيو من عام 1920، كتبت إلى أمها لتبثها غضبها. إن الفقرة التالية، التي تم اقتباسها كاملة توضح رد إيميلي لورمير المملوء بالعاطفة على الانتقاد، الذي وُجه للحكم البريطاني حول العالم. ومن المفاجئ أنها، رغم ذكائها الخارق، قد تعمدت عن إصرار إساءة فهم بعض حجج موراي:

هل قرأتم الكذبة المخزيّة المنشورة في كنتمبرري رفيو؟ تلك الكذبة التي اتهمتنا أننا قمنا في بلاد الرافدين آنذاك بقتل النساء والأطفال العرب. أعتقد أنه يجب القيام بإجراءات جزائية ضد العرب، الذين اتخذوا من القتل والسفك ديدناً لهم. ونظراً لأن الروح الاقتصادية في الوطن تصر على إنقاص عدد جنودنا في بلاد الرافدين إلى حد عدم الفاعلية، ونظراً لأن البلد يُدار بطائرات، فان النتيجة الحتمية الوحيدة المترتبة على كل ما تقدم هي نسف قرية من الجو. قد تبدو هذه الفعلة موجبة للإعتذار، لكنها ليست كذلك، إذا قورنت بالفظائع التي جعلتها عملاً حتميا. (بالطبع يجهل الناس في الوطن حقيقة العربي كما يجهلون حقيقة الشين فين، والفضل في هذا يعود إلى حقيقة أن أحداً منا لا يود تلويع الأمهات، والزوجات بإخبارهن عن الأفعال الشنيعة التي لا يمكن تسميتها، التي يفعلها العرب بموتانا وموتنا). وعلى أي حال، تتهم هذه المقالة المخزية جنودنا بالانتظار المتعمد، حتى يعلموا بتجمع أكبر عدد من النساء والأطفال في البيوت، لحصد أرواح أكبر عدد منهم. قد يتبادر إلى ذهننا أن أي شخص ذكي قد لا يصدق، أيّ خبر يحمله إعلام الألمان أو الأمريكيين أو الشين فين. ينبغي أن يكون هذا حقيقياً لكنه ليس كذلك، إن كاتب هذه المقالة الكاذبة المليئة بالجبن هو جيلبرت موراي العالي الشأن. تصيبنا هذه المقالة بالغثيان... وإن كان لدينا ما يدفعه لأن يعتقد أن حادثة واحدة كهذه قد حدثت سهواً، فليثبت رجولته، ويعتمر خوذة، وليخرج بنفسه؛ ليكتشف الأمر، لكن أن يجلس بأمان وراحة يكتب الشعر ويقضم القرنبيط في بيت اشتراه له رجالٌ آخرون بدمائهم، ويطعنهم في ظهورهم، وهم الذين يحاولون أن يجعلوا العالم أكثر أمناً بالنسبة للضعفاء والمضطهدين، بينما هو «يحلم بأشياء نبيلة» في الوطن. فبأي حق إذن يفترض موراي وأمثاله أن رجالاً من جنسه بما يحملون من قيم، ومبادئ سيجانبون جادة الصواب، لكل

ما يعتقده مواري مقدس[1].

وفي هذه الأثناء، كتبت غيرترود بيل رسالة إلى والدها في شهر أغسطس، عبرت فيها عن رأيها المتواضع المنخذل، وتقول فيها «في ضوء أحداث الشهرين الأخيرين، ليس هناك من سبيل سوى التسليم أننا قد وقعنا فريسة فشلٍ ذريع هنا»[2]. وتساءلت لاحقاً –كما فعل مواري– قائلة: «أدرك في صميم عقلي أن ليس هناك من أحدٍ يفضل أن يخضع، وإلى الأبد لحكم شعبٍ آخر... إن سماحنا للفكرة القائلة أن الروح الوطنية، هي ضد البريطانيين بالتبلور ليعد مأخذاً عظيماً على حسن إدارتنا السياسية»[3].

وفي أكتوبر من عام 1920، تم استبدال أرنولد ويلسون بالسير بيرسي كوكس، الذي عُين حينها مفوضاً ساميا في العراق، وقد أرسل إلى بغداد ليلم الشمل، وينشئ شكلاً جديداً لحكومةٍ ستقوم بدورها «ببثِ الروح التي ترى حكومة جلالة الملك واجباتها من خلالها» وفقاً لاتفاقية الانتداب، التي وقعتها بريطانيا في اتفاقيات السلام[4]. رافق كوكس في رحلته السيدة كوكس، وفيلبي، وتبعهم دورا فيلبي وابنته الصغيرة، وتم التأكيد على تعيين بيل في منصبها سكرتيرةً استشراقية.

اتخذت علاقات بيل الشخصية، والوطنية اللاحقة في بغداد منحاً مألوفاً. استمرت بيل في القيام بواجباتها الإدارية، وتقديم نفسها من خلال هذه الواجبات وبشكل حصري، بوصفها امرأة في عالم الرجال. كان أكثر إنجازاتها نجاحاً وشهرة «مراجعة الإدارة المدنية في بلاد الرافدين»، الذي قامت به عام 1920، هذا إلى جانب مشاركتها في مؤتمر القاهرة في ربيع عام 1920، إذ تم منح عرش العراق إلى فيصل بن الحسين. كانت بيل المرأة الوحيدة بين 40 مندوباً. واستمرت من خلال علاقاتها الكثيرة مع العرب المحليين،

---

(1) إيميلي لوريمر، لورالي، إلى أمها، 13 يونيو 1920، المخطوطات الأوروبية ف 28/177.

(2) Burgoyne, Elizabeth, Gertrud Bell: p 159

(3) رسالة، 12 يونيو 1921، بيرغوين، غيرترود بيل، المجلد 2، ص 220.

(4) الملخص التاريخي للأحداث في مناطق الإمبراطورية العثمانية، وفارس وجزيرة العرب التي أثرت على مكانة بريطانية في الخليج العربي، 1907–1928، لجنة الدفاع الإمبريالي، أكتوبر 1928، سجلات وزارة الهند: إل/بِ إس/20/سِ/247 أ ص 31.

بتزويد البريطانيين بمعلومات حول السياسة العراقية، وأصبحت بعد تنصيب فيصل أمينة أسرار الملك ومستشارته. وقد نُشرت «مراجعة الإدارة المدنية» رسمياً كوثيقة برلمانية[1]. وتضمنت موجزاً بكل المعلومات المفصلة التي جمعتها بيل خلال سنوات خدمتها في بلاد الرافدين، سواء أكانت هذه المعلومات أنثروبولوجية أم تاريخية أم مادة سياسة، بالإضافة إلى سرد جميع جوانب الإدارة البريطانية. ويشيد ويلسون في مذكراته رغم خلافاته الكبيرة مع بيل -بهذه الوثيقة «بوصفها سجلا» لمواهبها الأدبيّة، وقدراتها التي لا تكلّ، الموجهة لصالح الآخرين، وخدمتهم في بلد مولدها وبلد تبنيها»[2]. أشاد الجميع في جميع أرجاء إنجلترا بهذا التقرير، لكن بيل ساءها هتاف الترحيب:

استلمت للتو رسالة أمي المؤرخة بتأريخ الخامس عشر من شهر ديسمبر، التي خبرتني فيها أنه كان هناك رقصات فرح بتقريري. ويبدو أن الخط العام،الذي ارتأت الصحافة أن تسلكه، هو الاستغراب من أن يتمكن كلبٌ من الوقوف على قدميه الخلفيتين، أو لنقلها صراحة أن تتمكن امرأة من الكتابة في الكتاب الأبيض. أتمنى عليهم أن ينسوا دوافع استغرابهم، وأن يوجهوا جل اهتمامهم إلى التقرير نفسه، علّه يساهم في إدراك حال بلاد الرافدين[3].

تبنت بيل أيضاً، كونها لا تحتمل فكرة تمييزها عن زملائها الذكور، كثيراً من مواقفهم السلطوية تجاه من كانت تعرفه من الزوجات، والنساء في فترة الاستعمار. كانت نظرتها إلى بيلا كوكس دوماً نظرة تعاطف مشوبة بالإحباط. فبالنسبة لبيل، لا تعدو الليدي كوكس أن تكون خاتوناً اعتيادية، كما أن درجتها الرفيعة لا تعني أنها أصبحت غير ذلك. وكتبت بيل في مايو من عام 1921 حول حفلة حديقة أُعدت في المفوضية العليا، لما يزيد على 400 شخص:

ألقيت أنا ونوابٌ مكتبنا نظرة أخيرة على الاستعدادات التي تمت، عيّنا مكان وقوف

(1) «عرض للإدارة المدنية في بلاد الرافدين» الأوراق البرلمانية، 1920، المجلد 51، 1060.

(2) Wilson, Lt Colonel Sir Arnold T., Loyalties: Mesopotamia, 1914-1917, a Personal and Historical Record, London: Oxford University Press, 1930, preface p xi.

(3) Wallach, Janet, Desert Queen, p292

السير بيرسي، وكيفية وضع السجاجيد والأشياء الأخرى. وكان السير بيرسي مسروراً جداً، غير أن الملاحظة الوحيدة التي ذكرتها الليدي كوكس هي أنّه من المؤسف أن الأشجار لم يتم غسلها فلقد كانت مغبرة جداً. وعلى الرغم من أنها كانت عديمة الفائدة في كثير من الأعمال، ولديها صفات سلبيّة كثيرة، إلا أن الصفة الإيجابية الوحيدة لديها أنها كانت لطيفة جداً معي[1].

حضرت بيل في الشهر التالي حفلة نظمتها عائلة فيلبي، وهناك رفضت أن ترقص، وفضلت أن تجلس في الحديقة، وتتحدث مع الناس. وكتبت تقول أن الحفلات في بغداد «عبارة عن جنون تام»:

كانوا يرقصون في النادي أربع مرات في الأسبوع، أعتقد أنها عادة مذمومة، فالرجال الذين يعملون بجدٍ موظفون ليس بمقدورهم أن يبقوا مستيقظين حتى الواحدة أو الثانية. إذ عليهم أن يكونوا في مكاتبهم في السابعة أو الثامنة. النساء فقط يستطعن القيام بذلك. فتعساً لهن— فهُنّ لا يبدين أيّ اهتمام بما يجري ولا يعرفن العربية، ولا يرين عرباً. وهن على هذه الشاكلة يخلقن مجتمعاً إنجليزياً مغلقاً (منحط القيمة)، ومنعزلاً عن كل ما يجري في المدينة. الآن بدأتُ إدراك الأسباب التي جعلت الحكومة البريطانية تشعر بالحسرة في الهند، فالنساء هناك كن يتصرفن على الشاكلة نفسها[2].

ساء بيل كثيراً عدم حضور المرأة البريطانية في الحفل الرسمي، الذي عقد بمناسبة افتتاح أول مدرسة للبنات في بغداد خلال السنة المنصرمة. وأشارت بيل إلى أن «أربعة فقط من النساء الإنجليزيات حضرن الحفل، الأمر، الذي عد شيئاً محزناً، وهو ما دفع آ.ت. ويلسون إلى تقريعهن. فعندما يطلب منهنَّ حضور حفل رسمي، عليهن الحضور، وعليهن أن يكن سعيدات بقدر سعادتهن بلعب الغولف في الأيام الأخرى»[3]. بدأت بيل بعد سقوط بغداد، وهي التي كانت قبل الحرب لا تعير أي اهتمام لحياة العربيات أو مكانتهن، تزور

(1) رسالة، 8 مايو 1921، بيرغوين، غيرترود بيل، المجلد 2، ص 215—216.

(2) رسالة، 19 يونيو 1921. Burgoyne, Elizabeth, Gertrud Bell: 220-221.

(3) رسالة، يناير 1920. Burgoyne, Elizabeth, Gertrud Bell, p128:.

زوجات الوجهاء المحليين كوسيلة سهلة لكسب أزواجهن، وصارت تعقد حفلات شاي أسبوعية. وأصبحت تدريجياً أكثر اهتماماً، ومعرفة بالمجتمع العراقي الأنثوي. وعندما عُين همفري بومان مديراً للتعليم في أغسطس من عام 1918، اشتركت بيل نفسها في هذا المشروع، واقترحت أن يشمل البنات. وحسب قول مؤرختها الأمريكية الأصل جانيت واليش فقد أخبرت بيل بومان، أنها تُعدُّ نفسها طبعاً مرجعا في هذا الشأن. «علينا أن نمنح البنات فرصة للتعبير عن ذواتهن ... لو كنت تعرف النساء كما عرفتهن، لأخذتك الشفقة بهن. ولم تقم بشيء لهن ... لا شيء على الإطلاق»[1].

يتطابق منظور بيل لحياة الحريم، وتأطيرها لطبيعة التعليم المنزلي الغربي، الذي ترى أنه سيكون مناسباً للبنات العربيات مع أفكار المبشرات الغربيات، بل يتجاوزه ليعكس أفكارها الاستشراقية، التي ورثتها من ثقافتها، حول مكانة المرأة في العالم العربي. وجُل ما كانت تطالب به في مدارس البنات كان صفوفاً في العلوم المنزلية، والإدارة المنزلية والصحة. وتختم جانيت واليش أن تأثير بيل في هذا الشأن كان له وقع طويل المدى، وذهبت إلى حد وصف النظام التربوي العراقي، الذي أسسه بومان «أنه الأفضل في العالم العربي»، و«أنه قوة موحدة في البلد»، رغم اتجاهاته الراديكالية فيما يتعلق بتعليم النساء[2]. بيد أن هذه الخاتمة غَيْر حاسمة، بل ويمكن سَرْدَ حقائق مغايرة من شأنها دحض هذا الاعتقاد، منها على سبيل المثال دراسة بيتر سلغليت المبكرة حول حرائق ما بعد الحرب، التي أشارت إلى أن سياسة بريطانيا المعلنة حول تعليم العراقيين من أجل الاستقلال، يجب أن ينظر إليها في سياق خوف القوى الاستعمارية المتعاظم من أن التعليم قد يؤدي إلى الانشقاق والثورة[3]. حتى إن بيل نفسها ورغم نجاحها على الصعيد العام، ونظرتها إلى نفسها كامرأة عاملة مستقلة، الأ أنها ما فتئت تؤمن بقوة في تعليم البنات من أجل المنزل. وكانت آراؤها الاجتماعية والسياسية تعكس دوماً ولاءها الطبقي لجنسها. إذ بقيت النساء العربيات

(1) Wallach, Janet, Desert Queen, p223.

(2) المرجع السابق ص 213.

(3) Sluglett, P., Britain in Iraq, p 273-291



غيرترود بيل في نزهة مع الملك فيصل الأول ملك العراق (إلى اليمين في المقدمة) وغيرها من الموظفين البريطانيين في بدايات 1920.

موضوع لـ«الاكتشاف» والتعاطف فضلا عن أنها مجموعة مُتابعة وسهلة الانقياد.

خطت بيل في فبراير من عام 1920، رسالة بعثت بها إلى صديقتها فالنتين شيرول، وصفت فيها اهتمامها الجديد:

أعتقد جادة أنني بدأت أتحكم بالنساء هنا، وأعني نساء الطبقة العليا، أولئك اللواتي لم يعرفن معنى الشقاء على الرغم من أنهن يقابلن امرأة أخرى تقطن أقرب من مسكني بنصف المسافة. كان ذهابي لمقابلتهنَّ، ودعوتهنَّ لحضور حفلات شاي صغيرة في بيوتهن يعني تحمل كثيراً من المصاعب. لكنني رغم هذا كله كنت أحب مقابلتهن، ومن خلالهن استطعت التعرف على جانب من بغداد، لا يمكنني التعرف عليه بطريقة أخرى. أنا على يقينٍ أن هذا الأمر يستحق هذا العناء، فأنا أستطيع الذهاب إلى بيوتهن ودخولها بودٍ. أصبح لدي جيش من الصديقات اللواتي يُحّسنَ علاقتي الشخصية مع الرجال. أحاول الآن أن أضع مشروعاً طموحاً بجعل السيدات البارزات يشكلنَ جمعية؛ تقوم بجمع بعض المال من العائلات الغنية لبناء مستشفى صغير لنساء الطبقة العليا، وبدا أن بعض

النساء يشجعنَ لهذه الفكرة[1].

وفي هذه الأثناء، أصبحت علاقة بيل مع الملك فيصل تسير نحو النهاية، وأقل حميمية؛ عندما تمكن الملك من الحكم بنفسه. فبعيد استقالة كوكس عام 1923، فقدت بيل قاعدتها القوية التي أوجدتها على مدى طويل داخل الإدارة البريطانية. أسست خلال العام ذاته المتحف الوطني العراقي، الذي ظل شاهداً حقيقياً وخالداً على تأثيرها في البلد. وكان انعكاساً لمواهبها السابقة عالمةَ آثار. أصبحت مع مرور الوقت، تلقى المزيد من التهميش في العالم السياسي، الذي طالما عَرفّت نفسها من خلاله. توفيت بيل عام 1926 عقب تناولها جرعة مفرطة من الحبوب المنومة. قبل عيد ميلادها الثامن والخمسين بيومين. وقال آرنولد ويلسون مستذكراً قدراتها الإدارية:

كانت تحتقر الشهرة، وتمقت ذكر الخصال الصحفية العديدة التي مازت تأثيرها ومهاراتها. فالإنجازات الإبداعية، والأدبية والثقافية، والسياسية هو ما كان يشغل اهتمامها. عاشت بيل لترى أن آمالها الآنية لمستقبل العراق السياسي على وشك أن تثمر ... لهذا كانت بحقٍ مُلْهَمَةٌ لتخدم بلاداً، كالبلد الذي ولدت فيه، والبلد الذي تربت فيه بإخلاص، وقدرة، وعزمٍ نادرين[2].

وحريٌ بنا على أي حال أن نقتبس جزءاً من كلمة السير جيلبرت كلاتون أمام الجمعية الجغرافية الملكية، وبها استذكرَ علاقات بيل مع القادة العرب:

كان لي شرف معرفة معظم الحكام العرب البارزين. وكثير من الزعماء في الجزيرة العربية. لم أقابل قائدا أو زعيماً لم يكن يعرف بيل شخصياً، أو من خلال شيمها. ولم أقابل قائداً أو زعيماً لم تعامله بعطفٍ وشرفٍ ووقار[3].

تشير تلميحات كلاتون هذه إلى قصة حياة بيل المعتمدة على الطبقة الاجتماعية، وتشير أيضاً إلى الطرق التي سلكتها لامتلاك حياتها، والتي تعكس النظام العالمي من

(1) غيرترود بيل، المجلد 2، ص 127.

(2) Wilson, Loyalties, p 159

(3) السير جيلبرت كلاتون، متحدثاً خلال مناقشة في الجمعية الجغرافية الملكية، 4 إبريل 1927، وذلك عقب بحث ألقاه د. ج. هوغارث بعنوان «رحلة غيرترود بيل إلى حايل»، المجلة الجغرافية، رقم 70 (1927)، ص 1-21.

منظور النخبة البريطانية الإمبريالية الحاكمة. عرفت بيل نفسها مع زملائها الاستعماريين الذكور، ومع السياسيين والقادة العرب الذكور. وتستذكر المبشرة الأمريكية دوروثي فان أيس، وهي واحدة من صديقاتها المقربات القليلات، الاحترام الوافر، الذي عززته بيل في السلطات العربية الذكورية المحلية. وورد عن أحد الموظفين العرب أنه قال: «إذا كانت نساء الإنجليز كلهن مثلها، فعلى الرجال أن يكونوا كالأسود قوة وبسالة. ومن الأفضل لنا أن نسالمهم»[1]. كانت عائلة فان إيس من منظور البريطانيين تشكل الوجه المقبول للنشاط التبشيري الأمريكي، وكان يشاد بها كثيرا ليس لجهودها الاجتماعية والطبية الجليلة التي لا تفتر فحسب؛ بل لارتباطها مع القضية البريطانية أيضاً. فقد كان جون فان إيس ودوداً جداً مع ويلسون، وكتبت دوروثي فان إيس لاحقاً أن ويلسون وزوجها قد «وقفا نداً لند» فيما يتعلق بالموقف عام 1920، وصدف أن كانت حلولهما «متطابقة تقريباً». كان جون يعد العقيد، ويلسون العقل المدبر لإدارة السير بيرسي كوكس. ومضت تصف كيف أن زوجها وغيرترود كانا يتجادلان دائما حول مستقبل العراق. وكان فان إيس يؤمن أن البلد ما يزال يعاني من التفرقة والانشقاق، وما زال في مرحلة مبكرة على الوحدة، غير أن بيل كانت تتساءل بقولها:

إنك تستهين بتأريخ البلد الممتد على أربعة آلاف سنة، وإذا حاولنا أن نرسم خطاً حول العراق ونسميها وحدة سياسية، نجد أن الدولة الأشورية كانت تلوذ إلى الغرب، والشرق، والشمال. وكانت الدولة البابلية تلوذ إلى الجنوب. ولم يكونوا على الإطلاق وحدة مستقلة. عليك أن تستنفد كل الوقت لتوحيدهم، يجب أن يتم ذلك بالتدريج، فليس لديهم أي تصور عن الوطنية بعد[2].

جلبت نهاية الحرب معها للكثير من الأمريكيين مفهوماً أكثر راديكالية للنظام العالمي الجديد، من ذلك الذي تصورته الحكومات البريطانية في لندن والهند، وبغداد. واستمر

(1) Van Ess, Dorothy, Pioneers in the Arab World, Grand Rapids MI: Historical Series of Reformed Church in America, 1974, 98

(2) المرجع السابق، ص 113.

هذا الانشقاق في المنظور السياسي في زرع بذور الشك والتنافس لدى الفريقين. ففي المقام الأول، كانت تجربة الأمريكيين في الحرب على جبهة بلاد الرافدين مختلفة تماماً عن تجربة البريطانيين، فالأمريكيون بشكل عام، كانوا على الدوام ملتزمين بالحدود الجانبية، لكن في أحوال أخرى كان يوكل إليهم جَمْعَ الأجزاء، وكانت نظرتهم للنظام العالمي الجديد الآخذ بالتشكل بعد الحرب، ودور الأمريكيين والبريطانيين فيه مختلفة تماماً عن تلك النظرة التي كان الإداريون، والسياسيون، والعسكريون البريطانيون في المنطقة يحملونها. احتضن الأمريكيون، الذين اتقدوا حماساً بأفكار ويدرو ويلسون حول «المشروع» الأمريكي لعالم ما بعد الحرب، الروح الوطنية، والجمهورية بحماس منقطع النظير. لخص الدكتور روبرت كابلان المنظور التاريخي الأمريكي لتطورات ما بعد الحرب في سرده لتدخل الأمريكيين «المستعربين» في الشرق الأوسط:

عندما كان البريطانيون، والفرنسيون يرسمون الخطوط على الخرائط، ويتبادلون الحكّام فيما بينهم كحجارة شطرنج، كان الأمريكيون البروتستانت يعانون الأمرين بسبب ضحايا المجاعات والمذابح، اللتين كانتا من العواقب الوخيمة الدنيوية الرئيسية للحرب العالمية الأولى. وعندما كان بريطانيون مثل: لورنس، وفيلبي، والآنسة بيل يقعون في حُبّ العرب، كان المبشرون يتعلمون أكثر من أيْ وقت سابق، كيف يكون شعور الشخص لكونه عربياً[1].

ويمضي كابلان ليقول: إنه عندما كان البريطانيون يعيشون في خيم الملوك ومراكز القوة، كان الأمريكيون يعملون في الخانات ومطابخ الحساء. ومنهم من كان يتعامل، على سبيل المثال، مع عواقب المجاعة في سوريا بين ثلاثمائة ألف شخص حاصرتهم القوات التركية، وهم أيضا أول من نقل للعالم أخبار المذابح الأرمنية، وكانوا يعملون في ظروف مليئة بالعدوانية؛ لتقديم العون. وكانوا يتعاطفون مع رغبة العرب في تقرير مصيرهم،

---

(1) Kaplan, Robert D., The Arabists: the Romance of an American Elite, New York: the Free Press,1968, p 68.

ولم يثنهم عن القيام بمهامهم «أي مؤسسة إمبريالية ذات دوافع مستترة في المنطقة»[1]. ألقى هوارد بليست، رئيس الكلية السورية البروتستانتية، وهي النواة التي قامت عليها الجامعة الأمريكية في بيروت، كلمة مؤتمر فرساي نيابة عن القوميين العرب[2]. كان حكم كابلان للبريطانيين قاسيا، إذ تعمد تجاهل الإصابات البريطانية الضخمة، والمصاعب التي واجهوها، فضلا عن الجهود الطبيّة الكبيرة التي قام بها البريطانيون، والبريطانيات على حد سواء، في فترة الحرب وما بعدها. ومع هذا، يعكس حكم كابلان بعضاً من فخر الأمريكيين وغايتهم، اللذين تشكلا بعد الحرب في دورهم المحدد المتجدد في العالم العربي.

وفي عام 1920، وصفت شارلوت ب. كيليين –وهي مبشرة كندية عملت في قطاع التعليم في مسقط– نتائج الحرب المتمثلة في تدفق الروح الوطنية، ونكران الذات، لكن الأهم من ذلك، ظهور مفهوم جديد لأخوة البشر، والاعتراف بالمواطنة العالمية. وفيما يتعلق بالمبشرات الأمريكيات في المنطقة، كانت كيلين تعتقد أن عليهنّ العودة إلى بث تعاليم الكتاب المقدس بعزيمة متجددة[3]. كما أشعلت الحرب، وما ترتب عليها من عواقب، جدالاً متأججاً دائماً بين المبشرات دار حول أهدافهن، وطرقهن، وكان هذا الجدال هو السبب الرئيس وراء التغيير التدريجي في التوازن بين ما هو إيفانجلكي، وبين ما هو عمل اجتماعي أو طبي. في الواقع، غيرت الحرب وإلى الأبد منهجية المشروع التبشيري، وعلاقة المنظمة، وأفرادها مع الناس في الخليج. فمن ناحية أصبح الأمريكيون ثقافياً أكثر وعياً. ومن ناحية أخرى أصبحوا أكثر تصميماً، ولكنهم كانوا مدركين أن تركيزهم المتزايد على العمل الطبي، سيفتح لهم أبواباً كانت موصدة أمامهم من قبل. وعلى الرغم من أن هدف الإرسالية البعيد المعلن، كان وما يزال تحويل الناس إلى المسيحية،

(1) المرجع السابق 67 ورد في جزيرة العرب المهملة عام 1917 إن المبشرين كانوا يقومون بإجراءات إغاثية في مناطق الاضطهاد الأرمني، وأصبحوا الآن جزءاً من إجراءات التحقيق في هذا الشأن (رقم 100، يناير/ مارس 1917).

(2) Kaplan, Robert D., The Arabists: p63-72 يقول كابلان: إن المجتمع الأمريكي في سوريا قد أصبح متحداً في دعم قضية العرب القومية، (ص 67).

(3) شارلوت بِ. كيليلن «الوطنية الروحانية» جزيرة العرب المهملة، رقم 112، ويناير ومارس 1920، ص 6–8.

إلا أن فشلهم بتحقيق هذا الهدف قد شكل حافزا لتنفيذ المشروع العملي، ألا وهو نقل نمط الحياة الغربية، أو بالأحرى الأمريكية إلى العالم العربي.

وفي مقالة معنونة بـ «علامات الأوقات في الجزيرة العربية» المنشورة عام 1920، تحدث بول هاريسون حول الاستعمار، وأهمية الانتداب الاستعماري، ومضى يصف بأسفٍ تزاوج السيطرة السياسية الغربية، مع التشدد الإسلامي في الصحراء:

لكن الموقف لم يتغير عبر الإدلاء بآرائنا ... لهذا يخضع الجنس العربي كاملاً للسيطرة السياسية الغربية. قد نندم على هذا وقد نسعد له، غير أن مهمتنا تبقى هي نفسها: وهي غرس مملكة الرب في قلوب العرب، مهما تغيرت أشكال الأنظمة السياسية التي تخضع لها مجتمعاتهم[1].

ردد جون فان إيس بعد سنتين كلمات هاريسون في مقالة شبيهة، حول الانتداب البريطاني في العراق، وأضاف: «نحن مسيحيون لدينا حكومة انتداب في بلاد الرافدين، لكننا لا نستطيع أن نزيح عن أكتافنا هذا العبء بسهولة» وبعد أن طرح تساؤلاً حول التزامات الكنيسة الإصلاحية في بلاد الرافدين، ختم بقوله: إن كون الشخص أمريكي الجنسية، يضع على عاتقه التزاماً فريداً. (نحن ندرك) أن كل أمريكي معجب أيما إعجاب «بما فعلته بريطانيا لهذه الشعوب»، وفي الوقت نفسه، فإن الوجود الأمريكي كان موضع ترحيب، وثقة، ومحبة في هذه الأجزاء من الجزيرة العربية[2].

وكان جلياً منذ البداية، أن البريطانيين عندما تلمسوا تعاطف الأمريكيين، الذي لا يلين مع حق تقرير المصير الوطني، ونتيجة لاعتقادهم الجازم بوجود مشروع أمريكي خاص بالمنطقة، قد ازدادت شكوكهم وعدوانيتهم تجاه النشاط التبشيري في سنوات ما بعد الحرب. وفي ربيع عام 1920، تم منح بول وريجينا هاريسون أخيراً الإذن من بريطانيا بقضاء شهرين في الحسا. وعلى الرغم من أنهم كانوا راغبين في زيارة نجد، إلا أنه لم يسمح لهما القيام بذلك بحجة أن الوضع السياسي لم يكن مواتيا البتة، هذا فضلاً عن «عدم رغبة

(1) بول هاريسون «علامات للدهر في جزيرة العرب» جزيرة العرب المهجورة. رقم 113، إبريل- يناير 1920

(2) جون فان إيس «الانتداب في بلاد الرافدين» جزيرة العرب المهجورة، رقم 124، يناير- مارس 1923.

عبد العزيز آل سعود باستقبال أوروبيين في عاصمته». «وعدم رغبة الحكومة البريطانية أن تكون مسؤولة عن سلامتهم»[1]. وورد عن الوكيل السياسي في البحرين هـ. أر. ب. ديكيسون قوله: إن مبشرة بعينها من الكويت قد كتبت إلى عبد العزيز تطلب منه السماح لها بزيارته. وعندما عرضت عليه الرسالة، «عبر عما يجول في خاطره بكلام لا يعرف اللبس حول أمثال هؤلاء المتقدمين، وطلب مني أن أخبر حكومة جلالة الملك بعدم رغبته المطلقة، بقدوم أي شخص إلى مناطقه إلا تحت رعاية الحكومة. ومن المؤكد، أنه كان لا يرغب بحضور سيدات مطلقاً»[2].

وختم ديكسون بقوله: إنه «على الرغم من أن الجانب الطبي في الإرسالية يستحق أعلى درجات الثناء، إلا أنني لا أشعر سوى بالشك تجاه أعضاء الإرسالية التبشيرية غير الطبيين». وأكد ديكسون في الشهر، الذي تلاه، هذه القضايا، مستذكراً تحيز بريطانيا خلال الحرب ضد المبشرات ولا سيما النساء المتحدرات من أصل ألماني:

كان هناك في العمل من يقوم بالفتنة ضد الإنجليز دوماً، وأخشى أنني لا أستطيع تبرئة ساحة المبشرين الأمريكيين من هذا الأمر. فبدايةً، معظم الأعضاء من أصل هولندي أو ألماني، لهذا كانوا يقفون في صف الألمان خلال الحرب. أما اليوم، فكلامهم المعتاد يجري ضمن النسق التالي «أمريكا هي القوة العظمى التي بمقدورها قلب الموازين. فلقد انتصرت في الحرب. إن ويلسون هو أعظم رجل في العالم، وسيضمن ألا يمس الحلفاء الألمان بسوء، وسيضمن عدم سلب الأمم الصغيرة حقوقها ... الخ. وأخيراً، وليس أخراً، تقف الإرسالية التبشيرية كاملة بشكل مسيء، ضد الإنجليز فيما يتعلق بالقضية الإيرلندية، وهذا شيء لا يدعو للحيرة أو الاستغراب، إذا أخذنا بالحسبان المواقف المعادية التي تتبناها الصحافة الأمريكية. أستضيفُ أعضاء الإرسالية مرتين في الأسبوع لتناول الشاي ولعب التنس، من أجل القيام بواجبي، ولا أعرف ما يتحدثون عنه. كانت أفكارهم عن إيرلندا مدهشة

(1) مقتطف من مفكرة البحرين، مارس 1920 (خطها (إج. آر.بِ ديكسون)، قسم الإرسالية التبشيرية الأمريكية، ل./ بِ. إس/ ن /170، بِ 2048/ 1920.

(2) مقتطف من مفكرة البحرين، باريس 1920.

حقاً، وتكمن المشكلة في ... عدم قدرتهم على الاحتفاظ بأفكارهم لأنفسهم، فلقد كانوا يبوحون للعرب بانتظام، بما يكنون حول السياسية العالمية، وخاصة عندما كانوا يزورون مجالس أُناس مشهورين... ويسعدني أن أخبركم أن جهودي في الإعلام المضاد والترويج لكل ما هو إنجليزي قد آلت إلى نجاح باهر[1].

توضح محاولات المبشرين المتجددة في إرسال طبيبات، وممرضاتٍ إلى وسط الجزيرة، إصرارهم المستمر على «عمل المرأة». وقد نشرت الأعداد التي صدرت من مجلة «الجزيرة العربية المهملة» بعد الحرب سيلاً متدفقاً من الدعاية حول مكانة المرأة العربية ومحنتها. وورد عن إليزابيث كانتين في مقالة نشرتها حول «النساء العربيات والحرب» عام 1919، قولها إنها خلال الستة عشر عاماً التي قضتها في الجزيرة العربية، لم ترَ بيتاً عربياً واحداً «كانت علاقة الرجل فيه بزوجته جيدة» بحيث تستطيع المرأة الغربية تحملها. «فالزوجة دوماً لم تعدُ عن كونها عبدة يضربها الرجل، ويطلقها متى يشاء»[2]. وفي العام نفسه، تحدثت إيلينور كالفرلي التي وصفت نفسها أنها تعيش «وسط نساء مسلمات مغلوبات على أمرهن»، عن «الألم الشديد والبؤس، الذي طال حياة النساء العربيات نتيجة التخلف فتعدّد الزوجات، والطلاق الميسور، وتعليم النساء أنهن أقل شأناً من الرجال، وأنهن خُلقَن لاستخدام الرجل، كل هذه الأشياء جعلت من البؤس علامة فارقة في خبرات النساء العربيات»[3].

وفي العشرينيات من القرن العشرين، كانت بعض أعداد مجلة «جزيرة العرب المهملة» تشتمل على مقالات نسائية بحتة سواء عن طريق كاتبها أم موضوعها، وكانت المبشرات يرسلن إلى داعميهن سيلا لا ينتهي من المعلومات، وأصبحن بحلول منتصف العشرينيات أكثر اقتناعاً بصحة قضيتهن، ومشروعيتها إلى درجة عدم قدرتهن على إدراك أن القومية العربيّة، والنشاطات السياسية الموازية لها، قد أوجدت حركات سياسية محلية قائمة

(1) المرجع السابق إبريل – مايو 1920.

(2) السيدة كانتين «النساء العربيات والحرب»، جزيرة العرب المهملة رقم 108، يناير – مارس 1919.

(3) السيدة إيدوين كالفرلي «جمال الرماد»، جزيرة العرب المهملة، رقم 110 يوليو–سبتمبر 1919.

على مبادئ الإسلام ومؤمنة بالتغييرات الاجتماعية المحلية. وتظهر الدراسات الحديثة حول الحركات النسائية في الشرق الأوسط في بدايات القرن العشرين، إنَّ هذه الحركات اعتمدت إلى حد ما على خطابات نسائية عربية جاهزة، وأنّه كان هناك علاقة معقدة غير أنها وثيقة، بين القومية العربية، والحركات النسائية المحلية من جهة، وبين الحركات الأكبر من جهة أخرى[1]. وعلى أي حال، نسبت رواية المبشرين الموثوقة للقصة كثيراً من الفضل إلى نفسها. نشر صموئيل، وايمي زويمر عام 1926 كتابهما حول النساء المسلمات، بعد أن قضيا وقتاً في مصر وبلاد فارس[2]. وعندما شاهدا التطورات في تركيا ومصر ما بعد الحرب، عَبّرا عن رضاهما إزاء التقدم الذي حصل في مجال تعليم المرأة، المتجسد في طرح الخمار جانباً: «انقضت سبعة عشر عاماً منذ أن رأينا وجوها غير مخمرة لأول مرة في القسطنطينية، جاء قبول الإناث للدراسة في جامعة إسطنبول بناءً على المعايير نفسها التي قبل على أساسها الذكور، وهي إشارة لا لُبس فيها إلى المدى البعيد، الذي وصله [المجتمع] على طريق الإصلاح»[3].

وعند عرضهم لأعمال بعض الرجال، والنساء الرائدة في بعثات الشرق الأوسط، وكيْل ثناء لهم لا يستحقونه على ما حدث لاحقاً، أشار الكاتبان إلى أنهما لم يستطيعا تصور ما سينجم عن عملهم:

(1) هناك جملة من الكتابات بأحجام مختلفة آخذه بالازدياد، تدور حول الحركة النسائية العربية المبكرة، منها على سبيل المثال Lila, Abulghod, (ed.), Remaking Women: Feminism and Modernity in the Middle East, Princeton NJ: Princeton University Press, 1998; Leila Ahmad, Women and Gender in Islam: Historical Roots of a Modern Debate, New Haven and London: Yale University Press, 1992; Badran, Margot, Feminists, Islam and the Nation: Gender and the Making of Modern Egypt, Princeton NJ: Princeton University Press, 1995; Baron, Beth, The Women's Awakening in Egypt: Culture Society and the Press, New Haven and London: Yale University Press, 1994; Paidar, Parvin, Women and the Political process in Twentieth-Century Iran, Cambridge: Cambridge University Press, 1995.

(2) أ. إ. وإس. إم. زويمر، النساء المسلمات (وست مدفورد،ماستشوستس: اللجنة المركزية لدراسة الإرساليات التبشيرية، 1926)، انظر: الفصل الثالث.

(3) المرجع السابق، ص 91.

وهكذا بدأ البحث عن النور والحياة. لم يكن لدى العاملين الأوائل فكرة أن يجعلوا بيوتهم البسيطة مشرعة أمام النسوة المختمرات، وأمام أطفالهن، وأنهم بزيارتهن في الحريم والزنزانات، سيسمحون للنور بالدخول، مما قد يؤدي لاحقاً للمطالبة بإقامة مدارس، وكليات للنساء. وسيؤدي هذا حتماً بالحركة النسائية الاستشراقية إلى عتق النساء عتقاً كاملاً[1].

كانت المبشرات الأمريكيات يعتبرن أنفسهنّ أساساً مثالاً للنساء القويات المتحررات، كونهن مسيحيات بروتستانينات أمريكيات، هدفهن الأسمى قيادة النساء الأقل حظاً إلى العلم، وبهذا أصبحت النساء العربيات «الآخر» الذي كُنَّ يقسن أنفسهن عليّه، ومن خلاله كُنَّ يكسبن، ويعززن الثقة بمكانتهن على الصعيدين المحلي والعالمي. أصبحت الظروف التي نتجت عن المؤسسات الاستعمارية أداة مفيدة لتحقيق أهدافهنّ، لكنها لم تكن المعلم الرئيسي الوحيد في حياتهن. وفي المقابل، رأت كلٌّ من غيرترود بيل، وإيميلي لوريمير نفسيهما ممثلتين فاعلتين «للقوة الإمبريالية»، وعرّفتا نفسيهما عضوتين رئيسيتين في الطبقة الإمبريالية الحاكمة، على الرغم من أن كل واحدة منهن كان لديها آراء، وردود فعل مختلفة تجاه البيئة السياسية المتغيرة للعالم الاستعماري في فترة ما بعد الحرب، لم تكن أي منهما تنظر إلى «النساء» أو «المرأة» باهتمام خاص، فحين كانت إيميلي تقدم نفسها عن وعي وإدراك كزوجة، سعت بيل على الدوام في حياتها العامة على الأقل، إلى تجاوز الجنوسة. لطالما كانت لورمير أمينة على القيم الإمبريالية، ومؤمنة بدور بريطانيا في إدارة شؤون الحرب. وأصبحت بيل في المقابل تؤمن حازمة بالقومية العربية. من اليسير علينا التفكير مطولاً بأسباب انتحارها، الذي كان لتاريخها الشخصي دور بارز فيه. وجاء استبعادها التام على يد الملك فيصل في العراق كعجيبة من عجائب القدر ذات الطعم المرير، وهي التي كانت تؤيد وبقوة نضال العرب لنيل استقلالهم. سمعت دوروثي فان إيس عن موت بيل في أثناء وجودها في ميتشغان حيث كانت تقضي إجازة من العراق، وقد شعرت بالندم لعدم وجودها هناك في ذلك الوقت. وورد عنها أنها قالت «كانت بيل

(1) أ. إ. وإس. إم. زويمر، النساء المسلمات، ص 176.

وحيدة وحزينة، عندما شعرت أنها بعد تلك الفترة ليست ذات فائدة، ونفع في مجالس الدولة»:

أصبح الملك والحكومة إلى جانبه أكثر صلابة وتماسكاً، ولكن كانت تساورها أوهام كثيرة أن فيصل ووزرائه كانوا بحاجة لها ولأفكارها، وكانت دائما مثالية، ولم تكن واقعية مطلقاً. تواصل ذكر عملها سكرتيرةً استشراقيةً خلال سنواتها الأخيرة لفترة ليست قصيرة بعدها في متحف التأريخ القديم في بغداد، الذي كان شاهداً على مواهبها الكثيرة بوصفها عالمة آثار ومؤرخة. وعلى النقيض من الليدي هيستر ستانهوب، التي تقارن دوماً بها، لم تصبح بيل غريبة الأطوار، ولم تُضَحِّي بكرامتها الشخصية، ولا بتكاملها، وهاتان الصفتان جعلتاها متفردة حتى وفاتها. فسواء كانت في مخيم بدوي في الصحراء أم في قصر الملك في بغداد، حافظت بيل على شخصيتها كامرأة إنجليزيةٍ نبيلة[1].

(1) Van Ess, Dorothy, Pioneers in the Arab World, p120

الفصل السادس

«نساءٌ تدعين جامحات»: رحالة ومستشرقات خلال سنوات الحرب

استمر انزعاج البريطانيين من المشروع التبشيري الأمريكي في الخليج، حتى منتصف العشرينيات من القرن العشرين، وواصل تركيزه على نشاطات بول وروجينا هاريسون، ومحاولاتهما لمد النشاط التبشيري في الأقاليم السعودية وسط الجزيرة العربية، وعلى طول الساحل في الإمارات الصغيرة كدبي، وغيرها من الإمارات المتصالحة. ووصف ملف الدائرة السياسية لوزارة الهند، الذي تم فتحه عام 1921 «نشاطات الدكتور هاريسون الإضافية غير المرغوب بها» كما ناقش سعي عائلة هاريسون، الذي لا ينتهي لإقامة علاقات جديدة في الجزيرة العربية[1]. وقد خاطب المقيم السياسي آ.ب. تريفور حكومة الهند يخبرهم أن هاريسون رغم «كونه جراحا ذكيا جداً»، إلا أن «لديه ميلا طاغيا، لأن يزج بنفسه في الشؤون السياسية، ولديه كذلك تحيزٌ قويٌّ ضد البريطانيين»، وهذا التحيز على ما يبدو يكبر أكثر فأكثر. ورأى تريفور أنّه «من غير الملائم»، أن يسمحوا لهاريسون بفتح فرع للبعثة في دبي، «إذ سيكون الوضع خطيراً إذا بقي على الساحل إلى الأبد، وهناك لا يوجد ضابط بريطاني لمرافقته»[2]. وكان الوكيل السياسي في البحرين الميجور كليف دالي يعتقد أن هاريسون قادر على إيقاع أذى كبيراً. وختم د. ت. مونتيث الموظف في الدائرة السياسية في لندن بقوله: إنّه إذا:

---

(1) سجلات وزارة الهند، إل/ب. إس/170/7.

(2) من تريفور إلى حكومة الهند، 30 ديسمبر 1921، سجلات وزارة الهند: ل/بِ. إس/170/11. أصبح المقدم آرثر برسكوت تريفور مقيماً سياسيا في نوفمبر من عام 1920، وبقي في هذا المنصب حتى إبريل 1924. كان قد حَلَّ محل دايفيد لوريمير في البحرين في نوفمبر من عام 1912، وخدم لفترة من الزمن نائباً للمقيم في الخليج خلال غياب كوكس عن بغداد في الأعوام الثلاثة الممتدة من 1915 إلى 1917، كانت إيميلي لوريمير قد أخبرت والدتها عام 1913، أن خليفة زوجها في البحرين «كان ينظر إليه كواحدٍ من أشد الرجال في الدائرة وأفضلهم، فلقد كان رزينا، ويعتمد عليه ما لم يكن مهرجاً، وبعبارة تنبأت بها بدقة بنمط عمله المستقبلي، أشارت إلى أنهم «يتحدثون عنه كخليفة محتمل للسير بيرسي كوكس في بوشهر». إيميلي لوريمير إلى والدها ووالدتها، 22 يناير 1913، المخطوطات الأوروبية ف 177/10.

لم تكن هناك رغبة أن نسمح للدكتور هاريسون بزيارة ابن سعود، الذي يمكن الاعتماد على سلوكه، فقيامه بوضع قدم له في ممالك الساحل المتصالح الخلفية، أو حتى بقائه في البحرين حيث الفرصة الملائمة للنشاط المؤيد للعرب، والمناهض للإنجليز أمر غير مرغوب به[1].

غادر هاريسون وزوجته الخليج في مارس من عام 1922؛ لقضاء إجازة طويلة في الولايات المتحدة، وتنفس البريطانيون الصعداء، لكن بحلول نوفمبر من عام 1923، عاود تريفور الكتابة إلى حكومة الهند ليخبرهم أنه على الرغم من أن مشروع الفرع التبشيري على الساحل بقي معلقاً منذ رحيل هاريسون، إلا أنه من المتوقع أن يعود هاريسون وزوجته في أية لحظة، واستناداً إلى معلومات جمعها وكيل البحرين من أحد أعضاء الإرسالية، بدا جلياً أن هاريسون «عائد لا محالة «كالعملاق» المنتعش المشتاق للمغامرة في وسط الجزيرة العربية، أو عمان أو كيلهما»، وذكّر تريفور الحكومة أيضاً، بتقييم سابقٍ قام به بنفسه حول عائلة هاريسون، وأشار به إلى أن «الدكتور هاريسون يقف علانية ضد البريطانيين، وأن السيدة هاريسون التي أعتقد أنها من أصل ألماني، أشد مناهضة للبريطانيين منه»[2].

كانت ريجينا هاريسون تُعرف لدى البريطانيين بالشخصية المشاكسة، والمثيرة للشك، وكانت كثيراً ما توصف بهذا الوصف ، على الرغم من عدم وجود دليلٍ قاطعٍ على هذا الاستنتاج. كان زوجها، رغم أن حياته زاخرة بالتجارب، يقيّم إلى حدٍ ما بطبيعة علاقته معها. تقبّل البريطانيون أخيرا عائلة هاريسون، والمشروع التبشيري الأمريكي المتأسس في المنطقة بوصفه جزءا لا يتجزأ من المجتمع الغربي المتغرب، وأصبح الحكام ورعاياهم يرحبون بهم بحذر وتمهلٍ. ويقدرون لهم مّدهم بخدمات طبية مفيدة حقاً. لكن خلال العقد، الذي تلا الحرب العالمية الأولى، كان البريطانيون دوماً ينظرون إليهم أنهم مصدر خطرٍ وفتنةٍ في المنطقة. وأصبح البريطانيون ينظرون إلى أية حادثة أو موقف لا ينسجم،

(1) دالي إلى تريفور، 11 ديسمبر 1921، ومحضر اجتماع وزارة الهند خطها دِ.تِ مونتيث، 17 فبراير 1922، سجلات وزارة الهند: إل/ب/إس/170/11.

(2) تريفور إلى الدائرة السياسية، والأجنبية لحكومة الهند، 17 نوفمبر 123، سجلات وزارة الهند، إل/بِ. إس/170/11.

أو حتى يميل إلى عدم طاعة التعليمات البريطانية مكتوبة كانت أم لا، سواء أكانت متعلقة بالتصرف السياسي أم الاجتماعي، مؤشراً على خطورتهم.

وعلى هامش المشروع التبشيري، كان هناك عدد قليل من النساء، اللواتي أقلق سلوكهن البريطانيين، وأحرج الأمريكيين، ومن هؤلاء النسوة في الفترة التي تلت الحرب مباشرة فرانسيس واكفيلد، وغراس سترانغ. أما فرانسيس واكفيلد فهي طبيبة بريطانية، وعضوة في جمعية تبشير الكنسية، وكانت قد قدمت إلى البحرين في ربيع عام 1919، وأقامت علاقات مع المبشرات الأمريكيات. بعثت السلطات البريطانية المحلية، التي كانت على ما يبدو متوترة ببرقية إلى رؤسائها في بغداد، تطلب فيها معلومات حول فرانسيس واكفيلد وجنسيتها الحقيقية. وفي هذه الأثناء، أوضح المقيم السياسي لواكفيلد أن آمالها في السفر داخل الجزيرة العربية «لا تتطابق مع السياسة البريطانية»[1]. وفي غضون شهر، تلقى البريطانيون تقريراً من القاهرة يجزم أن واكفيلد هي إحدى الرعايا البريطانيين، وأنها عملت ميكانيكية مع القوة الاستطلاعية المصرية، و«أن صدق نيتها غير مشكوك فيه، لكنهم وصفوا أساليبها بالشاذة والملتوية»[2]. وفي يونيو أبرق المسؤولون البريطانيون في البصرة إلى بغداد؛ ليخبروهم أن واكفيلد قد وصلت و«أنها كانت تتحدث بسعادة حول ذهابها إلى قلب الصحراء، متطلعة لمقابلة ابن رشيد، وأنها أبدت استغرابها أننا ما زلنا نخضع للقانون العسكري، وعرضت واكفيلد أن تساعد الجراح المدني هنا كإجراء مؤقت، وكانت في الوقت نفسه مصممة على المكوث في بيوت البدو»[3].

تلقي الوكيل السياسي في البحرين هـ. أر. أ. هاريسون في بدايات السنة التالية، رسالة من الأمير عبد العزيز آل سعود قال فيها: إن طبيبة كانت تسمي نفسها «حجية نرجس» قد طلبت منه أن يسمح لها بزيارة نجد، وكان الحاكم السعودي على أتم الاستعداد، لطلب مساعدة المبشرين الطبية من كلا الجنسين إذا ما ناسبه الأمر، غير أنه كان في ذلك الوقت

(1) برقية سياسيّة من بوشهر إلى بغداد، 6 إبريل 1919، سجلات وزارة الهند: أر/47/20/15.

(2) الجنرال ألنبي، القاهرة، إلى بغداد، 1 و 27 مايو، 1919، سجلات وزارة الهند: أر/47/2/15.

(3) برقية سياسيّة من البصرة إلى بغداد، 3 يونيو 1919، سجلات وزارة الهند: أر/47/2/15.

يحاول تقوية علاقاته الدبلوماسية مع البريطانيين. تقول رسالته إنّه يجد طلب واكفيلد غير مقبول على الصعيدين الاجتماعي والسياسي:

أنتم تعرفون طبيعة العرب، فهم لا يحبذون الاقتراب من سيدات أجنبيات لا تجمعهم بهنَّ شيء، ولا يرافقهن أزواجهن، تمشياً مع القوانين والعادات المرتبطة بالحياة الاجتماعية والدينية، وفضلا عن ذلك، قد يأتي بعض الناس هنا بنيّة السفر والترحال، وقد يحدث شيءٌ يزعج الحكومة البريطانية السامية. وإن شاء الله إذا ما أراد أي شخص القدوم إلى داخل الأرض، فعليه أن يفعل ذلك دون أن تخبرني الحكومة البريطانية عنه[1].

وورد عن ديكسون أنّه قال: إن عبد العزيز قد أخبره شخصياً، أنّه يود لو يتم منع واكفيلد رسمياً من السفر إلى داخل الأرض[2]. وفي هذه الأثناء، ورد عن الوكيل السامي في الكويت، أن واكفيلد ما تزال في الكويت، «تتجول بلباس عربي، وتحاول من غير جدوى ترتيب أمور سفرها داخل الأرض مع أصحاب القوافل»[3]. حذّر ديكسون واكفيلد بألا تواصل محاولاتها، كما أكد لعبد العزيز أنّه تصرف وفقاً لما طلبه منه[4].

ويبدو أن فرانسيس واكفيلد قد استقرت في الكويت، وحوّلت نفسها من شخصية غير مرغوب فيها سياسيا إلى شخص «عديم الأذى»، لكنها مع هذا بقيت خارجة عن المجتمع الإمبريالي في الخليج. وفي نوفمبر أخبر الوكيل البريطاني الجديد في الكويت؛ ج.س.مور المقيم البريطاني:

وصلت الدكتورة (الآنسة) واكفيلد مرة أخرى إلى الكويت بعد غياب دام سنتين، أخبروها أخيراً أنها تستطيع القدوم إلى الكويت وأقامت في بيتها القديم... كان الجميع ينظر إليها في بداية الأمر بشك كبير، وباستثناء آخر سنتين كانت في هذا البلد منذ قدومها، عاشت في منزل عربي صغير وعادة ما كانت ترتدي ملابس المرأة العربيّة. في الحقيقة، أعتقد أنها لا ترتدي ملابس أوروبية إلا عندما كانت تأتي لزيارتنا، أو عندما تذهب للبعثة

(1) عبد العزيز آل سعود إلى الوكيل السياسي البحرين، 17 فبراير 1920، سجلات وزارة الهند: إل/ب. إس/11/170.

(2) ديكسون إلى المفوض الرئيس في بغداد، 25 فبراير، 1920، سجلات وزارة الهند: إل/ب. إس/11/170.

(3) الوكيل السياسي في الكويت إلى بغداد، 26 فبراير 1920، سجلات وزارة الهند: إل/ب. إس/11/170.

(4) ديكسون إلى عبد العزيز آل سعود،، 26 فبراير، 1920، سجلات وزارة الهند: أر/15/2/81.

الأمريكية. وأعتقد أنها كتبت لابن سعود تحت اسم نرجس خاتون (وهذا هو الاسم، الذي كانت تسمي به نفسها بالعربية) تطلب منه السماح لها بالسفر إلى نجد، وقد كان هذا قبل وقت طويل. ومنذ وصولي إلى هنا، لم تتسبب بأية مشكلة، باستثناء تلك الموجهة لشخصي، وذلك عندما كانت تأتيني على نحوٍ متفرقٍ بإشاعات غريبة كانت قد سمعتها، أو عندما كانت تطلب مني في أوقات متفرقة أن أساعدها بالسفر إلى الرياض، أو حائل، أو ما شابه. لم تكن مبشرةً، ولم تكن طبيبة ممارسة، ومن الصعب أن نحدد نوع عملها إلا إذا كانت تجمع مادة لكتاب أو ما شابه. أعتقد شخصياً أنها لم تكن أي من هذه الأشياء، لكنها غير مؤذية ولا أعتقد أن هناك خوفاً من وقوعها في مشاكل، بمحاولتها الدخول إلى داخل الأرض من دون علمنا[1].

وفي ديسمبر ورد عن واكفيلد أنها تركت الكويت للإنضمام إلى بعض الأصدقاء في سوريا[2].

وفي وقتٍ كانت فرانسيس واكفيلد فيه مُهَمَّشة، كونها غير تقليدية، وغير مالكة لقواها العقلية، كان هناك رحالة أمريكية معاصرة تدعى غراس سترانغ، كان يعتقد أنها مثيرة للمشاكل، وغير مستقرة، شأنها شأن واكفيلد تماماً لا بل وأكثر، ولدت غراس أوبرا سترانغ في جولي، بولاية إنديانا، وحصلت على درجة الماجستير من جامعة كاليفورنيا عام 1917، والتحقت بالإرسالية التبشيرية العربية عام 1922[3]. وفي مايو من عام 1925 أشارت «جزيرة العرب المهملة» إلى أنها كانت مريضة جداً، وتم إرسالها إلى بعثة أركوت في الهند، وقيل إنها أخذت تتماثل للشفاء[4]. ولم يمض سوى شهرين حتى نُقل عن البريطانيين أنها أبحرت من بومباي إلى دبي، وأنها بعدما أخبرها موظفو السفينة، أنه لا يسمح

(1) جَ. سِ. مور، الوكيل السياسي في الكويت إلى المقيم السياسي 25 نوفمبر، 1924، سجلات وزارة الهند: أر/15/5/98.

(2) مور إلى المقيم السياسي، 27 ديسمبر، 1924، سجلات وزارة الهند: أر/15/5/98.

(3) ألفريد دي وبت ماسون وفردريك. جَ. بارني، تأريخ الإرسالية التبشيرية العربية، (نيويورك: لجنة الإرساليات التبشيرية للكنيسة الإصلاحية في أمريكا، 1926)، ص 247.

(4) جزيرة العرب المهملة، رقم 132، يناير–مارس، 1925.

لها بالنزول على الشاطئ، «أعلنت أنها قد تلقت وحياً يخبرها بالنزول هناك». ووفقاً لرواية القائم بأعمال الوكيل السياسي جورج ملام، عندما وصلت السفينة دبي، أعدت سترانج الترتيبات اللازمة مع أحد البحارة، وفي الليل نزلت بحبل عن سطح السفينة إلى أحد جوانبها، عندما كانت الممرات ما تزال منصوبة. وفي الصباح، أخبر القبطان شرطة دبي، الذين لم يتمكنوا في البداية من إيجادها، ثم أبحروا على طول الساحل إلى الشارقة، وعادوا إلى السفينة في المساء، ومعهم الآنسة «سترانج»، «كانت تضع رداءً عربياً ومحفوفة بصناديقها جميعا. ثم أخذت إلى سطح السفينة التي غادرت متوجهة إلى البحرين»[1].

طلب مالام من المقيم أن يحذر السلطات الهندية من إصدار تذاكر، أو جوازات سفر للمسافرين الأوروبيين المتوجهين إلى دبي بغير إذن رسمي، لكنه أضاف أنّه قد تلقى رسالة تطمين من فريد بارني، وهو من أعلى المبشرين رتبة، والمتمركز حالياً في بعثة بغداد[2]. أوضح بارني أنه بدا على الآنسة سترانج أعراض مرضٍ خطير خلال السنة الماضية، لكنها رفضت تلقي العلاج الطبي وفقاً لمبادئها، وقد أرسلتها الإرسالية التبشيرية إلى الهند، وأخبروها ألا تعاود الرجوع إلى الخليج، غير أن سترانج رفضت الانقياد لتعليمات الإرسالية التبشيرية وعدّت أنها «قد قطعت ارتباطاتها بنا... وتبنت القيام بعمل ديني على مسؤوليتها». في هذه الأثناء، كانت الإرسالية التبشيرية تتوقع استلام استقالتها الرسمية في أقرب وقت، والارتحال إلى سوريا[3]. وبعث الميجور مور في الكويت رسالة إلى المقيم في الشهر نفسه أخبره أنه «كان يظن أنه قد تم إبعادها من الكويت لتموت»، إذ كان الجميع يظن أنها تعاني من السرطان في مراحله المتأخرة، «لكن هذا كان مجرد تخمين لا تشخيص؛ لأنها لم تسمح لأي طبيب بفحصها أو كتابة وصفة لها لأنها تنتمي لسلك العالم المسيحي». وأضاف يقول: إنها كانت على ما يبدو بصحةٍ أفضل عندما نزلت في

(1) القائم بأعمال الوكيل السياسي في البحرين، الكابتن جورج مالام إلى العقيد إف. ب.. برايدو، المقيم السياسي و17 مايو 1925، سجلات وزارة الهند: أر/81/2/15.

(2) وُلد المبجل فريد بارني، أحد واضعي كتاب تاريخ الإرسالية التبشيرية العربية، في بازل، سويسرا، وتلقى تعليمه في كلية نيوبرونسويك وكلية برنستون الدينية. التحقت بالإرسالية التبشيرية العربية عام 1897.

(3) مالام إلى برايدو، 17 مايو 1925، والمبجل جَ. بارني إلى مالام، 16 مايو، 1925، سجلات وزارة الهند: أر/81/2/15.

دبي[1]. وفي وزارة الهند، دوّن مونتيث ملاحظة أخرى بالملف:

الآنسة سترانج التي تمكنت من النزول في دبي على الرغم من جهود السلطات الحثيثة لمنعها، كانت سابقاً تتبع الإرسالية التبشيرية الأمريكية. إلا أن شعورها بالنصر كان قصيراً جداً، فهي على الأرجح قاصرة جسدياً وعقلياً، والإرسالية التبشيرية ليست مسؤولة عنها بأية طريقة كانت[2].

كانت النساء أمثال واكفيليد وسترانج يوصفن من قبل البريطانيين، وفي بعض الأحيان، السلطات الأمريكية عن قصدٍ وإدراك، بالمريضات، وغير المستقرات على المستويين الجسدي والعقلي، فسلوكهن على الأقل لم يكن اعتياديا. وكان من الصعب دون الاستناد إلى اعترافهن تحديد إدراكهن للحقيقة، أو دوافعها، وتصورهن لأنفسهن. فبعض أعمالهن كارتداء ملابس العرب والعيش مثلهم، أو محاولتهن السفر إلى وسط الجزيرة العربيّة، كانت ببساطة تامة غير مقبولة في المجتمع الاستعماري في الخليج على الصعيدين الاجتماعي والسياسي. وبدا واضحاً أن بعض أعمالهن كانت مدفوعة بشكل جزئي بالدين، لكن كان جلياً أن واكفيلد وسترانج كانتا امرأتين ترفضان العيش وفقاً للقواعد؛ ولذلك سعتا بحثاً عن الاستقلال من خلال السفر. وفي أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كان هناك الكثير من النساء الرحالة مثل واكفيلد وسترانج، ممن كن يمثلن أشخاصاً آخرين، أو كن عن قصدٍ يُعرِّفن أنفسهن «بالجامحات»[3].

شكل السفر طريقاً إلى الحرية أو على الأقل إلى نمط حياةٍ مختلف، وأكثر استقلالاً لنساء الطبقة الوسطى الميسورات، اللواتي كنّ يرفضن الانصياع لنمط الحياة العائلية الفكتورية التي كانت شائعة في بدايات القرن العشرين. و فضلا عن ذلك، مدّهن السفر بفضاء جغرافي وحضاري مختلف، يحتوي كل المقومات المغرية لحريّة عاطفية وجسدية، إلى

(1) مور إلى برايدو، 18 مايو 1925، سجلات وزارة الهند: إل/ ب. إس/11/170.

(2) ملاحظة/محضر اجتماع وضعه دِ.تِ. مونتيث، الدائرة السياسية في وزارة الهند، سجلات وزارة الهند، إل/بِ. إس/11/170.

(3) دليل جان روبنسون حول النساء الرحالة، الذي وضعه عام 1990 (نساء جامحات: دليل للنساء الرحالة)، أكسفورد مطبعة جامعة أكسفورد، 1990). يستخدم الدليل هذه الطبعة معها.

جانب الدافع الفكري. كان الترحال في الشرق بالنسبة للنساء الأمريكيات، والبريطانيين عند مقارنته بالسفر في أوروبا يضمن لَهُنَّ مكانة مميزة، وشهرة، وسوء سمعة وبهجة، في أن تكون «بيضاء بين المحليين» عوضا عن أن تكون زوجة أو أم لعائلة[1]. ومن جهة أخرى، وضع «الجموح» ذاته، الذي قاد النساء إلى الترحال وحدهن، في بعض الأحيان النساء خارج أو على هامش مجتمعاتهن، وجعلهن عرضة للسخرية والتهميش، كانت المرأة التي تسافر وحدها تهدد ضمنياً الوضع الراهن على المستويين العائلي، والتراتبي الاستعماري، والإمبريالي الحساس الذي شيد بعناية فائقة. فالسياسيون والإداريون البريطانيون في الخليج في بدايات القرن العشرين كانوا منشغلين تماماً، بل مهووسين بالمحافظة على مصدر قوتهم وتجنب أيّة معوقات من شأنها قلب منظورهم لتوازن القوى الاستعمارية في الشرق الأوسط. وعلى هذا الأساس، كانت المبشرات، وحريٌّ بنا القول، المبشرون الأمريكيون من الجنسين، موضع شك دوماً؛ بسبب ميولهم الواضحة لتجاوز الحدود الاجتماعية والثقافية. فقد سببت النساء المسافرات المستقلات من غير راعٍ ذي شأن ومن غير رقيب عليهن، كثيراً من الاضطراب حتى إن كل أنثى بيضاء كانت تتطفل على الصحراء العربية، قد أثارت سيلا من البرقيات بين الوكلاء السياسيين وملفات تقارير في لندن والهند.

تغلبت النساء المسافرات على العوائق التي واجهنَها بطرق مختلفة، فبعضهن أعلنَّ صراحة أنهن يثرن مشاكل مع النظام؛ ليفسحن الطريق أمام رحلات أخرى، وليتجنبن المخاوف والاعتراضات، التي قد يضعها في طريقهن الإداريون الاستعماريون المحليون. وبعض النساء كغيرترود بيل وفريا ستارك، اخترن أخيراً أن يكن خادماتٍ للإمبريالية والاستعمار. وفي هذا السياق، كن يَصُغْنَ تقارير رسمية، ويعملن ضمن الإدارة المحلية، ويوظفن مستلزمات الدبلوماسية للحصول على إقرار برحلات جديدة. فبيل قدمت نفسها، كما

(1) تحليل لأنماط كتابات النساء المتعلقة بالسفر والسياق الاستعماري، انظر: Mills, Sara, Discourses of Difference: An Analysis of Woment's Travel Writing and Colonialism, London and New York: Routledge, 1991; Pratt, Mary Louise, Imperial Eyes: Travel Writing and Transculturation, London and New York: Routledge, 1992.

رأينا بوصفها موظفة حكومة، وكانت تعد «اكتشافاتها» أقل أهمية من عملها. ومع هذا. انجذبت بيل جزئياً نحو الخدمة الاستعمارية والإمبريالية، شأنها شأن كثير من زملائها الذكور، شوقا للسفر، والتحرر من قيود الحياة المنزلية والمجتمع. أما النساء الأخريات أمثال إيميلي لورمير، وفيوليت ديكسون زوجة هـ . أر ب. ديكسون فقد كُنّ خاتونات، عملن وسافرن بأمان في ظل رفقة أزواجهن الضباط السياسيين. وبعضهن مثل دورا فيلبي قد انسقن وراء شخصيات أزواجهن الطاغية. وأخريات مثل رزويتا فوربس، كُن مغامرات لا يردعهن شيء.

نشرت جوان (روزيتا) فوربس كتابها «نساء يدعين جامحات» عام 1935[1]. وهو يروي قصص نساءٍ قابلتهن خلال عملها الطويل في الترحال، والاكتشاف والصحافة في آسيا، وإفريقيا، والشرق الأوسط. وُصف غلاف الكتاب الخارجي الكتاب «بقصصٍ لطرقٍ غريبة وأناس غرباء» كما تضمن قطّعة تأبينية لنساء جامحات قضى عليهن حبٌ رجل، أو بلد، أو دين، أو حتى فكرة ما. واشتمل الكتاب على مواضيع تباينت بين العبودية في أبيسينيا (إثيوبيا) وبين الجزيرة العربية، إلى قصص نساء صينيات قاتلن لأجل الأفكار البلشفية، وقصة امرأة كانت تتبع الكتيبة الفرنسية الأجنبية في جنوب المغرب، وقصة زوجة زعيم كردي قاتلت الأتراك بنفسها[2]. ويدل عنوان الكتاب الغريب على مواضيعه، التي قد تنطبق على المؤلفة وبعض النساء المعاصرات لها.

كانت فوربس كاتبة غزيرة، لكنها قدمت نفسها بشكل اساسي كرحالة، وكانت تشير إلى الترحال بوصفة وسيلة تمكنت من خلالها أن تجد شخصيتها الحقيقة. وفي القسم، الذي تحدث عنها في كتاب «من هذا الشخص؟»). وصفت عملها «أنه ترحال مكثف في معظم البلدان». وفي مقدمة سيرتها الذاتية كتبت تقول: «بحثاً عن بداية كياني، كفرد لا كابنة والد لم رغم كل المشاكل التي واجهته، ولا كزوجة اسكتلندي بهي الطلعة، عشت

(1) Rosita Forbes, Women called Wild, London: Grayson& Grayson, 1935

(2) الغلاف الورقي الخارجي لكتاب نساء يدعين جامحات في ملف الدائرة السياسية لوزارة الهند لعام 1935 حول الرحالة، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/ 12/4306.

معه لثلاث سنوات حياة بائسة تماما لا يتصورها العقل. أجد نفسي على سطح مركب يقطع المسافة بين مساوا، والسويس»[1].

ولدت فوربس في لينكولنشاير عام 1890، وكانت كبرى ستة أطفال. ووفق سيرتها الذاتية، فإنَّ أباها هيربرت تور، أحد الإقطاعيين في لينكولنشاير، ينحدر «من عائلة قديمة لكنها عموماً غير مهمة». تلقى والدها تعليمه في كامبردج و«كان بيوريتانيا متحررا» يمتلك حسا عميقا بالواجب، وكان أيضاً متمسكا بالمثل الاجتماعية العليا، عمل في «بعثة الأكواخ التبشيرية»، أما والدتها، فهي ابنة رجل أعمال اسكتلندي من أصل إسباني، وكان محافظاً متشدداً. ادعت فوربس أنها كانت دوماً متيقنة من أنها تختلف عن باقي الناس. كانت تقرأ بنهم شديد عندما كانت تقضي وأخوها طفولة وحيدة دون أصدقاء. وانجرفت أخيراً إلى «زواج غير سعيد فرض عليها» من العقيد رونالد فوربس، الذي كان يكبرها باثني عشر عاماً[2]. بدأ سفرها مع زوجها، فسافرت إلى الهند واستراليا، لكنهما تطلقا عام 1917. كانت خلال الحرب، تقود سيارات إسعاف جمعية مساعدة الجرحى العسكريين، وتم منحها ميداليتين[3]. عادت إلى باريس خلال انعقاد مؤتمر 1919 للسلام، ثم انطلقت إلى شمال إفريقيا. قابلت العقيد آرثر ماكراث عام 1921، وكان ضابطاً في المخابرات العسكرية، (حضر مكراث إحدى محاضراتها في الجمعية الجغرافية الملكية)، ونتيجة هذا اللقاء؛ أن تزوجت زواجاً ثانياً غير تقليدي دام أكثر من سابقه.

وكتبت تقول: «إلى جانب الشمس»

كانت الخيول تمدني بأقصى متعة والرجال بأقلها. لست ذكية مع الرجال، فأنا أكون على وئام معهم عندما يوافقون على أن يكونوا أصدقاء تربطني بهم علاقة عمل وثيقة، وبشكل عام، من دول أخرى. عندها أكون مقتنعة بهم، أستطيع أن أكوّن علاقة شخصية مقنعة معهم لفترة محدودة[4].

(1) Rosita Forbes, Gypsy in the Sun, London: Cassell & Co., p 49; Who was who, 1946.1961-1970.

(2) Rosita Forbes, Gypsy in the Sun, p 10.

(3) ملاحظة ذات علاقة بسيرة فوربس خطتها دورثي ميدلتون في قاموس السيرة الوطنية 1961–1970، ص 376–377.

(4) Rosita Forbes, Gypsy in the Sun, pp 61-62

أما أشهر رحلات فوربس، تلك التي جعلتها مشهورة، فهي الرحلة التي قامت بها على ظهور الجِمَال عام 1920، عَبَر الصحراء الليبية إلى واحة الكفرة المقدسة و«المحرمة»، التي كانت تقع خارج منطقة الاحتلال الإيطالي، وتخضع لسلطة السيد إدريس السنوسي (أصبح لاحقاً الملك إدريس، ملك ليبيا). وكان قد سبقتها بالوصول إلى هناك بعثة استطلاعية أوروبية واحدة[1]. وعملا بتقاليد الرحالات الفيكتوريات أمثال: الليدي آن بلنت، وإيزابيل إيبرهارت. قامت فوربس بالرحلة مرتدية لباس امرأة عربية، لكن مع إضافة حديثة، ألا وهي كاميرا مخفية تحت غطاء رأسها، وقد رافقها خلال رحلتها العالم المصري، المستكشف أحمد حسنين بيه، الذي كانت تدين لخبرته ومعرفته بكثير من إنجازتها. وبعد الكفرة، واصلت رحلتها عبر الصحراء إلى مصر، وواحة سيوا سالكة طريقا جديدة. وفي السنة التالية، وثقت اكتشافاتها في أشهر كتبها، الموسوم بـ «سر الصحراء»[2].

أما رحلاتها اللاحقة فقد قامت بها بشكل أكثر انفتاحاً، ووفقاً لنمط الصحافة في أواخر القرن العشرين، إذ كان هناك مصورون، ودفاتر ملاحظات. ارتحلت عام 1925 إلى أبيسينيا [أثيوبيا] حيث التقطت صوراً ثابتة ومتحركة، ثم ارتحلت إلى الهند، وبلاد فارس، وأفغانستان وآسيا الوسطى الروسية، وجنوب أمريكا. قابلت في رحلاتها قادة سياسيون، ونشرت مقابلاتها في كتبها العديدة ومقالاتها الصحفية. ويبدو أنها كانت ستصبح صحفية تلفزيونية فذة، لو أنها ولدت بعد ولادتها بنصف قرن[3]. بيد أن تصويرها الصحفي المتميز، ومظهرها، وسلوكها البهيين قد كونا عنها انطباعاً سطحياً غير عادل، في حين أنها في الحقيقة كانت شجاعة ومصممة. فعدّتها غيرترود بيل لاهية، وهي التي لم تكن متعاطفة مع نساء أُخريات شديدات المراس، خاصة نظيراتها من الرَّحالات. وقدمت لنا في سبتمبر من عام 1912 قصة منقولة عن وصول روزيتا:

عليّ ... أن أقص عليكم قصة السيدة روزيتا فوربس. لاحظت زوجة أحد أطبائنا هنا،

(1) كان هذا غيرهارد رولفس عام 1879، قاموس للسيرة الوطنية، 1961–1970، ص 377.

(2) Forbes, Rosita, The Secret of the Sahara: Kufara, London: Cassell, 1921.

(3) بعض أفلام فوربس محفوظة في مشروع الأفلام النسائية الريادّية في جامعة ديوك، دَرَمْ، كارولينا الشمالية.

وكانت متجهة إلى الوطن لقضاء إجازة، سيدة تضع ملابس منمقة، تفضل أن تصْعدَ على سطح القارب في ميناء سعيد (بور سعيد)، واستغرقت وقتاً طويلاً في وداع محمومٍ لرفيق لها يعتمر الطربوش. وبعد مغادرتها، جلست السيدة وحدها مما دفع السيدة سندرسن بالتوجه نحوها، والجلوس إلى جانبها، ألقت السيدة سندرسن ملاحظة حول الطقس، فإجابتها بقولها: «أفترض أنك تعلمين من أنا!» أجابت السيدة سندرسن ببراءة «أعرف أن اسمك فوربس، رأيته على صندوق قبعتك» نهاية المشهد. لم تتحدث مع أحد خلال الرحلة، لكن عندما كان المسافرون يرغبون في إقامة حفلات ليلاً، كانت تجلس على الطاولة الوسطى، في غرفة الموسيقى، محاطة بكتبٍ، وأوراق، ومخطوطات، وتستغرق بالعمل عليها[1].

كانت بعثة استكشاف الكفرة فتحاً جغرافياً، و قد تم التعامل مع كتب فوربس ورحلاتها بجدية تامة، إلى حد أنها نوقشت في مجلات الجمعية الجغرافية الملكية، وجمعيات آسيا الوسطى، حتى إن السيد بيرسي سايكس، وهو إداري إمبريالي، وضابط في الجيش وعالم مميز، قد قدَّم عرضاً لكتابها «نساء يدعين جامحات»، واعترف إلى أن ما جاء في الكتاب حول تجارة العبيد المعاصرة «معلومات قيمة»، وكتب سايكس يقول: «لا بد أن فوربس قد ارتحلت أكثر من أي رحالة آخر ما زال على قيد الحياة، وقد قطفت من كل بستان زهرة». وختم بقوله: «ونظراً لضيق المجال المتاح لي علي أن أشير أن قصص هذا الكتاب «ذات جودة فائقة»، وتجعل القراءة ممتعة. ويعد الكتاب برهانا صارخاً على قدرة الكاتبة الملحوظة على سبر غور كل مكان كانت تمر به»[2].

ولعل أكثر ما تشتهر به روزيتا فوربس، في سياق تأريخ الخليج العربي والجزيرة العربية والسفر إليهما، هو رحلتها إلى جنوب غرب الجزيرة العربية عام 1922، ومحاولتها عام

(1) غيرترودبيل، رسالة 25 ديسمبر، 1921، إليزابيث بيرغوين غيرتوردبيل: من أوراقها الشخصية 1889–1914 (لندن: إيرنست بين 1958) المجلد 2، ص 248.

(2) عرض بيرسي سكايس لكتاب « نساء يدعين جامحات»، مجلة جمعية آسيا الوسطى الملكية، رقم 23 (1936)، ص 174.

1924 الذهاب، مع أو دون هاري إستِ. جَ. بِ. فيلبي إلى المنطقة الجنوبية من الصحراء العربية، المعروفة بالربع الخالي إلى العاصمة السعودية، لمقابلة الحاكم عبد العزيز آل سعود. وتعود أهمية الرحلتين لما تحملانه من جُرأة في الأهداف واختلاف في مسوغات الرحلتين بين فوربس من جهة، وبين العرب والبريطانيين من جهة أخرى.

انطلقت فوربس في أولى هذه الرحلات عام 1922، لاكتشاف منطقة عسير التي تقع جنوب غرب الجزيرة العربية، وزيارة حاكمها الإدريسي، الذي يمت بصلة قرابة بعيدة للقادة السنوسيين، الذين كانت قد قابلتهم في ليبيا. ولعل ما أضفى على الرحلة أهمية إضافية هو أن الشهرة التي أحاطت بالرحلة قد كشفت عن الاحترام، الذي نالته فوربس من جمعيات الترحال، والاستكشاف التي كان يهيمن عليها الرجال. ونشرت الجمعية الجغرافية الملكية عام 1923 سردها الذاتي لهذه الرحلة، الذي ما زال مرجعاً أساسيا لمؤرخي هذه المنطقة التي لا يعرفها الكثير[1]. حطت فوربس، بعد عبور عسيرٍ في البحر الأحمر، رحالها في جيزان وذلك في شهر نوفمبر من عام 1922. ورافقها في رحلتها كمال فهمي، الذي كان مفتشاً في شركة سكة الحديد المصرية. وتستذكر فوربس في سيرتها الذاتية أنها، وفهمي قد عانا من دوار بحرٍ شديد. وحول هذه الحادثة ذكر الدبلوماسي البريطاني في القاهرة، لورنس غرافيتي سميث في مذكرة لوزارة الخارجية، «أن فهمي هو الرجل، الذي أنقذته روزيتا فوربس من السقوط بعد دوار بحر شديد برشفةٍ من الكولونيا، التي اعتقد كلاهما أنها براندي». وقد قطعا المسافة بين سواكين وجيزان في «عدولية مكشوفة، وتقاذفتهم أمواج البحر على مدى أربعة عشر يوماً»[2].

تقدم لنا مقالة فوربس وصفاً نادراً مفصلاً لميناء جيزان، والعاصمة صبية ، والمدن الساحلية الواقعة على سهل تهامة، والقرى الداخلية إلى الشرق والجنوب. استقبلهم في جيزان، ابن الأمير الإدريسي. لم يوافق الإدريسي على منحها تصريحاً بالسفر شمالاً «على

(1) Rosita Forbes A visit to the Idrisi territory in Asir and Yemen', The Geographical Journal 62, 1923,' pp. 271-78.

(2) Rosita Forbes, Gypsy in the Sun, p 73 ملاحظة في ملف لوزارة الخارجية وضعها غرافي سميث، 1 يناير، 1927، وزارة الخارجية.

الرغم من نقاش طويل دام ما يقارب تسع ساعات، وقد تخلله تناول خمسة أكواب من الشاي كلٌ منها بطعم مختلف»[1]. ومع هذا جمعت فوربس معلومات تكفي لوصف المجتمع، والدين، والسياسة في عسير، ودعَّمت مقالتها بصور، وفي نهاية المقالة، قدمت وصفاً للوضع السياسي في جنوب غرب الجزيرة العربية، والعلاقات بين الإدريسي، والإمام يحيى في اليمن، وعبد العزيز آل سعود، الذي كان الإدريسي قد عقد معه اتفاقية ستنضم بموجبها عسير إلى بلده في نهاية المطاف[2].

لقت رحلة فوربس الأولى عبر ليبيا إشادة بالغة، لكن محاولتها السفر إلى جنوب غرب الجزيرة العربية عُدّت من جوانب عدة شجاعة أيضاً. فالنظرة التي كانت سائدة في عسير واليمن أنهما منطقتان مغلقتان باستثناء شريط ساحلي على البحر الأحمر، حيث ازدهرت التجارة العالمية، ووجد تجار من مختلف بقاع الأرض، لهذا لم تكن هذه الرحلة بالمشروع السهل. كانت فوربس تدرك أيضاً المصاعب التي قد يضعها البريطانيون، أو الإيطاليون في طريقها، وهما القوتان الأوروبيتان الوحيدتان اللتان كانتا تتنافسان للسيطرة على البحر الأحمر عقب نهاية الحرب العالمية الأولى. أشارت في سيرتها الذاتية إلى أنها اضطرت للإعداد للرحلة سراً «لأن الحكومة لم تكن تسمح بأية مغامرة تتعدى الحدود الآمنة المعروفة للخارطة». «كنت طوال حياتي متهيئة للشجار مع موظفي الحكومة المصممين على منع المعلومات غير الرسمية من التسرب من خزائنهم. كانوا يقولون لي في مناسبة وفي غير مناسبة: «لا تستطيعين الذهاب! هذا مستحيل». كنت أجيبهم: «نعم، أفهم ذلك طبعاً»، وكنت أذهب حيث أريد»[3].

راقب البريطانيون بدورهم فوربس عن كثب، ولم يشعروا بالارتياح إزاء نشاطاتها. وفي ديسمبر من عام 1922، ورد عن الكابتن محمد فضل الدين الضابط السياسي البريطاني المعين في المنطقة، الذي كان يتمركز في الحديدة على ساحل البحر الأحمر، أنه أخبر رؤساءه في عدن

(1) Rosita Forbes A visit to the Idrisi territory in Asir and Yemen', 275

(2) أصبحت عسير إقليماً تابعاً للملكة العربية السعودية عام 1930.

(3) Rosita Forbes, Gypsy in the Sun, 72-73

عن وصول «رحالة الصحراء الليبية المشهورة»، التي سافرت إلى واحة الكفرة في شتاء 1920 و1921، على متن سمبوك من سواكين». وقال: «لم تبدُ فوربس مسرورة» برفض الإدريسي منحها تصريحاً بالسفر إلى ما هو أبعد من الساحل، أو عبر شمال عسير إلى الرياض[1]. ومع هذا وضع الإدريسي إحدى سياراته تحت تصرفها. وفوراً، أجاب المساعد الأول للمقيم في عدن، الميجور سِ. س. جَ. باريت فضل الدين بقوله إن البريطانيين يفضلون عدم التدخل في هذه القضية؛ لأن هذه المنطقة تخضع لحكم الإدريسي، وأنهم لن يقفوا في وجهه ليلبوا رغبة روزيتا. وأضاف: «أضف إلى معلوماتك أن المقيم يعد سفر هذه السيدة عبر الجزيرة العربية في هذا الوقت عملاً غير مرغوب فيه»[2].

قررت روزيتا عند وصولها الحديدة محاولة السفر عبر اليمن، وطلبت من فضل الدين مساعدتها بالإعداد لهذه الرحلة. غير أن البريطانيين تمسكوا بسياستهم بالتزام الحياد، وعدم تقديم أية مساعدة تُذْكر، على الرغم من أن المقيم قد اتخذ الاحتياطات اللازمة لعرض القضية على القاضي اليمني المحلي في عدن، الذي أكد له بدوره أن الإمام سيضمن سلامة فوربس. يقول المقيم: «قلت إن السيدة فوربس سيدة متميزة، وهي امرأة عنيدة ذات تصميم، ومن المحتمل أن تواصل رحلتها من غير تصريح»[3]. وفي رسالة إلى باريت، وصف فضل الدين المجريات كاملة بطريقة أوجز فيها إدراك فوربس المتيقن لأهدافها، وثقتها بنفسها، وتشكيك البريطانيين بدوافعها. وطلبت فوربس من فضل الله -حسب أقواله- أن يحل جميع مشاكلها، وسألته إذا كان قد سمع عنها، كما أخبرته بالنجاح الباهر، الذي حققه كتابها عن واحة الكفرة، وأنها تلقت عن هذا الكتاب عشرة آلاف جنية إسترليني. ومضت بقولها: إن الناشرين قد عرضوا عليها مبلغاً أكبر من هذا،

(1) مذكرة أرسلها الكابتن إم. فضل الدين إلى المقيم البريطاني في عدن، 6 ديسمبر 1922، سجلات وزارة الهند، أر/20/أ/3047أ.

(2) سِ. سِ. باريت، المساعد الأول للمقيم في عدن، إلى الكابتن إم. فضل الدين، 11 ديسمبر، 1922، سجلات وزارة الهند: أر/20/أ/3047أ.

(3) ملاحظة في ملف للمقيمية في عدن وجهت إلى المساعد الأول للمقيم، ووقعها بِ. أر. (رالي)، 13 ديسمبر، 1922، سجلات وزارة الهند: أر/20/أ/3048أ.

عندما سمعوا عن نيتها السفر إلى عسير ونجد. وقالت إنها تعتقد أن الإدريسي كان «غبياً» لإيقافها، وأنها الآن تكاتب الإمام. وقد حذرها فضل الدين من أن البلد غير مستقر فأجابت:

أستطيع أن ارتدي أي زي تنكري. أستطيع أن ألون جلدي بأي لون. أستطيع التظاهر أنني امرأة مسلمة. سأسافر وحدي، أستطيع القول أنني الزوجة الثانية لأحد الشيوخ. كان هذا هو جوابها، والجدال مع امرأة ليس بذي فائدة خاصة إذا كانت مندفعة. لهذا حاولت أن ألطف من حديثها بقضاء عدة أيام هنا للراحة، قبل إن نقوم بأي شيء[1].

قام فضل الله، بعد أن سَلَّم طواعية بالصورة المنشودة المخادعة الوقحة التي رسمتها روزيتا لذاتها، بإضافة ملحق لتقريره يتضمن لائحة ببعض الأسئلة التي كانت روزيتا قد وجهتها إليه. وتعكس هذه الأسئلة اهتماماً متعدداً، ومطلقاً في هذه المنطقة غير المعروفة، فاق تصورات الموظفين في عدن. سألت فوربس عن النظام الضريبي في عسير، وحول وصول الإدريسي للسلطة، وحول علاقاته مع عبد العزيز آل سعود، وموقع أضرحة الحميرين، والعلاقة بين البدو وسكان المدن. وأخيراً سألتني: «هل لديك أدنى معلومة إذا كان كتاب نيبور متوفراً هنا؟»[2]. كان المقيم في عدن قد نقل إلى الحكومة في لندن أن الإدريسي قد رفض منح فوربس تصريحاً بالسفر إلى الداخل، وأنه بعد أن عاودت فوربس طلبها مرة أخرى، «قدم النصح للإدريسي وأخبره، أن له الحرية الكاملة في التصرف حسب ما يراه مناسباً في هذه القضية». وجاءت وزارة المستعمرات لتؤيد تصرف عدن. ونجد في أوراق محاضر الدائرة السياسية في وزارة الهند، ملاحظة كتبها أحد الموظفين كان نصها: «أحسن الإدريسي التصرف! أتمنى عليه أن يواصل عناده»[3].

كان مشروع ترحال روزيتا فوربس الثاني بعد عامين يتمثل في اختراق الربع الخالي،

(1) فضل الدين إلى باريث، 13 ديسمبر 1922، سجلات وزارة الهند: أر/20/ 3047 أ.

(2) إشارة إلى الرحالة الدانماركي العظيم كارستن نيبور، وكتابه رحلات عبر جزيرة العرب، نشر بالإنجليزية لأول مرة عام 1792.

(3) برقية من المقيم في عدن إلى وزارة الدولة لشؤون المستعمرات 11 ديسمبر، 1922، وردُّ وزارة المستعمرات 14 ديسمبر؛ ملاحظة في وزارة الهند، وضعها إي. جِ. بِ. 28 ديسمبر سجلات وزارة الهند: ل/ب إس/11/222.

ومقابلة عبد العزيز آل سعود. وهذا المشروع جعلها على احتكاك مع واحد من المغامرين العظماء في الجزيرة العربية في تلك الفترة، ألا وهو هاري إست. ج. بِ. فيلبي. كان فيلبي بحلول عام 1924 قد استقال من السلك الاستعماري البريطاني، بعد خلافات شديدة مع زملائه في بغداد، ومن منصب الممثل البريطاني الرئيس في شرق الأردن منذ عام 1921[1]. عَمِلَ فيلبي في بغداد، بشكل مقرب، مع غير ترود بيل، وبعد انتهاء فترة القيود المفروضة خلال الحرب على وجود الزوجات، قضت دورا فيلبي وقتاً أكثر مع زوجها هناك. وقد وصفت بيل علاقتها مع عائلة فيلبي في بداية الأمر بالحميمة، وورد عنها أنها قالت، بعد أن دعتهم إلى حفلة عشاء أقيمت على شرفهم أنها: أحبت دورا «كثيراً وأنها مغرمة بالرجل، فالعمل معه –حسبما سمعت– يبعث على الإعجاب»[2]. ولم تنقض فترة طويلة، حتى فقدت أي شعورٍ بالمودة تجاه دورا، بل وبعد تناولهم العشاء مع عائلة كوكس بعد مضي عدة شهور، تذمرت بنزقٍ:

بدا كل شيء ممتعاً ولطيفاً –كلا– كان هناك استثناء واحد، أجد السيدة فيلبي انعزالية إلى حدٍ واضح. تكبدتُّ عناء بالغاً لأقيم صداقة معها، لكن ذلك لم يجد نفعاً، ولا أعتقد أنني سأكترث لهذا بعد الآن، لا أستطيع تصور مشكلتها. كان واضحاً، رغم كل هذا، أنها لا تحبني إطلاقاً. إذ قلما أرى السيد فيلبي هذه الأيام، لكن عندما أراه، يبدو ممتعاً[3].

بدا «واضحاً» أن دورا فيلبي كانت تمقت عدم تعاطف بيل الصريح مع زوجات زملائها. ونظراً لولائها الدائم قضت دورا شهوراً طويلة وحدها مع أطفالها. بينما كان فيلبي يتنقل في الشرق الأوسط. وحسب قول كاتبة سيرته –اليزابيث مونرو– عاد فيلبي، عندِ تعيينه في شرق الأردن، مزدهياً فرحاً، فركب طائرة سلاح الجو الملكي المتجهة إلى عَمَّان ... وكان واثقاً من قدرته على اكتساب قبول الناس، تاركاً دورا وحدها لتنجب ابنها (الثالث)، وتدفع تكاليف الولادة، ثم تحزم أمتعتها وتلحق به»[4]. مكثت دورا في عَمَّان

(1) Monroe, Elizabeth, Philby of Arabia, London: Faber & Faber, 1973.

(2) رسالة غيرترودبيل، 7 فبراير، 1921، بيرغوين غيرترودبيل، المجلد 2، ص 24.

(3) رسالة غيرترود بيل، 22 مايو، 1921، بيرغوين غيرترودبيل، المجلد 2، ص 217.

(4) Monroe, Elizabeth, Philby of Arabia, p113

عدة شهور، ثم عادت إلى لندن لتعيش حياة متقطعة من العزلة بعيداً عن فيلبي وأطفالها. فعلى سبيل المثال، عادت في بدايات عام 1923 بصحبة ابنتيها الصغيرتين إلى عَمَّان، تاركة وراءها ابنها كيم في مدرسة في لندن. وعند عودتها إلى شرق الأردن، انطلقت عائلة فيلبي في جولة إلى البتراء، رافقتهم فيها روزيتا فوربس، ورحالة أخرى مشهورة تدعى بيرترام توماس. تلقى فيلبي وزوجته انتقاداً فورياً من ضابط سلاح الجو الآمر في عَمَّان؛ لأنهما تركا ابنتيهما وحدها مع ممرضة في المدينة[1]. كانت دورا –وحالها هنا هو حال بيلا كوكس، ومئات من النساء في مواقع مشابهة– ممزقة بين الزوج والأطفال، وكانت تُنْبَذُ إذا فشلت باتباع الإجراءات التقليدية. في حين وجدت روزيتا الرحلة مريحة؛ لأنها بلا أطفال، ومعروفة كرحالة مستقلة. كتبت لعائلة فيلبي لاحقاً؛ لتشكرها لمنحها «هذا الوقت الجيد ... لقد حطّ عن أكتافي حمل العشر سنوات التي أضافتها رحلة عسير إلى عمري، فنادراً ما ضحكت بهذا المقدار»[2].

لطالما رغب فيلبي وزوجته منذ فترة طويلة باختراق الربع الخالي، ومن الممتع أن نعرف أن فيلبي وفوربس ادعيا لأنفسهما التخطيط لهذه الحملة. وتشير كاتبة سيرة السيدة فيلبي، اليزابيث مونرو إلى أن فيلبي كان يفضل «الذهاب وحده». لكنه رأى في روزيتا و«مقدرتها، التي تحسد عليها في كسب المال بلطيف القول من الصحافة العامة» فرصة لزيادة الدعم المالي للرحلة. كتب فيلبي في سيرته الشخصية «يُعدّ الأمر سهلاً بالنسبة لها، ففي أيام لورنس، اكتسبت قصصه البطولية في الجزيرة العربية الأولوية الكبرى في أسواق الصحافة. وكانت أية امرأة تقوم بمغامرة إلى بلد رومانسي خطر كهذا تستحق وزنها ذهباً». عرض اللورد بيرنهام، وجريدة الدايلي تلغراف مبلغاً مقداره «4000» جنية إسترليني، و«تم الاتفاق على جميع التفاصيل لتنال رضا جميع الأطراف، واتفقنا على أن

---

(1) المرجع السابق ص 128–128.

(2) روزيتا فوربس إلى هـ.إس ت. ب. فيلبي ، ودورا فيلبي 4 مارس 1923، كلية القديس أنطوني، مركز الشرق الأوسط، أوراق فيلبي، بريطانيا العظمى. 165–229، كاد كيم فيلبي أن يتهم خلال فترة نضوحه بالجاسوسية للاتحاد السوفياتي.



عائلة فيلبي مع روزيتا فوربس وبيرترام توماس، البتراء، 1923

تكتب روزيتا جميع مقالات الشهرة، وفي المقابل، أقوم أنا بكتابة كتاب «جاد» حول الرحلة»[1]. وتثبت هذه الفروق التي كانت تعكس تسليم فيلبي المبسط، الذي يَنُمّ عن هوسٍ ذاتي طَبيعي في تقسيم الأدوار الجنسوية، صحة التأريخ الوظيفي الكتابي لكلا الشخصيتين. لكن هذا التمايز لا ينصف علم روزيتا، التي كانت تقبع في ظل غشاء شفيف من سطحية «الأنثى» النمطي. كان هدف روزيتا الرئيس على أي حال، هو مقابلة عبد العزيز آل سعود لا عبور الصحراء، وقد وظفت فيلبي لعدة شهور لتحاول الحصول على أذن بالسفر إلى الرياض. وفي مايو من عام 1923، كتبت إلى فيلبي، مشيرة إلى اجتماع في وزارة الهند، كانت قد وعدته قبله بعرض آرائه حول الوضع السياسي في الأردن:

اجتمعت مع السير جَ. شكبيرغ لساعتين متواصلتين، وأخبرته بالوضع الراهن في فلسطين، وشرق الأردن. وقابلت أيضاً بعض أعضاء الحكومة ... والآن أرجوك قمت

(1) هـ. أستِ. ب. فيلبي الأيام العربية: سيرة ذاتية (لندن: روبرت هال، 1948)، ص 241، مونرو: فيلبي جزيرة العرب، ص 141.

بكل ما يتوجب عليَّ القيام به فيما يتعلق بفلسطين، وشرق الأردن. لقد نقلتُ أفكارك هناك دون أن أذكر أني قابلتك. لهذا هلا وفيت بتلك المهمة المريعة التي وعدت... ابعث برسولٍ إلى ابن سعود لينقل له رسالة مقنعة يطلب فيها منحي إذناً بالسفر إلى الرياض الشتاء القادم. قل له إنّه الزعيم العربي العظيم والوحيد، الذي لم يتسنَ لي التعرف عليه ... أنت طبعاً أعلم مني بما يجب عليك قوله وأرجوك لا تدع له مجالاً للرفض. أنا واثقة من أنك تستطيع ذلك، فأنا أريد أن أرى وسط الجزيرة العربية. وأستطيع بسهولة الانضمام إلى قافلة من دمشق ... وإذا ساعدتني في هذا، ستكون أنت الشخص الوحيد الذي يفعل ذلك، وسأكون شاكرة لك ما حييت!!! وهذه عبارة جادة رغم أنها تبدو مبالغاً بها[1].

كان لفوربس شبكة معارفٍ ضخمة متمكنة، ولم تفتها فرصة استغلال معارفها لمصلحتها. ومع هذا لم يعرف عنها قط انتظارها الطويل للحصول على ترخيص رسمي. وفي يوليو كتبت إلى فيلبي مرة أخرى تشجعه على مواصلة الإعداد للرحلة، و«تخبره بسعادتها، لقيامه بالاتصال مع عبد العزيز آل سعود مرة أخرى، لكن لماذا، ولأي سبب، علينا انتظار إذْنٍ من وزارة المستعمرات؟ فهم بطيئون جداً»[2]. انطلقت، خلال فترة انتظارها الرد، في جولة عبر الولايات المتحدة، تلقى فيها محاضرات. وفي فبراير من عام 1924، كتبت إلى فيلبي مرة أخرى. لكن هذه المرة من نيويورك؛ لتعبر له عن نفاد صبرها وفي الوقت نفسه، لتنقل له حكمها الدقيق المطلع على مقدرة الحاكم السعودي وتأثيره الممكن. تقول: «حلم حياتي» الآن هو السفر إلى الرياض، وأنا الآن أعتقد أكثر من أي وقت مضى أن ابن سعود هو الشخصية الرئيسية في الجزيرة العربية، عليّ أن أقابله بطريقة أو بأخرى» ومضت تخبره أن جولة المحاضرات كانت عبارة عن «وظيفة فظيعة تأخذ ساعات طويلةٍ من العمل المتواصل الشاق -أحاضر ما يقارب الخمس مرات في الأسبوع، وأقطع مسافات طويلة بين المحاضرات. وأتحدث دوماً إلى أناس جهله تماماً، إلى حد أنهم

(1) روزيتا فوربس إلى فيلبي، 20 مايو 1923، أوراق فيلبي، بريطانيا العظمى. 165-229. كان السير جون إيغيلين شكبيرغ رئيساً للدائرة السياسية لوزارة الهند، في تلك الفترة أُعير لوزارة المستعمرات كمساعد لوكيل وزارة الدولة. انتقل إلى وزارة المعسكريات عام 1904.

(2) فوربس في فيلبي، 6 يوليو، 1923، أوراق فيلبي، بريطانيا العظمى، 165-229.

لا يعرفون مَن العربي؟»» ومع هذا، كنت بحاجة للمال لرحلة الرياض «فعندما يكون الناس من البلاهة بمكان، فإنهم سيمدونني بكل ما أحتاج إليه لأسافر إلى نجد[1].

تقدمت فوربس في أكتوبر من عام 1924، بطلب رسمي إلى وزارة المستعمرات، للحصول على إذنٍ يسمح لها بالسفر إلى الخليج براً، وأخبرتهم أنها ذاهبة نيابة عن تجمع العاملين في الفيلم الأمريكي، لتصوير فيلم في بلاد فارس، والتقاط صورٍ لبعض الآثار الفينيقية في البحرين[2]. بيد أن وزارة المستعمرات كانت قد تلقت معلومات من «مصدر سري موثوق» تفيد أن قصدها الحقيقي هو الانضمام إلى فيلبي، والقيام بحملة استطلاعية مشتركة إلى جنوب الجزيرة العربية فضلا عن تطلعها لعبور الربع الخالي. وبناءً على هذا قام موظفو وزارة المستعمرات بتوجيه تحذير اعتيادي لها، مفاده: أنه في ظل الظروف غير المستقرة في وسط الجزيرة العربية، فإن الحكومة البريطانية ترى أنه من غير المستحب لرحالة بريطانيين الذهاب هناك[3]. قررت فوربس وفيلبي في نهاية المطاف الانطلاق كُل على حدة، هي عبر سوريا، والعراق، وهو عبر مرسيليا، ثم يتقابلان في الخليج. أرسلت روزيتا إلى فيلبي رسالة تآمرية تؤكد فيها الخطة «نعم، تم الإعداد لكل شيء لكن يجب ألا يرانا الناس سوية. لهذا هّلا تناولت الغداء هنا يوم الاثنين»[4]. غادرت إنجلترا إلى جوٍ يشوبه الانتقاد الرسمي الفوري والشكوك. عَبّرت غيرترود بيل في بغداد —وهي المعروف عنها التحامها بالسلطة الاستعمارية حتى عندما كانت تختلف مع سياستها— عن الإحباط الحكومي العام، وكتبت إلى والدها في أكتوبر تقول:

تنوي روزيتا فوربس السفر عبر سوريا، ثم النزول عبر الخليج العربي حيث تنوي هي والسيد فيلبي زيارة ابن سعود، وتسعى وزارة الخارجية التي استفزتها الأخبار لوقف روزيتا فوربس بكل ما أوتيت من وسيلة. أصلي بألا ينتهي بها المطاف إلى الإقامة هنا.

(1) فوربس، نيويورك إلى فيلبي، 6 فبراير 1924، أوراق فيلبي. بريطانيا العظمى ، 165—229.

(2) ملاحظة حول المقابلة التي تمت في وزارة المستعمرات بين السير جون شكبيرغ وفوربس، 22 أكتوبر 1924، سجلات وزارة الهند: إل/ ب. إس/11/251.

(3) وزير الدولة لشؤون المستعمرات إلى المقيم في عدن، 3 يناير 1925، سجلات وزارة الهند: أر:20/أ/4998.

(4) فوربس إلى فيلبي (غير مؤرخة) أوراق فيلبي بريطانيا العظمى، 165—229.

فهي فضولية من الدرجة الأولى. غادر ابن سعود الآن إلى مكة؛ حتى لا تتمكن من اللحاق به، فحياتنا المثقلة بالأعباء هنا لا تحتاج إلى إضافة السيد فيلبي وروزيتا فوربس[1].

وعلى أي حال، وصلت فوربس بوشهر برفقة مصور سينمائي، ومكثت عند المقيم «اللطيف» المقدم فرانسيس برايدو وزوجته. وهناك انتظرت وصول أخبار فيلبي، الذي أبرق إليها أخيراً؛ ليخبرها أن تقابله في عدن. وتستذكر بقولها: «بحلول هذا الوقت، كانت السرية ممزقة، فوايتهال يعرف نوايانا، وكذلك «شارع فليت». فلقد نشرت صحف لندن اليومية في أعمدة متماثلة صورنا -باللباس العربي- ووصفتنا «بالشخصيات الرَومانتيكية». كانت هذه ذروة استفزازي»[2].

وعندما وصل فوربس وفيلبي إلى عدن، كان المقيم اللطيف، قد حذر نظيره هناك من مخططاتهم[3]. وناقش البريطانيون المشروع في موجة من البرقيات المتبادلة بين الدوائر المختلفة وحاكوا ردهم. وعند وصولهم عدن قام المقيم السياسي بإجراء مقابلة معهم كلٌ على حدة، وأخبرهما بألا يواصلا رحلتهما[4]. وتظهر تسجيلات المقابلات كيف أن فوربس، وفيلبي كانا يستخدمان أسماء بعضهما بعضاً؟ ودوافعهما للوصول إلى غاياتهما. أخبر فيلبي المقيم أنه كان يريد دوماً القيام بهذه الرحلة، لكن لم يكن لديه المال الكافي، لأنه ليس «نجم سينما». وعندما سمع بان روزيتا التي تعمل لشركة أفلام، تخطط لرحلة مماثلة، ظن أنّه يستطيع الانضمام إليها. قالت فوربس بدورها أنها لم تستطع تفهم موقف الحكومة، وأنها كانت «مشتركة في عملٍ سينمائي قانوني مائة بالمائة، واعتبرت السيد فيلبي غير قادر على ترتيب أوراقه. فقد كان متحمساً لزيارة حضرموت هناك، ورأى فيّ فرصة ذهبية للحصول على المال اللازم للسفر». وبعد ذلك سألت فيما إذا كان من الممكن أن تعيد وزارة المستعمرات النظر في موقفها، وأجاب المقيم أن «واجبه يحتّم عليه تنفيذ

(1) غيرترودبيل إلى والدها، 29 أكتوبر، 1924، بيرغوين غيرترودبيل، المجلد 2، ص 357–358.

(2) Rosita Forbes, Gypsy in the Sun.

(3) برايدو إلى المقيم في عدن، الجنرال توماس سكوت، له ديسمبر 1924، سجلات وزارة الهند: أر/20/أ/4998.

(4) ملاحظة إلى المقيم (سكوت) أرسلها. س. بِ. باريت حول لقائه مع فيلبي، والسيدة مكارث، 8 يناير 1925، سجلات وزارة الهند: أر/20/أ/3047ب.

الأوامر، لا الشَّكَّ فيها»، وعندها ردّت فوربس عليه أنها تود الذهاب إلى إبيسينا عوضا عن وسط الجزيرة العربية[1]. وتذكر فوربس في سيرتها الذاتية أنها كانت تستمع إلى الجنرال «بعيونٍ مفتوحة على وسعها وبتفهم»، حينما قال «عودي إلى إنجلترا واستمتعي بحياتك، واشتري لنفسك المزيد من القبعات الواسعة تلك التي رأيتك ترتدينها»[2]. غادرت فوربس عدن متوجهة إلى جيبوتي على متن قارب شحن في اليوم نفسه، وفي السنة التالية، كتبت إيميلي إلى فيلبي تخبره أن «الوقت لم يكن ملائماً لعبور الربع الخالي، وسيكون من الصعب لكلينا الولوج إلى وسط الجزيرة العربية «على غير رغبة من الحكومة» فنحن معروفون جداً»[3]. وأشار موظف مسؤول على ملف سياسي في وزارة الهند، «غادرت السيدة حدود معرفتنا، لم يكن السيد فيلبي يرافقها. وفي موجة غضب أنثوية، عبرت عن نيتها في التراجع عن ولائها لجلالة الملك، وهذا طبعاً ضرب من المحال ما دامت زوجة لأحد الرعايا البريطانيين»[4].

وعندما وصلت أديس أبابا في فبراير، ورد عن ممثل الحكومة البريطانية قوله لوزارة المستعمرات: إنها كانت تعمل «لشركة أفلام بريطانيا»، وأن نشاطاتها حسبما يرى «غير مضرة تماماً»[5]. ولم يمضِ سوى أسبوع حتى عاود الكرّة، وأكد لهم أن مصورها أرنولد جونز كان قد رافق أمير والز في رحلاته. وأضاف أن السيدة مكارث «قد برهنت على حسن تصرفها، وحسن تفهمها خلال إقامتها القصيرة هنا. إذ لم تبدي أيّة نزعة للتدخل في أمور لا تعنيها»[6].

لم يكن لدى روزيتا فوربس أي رادع يردعها عن إخبار الموظفين بأية قصة، قد تمكنها

(1) ملاحظة حول لقاءات مع فيلبي والسيدة مكارث 8 يناير 1925.

(2) Rosita Forbes, Gypsy in the Sun, p110

(3) فوربس، إلى فيلبي، 30 يوليو 1925، أوراق فيلبي، بريطانيا العظمى. 165–229.

(4) ملاحظة في ملف وضعها جَ. بِ. جيبسون، 2 فبراير، سجلات وزارة الهند: إل/ب/ س/251/11.

(5) كلاود رسيل، أديس أبابا، إلى وزير الدولة لشؤون المستعمرات، 19 فبراير 1925، سجلات وزارة الهند/إل/ب. إس/251/11.

(6) ترسل إلى وزير الدولة، 16 فبراير 1925، سجلات وزارة الهند: إل/ب إس/251/11.



دورا فيلبي مرتدية ثوباً قدمه لها الملك عبد العزيز آل سعود، الكويت، 1935

من تحقيق أهدافها بالسفر. فضلا عن ذلك، كانت تعرف، وتستطيع أن تقنع عدداً هائلاً من موظفي «التأسيس» لدعم مشاريعها. وعلى الرغم من أن خططها السعودية قد لاقت اعتراضاً من السلطات البريطانية المحلية، ووزارة المستعمرات في لندن، إلا أنّه من الممكن لنا أن نذكر حادثتين إضافيتين تظهران المدى الذي وصلت إليه سمعتها بوصفها رحالة ذات قيمة، وصحفية مطلعة ومتنفذة خلال العقد التالي.

قام موسوليني في خريف 1935، بغزو أبيسينيا، وأصبحت إيطاليا مركز العداء العالمي، والعقوبات الصادرة عن عصبة الأمم المتحدة، وتكشف برقية صادرة عن وزارة الشؤون الإيطالية إلى السفير الإيطالي في لندن اعترضتها بريطانيا ولم يفصح عن مضمونها إلا حديثاً، أن الإيطاليين كانوا قلقين من تقرير، يفيد أنّ فوربس قد تكتب مقالات عدوانية في الجرائد:

يقال أن الرحالة والكاتبة المشهورة روزيتا فوربس (السيدة آرثرمكارث) تُعدُّ حملة صحفية عدائية علينا، تتمحور حول القضية الإيطالية الأنثوية. لو سمحت أفدنا فيما إذا

كانت الكاتبة المعنية موجودة في لندن أم لا، واعمل جاهداً إذا كانت موجودة في لندن على التقرب منها، وحاول أن تكسبها لصالحنا في هذه القضية[1].

وفي العام ذاته، خططت فوربس للقيام بزيارة إلى الهند، وأفغانستان، وآسيا الوسطى السوفياتية، وتقدمت بطلب إلى وزارة الهند لمساعدتها على منحها إذناً بالسفر. ويشير ملف الدائرة السياسية في وزارة الهند المتعلق بقضيتها، إلى الطريقة التي تمكنت فوربس من خلالها استخدام معارفها «المؤسسين» و«أصدقائها، الذين يحتلون مناصب عليا» في سبيل تحقيق أهدافها. لم تكن سياسة حكومة الهند، الضمنية والمطبوعة تسمح للنساء الأوربيات عامة بالسفر على طول الجبهة الشمالية الغربية، على الرغم من وجود بعض الأماكن المستثناة كخيبر، على سبيل المثال، لكن في ظل قيود محددة. وكان يسمح للزوار بالوصول إلى كابول حيث قال الموظفون بوزارة الهند أنهم يستطيعون تقديم فوربس إلى القائم بالأعمال المقدم دبليو كَ. فرازر تيتلر[2]. كان وكيل وزارة الخارجية في وزارة الهند حينها آر آي. بتلر، وكان قد ناقشها في رحلتها على طاولة الغداء، وأخبرها أنه سيكتب إلى «أصدقاء لهم في بورما والهند، قد يتمكنون من الاعتناء بها خلال رحلتها المقترحة». وأرسل إلى زملائه في وزارة الهند:

أنا على يقين أنها ستكتب عند عودتها في الصحف المشهورة ... هذا إلى جانب زيارات متفرقة سنقوم بها إلى المواقع الفكرية، وأعتقد أنه من الأفضل لنا أن تذهب إلى الهند بتشجيع منا وبمساعدة قانونية ممنوحة حسب الأصول. وبهذا سنترك عندها انطباعات، مكتسبة عبر مشاهد ودودة ... من المفهوم طبعاً أنها في أثناء تجوالها في الهند

(1) البرقية «الأكثر سرية» من وزارة الخارجية، روما، إلى السفارة الإيطالية، لندن، 22 نوفمبر، 1935، اعترضت سبيلها الحكومة البريطانية، PRO:HVR/12/197. أطلق مكتب السجلات العام عن سلسلة الاعتراضات، لبعض الاتصالات الدبلوماسية الأجنبية هذه عام 1999.

(2) جَ. سِ. والتون، وزارة الهند، ملاحظة إلى أر. أَ. بتلر. 22 يوليو 1935، ومرفق معها نسخة من «أوامر الجيش الهندي: القواعد التي تنظم زيارة السيدات الأوروبيات إلى أماكن تقع في المناطق القبلية على الواجهة الشمالية الغربية». يونيو 1935، سجلات وزارة الهند إل/ب. إس/12/4306 وضحت القواعد بالتفصيل الأماكن التي سمح للنساء بزيارتها، والشروط التي يستطعن السفر في ظلها، ومنها على سبيل المثال «برفقة ذكر مسؤول» في بعض الأوقات وعلى الطرق الرئيسية.

لن تكون تحت سيطرتنا، وسيكون تعرفها على أناس جدد شيء شخصي. ومع هذا علينا أن نكون على علم بتحركاتها عندما تصل إلى أفغانستان وتدخل روسيا. فإذا تحقق لنا هذا، فأنا على يقين من أنها ستكون مستكشفة جريئة جداً[1].

وجّه بتلر رسالة إلى فرازر تيتلر في كابول، يخبره أنه كان يعرف روزيتا لعدة سنوات، وأنها «مؤخراً أكملت أجرأ جولة استكشافية لها في غويانا البريطانية والهولندية» وكان «مقتنعاً بشجاعتها التي لا يعرف لها حد، فضلا عن روح الفكاهة التي تمتلكها». وهي التي اعتادت السفر وحدها، وتعرفت على الوزير النيبالي، «وكانت لفترة طويلة تغازل مايسلي –السفير الروسي– وأنا على يقين من هذا أيضاً، فقد كان يمدها بالتجهيزات حالما تصل المنطقة الروسية». وأضاف بتلر أنّه كان مغرماً بمغامراتها السابقة. وكان يعتقد «أن روزيتا تملك من البراعة ما يمكنها من الوصول إلى مقصدها في نهاية المطاف. وحريّ بنا أن نساعدها وأن نسدي لها النصح منذ البداية». وأجاب فرازر تيتلر بعد شهر ليقول: إنه سيكون في غاية السعادة لاستقبال فوربس، وأنه سيخفف القاعدة التي تُحَتِّم ألا تسافر المرأة إلى أفغانستان دون مرافقٍ ذكر[2]. واكتشف لاحقاً أن الحكومة الأفغانية قد سحبت تصريح السفر الممنوح لروزيتا؛ لأنهم حصلوا على بعض مقالاتها، و«تملكهم الفزع من جراء أسلوبها الحيوي الناقد»[3]. وافق الأفغان أخيراً، على منحها تصريحاً بالذهاب، لكن اشترطوا عليها ألا تنشر أي شيء عن أفغانستان دون أن تقدمه للحكومة البريطانية أولاً. وورد عن فرازر تيتلر أن فوربس تنوي الآن السفر حول أفغانستان على متن شاحنة

(1) أر. أَ. بتلر. ملاحظة إلى والتون، 25 يوليو 1935، سجلات وزارة الهند: إل/ب. إس/4306/12، كان ريتشارد أوستن (راب) بتلر وكيلاً لوزارة الدولة في وزارة الهند من عام 1932 حتى 1937. أصبح فيما بعد وزيراً للمالية (1951–1955)، ووزيراً للداخلية 1957–1962)، ووزيراً للخارجية (1963–1964). أجاب والتون أنه كان يعتقد أنه ينبغي على وزارة الهند مساعدة فوربس؛ لأنهم منعوها قبل عشر سنوات من السفر عبر جزيرة العرب بسبب الظروف السائدة حينها.

(2) بتلر إلى دبليو. كَ. فرازر–تيتلر، 31 يوليو 1935، وفراز نيتلر إلى بتلر، 15 أغسطس، 1935، سجلات وزارة الهند: إل/ب. إس/ 4306/12.

(3) برقية فرازر تيتلر إلى الدائرة السياسية في حكومة الهند، 25 فبراير 1936، سجلات وزارة الهند: إل/ب. إس/4306/12.

«لتتمكن من الاتصال مع الناس». وهو مخطط مليء «بشكوكٍ عميقة»[1].

وعند عودتها إلى كابول، خطت رزيتنا ثلاث مقالات بأشكالها ومضامينها الميدانية وسلمتها إلى فرازر تيتلر،الذي قدم بعض التعديلات المقترحة. وكتب إلى وزارة الهند في إبريل من عام 1936 يقول:

واجهنا مصاعب ضئيلة عندما عادت من قندهار؛ لأنها كانت منزعجة من الأفغان، لعدم السماح لها بالحديث مع الملك، وكانت تود قول رأيها فيهم. وكانت النتيجة صراع بين الشخصية الأخاذة روزيتا مكارث، والصحفية التي لا تشبع وصائدة الشهرة روزيتا فوربس. أعتقد إجمالاً أن روزيتا مكارث هي التي فازت، لكن أعتقد أن الوضع سيكون أفضل، لو أنها أخبرتك قبل مغادرتها أنها تعاقدت، مع [الدايلي تلغراف] د.ت. للكتابة عن أفغانستان. لكنها لو فعلت ذلك لما تمكنت من الدخول إلى ذلك البلد[2].

واصلت فوربس رحلتها إلى بخارى وسمرقند، واجتازت الهندكوش في شاحنة. وعند عودتها إلى لندن، سلمت مسودات مقالاتها إلى وزارة الهند، وناقشها الموظفون هناك. وبدا أن همهم الوحيد هو عدم الإساءة إلى الحكومة الأفغانية، وألا يتم تقديمها كداعمة للبريطانيين، الأمر الذي قد يسبب لها حرجا كما كانوا يعتقدون. وفي الوقت نفسه، لم يكونوا راغبين بالسماح لأي تعليق يفضي إلى وجود مشاكل على الواجهة، فعلى سبيل المثال، أشارت روزيتا في إحدى مقالاتها الموسومة بـ «كابول وأفغانستان الجديدة» إلى «التعارض الطبيعي القائم بين شعب ديمقراطي، وبين نظام أتوقراطي يسجن معارضيه السياسيين المشتبه بهم دون محاكمة». لذلك اقترحت وزارة الهند عليها تغيير الكلمات، لتصبح «معارضة الشعب الديمقراطي على تدخل السلطة المركزية»، وأشار والتون أنه على الرغم من أن روزيتا قد قيدت الملاحظة، إلا أنه لن يصاب بالدهشة إذا لم تجر أي تعديل، لأنها لا تحبذ طمس الحقائق، ولأنها أخبرت الأفغان عن نيتها في نشر هذا الكلام.

---

(1) المرجع السابق.

(2) فرازر تيتلر إلى جَ. سِ. والتون. 11 إبريل 1936، سجلات وزارة الهند: إل/ب. إس/4306.

«وجاء رد الأفغان بالموافقة، فهم يفضلون سجن الناس على قتلهم»[1].

كتب والتون إلى فوربس مرة أخرى ليسأل فيما إذا كانت تنوي تخفيف حدة لفظة «الحرب»، «وذلك لأن الهند (بما فيها الجبهة) في الوقت الحالي واحدة من أنصع المواقع في ذهن العامة، فيما يتعلق بالشؤون الإمبريالية والأجنبية، ولأن التنبؤ بحدوث أعمال تخريبية مبكرة (والتي نأمل ألا تحدث) سيكون كمن كشف الطلاء فبان ما في الخفاء». وردت روزيتا أنها قد أجرت التعديلات وفقاً لاقتراحاتهم، وقالت: «أنا لست ملاكاً»[2]. لكن في الشهر نفسه، ألقت محاضرة أثناء سفرها إلى جمعية وسط آسيا الملكية، انتقدت فيها غياب التشريع الاجتماعي في الهند، وقالت: إنها قابلت نساء كن يعملن سبع عشرة ساعة في اليوم في مطاحن الجوون في كالكتا[3]. وكتبت في سيرتها الذاتية: «أصبحت أفتقد اللياقة، أثرثر كثيراً بما أشاهد، وأبوح كثيراً بما أفكر به»[4].

كان لدى فوربس اهتمام حقيقي بالناس العاديين وحقيقة حياتهم فكتبت أشياء عنهم، وكانت «تصوغ» المعلومة للقارئ العادي على غرار كتابات النساء الرحالات الشائع التقليدي، الذي كان يمتاز بسهولة الطرح. كانت كتبها ومقالاتها التي كتبتها في أثناء سفرها في الشرق الأوسط أو آسيا. تَفيض برؤى استشراقية ووعيها لمن سبقها من الغرب في المنطقة. وكانت في كثير من الأحيان تُقدم نفسها كخارجة عن تراتبية المعرفة، والسلطة الذكورية، وكانت دوماً تؤكد على علاقاتها الحميمة، والشخصية «الأنثوية» البحتة مع نساء، ورجال ليسوا من الغرب. ومع هذا، يمكن القول إن السفر في هذه المناطق، وفي هذه الفترة عُدّ نظريا ضرباً من المستحيل لولا العلاقات «المؤسساتية» المكثفة. كان لدى فوربس على أي حال ولع بمجتمع رجال الدولة والحكام، وكانت تلاحقهم بجد ومثابرة، وتستخدمهم لخدمة أهدافها. حاولت السلطات الإمبريالية، والاستعمارية السيطرة عليها،

(1) جَ. سِ. والتون إلى إل. كولير، وزارة الخارجية، 19 مايو 1936، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/12/4306.

(2) مسودة رسالة من والتون إلى روزيتا مكارث، 19 مايو 1936، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/12/4306 وروزيتا مكارث إلى جَ. سِ. والتون 24 مايو 1936، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/12/4306.

(3) «روزيتا فوربس في آسيا الوسطى»، بريطانيا العظمى والشرق 28 مايو 1936.

(4) Rosita Forbes, Gypsy in the Sun, p 370.

ونجحوا في هذا إلى حد ما، لأنها أرادت أن تكون جزءاً من دائرتهم. لكنهم من جهة أخرى، لم يستطيعوا أن يخفوا إعجابهم بها. فكانت تتعمد المراوغة دائماً، مما دفع بعض الموظفين البريطانيين عندما أصبحوا أكثر شهرة إلى التسليم بحقيقة أنهم لن يستطيعوا معرفة ما تفعل. سافرت حول العالم، ولم تتوقف حتى وفاتها في بيرمودا عام 1977. وقد وصفت نفسها، في مجاز ملائم لسحر السفر وحريته وتفرده، بالغجرية «الباحثة عن الشمس»[1]. كما كانت منمقة ميالة للمبالغة، وصحفية مشهورة وكاتبه. وتم منحها ميداليات ذهبية من قبل الجمعيات الجغرافية الفرنسية والهولندية، وميدالية ذهبية من الجمعية الملكية للآداب، وخلال الحرب العالمية الثانية حاضرت في وزارة الحرب.

وفي الوقت الذي كانت فيه فوربس تخطط لرحلات إلى الحدود الشمالية، وآسيا الوسطى، كان فيلبي يحاول إحياء خطط بعثته الاستكشافية في الربع الخالي. وورد عن اليزابيث مونرو قولها: إن فيلبي كان قد تخلي في أوائل الثلاثينيات عن فكرة اتخاذ فوربس «رفيقة أو مشاركة حقيقية في علم اكتشاف الصحراء»[2]. بيد ان فيلبي نفسه كان غريباً عن هذا الموضوع من نواحي عدة، شأنه شأن روزيتا تماماً. وكانت دوماً تحوم حوله شكوك الحكومة البريطانية، بسبب دوافعه الغامضة، وولائه، ونشاطاته. انتهى به المطاف أخيراً في المملكة العربية السعودية، فاستقر فيها وعمل لصالح الحكومة السعودية. اعتنق الإسلام عام 1930، وزوّجهُ الملك عبد العزيز جارية اسمها مريم بنت عبد الله حسن، وكان الملك يشرف على بيته في مكة لعدة سنوات. ونادراً ما كان فيلبي يرسل رسائل إلى دورا. وصف فيلبي في مذكراته مكانة المرأة بالعبدة، «حتى تنجب طفلاً، حينها تصبح مباشرة حرة ويمكن لها مواصلة العيش مع الرجل»[3]. بيد أن مريم بنت عبد الله لم تنجب ولدا من فيلبي، ولاحقاً، تحديداً عام 1945، تزوج من امرأة سعودية أنجبت منه ولدين. اكتشفت دورا، التي كانت مطلعة على علاقاته مع السعودية، عام 1955، أمر الطفلين وعرفت أن

(1) المرجع السابق، الفصل الأول.

(2) Monroe, Elizabeth, Philby of Arabia.

(3) المرجع السابق، ص 150–153، 171.

ابنها كيم كان يعلم بأمر عائلة والده الأخرى. ورغم هذا كله ورغم ديونها الملازمة لها، إلا أنها بقيت مخلصة لفيلبي وداعمة له طوال حياته، وأصبحت عام 1935، عندما رافقت زوجها في إحدى رحلاته، أول امرأة تخترق الجزيرة العربية من البحر إلى البحر بالسيارة. وفي أثناء رحلتهم، أقامت عائلة فيلبي في الكويت لدى الوكيل السياسي المقدم هـ. أر ب. ديكسون وزوجته فيوليت.

وُلِدَ هارولد ريتشارد باتريك ديكسون عام 1881 في سوريا، حيث كان والده القنصل البريطاني هناك، فنشأ يتكلم العربية، ويقضي أيام العطل الرسمية بين العشائر البدوية في الصحراء. انضم ديكسون عام 1908 بعد أن تلقى تعليمه في أكسفورد، وأدى خدمته العسكرية في إيرلندا، إلى الجيش الهندي، إذ تم تعيينه خلال السنة الأولى من الحرب العالمية الأولى في بلاد الرافدين، ثم نقل من السلك العسكري إلى السلك السياسي، وخدم ضابطاً سياسياً تحت إمرة كوكس حتى عام 1919، عندما عُين في البحرين وكيلاً سياسياً. عاد إلى العراق عام 1921 مستشاراً لمتصرف منطقة الحلة[1]. ولدت فيوليت ديكسون، واسمها فيوليت بينولوب لوكاس كالكرافت، عام 1896، وهي واحدة من ثلاث بنات لإقطاعي في لينكولن شاير –وحسب قولها– كانت طفولتها سعيدة وسهلة، فلقد ترعرعت في مزرعة بين الخيول والحيوانات الأخرى، وكانت تمارس الصيد مع والدها في العقار. تلقت تعليمها على يد معلمة خاصة سويسرية، وبعد ذلك في مدرسة محلية حتى عام 1910، عندما انتقلت بعد وفاة والدها إلى سويسرا مع والدتها وأختها الصغرى، وهناك واصلت تعليمها في مدرسة في فيفي. وفور نشوب الحرب، عادت إلى إنجلترا، وعملت في بنك في لينكولن. ثم انتقلت عام 1918 إلى لندن، لتتلقى تدريباً كناقل رسائل عسكرية في القوة الجوية الملكية النسائية، لكن تدريبها انقطع بسبب الهدنة، لذا قررت فيوليت توظيف مهارتها في الفرنسية، ولهذا تقدمت بطلب للعمل في بنك في الخارج، وانضمت إلى فرع

(1) من كان من، 1951–1960، ص 305، وتوطئة كتبها هارولد ديكسون لكتابة: عرب الصحراء: لمحة في الحياة البدوية في الكويت، والمملكة العربية للسعودية، (لندن: جورج ألين وأتوين، 1949).

كوكس وشركاه في مرسيليا[1].

تستهل فيوليت ديكسون سيرتها الذاتية الموسومة بـ «أربعين عاماً في الكويت» بسرد تذكاري للقائها الأول مع زوجها المستقبلي:

كنت في خريف عام 1919 [1920] أعمل في بنك كوكس في كانبيرا في مرسليا عندما دخل الكابتن هـ. أر. ب. ديكسون، أحد أفراد فريق الخيالة التاسع والعشرين، (خيول ديكان في الجيش الهندي) البنك؛ ليستفسر إذا كان هناك بريد له، وصل بالقطار من لندن كما أخبرني، وكان سيلتحق بسفينة ستأخذه إلى الخليج العربي عبر الهند، ونظراً لعدم وجود رسائل له، قضى وقتاً قصيراً يتحدث معي من فوق الحاجز، وطلب مني معرفة اسمي. شعرت بالإطراء؛ لأن ضابطا شابا وسيما أبدى اهتماماً بي. لكن عندما خرج من البنك افترضت أن تلك ستكون آخر مرة أراه فيها. تخيلوا دهشتي عندما تلقيت برقية منه بعد أسبوع من بورسعيد، يطلب فيها مني أن أتزوجه، وأن أسافر لأنضم إليه في الخليج العربي. لا يمكن تصور أن مدخل البنك غث المنظر، الذي يفتقد إلى كل مظاهر الرومانسية سيكون مسرح لقاءٍ، قاد فتاة إنجليزية شابة للسفر إلى الشرق، وجعله بيتها للأربعين سنة القادمة. في مثل ظروف العمل اليومية هذه قابلت زوجي المستقبلي، الذي كان من المقدر لي أن أشاركه حبّه لجزيرة العرب والعرب. لقد كان اتخاذ القرار صعباً، وكان ترددي طبيعياً، لكنه لم يدم طويلاً. قررتُ بعد أن شاورت قلبي وبعد استشارة أصدقاء لطفاء من مرسيليا، أن أجرب حظي مع الخاطب الشاب، سأرسل برقية مضمونها «نعم». دام زواجنا تسع وثلاثون سنة، ولم أندم يوماً على هذا القرار.

سافرت فيوليت بعد أن قبلت خطبة هارولد ديكسون لها إلى بومباي، وتزوجا هناك. ثم غادر الزوجان بعد أن قضيا أربعة أيام «لا توصف» في فندق تاج محل إلى الخليج، وسافرا عبر البصرة بقارب بخاري ذي بدّلات إلى الكوت، ثم إلى بغداد، حيث أقاما مع

(1) Dickson, Violet, Forty Years in Kuwait, London: George Allen & Unwin, 1971, the introduction pp11-12 وصفت ديكسون سيرتها الذاتية أنها قد كتبت من الذاكرة ومن رسائل، وهذا الواقع غير صحيح في بعض الأحيان.

فيلبي وزوجته دورا. وتصف فيوليت ديكسون في سيرتها الذاتية حفلة عشاء حضرتها مع غيرترود بيل، وخمسة موظفين عرب رفيعي المستوى. جرى معظم الحديث فيها باللغة العربية، فلم نتمكن من فهم الكثير باستثناء ملاحظةٍ نطقتها بيل بالإنجليزية، بصوت مرتفع: «إنه مثير للشفقة أن يتزوج بعض الرجال الإنجليز الواعدين من نساء غبيات كهؤلاء»[1]:

ولكون هارولد أحد «رجالنا الإنجليز الواعدين» في بلاد الرافدين خلال الحرب، شعرت بعدم ارتياح لا يمكن تحمله، وكنت مسرورة عندما انتهت الحفلة. كانت غيرترود بيل مخلصة للسير بيرسي [كوكس]، وكانت في معظم الأحيان تُرى داخلة منزله وخارجة منه، لكنها لم تكن تبدي اهتماماً بحديث النساء، ولم تكن تهتم بأي من النساء الموجودات في بغداد حينها. كما بدت لي متجافية ولا تستهويها النفس ... جاك فيلبي ... وصفها بما هو آت: «عاشت على سويّة الرجل، كانت تزدري جنسها»، لا شك أنها قد كتبت اسمها في كتاب التأريخ بحروف من ذهب، لكني لا احترم مواهبها العظيمة كعالمة، وشجاعتها كرحالة[2].

لم تُدوِّن بيل سوى أن تلك الأمسية كانت «نجاحاً عظيماً»[3]. وفيما يتعلق بفيوليت ديكسون كانت بيل قد حكمت عليها مسبقاً. فلقد أقدمت هذه الشابة بروحها العالية على خطوة عظيمة في الظلمة عندما وافقت على الزواج برجل قابلته توّاً، والذهاب معه إلى العراق، فلم تصبح طبعاً خاتوناً اعتيادية. أخفقت بيل كعادتها في إيجاد محاسن الزوجات الاستعماريات. وإذا أظهرت ديكسون عدم الثقة في هذه المرحلة من عملها، فإن هذا ليس غريباً. فحادثة حفلة العشاء، مثال على الشك والعداوة، اللتين كانتا تواجهان القادمين الجدد إلى المناصب الاستعمارية من كلا الجنسين. إذ كانت المنافسة السياسية والفكرية والحسد جزءاً من اللعبة. وأصبحت عائلة ديكسون على الأرجح أشهر عائلة زوج

(1) Dickson, Violet, Forty Years in Kuwait. قابلت فيوليت ديكسون زوجها عام 1920، وتزوجا في العام ذاته، وليس عام 1919 وهذا وفقاً لكتاب «من كان من»، ووفقاً لمداخل» قاموس السيرة الوطنية»، تم تعيين هارولد ديكسون في العراق عام 1921.

(2) Dickson, Violet, Forty Years in Kuwait,pp 11-12.

(3) غيرترود بيل رسالة، 17 يناير 1921، بيرغرين، غيرترود بيل، المجلد 2، ص 199.

استشراقي في القرن العشرين، إذ ساروا على خطى التقليد، الذي وضعته عائلة بلنت قبل جيل. لذا فإن حياة فيوليت ديكسون تستحق أن تكون موضوع دراسات حصرية مكثفة، كحياة غيرترود بيل تماماً. ومما لا شك فيه أننا سنرى مثل هذه الدراسات في المستقبل. وفي هذه الأثناء، تبقى مذكراتها، ومنشورات زوجها أو أوراقه، وأرشيف وزارة المستعمرات البريطانية، ووزارة الهند الرسمية هي المصادر الرئيسية لحياتها وعملها[1].

كَيَّفت ديكسون نفسها، رغم كونها امرأة شابة جريئة مستقلة، لتكون شريكة لزوجها، ومعينة له فور زواجها. وكتبت في سيرتها الذاتية أنها «أدركت منذ البداية أن عليها أن تشاطر هارولد اهتمامه في البلد وناسه»، وكانت في معظم الأحيان ترافقه عندما كان يتحدث مع البدو، الذين كانوا يزورنه رسمياً، «وحاولت التعرف عليهم»[2]. وأصبحت فيوليت رفيقة لزوجها في سفره، وزياراته منذ بداية علاقتهما. وفي أغلب الأحيان، كانت تقضي بعض الوقت مع نساء في المنزل، بينما كان زوجها يحادث الرجال. وعلى الرغم من أنها كانت تجد زياراتها صعبة ومحرجة، إلا أنها سرعان ما أصبح لديها صديقات عربيات، واعتادت ارتداء الزي العربي، وهذا ما كان هارولد يفضله[3]. تناهى إلى مسامع الزوجين عام 1922، أنّه سوف يتم تعيينهما في البحرين، وأنه من المحتمل أن يحاول كوكس «تدبير منصب» لهارولد كَوكيل لدى عبد العزيز آل سعود. وهذا دفع فيوليت إلى التفكير على النحو التالي: «حينها قد نذهب، ونعيش معه في وسط الجزيرة العربية ... التي يستغرق الوصول إليها ثمانية أيام أو أكثر على ظهور الجمال انطلاقاً من البحرين. ببساطة تامة سأحب هذا، وسيحبه هارولد أيضاً»[4].

وعلى أي حال، لم يتجسد التعيين في السعودية على أرض الواقع، على الرغم من أن هارولد قد أُرسل إلى البحرين في سبتمبر من عام 1922، ضابط اتصال لعدة شهور في

(1) أوراق هارولد ديكسون محفوظة في كلية القدس أنطوني، مركز الشرق الأوسط.

(2) Dickson, Violet, Forty Years in Kuwait,p89

(3) المرجع السابق، ص 35–36، كان هارولد يحب أن يراني مرتديةً العباءات العربية، وفي المساء، كنت ألبس ثوباً عربياً طويلاً، وهذا منحني بعض التنوع في خزانة ملابسي.

(4) فيوليت ديكسون إلى أختها، 21 أوغسطس، 1922، اقتبست في: أربعون عاماً في الكويت، ص 51–52.

مفاوضات عبد العزيز، والكويت، والعراق الحدودية. وبعدها غادرت عائلة ديكسون الجزيرة العربية لقضاء إجازة في سويسرا، حيث وُلد ابنهم،الذي سمي بـ هانمر يورك وأرينغتون سعود، إلا أن الكاهن كان «متردداً» حول اسم «سعود»،الذي كان يعتقد أنّه ليس اسما «مسيحيا»، ولهذا كتب «ساند» في شهادة التعميد[1]. تم تعيين عائلة ديكسون في الهند، حيث أصبح هارولد السكرتير الخاص لمهراجا بيكانير حتى عام 1928، عندما تم تعيينه سكرتيراً لدى المقيم السياسي في بوشهر، وبعد ذلك عادوا إلى الخليج، وفي مايو من عام 1929، تم تعيين هارولد وكيلاً سياسياً في الكويت، واستمر في هذا المنصب حتى تقاعده في فبراير من عام 1936. انضم بعد تقاعده إلى شركة نفط الكويت في منصب الممثل المحلي الأول، ومكثت عائلة ديكسون في الكويت حتى وفاة هارولد في عام 1959.

وخلال إقامتهم سوية في الكويت، دعمت فيوليت هارولد، وساندته بوصفها زوجة الوكيل البريطاني الرسمي، ومستشرقة مشاركةٍ في جمع دراستين ضخمتين ومفصلتين حول الحياة العربية تم نشرهما تحت اسم هارولد. فقد نُشِر الكتاب الأول الموسوم بـِ «عرب الصحراء» عام 1949، وكان يقع في 650 صفحة زاخرة بمعلومات تمس حياة البدوي كالزواج والطلاق، والخيمة ومستلزمات فرشها، والأخلاق في الصحراء والمدينة، والحيوانات، والطيور البرية. وأخيراً وليس آخراً، الجمل. كما أن الكتاب يحتوي على رسوم كثيرة رسمتها فيوليت نفسها. قامت إيميلي لورمير بتحقيق النسخة المخطوطة، التي كانت واحدة من أواخر إنجازاتها الأدبية. إذ عادت عائلة لورمير إلى إنجلترا بعد أن تقاعد دايفيد من الخدمة الهندية السياسية عام 1924، وبعدها انطلقوا في مشروع عمل مشترك، يغطي جوانب عدة كالترحال، وعلم الإنسان، والدراسة، والصحافة. وفي عام 1934 ذهب الزوجان إلى كاراكورام، فكانت إيميلي مراسلة لمجلة التايمز في كشمير، ووضعت كتاباً عنوانه «اصطياد اللغة في كاركورام» نشر عام 1939. توفيت عام 1949، وهي السنة نفسها التي رأى فيها كتاب «عرب الصحراء» النور. وحسب قول هارولد جاء تحقيقها لكتاب عائلة ديكسون، الذي تم في ظل ظروف بريطانيا الصعبة خلال الحرب وما بعدها:

Dickson, Violet, Forty Years in Kuwait. p 55 (1)

ليجعل من هذا المشروع ممكناً[1].

نشر كتاب ديكسون الثاني «الكويت وجيرانها» عام 1956، متضمناً الكثير من إسهامات فيوليت، وخاصة في القسم المتعلق بالزيارة، التي قام بها الزوجان إلى الرياض في عام 1937، حيث وصفت تفاصيل رحلتهم من الكويت، وزياراتها أقسام نساء العائلة الملكية[2]. بدأت عائلة ديكسون رحلتها في أكتوبر من عام 1937، بعد أن تلقوا العديد من الدعوات من قبل الملك عبد العزيز. سافروا بالسيارة، ورافقهم في رحلتهم دليلان وسائقان. كان ديكسون وزوجته يرتديان لباساً عربياً، البرقع والعباءة في حالة فيوليت. وفي طريقهم من الكويت إلى الرياض دَوّن هارولد «ملاحظات غزيرة حول مظاهر البلد المرئية على جانبي الطريق، وكان يستخدم لوح رسم عادة ما يستخدمه الخيالة، وبوصلة، وقراءات مؤشر سرعة السيارة، وكان معه أيضاً منظار وبندقية». التقطت فيوليت بعض الصور[3]. وفي الرياض، قامت فيوليت عندما كان هارولد يناقش «قضية فلسطين» مع الملك، بزيارة نساء العائلة الملكية، نساء الملك الأربعة وشقيقته الشيخة نورا بنت عبد الرحمن الفيصل آل سعود التي حاولت، كما تستذكر فيوليت، أن تقنعها باعتناق الإسلام، لتتمكن من مرافقة النساء السعوديات إلى الأماكن المقدسة. وفي قصر الأميرة نورا قابلت الملك عبد العزيز نفسه يرافقه ابنه الأكبر الأمير سعود[4]. كانت فيوليت مبهورة بأخت الملك، وفي تعقيب على الزيارة، لاحظ هارولد أن زوجته:

التي لاقت ترحيباً حاراً من نساء العائلة الملكية في ثلاث مناسبات، كانت مشدودة بشكل خاص بل ومنبهرة بالليدي نورا. التي وصفتها كواحدة من أكثر النساء اللواتي قابلتهن في حياتها سحراً وجاذبية. كانت رغم جاذبية أخيها ونبله، الذي كان واحداً من أكثر الشخصيات أهمية في جميع أرجاء الجزيرة العربية،

(1) Dickson, H.R.P., The Arab of the Desert,p11; Emily Lorimer, Language Hunting in the Karakoram, London: George Allen& Unwin, 1939.

(2) Dickson, Kuwait and Her Neigbbours, George Allen & Unwin, 1956.

(3) Dickson, Kuwait and Her Neigbbours, George Allen & Unwin, 1956, p 271-285.

(4) Dickson، Kuwait and Her Neigbbours، George Allen & Unwin، 1956، 395-4-4.

تشارك في مجالس أخيها الأكثر حميمية.

وأضاف بقوله: «تعد نورا بنت عبد الرحمن بلا أدنى شك واحدة من ألطف، وأعظم، وأشهر البنات على مدى الأيام، فاسمها لا يقترن إلا باسم الملك العظيم ابن سعود»[1].

كانت عائلة ديكسون، وحالهم هي حال الرحالة الآخرين والمبشرين الأمريكيين، مفتونة ومستلبة بوسط الجزيرة العربية، وفكرة «براءة البدو ونبلهم». ذكرت فيوليت في مذكراتها «أن هارولد قد كوّن عشقاً عميقاً ودائماً لعربي الصحراء، الذي كانت أفكاره عن الشرف والشهامة تروق له بشكل كبير». أما بالنسبة لفيوليت فلقد استغرقت وقتاً طويلاً لمعرفة الصحراء وناسها، كما استغرقت وقتاً طويلاً قبل أن تشعر بالراحة. وقد توثقت عُرى صداقاتها مع الرجال، والنساء العرب تدريجيا نظراً لاشتراكها في خطط هارولد لنشر رؤيته عن «كل جانب من جوانب الحياة البدوية». وتستذكر بقولها: «كان هارولد في أسعد حالاته عندما يتمكن من قضاء وقته بين البدو، يسألهم عن تاريخهم، وطبيعة معيشتهم، وكانت قادرة على مساعدته في البحث عن الحقائق، والتعلم حول تفاصيل حياة المرأة الخاصة. وقد قضيا سوية وقتاً طويلا في التخييم في خيمة خاصة بهم في الصحراء، وواصلت فيوليت هذه العادة بعد وفاة زوجها»[2].

غير أن دراسات عائلة ديكسون حول حياة البدوي، لم تخلُ من بعض الزخرفة الإضافية، ولم تنج «من كونها استشراقية». ففي بعض الأحيان كانت تشترك في كثير من جوانبها مع اللغة الفكتورية السائدة لدى تشارلز دوتي، أو ريتشارد بيرتون في كونها تعكس طريقة الخطاب السائدة في منتصف القرن العشرين حول رجال النفط، وقيام دويلات عربية ذاتية. وقد وصف هارولد في قطعة من كتابه «عرب الصحراء» المرأة البدوية، قائلاً:

«كلها سحر، سحر طبيعي، فهي ابنة حواء النقية التي لا تعرف الكثير عن العالم ... ولديها من الأطفال الكثير ... كانت تنطلق في موجات مفاجئة من الغضب، فهي تغضب بلا سبب معروف. كانت تملؤها الغيرة، وكانت تحب وتكره بعاطفة وشراسة. ومع هذا،

(1) Dickson, Kuwait and Her Neigbbours,pp 414-415.

(2) Dickson, Violet, Forty Years in Kuwait, pp95-96.

تستطيع أن تكون ألطف المخلوقات، ولديها قدرة عظيمة على التضحية»[1].

أجملت كارول باستر في دراسة نقدية لها حول الكتّاب الإنجليز حول الجزيرة العربية نشرت عام 1978 –وهو العام نفسه– الذي نشر فيه كتاب إدوارد سعيد «الاستشراق»، الطابع العام لعمل هارولد ديكسون ورأيها فيه:

عكس الطابع العام لكتاب «عرب الصحراء» عاطفة رومانسية تجاه البدوي بشكل عام. كان مخيمهم بالنسبة لديكسون منفذاً لأن يألف الحياة المنزلية، خارج نطاق الزمن المنفصل عن متطلبات العالم البعيد عن الصحراء. كانت صورة البدوية المرحة، التي تشبه الأطفال ببرائتها جزء من صورة اشتياقية، ومصطنعة للناس[2].

تعد كتب ديكسون «عرب الصحراء» و«الكويت وجيرانها» الآن قديمة، وتحوي مفارقة تاريخية، فهي جزء لا يتجزأ من ماضٍ فكتوري أكثر من كونه جزء من حقبة ما بعد الإمبريالية. قضت فيوليت ديكسون بعد وفاة هارولد ثلاثين عاماً في الكويت، وتطورت آراؤها ومواقفها، كما تطورت علاقاتها مع أصدقائها الكويتيين الكثر. وتشير في سيرتها الذاتية إلى التغييرات الكثيرة التي اجتاحت الجزيرة العربية، ولا سيما أنماط الحياة القبلية السائدة. وقد وصفت هذه التغيرات، بلغتها الرومانسية المعهودة، لكن بواقعية، ونظرة تختلف بشكل ملحوظ عن النظرة الغربيّة الاستعلائية تجاه الاقتصاديات العربية قبل البترول، التي كانت تهيمن على كتابات معاصريها الذكور:

استمتعت بأيام، وليالٍ قضيتها بين أصدقائي البدو خلال السبع سنوات الأخيرة، فهل دَويّ طائرة عَليّة في السماء بالكاد تُرى يزعج أو يفسد متعتنا؟ ربما تستمع قبائل الجنوب البعيد بهذا الصوت، كونه يذكرهم بأصوات غناء الرمال في الربع الخالي العظيم، الذي غادره معظمهم بلا عودة. فالحياة جميلة جداً هنا في الكويت كما يقولون، لهذا لن يعودوا إلى هناك، وصهريج الماء الضخم غث المنظر، ذو الصوت المرتفع المزعج، الذي

---

(1) Dickson, H.R.P., The Arab of the Desert, p 57.

(2) كارول ماك. باستر «رجال إنجليز في جزيرة العرب: مواجهات مع نساء من الشرق الأوسط، علامات، رقم (4) 1978، ص 309–323 (ص123).

كان ينقل الماء المقطر من محطات تنقية المياه في الكويت أو الشَّيْبة لا يسبب لهم إزعاجاً إطلاقاً، بل كان يمدهم بالمتعة، وخاصة النساء اللواتي كان عليهن في السابق جلب الماء، وحمله في قرب جلدية ضخمة من بئر أو بحيرة. لكن الآن تغمرهن سعادة غامرة؛ لأن حمل الماء قد أصبح من مهام الرجال، وكن ينتشين لهذا[1].

لزمت فيوليت ديكسون الكويت بعد وفاة زوجها حتى قبل أسابيع معدودة من وفاتها، عام 1991، عن عمر ناهز الرابعة والتسعين. وقد تم ترحيلها من الكويت بُعيد الغزو العراقي، تعد حياتها وكتاباتها وإسهاماتها في كتب زوجها الآن ذات أهمية بالغة. بيد أن دور فيوليت في عملية جمع المعلومات الإنثروبولوجية التي قام بها الزوجان، اقتصر على الدور الأنثوي من المشروع. فقد تحرت حياة النساء العربيات وعاداتهن، وكرست نفسها لمواضيع يفترض أن تكون أنثوية كنباتات الصحراء وحيواناتها. كما صورت كتاباتها التي كانت تشبه كتابات روزيتا فوربس. الجزيرة العربية لقرّاء من الوطن وبصوت أنثوي واضح. ومع هذا، تختلف فوليت ديكسون عن روزيتا وعن المبشرات المشاكسات السابق ذكرهن في هذا الفصل في جانب مهم، فهي كانت كما إيملي لورمير تماماً خاتوناً، غير تقليدية على الأرجح، لكنها سافرت، على الأقل، في مقتبل عمرها مع زوجها، الذي كان موظفاً إنجليزياً، فشكلت هي، وزوجها فريقاً إمبريالياً مقبولاً. ورغم انغماسها في الحياة العربية إلى أبعد حد، إلا أنها لم تحاول اختراق الحدود، سواء أكانت حقيقية أم افتراضية، ولم تتعهد بالقيام بمشاريع «محرمة» لدى السلطات البريطانية. أما روزيتا فوربس والمبشرات الأخريات فلقد خرقن الأعراف، وواصلن ترحالهن رغم معارضة السلطات الاستعمارية الذكورية. وكن باستمرار يضعن أنفسهن عن قصد خارج الحدود التقليدية للمجتمع الاستعماري. توضح نشاطات هولاء النساء الرحالات، ومفاهيمهن المتضاربة المدى الواسع لأصوات النساء في المشهد الإمبريالي في الجزيرة العربية، خلال فترة ما قبل الحرب.

---

(1) Dickson, Violet, Forty Years in Kuwait, 218-219. قارن على سبيل المثال، كتابات ويلفرد تيسجر ذات الطابع الرومانسي: ألحان إلى الماضي، والنادم على ما أسماه دخول «الحياة الحديثة» على الصحراء.

الفصل السابع

حادثة بيجاما الشاطئ: 1933: النفط، ومسار الخليج العربي الجوي، وانفتاح الساحل

بدأت تغييرات اقتصادية رئيسية، خلال العقد الذي سبق الحرب العالمية الثانية، تلقي بضلالها على المجتمع المحلي، وعلى النظرة الدولية للمنطقة. فقد أدى تدني صناعة اللؤلؤ في الثلاثينيات من القرن العشرين إلى تدمير اقتصاديات بعض دوليات الخليج الصغيرة، خاصة البحرين... لكن، في الوقت نفسه، جاء الوقع المباشر لاحتمالية اكتشاف البترول، إلى جانب تطور الطرق الجوية عالمياً، وغيرها من شبكات الاتصال ليعرِّض إمارات الخليج لعدد ضخم من التأثيرات والضغوطات الغربية، وبعبارة تلخص النظرة الغربية التقليدية لتخلف المنطقة، وانعزالها وكونها قد أصبحت جاهزة للتطور الاستعماري والاستغلال، بدأ الخليج يوصف أنه «منفتح»[1].

تم البدء في تصدير النفط، وهي السلعة التي غيرت شكل شبه الجزيرة العربية والخليج من آبار البحرين عام 1933، ومن السعودية عام 1939. اعتمد البريطانيون لتأمين مجهوداتهم الحربية خلال الحرب العالمية الأولى بشكل كبير على نفط بلاد فارس المجاورة، وبدأوا مبكراً يتطلعون إلى الجانب العربي من الخليج منذ عام 1923، ورغم هذا، كانت شركات النفط الأمريكية، والبريطانية بطيئة في إدراك أهمية الحقول العربية وإمكانياتها، وفي الثلاثينيات من القرن العشرين، لم تكن حصة الشرق الأوسط في البترول العالمي تتجاوز

(1) تضمن كتاب الكساندر فراتر «ما وراء الأفق الأزرق: في أثر الدروب الإمبريالية الجوية (لندن: ويليم هاينمان، 1986) قصة عَبّر من خلالها عن الشعور العام إزاء «انفتاح» المنطقة. فعندما توقف ماركيز لندنديري، وزير الدولة للشؤون الجوية لفترة وجيزة في البحرين عام 1934، علّق على التغيرات التي طرأت على الاتصالات بقوله: «حطتنا الطائرة في منتصف النهار، واستمتعت بالمشي لفترة قصيرة تحت الشمس، تحت سماء صافية. تمشيت مع العقيد لوك، الوكيل السياسي والسيدة لوك. أخبراني عن الفرق العظيم، الذي أحدثته الخطوط الجوية الإمبريالية على حياتهم. فلقد كانوا على بعد أسبوع من لندن لا خمسة أسابيع وأصبحوا في العالم لا خارجه» (ص 112–113).

الخمسة بالمائة[1]. وعلى الرغم من أن أحداً لم يكن يتصور تأثيرات النفط في تطوير المنطقة البعيد المدى على الجانبين: الاقتصادي والسياسي، إلا أن الثلاثينيات من القرن الماضي قد شهدت الوقع الأول لهذا الصناعة، وذلك عن طريق قدوم رجال النفط، والمفاوضين، وعلماء الأرض، والتقنيين وبدايات تشكل مجتمعات مهاجرة كبيرة. وفي الوقت نفسه، كان لتطوير الساحل الخليجي مساراً جوياً رئيسياً بين أوروبا والهند والشرق الأقصى دوره في تدفق المسافرين، ومعظمهم من النساء. أثار جميعهم مشاكل جديدة للموظفين البريطانيين المستعدين للحرب في بلدان الخليج. وتوضح حادثة وقعت في الشارقة عام 1933 مدى توترهم.

أصبحت الشارقة منذ افتتاح الطريق الجوي قاعدة لإعادة التزويد بالطاقة، وكان فيها إستراحة مشهورة للمسافرين فيها حمام، وشَورات. وأصبح من الشائع هناك أن يقوم المسافرون المتوقفون للمبيت هناك بزيارة المدينة، وفي بعض الأحيان زيارة الحاكم ذاته. وفي شهر مارس من عام 1933، نقل الوكيل السياسي في البحرين ب. ج. لوك إلى المقيم أن إحدى راكبات الخطوط الجوية الإمبريالية، شوهدت في المدينة وهي مرتدية ملابس مبتذلة، وصفت بكونها «بيجاما شاطئ». وكتب لوك أيضاً إلى قيم الاستراحة التابعة

(1) بدأت عمليات البحث عن النفط في الشرق الأوسط في إيران عام 1901، وتم اكتشافه هناك عام 1908، وبعد ذلك تم اكتشافه في العراق (1923–1927)، والبحرين (1931)، والسعودية، والكويت (1938)، وقطر (1940)، كانت حقول النفط الفارسية تُدار من قبل الحكومة البريطانية حتى عام 1951، لأن نسبة الأخيرة في الأسهم كانت 51٪ في شركة النفط الإنجليزية الإيرانية (التي أصبحت لاحقاً بريتيش بتروليوم أو بِ. ب) وأصبح بترول الكويت، بعد مساومات مطولة ومفاوضات متضادة، يُدار من قبل البريطانيين والأمريكيين عبر شركة الكويت للنفط (KOC)، التي كانت تتكون من بريتيش بتروليوم (ب. بِ) والخليج للنفط، وعلى الرغم من أن اكتشاف النفط عام 1938، دلّ على وجود احتياطات ضخمة، إلا أن الإنتاج تعلق إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية. وكانت الصناعة النفطية العراقية، حتى إتمام التأميم عام 1972، تُدار من قبل شركة بترول العراق (IPC)، وهي ائتلاف من شركات بريطانية، وهولندية، وفرنسية، وأمريكية. أما في البحرين والسعودية، فلقد كان اللاعب الرئيسي هناك، حتى بداية السبعينات من القرن العشرين، هو شركة كاليفورنيا أويل ستاندرد، وهي شركة رافدة للشركة الأمريكية الموجودة حالياً تحت اسم إيكسون (ESSO)، وشركائها والشركات الراعية لها (أهمها الشركة العربية الأمريكية للنفط (أرامكو). انظر أنطوني سامبسون: الشقيقات السبع: شركات النفط العظيمة، والعالم الذي أوجدته، (لندن: هودر وستوتن، 1975) ودانيال يرغن الغنيمة: البحث الملحمي عن النفط والنقود، والسلطة. (نيويورك: سايمون وشوستر، 1991).

لشركة الخطوط الجوية الإمبريالية في الشارقة وطلب منه أن يشجع المسافرين على عدم الذهاب إلى المدينة[1]. وجاء رد المقيم ترين شارد كرافين فاول عبر رسالة سريعة في الأول من إبريل «أتفق تماماً مع رأيك المتعلق بعدم السماح لركاب إيمبريال آرواز بالتجول في أرجاء مدينة الشارقة وخاصة النساء» وخاطب الحاكم ومقر إدارة ايمبريال آرواز في لندن طالباً منهم وضع حد لهذه الممارسة. وبث للجهة الأخيرة قلقه الواضح من الخطر، الذي قد يتهدد النساء:

تلقيت للتو برقية من الوكيل السياسي في البحرين مفادها: أن الركاب في الشارقة أخذوا يذهبون إلى المدينة، حتى إن واحدة من الركاب قد فعلت ذلك، وهي مرتدية بيجاما شاطئية، وبغض النظر عن مدى ملائمة هذا اللباس في مكانه الملائم، إن ذلك المكان من المؤكد ليس الشارقة»، علينا أن نضع نصب أعيننا أن الناس في الشارقة لم يعتادوا حتى الآن على وجود غرباء بينهم، خاصة النساء اللواتي يتجولن في أسواقهم، ومن الطبيعي أن يكون لدى الشركة ولديّ أيضاً، رغبة حقيقية في تجنيب المسافرين أيّة مخاطر من شأنها التحرش بهم، أو إزعاجهم[2].

خاطب فاول، بعد أن وضع المسؤولية كاملةً على عاتق الشركة وركابها، حاكم الشارقة في رسالة مختلفة، الشيخ سلطان بن صقر القاسمي مذكراً إياه بمكانته:

أعتقد أنك تعلم جيداً أن سكان مدينتك، رغم كونهم لطفاء جداً معنا، لم يعتادوا على وجود أوروبيين غرباء يتجولون في أسواقهم، وإذا ما تعرض أحد الركاب للتوبيخ أو التحرش جراء أي عارض كان على يد أي شخص فإنني سأعتبر هذه الحادثة قضية حساسة.

ذكّر فاول الحاكم بالعبارة الواردة في اتفاقية الشارقة الجوية، التي وقعها بنفسه مع البريطانيين في عام 1932، وتقضي بعدم السماح لمسؤولي الشركة، ولا لركابها دخول مدينة

(1) لوك إلى المقيم السياسي، 20 مارس، 1933، وإلى قيم المحطة، نُزل الخطوط الجوية الإمبريالية، نفس التاريخ، سجلات وزارة الهند: إل/ب. إس/3807/12.

(2) ت.س. فاول إلى المدير العام، الخطوط الجوية الإمبريالية المحدودة، لندن، 28 مارس، 1933، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/3807/12.

الشارقة إلا بعد الحصول على تصريح من الشيخ[1]. ويمضي فاول يقول: إن البريطانيين افترضوا أن هذه العبارة ستكون لازمة؛ لأن تدفق الزوار... سيكون غير مرغوب به عند الحاكم. ومع هذا، بدا واضحاً الآن أن الشيخ نفسه كان يستمتع بوجود الزوار، وكتب لوك أيضاً: «إن قيام الركاب بالتجول في أرجاء الشارقة شيء غير مرغوب به، كي لا تحدث مواقف قد تعكر صفو الجميع، وكي لا يصبح الشيخ مسؤولاً عن ذلك»[2]. كانت شركة إيمبريال آرواز بدورها تواقة للحفاظ على مكانها على الساحل، وكانوا ميالين للانصياع لمطالب الحكومة بسهولة تامة، مما حدا بهم إلى إصدار أوامر إلى المشرف على الاستراحة في الشارقة، بضرورة تحري «أقصى درجات التحفظ» عند التعامل مع أبناء المنطقة. وفي هذه الأثناء، قدم مكتبهم في لندن صورة مخالفة عن الوضع في الشارقة، مشيراً إلى أن التقارير الأسبوعية، التي تصلهم من المشرف على الاستراحة تؤكد أن علاقته مع الشيخ» حميمة جداً، وأن الناس في الشارقة قد بدوا متقبلين للشركة ومركباتها، وطاقمها، وركابها بطريقة تدل على رضاهم عنها»[3].

وبدا واضحاً أن الإداريين البريطانيين في الخليج لم يكونوا قلقين على الحفاظ على الملكية الجنسية فحسب، لكن على الوضع الراهن أيضاً. وتم التأكيد لحاكم الشارقة، بلهجةٍ فحواها التمنن والتكبر بإشارة مقتضبة، إلى النجاح الملحوظ، الذي حققته الاستراحة الجوية، على أن البريطانيين «سيعيدون النظر في هذا الشأن لاحقاً عندما يصبح شعبك معتادا على مجيء المسافرين وذهابهم»، وبعبارة أخرى عندما ترى السلطات الإنجليزية –لا الحاكم ولا الخطوط الجوية الإمبريالية– أن الوقت قد أصبح ملائماً للتخالط الاجتماعي، ويمكن حينها تخفيف التعليمات[4]. وعندما تم نقل أخبار الحادثة إلى الدائرة السياسية في

(1) فاول إلى الشيخ سلطان بن صقر –حاكم الشارقة– 30 مارس، 1933، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/12/ 3807، عقد البريطانيون اتفاقيات جوية مع إمارات الخليج، مُنح البريطانيون بموجبها الحق بإنشاء مهابط طائرات من أجل الإسراع بالخدمات. وقِّعت اتفاقية الشارقة الجوية في يوليو من عام 1932.

(2) لوك إلى فاول، 20 مارس، 1933، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/12/3807.

(3) هـ. بيركال، الخطوط الجوية الإمبريالية، لندن إلى فاول 4 إبريل، 1933، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/12/3807.

(4) فاول إلى حاكم الشارقة، 30 مارس 1933، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/12/ 3807.

وزارة الهند في لندن، عبر أحد موظفيها الكبار عن قلقٍ حكومي ضمني عميق.

فيما يتعلق بالشارقة، دائما ما تُذكر... حادثة بيجاما الشاطئ. إذ تتحدث المراسلات عن نفسها. فمن الجلي أن قيام بعض السيدات الأوروبيات بالتجوال في أنحاء الشارقة، وهن مرتديات بيجاما شاطئية شيء غير مرغوب به إطلاقاً، ومن المؤمل أن تتضمن رسالة المقيم إلى الشيخ في الثلاثين من مارس، ورسالته المماثلة إلى الخطوط الجوية الإمبريالية عدم السماح للركاب بدخول المدينة. فهذا الإجراء مرغوب به أيضا لسبب آخر، فهو قد يساعدنا على مراقبة نشاطات صائدي الامتيازات الخ، لقد سمعنا توّاً أن شركة بترول العراق، قد تقدمت للحصول على تأشيرات دخول للشاطئ المتصالح لتعيين ممثل عنهم هناك. وعندما تم رفض منحهم التأشيرات، جرت اتصالات بهذا الشأن بين المسافرين العابرين وبين الشيخ منذ افتتاح الاستراحة الجوية. ستجعل مثل هذه الاتصالات دورنا في التحكم في المنطقة حسب ما نرى صعباً جداً[1].

توضح «حادثة» الشارقة تطور الخطوط الجوية المدنية في الثلاثينيات من القرن الماضي وارتفاع فرص السفر المتاحة، كما خلق وضعاً جديداً كاملاً أمام الإداريين البريطانيين في الجزيرة العربية والخليج. وعلى الرغم من قيام عددٍ ضئيل من الأفراد، وبعض الرّحالات النساء المستقلات الميسورات مثل: روزيتا فوربس، وفريا ستارك بمواصلة رحلاتهنَّ الاستكشافية في الصحراء، أتاح تطور السفر الجوي فرصة المرور عبر المنطقة، والوقوف فيها للتعرف عليها، وعلى سكانها أمام عدد كبير من الناس. وفضلاً عن ذلك، أدى التطور الموازي لصناعة النفط إلى جلب مجموعات جديدة تماماً من الناس: طبيبات، وممرضات، وزوجات عاملين في هذا المجال، وكلهنَّ كُنّ خارج نطاق الطبقة السياسية، والدبلوماسية البريطانية، وكان التحكم بهنّ أكثر صعوبة.

لم يكن فاول، المقيم السياسي في الخليج، ولوك، الوكيل السياسي في البحرين... منفتحي الذهن، أو مرنين إزاء التغييرات التي تدور حولهما. تَمَّ تعيين فاول مقيماً عام

---

(1) ملاحظة أعدها. جَ. جِ. لبثوات، الدائرة السياسية لوزارة الهند، 8 مايو 1933، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/3807/12.

1932، وكان في السابق قد خدم بوصفه ضابطاً سياسياً في بلاد الرافدين خلال الحرب العالمية الأولى. ثمَّ تم تعيينه في مواقع عدة في جنوب بلاد فارس، حيث نعتته إيميلي لوريمر، بشكل خاص بـ «الدجاجة»[1]. صرف فيلبي أيضاً عن ذهنه قدرات فاول، ووصفه لاحقاً في سيرته الذاتية «بالرجل الذكي غير الملهم، الذي كان دوماً يتحدث عن أشياء اعتيادية بطريقة مبتذلة، وكان يستنكر كل أشكال الحماس لأي قضية أو سبب»[2]. ورغم إتقانه العربية، واطلاعه على الثقافة والمجتمع العربيين، إلا أنه واصل اعتقاده أنه كان يمثل المهمة الحضارية البريطانية في أرض «شبة بربرية»[3]. وصف لوك، الوكيل السياسي في البحرين، في إحدى المناسبات الأوضاع في الساحل المتصالح كونه «لا يختلف عن أوضاع حدودنا في القرن الخامس عشر، لقد وجدت دراسة قيمة حول التأريخ الاسكتلندي المبكر ساعدتني كثيراً في فهم طرقهم البدائية إلى حد ما»[4]. لكن، عندما وُضع الرجلان في معضلة السماح باختلاط أبناء المنطقة مع المسافرين من العالم «المتحضر»، لم يستطع أي منهما أن يرى عبثية موقفه، أو أن يدرك، أو يعترف بالتغيرات التي كانت تجري في السياسة الاستعمارية، والإمبريالية. أدركت السلطات البريطانية في الخليج، التي كانت في مواجهة مع منافسين اقتصاديين لهم في المنطقة، أن عالمها القائم على الرجل كان يواجه تدفقاً نسائياً مفرطاً على الأرجح، وتشير سلسلة ملفات الدائرة السياسية لوزارة الهند، التي تعود للثلاثينيات من القرن الماضي، إلى حرص الحكومة البريطانية، والاتفاقيات التي تم وضعها، على مراقبة الرحالات غير الرسميات وغيرهنَّ من المقيمات في الخليج العربي[5].

(1) كتبت إيميلي لوريمر في أوغسطس من عام 1916، على سبيل المثال، إلى والدتها تسأل فيما إذا كانت قد قرأت كتاب تشيكن ترنشاد س. فاول، رحلات في الشرق الأوسط، انطباعات كيانية في أثناء المرور بجزيرة العرب التركية، (لندن: سميث، إلدر وشركاه، 1916) 19 أغسطس 1916، المخطوطات الأوروبية ف 20/177.

(2) Philby, Forty Years in the Wilderness, London: Robert Hale, 1957, p135

(3) Zahlan, Rosemarie Said, The Origins of the United Arab Emirates: a Political and Social History of the Trucial States, London: Macmillan, 1978, 174.

(4) المقدم جِ. لوك «الخليج العربي»، مجلة جمعية آسيا الوسطى الملكية رقم 25 (1938)، اقتبسها سعيد زحلان، أصول الإمارات العربية المتحدة، ص 232.

(5) على سبيل المثال: سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/12/4252، و«434» رحّالة: الخليج العربي، الدويلات العربية،=

ومن هولاء النساء الليدي دوروثي ميلز.

بعثت وزارة الجوازات في لندن في ديسيمبر من عام 1931، تقريراً إلى وزارة الهند، حول مقابلة الليدي ميلز التي كانت تنوي السفر إلى مصر، والمنطقة الغربية من الحجاز، ثم المضي إلى عدن، وعلى طول الساحل الجنوبي للجزيرة العربية، إلى الخليج. كانت ميلز قد قابلت شخصياً حاكم جدة السعودي والممثل البريطاني هناك أندرو ريان غير مرة. كما ورد عن موظفي الجوازات أنه قد تم منحها تأشيرة إلى مصر والحجاز، لا إلى اليمن أو عُمان. وتم تحذيرها أن تلتزم بنصيحة الممثلين البريطانيين، وأُجبرت على التوقيع على تعهد بأن تبقى على اتصال وثيق مع السلطات البريطانية المحلية[1]. كانت ميلز أرستقراطية، فهي ابنة إيرل أكسفورد وكانت رحالة متمرسة، كما غدت عام 1923 أوّل امرأة إنجليزية تزور تمبكتو، وقامت لاحقاً برحلات إلى ليبيريا، وغينيا البرتغالية. وكانت زميلة للجمعية الجغرافية الملكية، وعضوة شرف في الجمعية الجغرافية البرتغالية. وكانت قد نشرت كتباً عديدة حول رحلاتها[2]. وأخبرت ميلز مكتب الجوازات أنها تريد الذهاب إلى الجزيرة العربية؛ للمتعة وجمع مواد لكتاب آخر. وفي ملاحظة تجسد رد بيروقراطي وزارة الهند، قام جَ. سِ. والتون –سكرتير الدائرة السياسية– بتمرير المعلومات إلى الحكومة الهندية معرفاً إياها بـ «الليدي دورثي ميلز» (التي كما فهمت مؤلفة رفيعة، لا كسائر المؤلفين) جاءت الكلمات «مؤلفة لا كسائر المؤلفين» لتحل محل العبارة السابقة «مؤلفة ليست ذات أهمية تذكر» التي تم شطبها وتعديلها»[3].

وفي غضون سنتين، أصبح ملف وزارة الهند يضم وقائع الوقت المكثف، والأعمال

=جزيرة العرب «سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/4336، «رحالة: نساء رحَالات متنوعة إلى الخارج»، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/3807/12، و3868، «الخليج العربي: قضية مقاومة النساء الأوروبيات على الساحل المتصالح»، و«قضية مقاومة النساء الأوروبيات في البحرين والكويت».

(1) مذكرات وزارة الجوازات حول لقاءات مع الليدي دوروثي ميلز، تم تقديمها إلى وزارة الهند: 17 ديسمبر، 1931، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/4252/12.

(2) من كان من، 1951–1960.

(3) مسودة رسالة من جَ. سِ. والتون، وزارة الهند إلى إِ. بِ. هويل وزير الخارجية في حكومة الهند، 18 ديسمبر 1931، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/4252/12.

الورقية الرسمية التي تم استهلاكها في الإحاطة بكاتبة أخرى تدعى وينفرد هاورد كليتي. كانت كليتي مؤلفة كتب أطفال، وكانت تبحث عن أحاديث بدويّة، ومعلومات حول اصطياد اللؤلؤ لاستثمارها في قصص جيدة كانت تنوي كتابتها. أخبرت وزارة الجوازات أنها صديقة لرجل أعمالٍ بحريني متنفذ مشهور يدعى يوسف كانو، الذي كان بدوره قد وعد بإعطائها معلومات حول صناعة اللؤلؤ. وقد تم منحها تأشيرة للسفر إلى الكويت والبحرين، والسعودية، على ألا تذهب إلى الداخل، وفي شهر ديسمبر من عام 1933، خاطب فاول وزارة الهند؛ ليخبرهم أن «قدومها المرتقب» قد «سبب» قلقاً للحكام، أو الوكلاء السياسيين في البحرين والكويت». في حقيقة الأمر، كانت قد قابلت يوسف كانو عرضاً، ولعدة ساعات، عندما كانت تسافر إلى الخليج قبل بضع سنوات، وهي تبيت النية للإقامة معه الآن، لكن «لم يرق له هذا الاحتمال، فإقامة سيدة أوروبية ... عند عربي شيءٌ غير مرغوب به إطلاقاً»، على الرغم من أن يوسف كانو نفسه كان «مواطناً ذا قدر وشأن» وكان تلقى سي. آي. إي (رفيق نظام الإمبراطورية الهندية)[1]. ومضى فاول ليقول إن الأسوأ قادم، فكليتي كانت تخطط للمكوث في الكويت، مع وكيل شركة نفط يدعى محمد يتيم، «الذي امتلك سمعة لا يحسد عليها، ملأ ت جميع أرجاء الخليج أنه سِكّير، رديء الاخلاق ومقتات على الشر. وكان، في الكويت، في الحقيقة، يقيم في صياع العاهرات. ولقد أخبر الوكيل السياسي في الكويت هارولد ديكسون كليتي أن عليها الإقامة مع الإرسالية التبشيرية الأمريكية، أو في أي مكان آخر يوافق عليه. وختم فاول رسالته برجاء مفادة أن تتم استشارته في المستقبل قبل منح تأشيرات لنساء ينوين السفر إلى الخليج.

وافقت وزارة الجوازات، بعد مناقشات مع وزارة الهند، ووزارة الخارجية، بإحالة جميع طلبات التأشيرات التي تقدمت بها النساء البريطانيات إلى المقيم، كما كانت النساء

(1) فاول إلى وزارة الهند، 20 ديسمبر 1933، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/12/4252، للمزيد حول يوسف كانو انظر الفصل الرابع.

المسافرات غير البريطانيات يعاملن. كانت كليتي طبعاً بريطانية متزوجة من أمريكي[1]. وتكشف باقي الأوراق في الأراشيف الرسمية المواقف المتقلبة، والروايات المتضاربة لحادثة كليتي، ففي يناير من عام 1934، أبرق لوك من البحرين إلى فاول؛ ليخبره أن السيدة كليتي، وبعد وصولها البصرة، قد استقبلت في منزل الاستراحة «رجلاً عربياً من الكويت مكث معها لثلاث ساعات، وكما يقال، روى عليها بعض القصص، وهي طبعت قدراً كبيراً منها. وبناءً عليه، استنتج لوك أنها «ليست اجتماعياً من النوع، الذي ينبغي السماح له بالسفر إلى البحرين»[2]. وفي هذه الأثناء، وافقت الإرسالية التبشيرية في الكويت على إقامة السيدة كليتي مع إحدى النساء، تدعى السيدة فان بيلت، التي «لن تسمح لمحمد يتيم بدخول بيتها، أو للسيدة هارولد كليتي بالخروج معه»[3].

وفي مارس، كتب فاول إلى وزير الدولة؛ ليقدم له عرضاً موجزاً عن زيارة كليتي إلى الخليج، وأصداء تلك الأرضية التي قامت عليها الرحلة. ووفقاً لرواية فاول، قامت كليتي قبل زواجها تحديداً في عام 1931 (وكانت تعرف بالآنسة وينفرد هاورد) بزيارة البحرين، والكويت حيث قابلت محمد يتيم على متن القارب المنطلق من الهند، وكان الوكيل السري للميجور «فرانك هولمز»، مفاوض النفط الرئيس في الكويت. وقابلت في أثناء تلك الزيارة، ولفترة وجيزة، يوسف كانو في البحرين. كما طالبت في الكويت بمقابلة الشيخ، غير أن طلبها كان مصيره الرفض. وفي رحلتها الأخيرة نكثت المبشرة الأمريكية، الآنسة فان بيلت، وعدها باستضافة كليتي، ورفض كلٌ من هولمز وكانو مقابلتها:

ورد عن الوكيلين السياسيين في الكويت، والبحرين أنَّ الشيخين أبديا انزعاجاً كبيراً من طلب امرأة أوروبية غير مرتبطة القدوم؛ للإقامة في إماراتيهما في ظل شروط تعلمها السيدة هاورد كليتي، التي «أعتقد أنها قد غادرت الآن البصرة إلى أوروبا حيث تنوي، كما ورد، كتابة مقالة لا بد منها، وقد تكون كتابا، سيعده معظم السياح القادمين إلى هذا

(1) باتريك روبرتس، وزارة الخارجية إلى جَ. جِ. ليثوات، وزارة الهند 20 فبراير، 1934، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/12/ 4252.

(2) لوك إلى فاول، 8 يناير 1934 (مؤرخة بشكل خاطئ 1933) سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/12/4252.

(3) الوكيل السياسي في الكويت (ديكسون) إلى فاول، 1 فبراير 1934، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/12/4252.

الجزء من العالم ضروريا. قد يحمل الكتاب أو المقالة لمسة معادية للبريطانيين؛ لأنه ورد أن السيدة هاورد كليني مستاءة جداً؛ بسبب القيود التي فرضت على ترحالها في الخليج؛ بسبب الظروف المذكورة أعلاه[1].

وتكشف أوراق القضية المحفوظة في وكالة البحرين عداوة، ورفض كل من لوك وديكسون في الكويت، لكنهما دافعا إلى حد ما عن مزاعم كليتي، أنها قد تمت استضافتها من قبل يوسف كانو. ويضم الملف نسخاً من رسائل كليتي إلى كانو بعد زيارة عام 1931، أخبرته فيها عن زواجها، وخططها للرحلة التالية. وفي الواقع، كان كانو قد بعث إليها برسالة في نوفمبر من عام 1931، رداً على رسالة شكرته فيها على استضافته لها خلال زيارتها الأولى:

كان لطفاً منك أن أطلت الحديث عن الضيافة اليسيرة التي قدمتها لك. أشعر أنّه كان ينبغي عليّ فِعْلُ أكثر مما فعلت مع شخصٍ جيدٍ مثلك، لكن إقامتك هنا كانت قصيرة جداً فلم تتجاوز بضع ساعات. أتمنى بالتأكيد أنْ تتاح لك فرصة أخرى لزيارة البحرين، ومنحي سعادة غامرة بمكوثك فترة أطول ...[2].

كتب كانو إليها مرة أخرى في فبراير من عام 1933؛ ليخبرها أنه يعتقد أنها ستحضر زوجها معها أيضاً «لتريه بلدنا، فكلاكما سيكون موضع ترحيب في منزلي». وعندما ردت عليه كليتي في شهر أغسطس لتخبره أنها ستأتي وحدها؛ لأن زوجها كان مهندسا، وهو يعمل في عرض البحر الآن، أجابها كانو أنه سيكون مسروراً بمقابلتها[3]. وفي هذه الأثناء، طمأن هارولد ديكسون لوك من الكويت أنّه طبعاً سيبذل قصارى جهده؛ لمنعها من دخول البجرين، وقال «إذا تمكنت من الوصول إلى هنا، فإنني آمل أن أتمكن من منعها». وفي الوقت نفسه، ورد عن ديكسون أنه نقل إلى فاول، أنّه قد تحدث مع حاكم الكويت، ورغم أنه «لم يصرح باعتراضه على وجود السيدة في الكويت، إلا أنني أستطيع

(1) فاول إلى وزير الدولة لشؤون الهند، 27 مارس، 1934، سجلات وزارة الهند: إل/ب. إس/12/4252.

(2) يوسف كانو إلى وينيغرد هاوارد، 6 نوفمبر 1931، سجلات وزارة الهند: إر/15/2/594.

(3) كانو إلى وينيغرد كليتي، 13 فبراير، 1933، وكليتي إلى كانو 13 أغسطس 1933، والرد 10 ديسمبر سجلات وزارة الهند: أر: 15/2/594.

أن أجزم أنه لم يحبذ مطلقاً فكرة إقامتها مع السيد محمد يتيم». وختم ديكسون بقوله: إن «مكانة البريطانيين تمنع إقامتها مع رجلٍ عربي شاب، يقيم وحده»[1]. وفي هذه الأثناء، أخبر كانو لوك أن رده على طلب كليتي البقاء معه لم يكن جاداً، بل تم التعبير عنه ببساطة، «بطريقة عربية مؤدبة وتقليدية»[2]. وفي فبراير من عام 1934، أبرق لوك إلى فاول؛ ليخبره أن كليتي غادرت البصرة بالسيارة إلى حيفا، ثم إلى اليونان:

قيل إنها في وضع هستيري، ومن المحتمل أن يكون مميتا. كان مفهوماً لدى الجميع أن بعض مسودات مقالاتها للصحافة لم تكن من النوع المرغوب به. إذ كانت ترى أن العربي أفضل الرجال، وكانت غاضبة جداً؛ لأنهم لم يسمحوا لها بالسفر إلى الكويت، وكانت تنوي بث انطباعاتها في سلسلة مقالات صحفية (ومن المحتمل أن تفعل ذلك تحت اسم مستعار لا أعرفه) وفي رواية أخرى كان محتملاً أنها ستحاول التشهير بالدائرة السياسية[3].

وسواء قارب لوك الخطاب الفكتوري المرتبط بالهستيريا الأنثوية عن وعي أم لا، فإن حاله هنا فيما يتعلق ببعض المبشرات كحال سابقيه، فقد أزاح لوك كليتي عن طريقه، ووضع المسؤولية كاملةً على عاتق الحكومة في لندن. واقترح عليهم أن يحرصوا على مراقبتها، وأن يأخذوا في الحسبان إذا استدعى الأمر، تحذير الصحف «أو القيام بأي عمل أو إجراء آخر». من غير تحديد، وختم بملاحظة وردت في نهاية الملف مفادها:

تمكنت مؤخراً من استطلاع رأي سيدة أقامت في الاستراحة، مع السيدة هاورد كليتي في البصرة، وعلى الرغم من أنها لم تحاول التعرف عليها شخصياً، إلا أنني استنتجت أن لها رأياً سيئاً فيها. ورأت أنّه من غير الحكمة السماح لها بالسفر إلى البحرين، وتمنت لو تتمكن من منعها[4].

(1) ديكسون إلى لوك، وديكسون إلى فاول 29 نوفمبر 1933، سجلات وزارة الهند: أر/594/2/15.

(2) لوك إلى فاول، 9 ديسمبر، 1933، سجلات وزارة الهند: أر/594/2/15.

(3) لوك إلى فاول، 26 فبراير 1934 سجلات وزارة الهند: أر594/2/15.

(4) ملاحظة في ملف وضعها لوك، 20 فبراير 1934، سجلات وزارة الهند: أر 592/2/15.

أصبحت الحادثة تشكل تجسيداً مصغراً لمخاوف وتحيزات استعمارية كبرى، أظهرت للعيان، على الصعيد السياسي، القلق البريطاني إزاء الاحتفاظ بالرفعة الدبلوماسية، والاقتصادية ذاتها. أما على الصعيد الاجتماعي، فلقد كشفت هذه الحادثة عن التعصب الطبقي، والجنسوي، والعرقي المتجسد في توتر لوك، وفاول بشأن سلوك كيلتي، وشخصيتها، وعلاقاتها مع رجالٍ عربٍ. وكما هو الحال في الهند، كان الخوف من عدم الاحتشام الجنسي عاملاً حقيقياً، وافتراضياً في سبيل الحفاظ على السلطة، والنظام الإمبرياليين. كانت وينفريد كليتي رمزاً للآراء المتضاربة المتعلقة بالشرق الأوسط، واعتبار الخليج مقاطعة بريطانية، لا يمكن السفر عبرها، أو إقامة علاقات مع مواطنيها إلا بعد الحصول على تصريح من البيروقراطيين الرسميين ذوي السلطة الذكورية، الذين يصبحون أكثر فأكثر قديمي العهد. فضلا عن ذلك، تحدت الموجة الجديدة من النساء المسافرات الأفكار الاستعمارية المتوارثة حول الشخصية الأمثل لتمثيل بريطانيا في الشرق.

وتبدو الفروق الدقيقة في مواقف الموظفين المعينين في أرجاء المنطقة واضحة، عند الحديث عن حالة امرأة بريطانية أخرى تدعى كاتلين بالمرسميث، التي كانت تعمل معلمة خصوصية في طهران، لعائلة الوزير البريطاني السابق السير روبرت كلايف. كتب فاول عام 1935، إلى وزارة الخارجية؛ لأن بالمر سميث كانت تخطط لزيارة أطباء الإرسالية التبشيرية الأمريكية ماريون ويلزتومس، وزوجها شارون في البحرين[1]. وكما كان الحال مع كليتي، تذمر فاول من حقيقة أن تأشيرات السفر إلى دول الخليج العربي، تتم دون الرجوع إلى الضباط السياسيين المحليين أو، بمعنى آخر، دون الرجوع إليه. «لا يوجد في تلك الدول فنادق تؤمن إقامة ملائمة للنساء الإنجليزيات، وينبغي ألا يسمح لهن بزيارة هذه الدول؛ للإقامة ما لم يرتب الوكيل السياسي سكناً ملائماً لهن»[2].

تذمر فاول من أن قدوم الآنسة بالمر سميث قد سبب إحراجاً للوك، والحكومة البريطانية، والمبشرين الأمريكيين. لكنه في هذه الحالة تحديداً -كما يعتقد بعض الموظفين- قد تجاوز

(1) لوك إلى فاول، 30 ديسمبر 1934، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/12/4252.

(2) فاول إلى وزارة الخارجية، 2 يناير، 1935، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/12/4252.

حده، ولهذا تلقى توبيخاً من القائم بأعمال الوزير البريطاني في طهران هيو مونتغمري ناتجبال هجيسون. وكان الوزير قد خاطب وزارة الخارجية مبديا إنزعاجه من أن مثل هذه التعليمات ليست ضرورية، وأشار إلى أن الآنسة بالمر سميث «سيدة محترمة، ولها سبلها الخاصة، ومعروفة تماماً لدى أعضاء المفوضية» وأضاف أن ترتيباتها مع المبشرات ينبغي أن تكون شأناً خاصاً بينها وبينهن[1]. وسواء أكان التعنيف اعترافاً أن البعض قد رأى أن فاول بيروقراطي بالغ في الحماسة أم كان انعكاساً لحقيقة، أن بعض النساء يعتبرن ملائمات، ومحتشمات، وبعضهن لسن كذلك، فإن هذا التبادل يدل على وجود منظور أكثر تعقيداً، لدى بعض الوظائف الدبلوماسيّة الموزّعة في المدن الضخمة، والمدن الصغيرة الأخرى.

كشفت حالتا كليتي، وكاتلين بالمر سميث النقاب عن التقلبات التراتبية ضمن مفاهيم البريطانيين للسلطة الإمبريالية، والقبول الاجتماعي. ظهرت المبشرات الأمريكيات على هامش هاتين الحادثتين، وكُنّ على الدوام يعددن شخصيات ذات سلطة وكيان، وهذا مناقض تماماً للصورة التي رسمت لهن في السابق. إذ تظهرهن بوصفهن عامل تشتت، وطارئات عليها. وفي كلتا الحالتين، تم تصويرهن كمزودات محتملات لإقامة محترمة. وطبعاً كقيّمات على المعايير الأخلاقية. وإضافة إلى ذلك ظهرن في حالة بالمر سميث، بعلاقاتهن مع الوكيل السياسي في البحرين، والحكومة البريطانية كمجموعة تواجه حرجاً شديداً نتيجة أعمال نساء مزعجات. وتشير هذه المرجعيات إلى الأسلوب السلس الذي تمكن المبشرون من خلاله أن يصبحوا جزءاً من المؤسسة، وذلك عند النظر إلى وجودهم في الخليج وإلى الاعتراف والاحترام، اللذين حصلوا عليه مزودين للتعليم والعناية الصحية. وفي الحقيقة وبعيداً عن التعاطف مع الموجه الجديدة من المهاجرين الاقتصاديين والمغامرين، الذين كان معظمهم أمريكيين، تبنى المبشرون موقفاً متضارباً تجاه القادمين الجدد.

زعم المبجل ب. د. هاكن، في مقالة نشرت في «جزيرة العرب المهملة»، عام 1936، أن

(1) إج. م. ناجبل همغسون، طهران إلى السير جون سايمون، 6 فبراير 1935، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/12/4252.

قدوم صناعة النفط قد سبب مشكلة جديدة، وصعبة للمبشرين[1]. فأثارها على المجتمع البحريني، واقتصاده كانت هائلة جداً. فقد جلبت عمليات استخراج النفط معها تغييرات في البيئة التحتية، ووفرت فرص عمل لأبناء المنطقة، وأسهمت في ردم بعض جيوب الفقر الناجمة عن الخمول في صناعة اللؤلؤ. لكن وفي الوقت نفسه، جلبت هذه التغييرات معها مزيداً من الأوروبيين والأمريكيين وزوجاتهم وأطفالهم. وثّقت الإرسالية التبشيرية علاقتها مع شركة النفط، ووفرت لها العناية الطبية مقابل بعض المال اللازم. فضلاً عن ذلك، اعتقد هاكان أن معظم موظفي الشركة الأمريكيين والبريطانيين «كانوا رجالا رفيعي القَدْر» وعاملوا العرب بشكل جيد. لكن حقيقة عدم حضور رجال النفط الصلوات قادت العرب إلى تكوين فكرة خاطئة:

فإدراك العرب، قبل قدومهم [رجال نفط] أن الإنجليز لم يكونوا مواظبين جيدين، ما يسهم في تغيير الحقيقة الجليّة. فالعرب كانوا يعلمون أن الإنجليز شعب آخر، لكن أن يعرفوا أن هناك أمريكيين غير متدينين يُعَدُّ شيئاً غريباً، ولا يمكن تفسيره إطلاقاً، لم تُفِد هذه الصحوة عملنا بشيء.

أسهم كلّ من المبشرين والموظفين البريطانيين عن وعي أو بلا وعي، في إعادة خلق الوجود التبشيري، وفي إعادة حشد أنفسهم لمواجهة القادمين الجدد. وعندما طرح لوك موضوع زيارة المبشرين إلى العربية السعودية، وقطر، والساحل المتصالح، وما يتعلق بها من إصدار تأشيرات في الثلاثينيات من القرن المنصرم، اتضح أنه لم يعد بمقدور البريطانيين منعهم من زيارة المنطقة العربية السعودية «التي كانت دولة مستقلة، وقطر خاصة عندما يوجه الشيخ دعوة»[2]. وبحلول عام 1936، سَلّم كلّ من فاول ولوك أن الأوضاع في قطر، والساحل المتصالح قد تغيرت كثيراً، وأصبح من غير المعقول أن نجعل المبشرين يدفعون مقابل كل تأشيرة زيارة، وعلى الرغم من أن فاول قد أشار أنّه في حالة «الموظفين الإيفانجليكيين» يستطيع البريطانيون رفض منحهم تصريحاً، على أساس أنهم أفراد غير

(1) المبجل، ب. د. هاكن «عصر جديد في تأريخ التبشير» جزيرة العرب المهملة، رقم 177، أكتوبر–ديسمبر 1936.

(2) لوك إلى فاول، 24 مايو 1934، سجلات وزارة الهند: أر/15/2/853.

مرحب بهم لدى الشيخ، ولم يشتركوا بأعمال إنسانية إطلاقاً[1].

تمكنت أول مجموعة من المبشرات عام 1933، في ظل الظروف المتغيرة، من الوصول إلى الرياض، وتألفت المجموعة من الدكتورة لويس، والسيدة إليزابيث دام، وجوزفين فان بيرسم إضافة إلى ممرضة هندية مسيحية تدعى غراس ديفيني، كانت قد تلقت تدريبها في بعثة أركوت الأمريكية، واصطحبوا معهم امرأة سابقة تدعى «مدينة» وهي « سوداء كانت معاونة للبعثة لسنوات طويلة خلت»[2]. وقد أشادت جوزفين فان بيرسم، في رسالة موجهة إلى هيئة البعثات التبشيرية الأجنبية بالحفاوة البالغة، التي قابلهن بها الملك عبد العزيز، وأضافت «أنها والسيدة دام قد «عدّتا من أفراد العائلة بقدر ما تسمح به المكانة الاجتماعية». وورد عنها أنه في مجلس قريبات الملك الأسبوعي، أجلست والدة الملك المبشرات الأمريكيات إلى جانب شقيقات الملك الثلاثة قبل التسعة الأخريات، وقدمهن الملك بوصفهن المسيحيات الوحيدات اللواتي ستتم دعوتهن إلى الرياض، وقال: إنهن مسيحيات بحق، وأننا نفعل كل ما نفعل لخدمة الرب. وقال إنه أَحَبَّنا لنبل أرواحنا وحماسنا وأمانتنا»[3]. أشارت اليزابيث دام في سردها للزيارة إلى تعيين آمي زويمر قبل سبع وثلاثين عاماً، الذي ظن البعض أنها تجربة، في حين شكك البعض الآخر بها. فقالت: إن «يوماً أخر من أيام البطولة والفخر» قد أضيف إلى تأريخ التبشير «لدخول أول المجموعات التبشيرية النسائية إلى وسط الجزيرة العربية»:

ينصب اهتمامنا الوحيد طبعاً على النساء، إذ نجدهن مستجيبات جداً، وكنا نقابلهن بمحبة وود سواء أكن من العائلة الحاكمة أم زوجات الخدم، أم الخادمات. وشعرنا عند مغادرتنا أننا نترك أصدقاء حقيقيين، فعلاقتنا الحميمة قد وثقت معرفتنا ببعضنا لتصبح صداقة خلال فترة وجيزة لم تتجاوز ثلاثة شهور[4].

وبعد زوال خطر المبشرات الأمريكيات المتصور، استمرت الرحالات المستقلات

(1) لوك إلى فاول، 14 نوفمبر 1936، وفاول إلى لوك، 12 ديسمبر 1936، سجلات وزارة الهند: أر: 853/2/15.

(2) جزيرة العرب المهملة، رقم 166، أكتوبر—ديسمبر، 1933.

(3) المرجع السابق، ص 9.

(4) السيدة إل. بِ. دام «رحلة إلى وسط جزيرة العرب»، جزيرة العرب المهملة، رقم 167، يناير—مارس 1934.

في تشكيل مصدر قلقٍ للموظفين في الخليج. أصبحت السلطات البريطانية منذ بدايات الثلاثينيات من القرن المنصرم، أكثر تشدداً إزاء التدفق المتوقع لزوجات غير الدبلوماسيين. فعلى سبيل المثال، خاطب مقر الخطوط الجوية الإمبريالية في لندن القنصل البريطاني العام في بوشهر؛ ليستَعْلِموا فيما إذا كان بمقدور قيّم استراحتهم في الشارقة استقدام زوجته للإقامة معه خلال أشهر الشتاء، زاعمين أنه إذا حدث هذا «فإن ممثلنا سيغدو أسعد، ولديه من الخبرة في الخليج، وقاطنيه ما يكفي ليجنبه الإخلال بالثقة»[1]. جاء رد فاول بالسلب معللاً رفضه، أنه منذ افتتاح المطار في الشارقة سارت الأمور بسلاسة تامة، وعلى وتيرة أسرع ممّا تخيلها، وبناءً عليه فهو متردد بالقيام بأي عمل من شأنه «زيادة مخاطر أية حادثّة حال وقوعها» أو تعقيد تبعات أية حادثة وقعت فعلاً»[2]. فضلا عن ذلك، إذا حدثت مشكلة في الشارقة، فإن ذلك يتطلب إخلاء أية امرأة من السكن، مما يجعل الأمور أكثر تعقيداً. ومضى فاول يتحدث بصراحة أكثر فيقول: «لا أستطيع أن أضمن عدم وقوع حادثة سيئة قد تمس السيدة جانز، كأن يوجّه لها أحدهم بعض الكلمات النابية»، إذ سيتطلب حادث كهذا معاقبة الفاعل، الأمر الذي قد يقود إلى أن تسوء العلاقة مع الشيخ. اعترف فاول، رغم إخفاقه المفاجئ في استذكار المشاكل المترتبة على «حادثة بيجاما الشاطئ»، بمرور بعض المسافرات عبر الإمارة، لكنه وضّح أنهن كن يصلن في وقت متأخر مساءً، ويغادرن في صباح اليوم التالي، وأنهن لم يُقِمْن في المدينة ناهيك عن الإقامة بشكل دائم فيها. وكما هي عادته، أضاف فاول أن القضية كاملة تقع ضمن مسؤوليته، وعلى الرغم من أن الشيخ قد صرح بعدم وجود اعتراض، إلا أن هذا لا يجدي نفعاً، إذا وقعت «حادثة» مشابهة:

أقدر تماماً رغبة الشركة بجعل ممثلها في الشارقة أسعد، وأعتقد، كوني رجلاً متزوجاً، أنه من الصعب على جانز أن يبقى بعيداً عن زوجته لفترات طويلة. إلا أن حل هذه المشكلة يكمن في يد الشركة فهي تستطيع إرسال شخص أعزب إلى الشارقة، أو جعل مدة إقامة

(1) أ. فليتشر، الخطوط الجوية الإمبريالية إلى إي، إج، غاستريل، القنصل البريطاني العام في بوشهر، 7 يونيو 1932، سجلات وزارة الهند: إل/ ب. إس/12/3807.

(2) فاول إلى بيركال-الخطوط الجوية الإمبريالية، 19 أغسطس، 1934، سجلات وزارة الهند: إل/ب. إس/12/3807.

الرجال المتزوجين أقصر.

أضاف فاول في رسالة تغطية إلى وزارة الهند، إن السماح للسيدة جانز بالذهاب إلى الشارقة سيشكل سابقة خطيرة، هذا إذا تم افتتاح أماكن أخرى على الساحل المتصالح أو في قطر. وتوقع أن الساحل المتصالح سيكون في نهاية المطاف، بلا شك مناسباً للنساء للعيش فيه، «أما الآن فهو ليس كذلك»[1]. وبدورها بعثت الخطوط الجوية الإمبريالية، التي وعت تماماً السياسة المطلوبة لتوسيع أعمالها التجارية في المنطقة، برسالة إلى فاول شاكرة إياه على توضيحه المباشر لأسباب عدم السماح للسيدة جانز بالإقامة مع زوجها. وأعلنت الشركة قبولها برأيه أنه أمر « غير مرغوب فيه»[2].

وبعد سنوات قليلة، أصبحت شركات الطيران، والنفط تضغط بشكل أكبر للسماح بإقامة عائلات موظفيها معهم، فأصبحت القضية أكثر أهمية. ففي سبتمبر من عام 1936، على سبيل المثال، أبرق فاول إلى وزارة الهند؛ ليخبرهم أن مجموعة فنية من رجال النفط (كالمدراء، والحفارين، والجيولوجيين) قد توجهت إلى البحرين، وكانوا قبل توجههم إلى هناك يستخبرون عن المنازل. أصبح فاول بحلول هذا الوقت ميالاً إلى السماح للزوجات بالبقاء، إذا تمكنت الشركة من إقناع الوكيل السياسي في البحرين بتوفير منازل مناسبة، والحصول على موافقة خطيّة من الوكيل بهذا الشأن[3]. وورد عنه أيضاً قوله إن هذا ينطبق على الكويت، على الرغم من أن ديكسون قد صرّح بعدم توافر مزيد من المنازل التي يمكن للنساء الأوروبيات الإقامة فيها. ومع هذا «ينبغي ألا يسمح للنساء ولا في أي حال من الأحوال بالذهاب إلى قطر، أو الساحل المتصالح». وبناءً عليه، بعثت وزارة الهند بهذه التعليمات إلى شركة الكويت للبترول، وإلى شركة الامتيازات البترولية المحدودة، وكانتا قد بدأتا العمليات على الساحل انطلاقاً من مقراتهما في البحرين. وقامت أيضاً بالكتابة

(1) فاول إلى ج. ليثوات، وزارة الهند، 19 أغسطس 1934، سجلات وزارة الهند/إل/ب. إس/12/3807.

(2) بيركال إلى فاول، 27 أغسطس 1934، سجلات وزارة الهند: إل/ب. إس/12/3807.

(3) فاول إلى وزير الدولة لشؤون الهند، 23 سبتمبر 1936، سجلات وزارة الهند: إل/ب. إس/12/3868.

إلى وزارة الجوازات[1]. قبلت الشركات الشروط، لكن في بداية أكتوبر، بعثت وزارة الهند مرة أخرى رسالة مفادها: أنهم ناقشوا قضية البحرين مع فاول، «الذي لم يتقبل حتى الآراء الجادة كرأي العقيد لوك»[2]. كان رأي فاول حينها أن من واجبات الشركة التأكد من توفر منازلٍ مناسبةٍ قبل السماح للسيدات بالذهاب إلى البحرين. ولا تتحمل الحكومة أدنى مسؤولية بالتحقق من «ملائمة» المنازل للإقامة فيها. أبرق وزير الدولة في حكومة الهند في الثالث من أكتوبر إلى المقيمين السياسيين في البحرين، والكويت؛ ليخبرهم أن «فاول يعد ذلك الموقف ... مقنعاً جداً ... وأنه استهجن أن يتحمل أي وكيل سياسي أية مسؤولية، بتحققه من مواءمة المسكن لإقامة السيدات، فهو يفضل أن تلقى كامل «المسؤولية على عاتق الشركة»[3].

أخذ فاول، استجابة لضغوطات لندن، بالتراجع عن مواقفه المتشددة. وبشكل عام، تم السماح تدريجياً لمزيد من النساء بالسفر، على الرغم من أنهن كأفراد قد تعرضن لمراقبة لصيقة، وتعرّض بعضهن أحيانا للسخرية. وقد تبنى بعض الموظفين مثل فاول، ولوك، وبدرجة أقل ديكسون، آراء تعود لأفكارٍ موروثةٍ عن التمرد الهندي (الثورة الهندية) عام 1857 عندما أدى توافد أعداد متزايدة من النساء البريطانيات إلى الهند، في السنوات التي سبقت الاضطرابات، إلى الايمان أن الوجود النسائي في الهند قد أصبح عامل فرقة لا يمكن تجنبه في العالم الذكوري للإمبراطورية[4]. غير أن هذه الاعتقادات واجهت تحديات كبيرة

(1) إم. كلاوسون، وزارة الهند، إلى جَ. دبليو. لونغريغ، وزارة الجوازات، 26 سبتمبر 1936، إلى إس. إج. لونغريغ، شركة التنازلات النفطية المحدودة، وإلى هـ. تِ. كيمب، شركة نفط الكويت، 30 ديسمبر 1936، سجلات وزارة الهند إل/ب. إس/12/3868.

(2) كلاوسون إلى لونغريغ، 1 اكتوبر 1936، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/12/3868.

(3) وزير الدولة لشؤون الهند إلى المقيم، وإلى الوكلاء السياسيين في البحرين، والكويت، 3 أكتوبر 1936، سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/12/3868.

(4) هنالك جملة غير واضحة من الكتابات التي تدور حول النساء الغربيات، ودورهن في قضايا وأحداث 1857، انظر على سبيل المثال: كينيث بالهاتشيت، العرق والجنس والطبقة في ظل الراج: المواقف، والسياسات الإمبريالية، ومنتقديها 1793–1905، (لندن: وادنعنليد ونيكلسون، 1980) وانظر أيضاً تحديداً: بينيلوب توسن «قصص تمرد الأنثى الإمبريالية: روايات النساء الأوروبيات للثورة في الهند عام 1857» منتدى النسائية العالمي رقم 21 (1998)، ص 291–303.

في مدن بريطانيا الكبرى.

نشرت مجلة «الكونتمبوري رفيو» عام 1932 مقالة اشترك في كتابتها البروفيسور إيرنست باركر، وفريا ستارك إعادة فيها تقييم دور النساء في الخدمة الإمبريالية والاستعمارية[1]. كان باركر أستاذاً للعلوم السياسية في كامبردج، وكانت فريا ستارك حينها رحالة متمرسة، قد بدأت لتوها نشر كتاباتها. ضمت المقالة قسمين، كتب القسم الأول باركر، والثاني ستارك. ووصف باركر المقالة أنها نتاج حوارات بين الاثنين جرت في مدينة إيطالية معتلية خلال الخريف الماضي[2].

سلم باركر في مقدمة المقالة بالحقيقة القائلة: إن على المرأة أن ترافق زوجها في سفره إلى ما وراء البحار، على الرغم من قوله «عندما تفكر في الأمر ملياً، يبدو أنه مثار دهشة وإعجاب. فالمرأة تدفع ثمناً باهضاً»، لأنه عندما ينجب الزوجان أطفالاً، عادة ما يغادرون عائدين إلى وطنهم، وفي هذه اللحظة يصبح أمام الزوجة والأم خياران لا ثالث لهما، فهي إما أن تتبعهم وتخسر زوجها أو العكس، ومع هذا «تدفع المرأة الثمن بهدوء، «وتسلم به دون نقاش». أما الافتراض الثاني، من وجهة نظر باركر، فهو أن المرأة الإنجليزية المقيمة مع زوجها في الخارج «عصيّة على الفهم، ولا تحصل إلا على تعاطف يسير من الرجال الإنجليز العاملين في الخارج، وكذلك من سكان المناطق حيث يعملن، لكثرة الحواجز المرهقة، وغير المقصودة والطاغية». ومضى باركر يزعم أن «الخطأ يقع على عاتق الرجل أكثر منه على عاتق المرأة»، فالرجال الإنجليز، حسبما يعتقد، فاقوا الفرنسيين، والإسبان، والإيطاليين بحسهم القوي «بالعرق» وهي كلمة قد أُسيء استخدامها:

(1) البروفسور إيرنست باركر، وفرياستارك «النساء وخدمة الإمبراطورية» أكونتمبوري رفيور، رقم 141 (1932)، ص 54–61.

(2) هذه على الأرجح إشارة إلى منزل ستارك في أسولو في شمال إيطاليا، كانت ستارك صديقة لايرنيست باركر، وزوجته أوليفيا ومكثت في منزلها في لندن في بداية عام 1931، بعد حادثة سقوط غيرخيل. وتذكر في سيرتها الذاتية أنهم «لم يقوموا على الاعتناء بي فحسب، بل كانوا قادرين على توفير جميع الكتب التي كنت أتمنى أن أقرأها» وأشارت إلى أن باركر قد وضعت بعض أعمالها في كونتمبري رفيو، Freya Stark, Beyond Euphrates: Autobiography 1928-1933, London: John Murray, 1951.

نحرص على تنمية شعور مثالي لنقاء العرق، نتمسك بمثالية البياض غير الملوث ... هناك حكمة، وتدبر أخلاقي في هذا الشأن، إذا ما حرصنا على إبقائها حفيظة لنا من أنفسنا، لكننا نتوسع بها لجعلها نوعاً من السلطة على نسائنا. فانطلاقاً من مبدأ الفروسية، الذي قد لا يعد بالنسبة لهن من أسمى المبادئ، نرغب في الإبقاء عليهن مسيجات ومحميات، نريد منهن أن يعشن الحياة الإنجليزية بكل ما فيها من نعم وحرمات، في منأى عن العالم الخارجي.

استهجن باركر النزوع الاستعماري نحو عزل الحياة الاجتماعية الإنجليزيّة، و كذلك عزل الأنوثة الإنجليزية، وشبّه هذه الظاهرة «بالمخضرة التي تصلح للنباتات ... وليست بالضرورة مفيدة للإنسان». وألقى بعض اللوم على النساء أنفسهن؛ لتواطئهن في هذا العزل:

وفوق كل هذا، يأتي تصرف النساء الإنجليزيات أنفسهن. فلدى النساء قدرة على خلق «مجتمع» بما يتطلب من تجمعات، وقواعد، ونشاطات، وأعراف. وبهذه الأمور كانت النساءُ الإنجليزيات العبقريات مشغولات. فحيثما حللن، كُنّ يضعن نظاماً كاملاً للحياة الاجتماعية، بعضه لأنفسهن ومعظمه لساعات فراغ رجالهن... كلما كان الدافع قوياً، زاد ميل هذا النظام نحو الانعزال. إن تطور الحياة الاجتماعية إنما هو تطور للفروق الاجتماعية. النساء، وهُنّ اللواتي وضعن اللبنات الأساسية في آداب السلوك الاجتماعي، هُنّ أيضاً اللواتي أوجدن الحواجز الاجتماعية.

أشار باركر في تقديمه لقسم ستارك من المقالة، إلى أنّه يتفق تماماً مع ما قالته: تقوم النساء بعمل اجتماعي خلال ساعات عملهن، وليس هناك داعٍ لأن يقمن بالمزيد منه، طالما أبدى الرجال استعدادهم للتنازل عن بعض محرماتهم الذكوريّة، وتوقفوا عن عدّ المرأة «خليلة» «في ساعات الراحة» أو ممرضة لهم عندما يمرضون. وختم بقوله ينبغي للنساء أن يكن:

رفيقات وزميلات في العمل ... فالمرأة لديها غريزة العمل الاجتماعية إلى جانب الدور الاجتماعي ... وسيكون هذا تحريراً حقيقياً لمواهب المرأة الإنجليزيّة، وطاقاتها التي تخدم الإمبراطورية في الخارج. وهذا ليس في سبيل تحريرها هي فحسب، بل هو طريقة

مبتكرة، وفعالة جداً للتألف والتعاطف بين الشعب الإنجليزي والمحليين، وعندما تتفهم النساء بعضهن بعضا، سيكسبن المعركة، وستصبح الطريق سهلة أمام الرجال.

حافظ جزء ستارك على النهج ذاته. وأشارت إلى أن إمبراطورية ديزرلي البريطانية، «الكبيرة القوية جداً، التي لا يمكن مهاجمتها، والتي بهرت العالم الخانع بلا حولٍ منها»، قد ذهبت منذ زمنٍ ليس بقصير وكذلك الازدهار الثابت، الذي رافقها. تغيرت الأفكار التي قامت عليها هذه الإمبراطورية وكذلك «الأشكال الخارجية، التي حدثت بطريقة خطرة خرقاء»، قد تغيرت أيضاً:

كل شيء يتحرك كجدولٍ من اللافا ... الزفير، السطح المتجعد، الذي على وشك أن يتصدع، ويتكسر في أية لحظة. وقد بدا جلياً للجميع أن الأمور ستتغير مهما كلف الأمر. وهمنا هو أن نمنع الأمور من الوصول إلى هذه الدرجة المدمرة. وفي هذه الأثناء، تجعلنا هذه العملية نراجع أدواتنا وطرقنا.

مضت ستارك تطالب بتنظيم أمور الإمبراطورية على نطاق أوسع عبر إشراك أناس آخرين، من مجالات التجارة والصناعة والصحافة:

إذا ما أردنا الاستمرار في قيادة العالم، فسنحتاج كل مصدرٍ نستطيع حشده... وفي هذا النطاق نمتلك رصيداً فريداً لعرقنا. ألا وهو المرأة البريطانية. فليس هناك من امرأة أخرى لديها تدريباً مماثلاً أو طورت مهارات مماثلة. لقد تقولبت وفقاً لنظام، وضع قبل قرون، من الصعاب على الصعيد الخارجي والعزلة على الصعيد الداخلي. وامتزج هذا النظام مع تقليد بيوريتاني يقوم على ضبط النفس لنسج خيط من الفولاذ ضمن خيوط شخصيتها. وبعد ما يقرب من ثلاثمائة عام من هذا التدريب في جميع أصقاع الأرض، أصبح من الطبيعي أن يشار إلى نسائنا بالبنيان، لقدرتهن على تحمل الخطر والمسؤولية، وتقلبات الطقس غير السارة، والوحدة بالقدر ذاته، الذي يستطيع رجالنا به تحمل هذه الظروف. نحن نعد هذه الأمور من المسلمات.

وجزمت ستارك أن مستعمرات العالم الأخرى لا تستطيع ادعاء وجود هذا النوع من النساء، ومستعمرات الدول الأخرى لم ترسل أطفالها إلى الوطن. من المحزن، حسب

رأيها، عند النظر إلى جوانب القوة لدى المرأة الاستعمارية البريطانية «أن نلاحظ أن انعدام شعبيتها في البلاد الأجنبية يتوافق مع وجود المرأة في تلك البلاد «وهذا ليس خطأها. فالرجال وحدهم، وهم بلا منزل أو نادٍ يذهبون إليه، «عادة ما يختلطون مع الناس، الذين يعيشون معهم، ويصبحون معروفين ومحبوبين» وبهذا ينشرون تأثير الفخر الإمبريالي المعزز ومكانته. وقد اعتقدت ستارك، مكررة أفكار المبشرات، أنّه في الأماكن التي وجدت فيها المرأة وحدها، أدت النساء خدمة أفضل من الرجال؛ لتمكنها من الوصول إلى البيوت المحلية. «يقع الخلل عندما يزداد عددهن إلى حدٍ لا تتمكن فيه من إقامة عالم خاص بها».

اقترحت ستارك على الصعيد العملي أن تتلقى النساء تدريباً في اللغات والعادات، وعلى الأرجح ستحب المرأة ذلك. ووصفت، مستذكرة إقامتها في بيت صانع أحذية محلي وزوجته، عندما كانت تتعلم العربية في بغداد، كيف أن أصدقاءها وعائلتها أخبروها، أن هذا «غير لائق» وأنها ستكون منبوذة اجتماعياً، بسبب عدم تسامح وضيق أفق زوجة الموظف الاعتيادية. كان هذا غير عادل، فقرّرت:

بعد قليل من التردد غير المستغرب في مثل هذه الظروف، وجدت أن السيدات المفتريات كن خفيفات ظلٍ وأظهرن استقلالية محببة في محاولتهن التلطف معي. لم أكن من ضمن السرب، كنت أغرد خارجه... لم أكن مندهشة من النظرات الجانبية التي كانت بعض القيمات الفاضلات، ذوات الأفق الضيق ينظرن فيها إلي. ما أدهشني هو اكتشافي عدد النساء، اللواتي يعدهن العامة ذوات قواعد ثابتة، واللواتي يرغبن بالانضمام إليّ، والعزف على قيثارة الفهم خارج الدوائر الرسمية.

من المحتمل أن ستارك قد قللت من حجم الحنق، الذي تسببت به جراء هذه الحادثة في شتاء عام 1929، عندما ذهبت إلى العراق، لتحسين لغتها العربية، قبل الانطلاق في رحلات لاحقة في المنطقة. وفي ذلك الوقت كتبت إلى صديقتها فينيسيا بودكم حول ردود فعل المجتمع البريطاني المحلي:

عزيزتي، لا تستطيعين تصور... الصدمة المتبادلة عندما التقيت لأول مرة بمجتمع الخدمة المدنية التقليدي تماماً. لم يكن هناك من أحد آخر (محترم) قد أقام في منزل صانع

أحذية على ضفاف نهر دجلة، بل لم يتمكن أي منهم من العيش في بغداد على روبيتين في اليوم. سألتني سيدة فيما إذا كنت لا أسهم في «الحط من قدر النساء البريطانيات» بجلوسي في مدرسة بين طالبات عراقيات. شعرت لفترة ما، باستثناء واحد أو اثنين من الناس، الذين كانوا لطفاء جداً معي، كما لو كنت منبوذة، فتقريباً لم يؤيد الرجال، الذين كانت نساؤهم تعاملني بلطف في هذا الشأن بل شعروا بالإنزعاج لقيامهن بهذا. كنت أتوقع حدوث شيء مدو في كل لحظة. لا بد أن للشرق تأثيراً مشوَّهاً على منظور الناس[1].

وعبرت لأمها فلورا عن خيبة أملها، وأبدت استنكارها للإضافات الاجتماعية التقليدية للمجتمع:

يا لها من نعمة كون الجنة لا تدار من قبل الخدمة المدنية، وإلا لما دخلها إلا القليل جداً... أنا محاطة بنوع من الجليد أخبرتني السيدة دروور «(زوجة المستشار القانوني لوزير العدل العراقي) أن جميع الرجال يؤيدونني، أشعر كما لو كنت منبوذة من قبل قومي، بل مقززة إلى درجة كبيرة، لأنني لم أفعل شيئاً يذكر، فكل ما كنت أتمناه هو أن أتكلم العربية بقدر ما أستطيع، وكنت أندم لأننا لسنا أقل تعالٍ وأكثر أدباً. فأنا لست مؤيدة للمحليين إلا بقدر ما يؤيد الإمبريالي الشعب هنا. غير أن السيد ستيرجز أخبرني اليوم أننا لا نستطيع أن نكون أصدقاء للمحليين، والبريطانيين في الوقت نفسه. لهذا ما العمل؟ يبدو الأمر لي برمته حماقة متناهية[2].

ورغم هذا أصرت ستارك على موقفها أن اللغات تشكل جزءا مهماً في الحياة الاستعمارية، وفي مقالتها في كنتيمبراري رفيو أبدت حزنها على عدم تشجيع النساء لدراستها. كانت الزوجات الشابات، كما لاحظت، يجئن للعمل في مواقع بعيدة «وهُنّ توّاقات» لتعلم اللغة، وإذا كنّ قصيات في مكان ما، فكثيراً ما كن ينجحن، ويصبحن

(1) ستارك إلى فينشيا بوَدكم، من بغداد، 6 يناير 1930، في كارولين مورهيد (محررة) فوق حافة العالم: رسائل مختارة لغريا ستارك (لندن: جون ماراي، 1988)، ص 49—50.

(2) ستارك إلى والدتها، 17 ديسمبر 1929، في مورهيد (محررة) فوق حافة العالم، ص 47—48.

عضوات ذوات فائدة في الإمبراطورية، في حين أنهن عندما كن عضوات في مجتمع كبير، كثيراً ما كنَّ بحاجةٍ إلى شخصية حقيقية ومثابرة، لتحقيق هدفهن، وتجنب القضاء عليهن في عجلة الروتين الاجتماعي والبيتي. فأولئك اللواتي حاولن تحقيق المزيد، خاطرن بسمعتهن إذ عددن غريبات الأطوار، أو حتى غير وطنيات:

ما يمكن تحقيقه بطريقة إيجابية يقع خارج نطاق هذه المقالة، ولا أريد أن أتهم «بالنسائية» أو بالإنتماء إلى أية فكرة إطلاقاً. كل ما أرجوه هو أن نشجع على تكريس بعض الوقت، والطاقة لدراسة تجنب الأذى... هنالك في جميع أصقاع العالم طريقة صائبة وأخرى خاطئة لقول الأشياء، لكن لسوء الحظ لا تتم الأمور على النهج نفسه في كل مكان. الطريقة اللندنية في التيمباكتو غير مقنعة تماماً، فرجالنا يتلقون تعليمهم بعنايّة فائقة لدراسة طريقة التيمباكتو إذا تم إرسالهم إلى هناك. لكن نساءنا قد يفعلن الشيء ذاته إذا رغبن، لكن هذا ليس العمل المفضل لهن، أعتقد أن الأمر سيكون ذا فائدة للإمبراطورية إذا جعلناه سائغاً بقدر الإمكان.

قدمت هذه المقالة المشتركة بين ذكرٍ، وأنثى رأياً مغايراً تماماً لآراء فاول، ولوك، وآراء غيرهم من الموظفين البريطانيين في الخليج، العدوانية والهجوميّة، لم يطرح باركر وستارك قضايا القومية العربية، كما لم يحاولا أن يشككا، أو يعيدا تقييم الأساس الاستراتيجي، والاقتصادي للوجود البريطاني في المنطقة، لكنهما حاولا إعادة تعريف الأدوار المحتملة للنساء، وجادلا بإقناع ضد الانحسار الخطر للمشروع الإمبريالي، والاستعماري لكونه محمية ذكورية. وأوضحت ستارك وبشكل دقيق الفرق بين الضغوط الاجتماعية لمجتمعات مهاجرة كبيرة كتلك الموجودة في الهند، وبين التعيينات الصغيرة والقصية كالخليج، حيث سنحت الفرصة لبعض النساء الموهوبات مثل، إيميلي لورمير بممارسة بعض الخدمة للمشاركة في المشروع الإمبريالي.

كانت ستارك نفسها متجاوزة للحدود الحقيقية، والافتراضية، وفي الوقت نفسه، متعاونة مع المشروع الاستعماري، فقد تمكنت كسابقتها؛ بيل من الجمع بين مهنةٍ فريدة كمستكشفة إلى جانب فترة ناجحة من العمل في الحكومة. ولدت ستارك عام 1893

في باريس، ونشأت في ديفون، ثم انتقلت وهي في الثامنة من عمرها مع أختها، وأمها النصف جنوية للعيش في أسولو في شمال إيطاليا، وهي المدينة التي أصبحت مقر إقامتها لبقية حياتها. درست ستارك منذ عام 1912 وحتى إندلاع الحرب العالمية الأولى التأريخ في كلية بدفورد في لندن، وخلال الحرب العالمية الأولى، خدمت لفترة وجيزة رقيباً إعلامياً حكومياً، ثم تمرست كممرضة، وأخيراً عملت في مستشفى على الجبهة الإيطالية. كانت ستارك، وحالها هنا حال بيل وإيميلي، قارئة نهمة، علمت نفسها اللاتينية، وعندما كانت في الثالثة عشر من العمر، تمكنت من قراءة كتاب كامل حول حروب قيصر من البداية وحتى النهاية بمساعدة المعجم[1].

وعندما بلغت، كانت تتلكم الإيطالية بطلاقة، والفرنسية، والألمانية بشكلٍ جيد. وتمشياً مع تقليد المستشرق الحقيقي، قالت إن مصدر إلهامها بالسفر كان نسخة من «الليالي العربية»، كانت قد أُعطِيَتْهَا عندما كانت طفلة[2]. وتابعت في أثناء وجودها في إيطاليا في إبريل من عام 1920 نقاشات القوى المتحالفة المنتصرة، التي دارت في المدينة المجاورة؛ سان ريمو، حيث تم توزيع الانتدابات، فذهبت سوريا ولبنان إلى فرنسا، والعراق وفلسطين إلى بريطانيا. لم تمض فترة وجيزة حتى بدأت تتعلم العربية، وكانت تأخذ دروساً على يد راهب كابوشي في سان ريمو، وكانت تمشي ساعة إلى محطة القطار عدة مرات في الأسبوع من أجل حضور دروسه. ادعت لاحقاً أنها لا تستطيع بالتحديد تذكر ما دفعها إلى تعلم اللغة، لكنها كانت تعتقد «أن أغرب الأشياء وأطرفها في العالم كانت على الأرجح تتحدث عن النفط»[3]. وتذكر في سيرتها الذاتية مستخدمة قصة مارثا دوماري الإنجليزية «أنها درست

(1) Moorehead, Caroline (ed.), Over the Rim of the World: Freya Stark Selected Letters, London: John Murray, 1988, p 22-23

(2) Robinson, Jane, Wayward Women: a Guide to Women Travellers, Oxford: Oxford University Press, 1990, 29

(3) Stark, Traveller's Prelude: Autobiography, 1893-1927, London: John Murray, 1950, p 276 وأضافت «حدث هذا عام 1921، وكانت التنبوءات حتى تلك اللحظة دقيقة». وقّعت كلٌ من بريطانيا وفرنسا في سان ريمو اتفاقاً سرياً. (أصبح معلوماً لاحقاً في العام ذاته) تقاسما من خلاله إنتاج الشرق الأوسط من البترول. تقول مؤرخة ستارك الأمريكية الأصل. جان فليتشر غينيس، إن ستارك قد فُتِنت بالأماكن التي سمعت عنها في تقرير المؤتمر. غينيس:=

العربية، على أملٍ أن تقودها خارج متاهة مارثا غير المتناهية إلى ضرب من ضروب البلاد البديعة الخاصة بي[1].

كانت ستارك كاتبة ومصورة غزيرة وموهوبة. وقبل وفاتها عن عمر ناهز المائة في مايو من عام 1993، كانت قد نشرت ما يقرب من الثلاثين كتاباً، بما فيها أربعة أجزاء لسيرتها الذاتية، وستة للرسائل والعديد من المقالات[2]. أصبحت حياتها موضوع للعديد من السير التي تناولت إنجازاتها بالتحليل، مشبهة في ذلك غيرترود بيل[3]. وقد غطت رحلاتها وحياتها العملية مساحة جغرافية، وزمنية أكبر مما نستطيع تغطيته في هذا الكتاب. بيد أن ظهورها ونشاطاتها في شبة الجزيرة العربية في الثلاثينات من القرن العشرين، هذا إلى جانب تصويرها الذاتي، وتصوير الآخرين لهذا الظهور وتلك النشاطات، كل هذا كان ذا أهمية بالغة في التطور الإجمالي للنظرة الإمبريالية البريطانية، في العقد الذي سبق الحرب العالمية الثانية، وكذلك في وجهات النظر المتغيرة حول مشاركة المرأة الغربية في المنطقة. وفضلاً عن ذلك، رغم تعدد الروايات حول حياتها وترحالها، إلا أن روايات حياتها إنما هي تمثيل ذاتي، وتميل السير التي وضعها مؤلفون آخرون إلى الاعتماد بشكل كبير على كتابات ستارك الذاتية، وعلى المذكرات الشخصية لأفراد آخرين، غير أن لا أحد منهم راجع بتعمق ملفات الحكومة الرسمية.

كانت أولى رحلات فريا ستارك في الشرق الأوسط قد تمت في شتاء عام 1927، عندما زارت لبنان وسوريا. وبعد ذلك بعامين، مرت بلبنان في طريقها إلى بغداد، حيث سببت

=البدوي العاشق: حياة فرستارك (نيويورك: راندوم هاوس، 1999)، ص 4-5.

(1) Stark, Traveller's Prelude: Autobiography,p324. أشارت إيميلي لوريمير أيضاً في بعض الأحيان إلى نساء عدتهن معلات يفتقدن روح المغامرة، كأمثال «مارثاس».

(2) تشمل كتابات ستارك حول السفر: البوابات الجنوبية لجزيرة العربي: رحلة في حضرموت (لندن: جون ماراي، 1936) ووادي الحشاشين (لندن: جون ماراي، 1934) وكلاهما قد أصبحا أثرين أدبيين فذين، ونشر عددٌ من المجلدات للصور التي التقطتها، ولقائمة مختارة، انظر البيبلوغرافيا. مجموعة صور ستارك محفوظة في كلية القديس أنطوني في أكسفورد، أرشيف مركز الشرق الأوسط، بينما حفظت أوراقها الشخصية محفوظة في مركز أبحاث هاري رانسوم للإنسانيات، جامعة تكساس، أومنن».

(3) الأحدث هو كتاب غينيس البدوي العاشق.

إقامتها مع عائلة صانع الأحذية إهانة كبيرة للمجتمع البريطاني المحلي، ثم اتخذت بغداد مقراً لها، وانطلقت منها في ثلاث رحلات -لم يرافقها فيها أحد- إلى إيران بين الأعوام 1929-1931م. وبعد هذه الرحلات، قدمت نفسها بوصفها كاتبة نشرت سرداً لخبراتها في «وادي القتلة المأجورين». وفي الثلاثينيات، قامت برحلتين منفصلتين إلى الجزيرة العربية. الأولى بين 1934-1935، وكانت إلى الأرض المحاذيّة للساحل الجنوبي، حضرموت، وذلك بحثاً عن شبوة -المركز القديم لتجارة البخور في الجزيرة العربية- التي لم يزرها أوروبي من قبل. أما الرحلة الثانية، التي كانت بين عامي 1937-1938، فقد كانت إلى حضرموت أيضاً، وقد رافقتها هذه المرة عالمة الآثار المتميزة غيرترود كاتون تومسون.

انطلقت ستارك في رحلتها الأولى إلى جزيرة العرب في يناير من عام 1935، بعد أن قضت بضعة أسابيع في عدن لدراسة العربية المحلية، وتمكنت خلالها من إقناع السلطات البريطانية من إعطائها رسائل تعريف إلى الحكام المحليين، ومكثت في ميناء المكلا، الذي يقع على الساحل الجنوبي كضيفة للسلطان المحلي. وكتبت تقول: «يتملكني شعور بالفرحة كوني الأوروبية الوحيدة الموجودة على امتداد 200 ميل من جانبي الميناء، ويعلم الرب كم ميلاً إلى الشمال». قالت لاحقاً: إنها كانت تبحث عن «المكان، والبعد، والتاريخ، والخطر». لكنها كانت أيضاً «مهتمة بحياة العالم»[1]. بعد ذلك سافرت من المكلا إلى الداخل ورافقها بعض الأدلاء، كانت تتوقف في القرى، وتلتقط الصور وتتحدث مع أبناء المنطقة من كلا الجنسين، وكانت تدرك تماماً أنها ستكون أول من يصل المدينة الخرافية من الجنس الأوروبي. وقبل مغادرتها عدن، كانت قد كتبت إلى صديقتها القديمة فيينشيا بودكوم تخبرها أنها «الآن، وحالها حال من رافقتها، متوجهة إلى حضرموت، لكن لم يصل أحد إلى شبوة بعد»[2]. أصيبت بعد سفر ستة أيام في الداخل بالحصبة، وتم وضعها في الحجر الصحي لبضعة أيام في حصن اسمه مسنة. تمكنت أخيراً من مواصلة سفرها قدماً

(1) Moorehead, Caroline (ed.), Over the Rim of the World, p102. 102، شارك إلى فينيشا بدكوم، 17 يناير 1935، المرجع السابق، ص 106.

(2) ستارك إلى بدكوم، 17 يناير 1935، مورهيد (محررة) فوق حافة العالم، ص 102.

حتى وصلت شيبام في وادي حضرموت، حيث عاودها المرض. وكتبت إلى بودكوم مرة أخرى لتخبرها أنها تمنح نفسها القوة بقراءة نيتزه في لحظات الضعف:

لكم أن تتصوروا مقدار حزني من هذا المرض، فبدويّ وغيره الكثير ينتظرون مستعدين. والآن، تمت إضافة لمسة دراميتيكية أخرى إلى بؤسي، إذ عاد إلى المكان ألماني قبيح متبجح كان قد ألف كتاباً وضيعا حول هذا البلد، عاد وبغيته وصول شبوة. أنا عاجزة تماماً، أعتقد أنني قد أتمكن من الذهاب إلى هناك في غضون عشرة أيام، لكن ليس قبل هذا. وفي هذه الأثناء، كان يحاول الحصول على كل شيء، البدو وغيرهم. لا يلقى أيّة محبة من أي شخص هنا، وكلهم يحاولون إيقافه (وأحاول بخسة أن أدفعهم للقيام بهذا، لكنه لا يستحق أي تعاطف. فلقد اختلق الأكاذيب الكثيرة حول اعتداده بنفسه) أعلم أن رغبتي في أن أكون الأولى تعد نوعاً من الجلافة، لكنه شعور مرير بأن أكون قد قطعت كل هذه المسافة، ثم يوقفني المرض، الذي لولاه لكنت قد وصلت شبوه قبل خمسة أيام[1].

كان الألماني يدعى هانز هيلفرتز، كان قد وصل إلى ضواحي شبوه، لكن سكانها صدوه فوراً، وساقوه بعيداً عنها، وفي مارس، تم نقل فرياً من حضرموت جوا إلى مستشفى في عدن بواسطة القوة الجوية الملكية، ومن هناك أبحرت إلى إيطاليا. أثارت متاعبها وعملية إنقاذها توتراً بين الموظفين البريطانيين في عدن، وكان المقيم السياسي قد حذرها أنه لن يسمح لها بالقيام بالمزيد من الرحلات. كتبت إلى أمها؛ لتخبرها عن إحباطها، وخيبة أملها نتيجة الضرر، الذي كان سيلحق بترحال النساء واستكشافاتهن. «أعتقد أنني بددت فرص النساء بالسفر وحدهن لنصف قرن على الأقل. هذا هو بحق المحزن في الأمر كله، ولا أستطيع تحمل التفكير في الأمر»[2].

وترك الأمر لهاري إستِ. جون فيلبي ليتم المهمة. وانطلق فيلبي، مدفوعاً بالشهرة التي أحاطت برحلة ستارك، ومتّقداً، كما كان في الماضي مع روزيتا فوربس، بروح التنافس مع رحالة أنثى، انطلق عام 1936، وتمكن من وصول شبوة. قادته أعماله البطولية في منطقة

(1) ستارك إلى بدكوم، 25، فبراير و9 مارس، 1935، مورهيد (محررة) فوق حافة العالم، ص 115–117.

(2) ستارك إلى أمها، 3 إبريل 1935، اقتبستها عينيس البدوي العاشق، ص 184.

حساسة سياسيا إلى صراع مع الحكومة البريطانية. قد تركت لدى ستارك مشاعر مختلطة:

انطلق فيلبيُ ووصل شبوه حسب طريقه من نجران. لا أجد في نفسي حقداً عليه. بل أشعر كما لو كنا زملاء أكثر من كوننا نظراء، وأعتقد أن هذا ما يجب أن نشعر به لكن ليس تجاه الديدان الألمانية الحقيرة، وعلى أي حال، يبدو أن عدن تنفث غضباً؛ لأنه جاء بموافقة عسكرية، واخترق المنطقة البريطانية دون أن يطلب، أو حتى يصرح عن نواياه، أعتقد أن هذه الفعلة تفتقر إلى اللّياقة، لكنه طبعاً لا يبدو أنّه كان متأكداً من أنه سيتم العمل، وممّا جعل الحديث عن خططه مسبقاً أمراً صعباً. وما هو محزن أكثر أنه، كما أخشى، قد قام برحلته بالسيارة: آمل ألا يكون ذلك صحيحاً، لكن الأمر يبدو سيئاً[1].

تلقت ستارك في نهاية المطاف إشادة وإعجاباً برحلتها وسردها عن هذه الرحلة الموسومة بـ «البوابات الجنوبية للجزيرة العربية»، التي أصبحت من الكتب الأكثر مبيعاً. منحتها الجمعية الجغرافية الإسكتلندية الملكية ميدالية منخو بارك. وورد عنها لاحقاً قولها: «سمعت أن فيلبي يكرهني ذلك لأنني كتبت كتاباً فقط»[2]. كانت الحكومة البريطانية سعيدة جداً عندما تلقت معلومات حول نشاطات، وولاء قبائل حضرموت في المناطق الداخلية، التي لم يتم رسم حدودها مع اليمن بعد[3]. ومع هذا، فقد وصفت ستارك، حسب الإدارة البريطانية المحلية في جنوب الجزيرة العربية، أنها مثيرة للمشاكل، خاصة في عدم تحصينها في مواجهة المرض كصفة مميزة.

توجهت ستارك في خريف عام 1937، مرة أخرى إلى حضرموت برفقة غيرترود تومبسون، وعالم جيولوجي يدعى إيلينور غاردنو[4]. بدأ الثلاثة رحلتهم في المكلا، كما فعلت تقريباً قبل سنتين، حيث أقاموا عند المقيم البريطاني هارولد إن غرامز، وزوجته

(1) ستارك إلى بدكوم، 20 سبتمبر، 1936، مورهيد (محررة) فوق حافة العالم، ص 126.

(2) ستارك إلى السيدة ليونيل سميث، سبتمبر 1937، مورهيد (محررة) فوق حافة العالم، ص 136–137.

(3) جورج رندل، وزارة الخارجية، إلى السيد كوزمو باركينسون، وزارة المستعمرات، 30 مايو، 1935، وضمنها رسالة من ستارك، 15، إبريل، 1935، وزارة المستعمرات، 1/31/725.

(4) كانت غيرترود كانون تومسون (1888–1985)، عالمة آثار ومرجعية حول التأريخ الأفريقي، قامت ببعض الحفريات في مصر وروديسيال (زيمبابوي). كانت زميلة كلية نيونهام، كامبردد.

دورين، التي أدى عملها المشترك في محميّة شرق عدن إلى منحهما الميدالية الذهبية للجمعية الجغرافية الملكية[1]. استبعد ستارك وكاتون في حديثهما اللاحق حول الإرسالية أي اقتراح من شأنه زيادة التعاون بين الرحالات النساء بشكل يؤدي إلى تعاطفهن مع بعضهن بعضاً، أو حمل المفاهيم أو الدوافع ذاتها. ضمنت ستارك آراءها في رسالة بعثتها من شيبام إلى ناشرها جون موراي في ديسمبر من عام 1937:

أصبحتُ ضد النزعات النسائية بامتياز... فأنا أفضل كثيراً التعامل مع الرجال. فنحن لا نفعل شيئاً سوى إحداث جلبة حول صحتنا، والحديث عن الطعام المعلب وعن اليوم الوحيد، الذي لم نشعر فيه بالراحة بسبب جلوسنا في غرفة باعبيد المريحة تماماً لوجود أربعة أشخاص وعشرة ملايين ذبابة تزعجنا –لا أعلم لماذا استرخوا، ثم انهمكوا عليّ لعدم إبقاء أبناء البلد بعيداً. (كانت إيلينور غاردينر مقززة، أما الآنسة كاتون تومبسون فكانت عديمة النفع كرحالة رغم كونها عالمة آثار رائعة، فقد كانت مشغولة البال إلى حد أنها لم تكن تلقى بالاً لأي اقتراحٍ أتقدم به. ولم تكن تتوقف للإطلاع على أي موقع، مهما كان جميلاً إذا كنت قد ذكرتُ الموقع لها) يا لها من طريقة للسفر! توصلت إلى استنتاج أن هناك انقساماً عميقاً في البشرية، يمثل الغرب والشرق طرفيه، ويتمثل أيضاً بين أولئك، الذين يرغبون أن يصبحوا شيئا وأولئك، الذين يتمنون القيام بشيء. ومما لا شك فيه ينتمي الخبراء والمختصون بالحضارة العربية وشؤونها وعلماء الآثار إلى القسم الثاني». لكن الرحالة الاعتيادي ينتمي إلى القسم الأول وينظر إلى الأمر باعتباره مضيعة للوقت إذا غادر الشخص بيته من غير أن يقع شيء في نفسه. أعني شيئاً رئيسياً كالتغير الكيميائي عندما يحدث تماس مادتين مع بعضهما. لكن أن تجلس هنا، وألا تختلط مع أحد مع إدراكك مدى بعدك عن أوروبا، إنما هو عمل يبعث على الكآبة[2].

عانت النساء الثلاث من علل مختلفة منذ بداية رحلتهن الاستكشافية، وتم ترحيل ستارك في شهر ديسمبر من شيبام إلى مستشفى في عدن لمدة أسبوع. وتذكر كاتون، كما

(1) تم منح ميدالية مؤسس الجمعية الجغرافية الملكية مناصفة إلى هارولد ودورين افغرام عام 1940.

(2) ستارك إلى جون ماراي، 3 ديسمبر 1937، مورهيد (محررة) فوق حافة العالم، ص 141–142.



امرأة تحمل الماء في المكلا وبنتين من حريضة، صورتهما فريا ستارك خلال رحلاتها في جنوب جزيرة العرب، 1938

عرف عنها لدى أصدقائها، ومعارفها، لاحقاً أنها وغاردنير «كانتا سعيدتين جداً عندما ذهبت». وهذا ما منحهما بعض الوقت للشفاء من الحمى، وأمراض الحنجرة دون شقاق في أثناء غياب فريا[1]. وبعد مضي شهر، كانت ستارك قد عادت، ومرضت مرة أخرى بالنومونيا كما كانوا يتوقعون. اضطرت المرأة، وكانت حينها في حريضة، للاتصال بأقرب

(1) غيرترود كاتون تومبسون، ذكريات ممزوجة (غاتسهيد، مطبعة بارادايم، 1983)، ص 187.

السلطات البريطانية الموجودة في سيوان، لطلب دواء لها وترحيلها إذا اقتضت الحاجة. أوصى هارولد إنغرايز، بعد أن زار النساء بنفسه، أن يتم ترحيل فريا إلى مستشفى في عدن مرة أخرى، لكن عندما وصلت الطائرة، رفضت فريا الذهاب.

تبادل البريطانيون في سيوان وعدن البرقيات الغاضبة: «افترض أنك تعلم أن المرأة ستارك قد رفضت الترحيل، بل وكانت مندهشة لسماعها بهذا الاقتراح، وما زالت في دياركم ، سئم بايك [الجيولوجي الأمريكي،الذي تم استخدام طائرته] الأمر كاملاً»[1].

أظن أنها تصرفت بشكل سيء. دفعتني رسالة عاجلة من الآنسة غاردنير توضح فيها أنها مصابة بـ نومونيا للسفر إلى حريضة، حيث أخبرتني أن الخيارات أمامها إما طبيب أو مستشفى في عدن. ستارك نفسها كانت تضغط باتجاه طبيب، ولم تعطني خلال زيارة لها دامت خمس دقائق أية إشارة عن رفضها الترحيل. أشعر بكثير من الأسى تجاه بايك وما واجهه من مشاكل. أما فيما يتعلق بأي مرض مستقبلي، فأنت مستعد تماماً للتخلي عن أية مسؤولية، وهذا أمر صعب جداً، وخاصة بالنسبة لي. أرجو أن تنظروا في أمر ترحيلها نظراً لأن صحتها غير مقنعة دئماً[2].

غادرت كاتون تومبسون، وغاردنير جنوب الجزيرة العربية في شهر مارس من عام 1938، متجهتان إلى القاهرة، وواصلت ستارك بحثها عن طريق البخور وحدها، وصممت على زيارة حصن الغراب في محاولة من جانبها للتأكد وإزالة جميع الشكوك فيما إذا كانت هذه المدينة هي مدينة كانا الحميرية، مركز تجارة البخور. سلمت كل من كاتون وغاردنير المقيم في سيوان رسالة من ستارك مفادها أنها تود المواصلة. ولم يمض سوى بضعة أيام حتى أبرق المقيم البريطاني المحلي عدن؛ ليخبرهم أن ستارك قد مرضت مرة أخرى، وطلب سيارة. غير أنه تم اعتراضها في منتصف الطريق، وأخبروهم أن ستارك تحسنت، ولم تعد تحتاج السيارة. ومضى بقوله: «كما تتخيلون أجد كل هذا صعب الاحتمال، وإذا واصلت أعمالها البطولية، أخبروها أنني سأمنعها إذا تمكنت من

(1) السكرتير السياسي في عدن إلى وكيل المقاميّة في سيوان ، 28 يناير 1938، سجلات وزارة الهند: إر:/20/س/180.

(2) وكيل المقامية في سايون إلى السكرتير السياسي في عدن، 29 يناير 1938، سجلات وزارة الهند: أر/20/س/180.

اللحاق بها، لأنها غير ملائمة تماماً. وأنا على ثقة من أنكم ستوافقون»[1]. وبعد مضي خمسة وأربعين عاماً، نشرت غيرترود كاتون، وكانت قد بلغت السبعين من عمرها، سيرتها الذاتية التي قدمت فيها تصورها للأحداث. فوصفت ستارك بالمثيرة للمشاكل، والمتغطرسة المجردة من المبادئ، وأضافت أن طيار سلاح الجو الملكي، الذي حاول تعقبها عندما كانت مريضة لأول مرة قد نعتها «بالعاهرة المدمية»، وهي عبارة، حسب قول كاتون تومبسون «معقولة في ظل تلك الظروف»[2]. تعترف كاتون، من ناحية أخرى، أن رحلة ستارك الفردية «القاسية» قد قدمت معلومات جديدة حول حفريات الصخور والتحصينات. وكانت «توصيفاتها الدقيقة» للأماكن التي اجتازتها «رائعة، غذت بها ما كان معروفاً قبلها، وأضافت أخرى جديدة». بيد أنها لم تكن متأكدة فيما إذا كانت اكتشافات الرحلة تستحق عناءها، وتستذكر كاتون أن الموظف البريطاني في حكومة عدن المعني بهذا الشأن، هارولد انغرامز كان «غاضبا» «لهروب فريا غير المصرح به، وقال: إنه لم يكن ليسمح بحدوث هذا»[3].

وفي حديث لها ألقته عام 1935 في جمعية آسيا الوسطى الملكية، التي يهيمن عليها الرجال، و نشر في مجلة الجمعية، دافعت ستارك بقوة وتهكم عن نفسها، في وجه النقد، الذي يرى أن مكانتها كامرأة هي مع زوجها لا وحدها في الصحراء:

ما فائدة ترحالك؟ سؤال وجهته لي في بلاد فارس امرأة لم تكن تحبني على الأرجح ... وقالت إنها نفسها مشغولة تماماً بالاعتناء بزوجها. لا تستطيع أن تجد وقتاً للترحال في الهضاب. ثم قالت: وكانت الحادثة قد وقعت في نهاية أغسطس، أنها قد بدأت تربي سرباً من الحبش لعشاء عيد الميلاد، وهذا سيبقيها مشغولة لبقية العام. كنت مسرورة ووافقتها أنه من غير الملائم لها ان تترك الحبش، لتبحث عن قلاع من العصور الوسطى مثلي تماماً. لكن من جهة أخرى، أوضحت في دفاعي أن تكريس نفسي للاعتناء بأشياء كالحبش لن

(1) وكيل المقامية في بيرم (2) إلى السكرتير السياسي في عدن، 11 مارس 1938 سجلات وزارة الهند: أر/20/ س/189.

(2) كاتون توميسون: ذكريات ممزوجة، ص 189.

(3) المرجع السابق، ص 104–110.

يكون ذا فائدة تذكر، لعدم وجود زوج ليأكلها عندما تكبر. إن الارتباط بأحدهم لإيجاد وظيفة منزلية يبدو غير مناسب لي، وأنّ أكرس نفسي من أجل عشاءات عيد الميلاد، التي قد يعدها أزواج أناس غيري، قد يقود إلى مزيد من المشاكل[1].

وكما فعلت غير ترود بيل في سنواتها الأولى، قدمت ستارك نفسها في ثلاثينيات القرن المنصرم، كرحالة مستقلة متحدية عالم الرجال في الإمبراطورية، ومتجاوزة حدود المشاركة النسوية التقليدية، غير أنها لم تتلق سوى إعجابٍ ودعم متسمين بالحذر طالما استمرت في إظهار نفسها أنها خارجة عن السلطة الاستعمارية البريطانية، وغير منصاعة لها، وكان هذا حالها حتى عندما كانت تقدم معلومات سياسية مفيدة؛ نتيجة لترحالها. بادلت ستارك نفسها السلطات البريطانية الشكوك، وأخبرت مؤرخها مولي إزارد عام 1979، أن سياستها تجاه السلطات البريطانية كانت «أن أبدأ بعيداً عنهم وألا أطلب منهم شيء»[2]. وفي الوقت نفسه، ادعت من جانب آخر أنها كانت حساسة تجاه التطلعات البريطانية الإمبريالية السياسية، وتجاه هشاشة العلاقات الدبلوماسية المحلية، بعكس المستعرة روزيتا فوربيس التي كانت لا تتوانى عن إحراج البريطانيين حيثما ذهبت.

وفي حقيقة الأمر، قيدت فريا ستارك نفسها شأنها شأن سابقتها بيل، عندما أصبحت بعد بضع سنوات موظفة في الحكومة البريطانية. إذ تم تعيينها قبل إندلاع الحرب العالمية الثانية في وزارة المعلومات خبيرةً في الشرق الأوسط، وعملت مع الحكومة البريطانية في عدن. وفي عام 1940، تم إرسالها إلى اليمن، ومعها مجموعة من الأفلام الترويجية لمواجهة تأثير دول المحور. أضاف السير جون شكبيرغ ملاحظة إلى ملف وزارة المستعمرات المتعلق بتعيين ستارك، مفادها: أن ستارك قد سافرت كثيراً إلى الشرق الأوسط، وكتبت العديد من الكتب «الممتعة» حول تجاربها، ومضى بقوله: «عرفتها لعدة سنوات مضت، وبعيداً عن إعجابي بصفاتها الخاصة، أثق بتقديرها للأمور. وعلى النقيض من معظم

(1) فريا ستارك «دفاعاً عن الترحال»، مجلة الجمعية وسط أميا الملكية، رقم 23 (1936)، ص 104–110.

(2) إيزارد، فريا ستارك، ص 485.

المتحمسين «للعرب»، الذين قابلتهم، لم تدع حماسها يطغى على حسها العام»[1].

قاسمت ستارك، كما توضح مقالتها في كونتمبرري رفيو، إيميلي لورمير، وغيرترود بيل شعوراً قوياً بدور بريطانيا الإمبريالي، وبكيانها كمساهمة في المشروع الإمبريالي. وتفرغ مؤرختها الأمريكية جان غينيس للقول: إنّ ستارك «آمنت بشدة في الإمبراطورية البريطانية، وكانت مقتنعة أنه على البريطانيين أن يكونوا رسل الحكم المستنير هذا إلى جانب إيمانها أن السلام، والأمن، والطريق إلى الهند (ستكون مصونة تماماً) بأيدي بريطانية حازمة»[2]. أخبرت ستارك نفسها مولي إيزارد أن الإمبراطورية البريطانية «إذا قورنت بغيرها من الإمبراطوريات، تعد أفضل نظام حياة بعد المسيحية». «فالمسيحية تعلمك حب أخيك كنفسك، أما الانتداب فيقضي أن تحكم، وأن تعلم الناس أن يحكموا أنفسهم، ثم منحهم الحرية. وهذه هي المسيحية العملية ... كانت إمبراطورية مسيحية يحكمها أقل عدد من الناس، ويشكلون مجموعة مترابطة جداً من الأخوة»[3].

وعلى النهج ذاته، واصلت إيميلي لوريمير اعتقادها في إنسانية الإمبراطورية البريطانية المتأصلة ونزعتها الخيرة. وكانت كستارك، تؤمن بحق النساء، وواجبهن في المشاركة والمساهمة. لكن على النقيض من ستارك، لم تكن تنفر من تكريس نفسها لديك الحبش وعشاءات عيد الميلاد، وكانت دوماً تنظر إلى زوجها، ومشاركتها لزوجها كمرساة؛ ومركز حقيقي لحياتها. ومع هذا كانت دائماً تطالب بمزيد من الحريّة للنساء؛ ليثبتن وجودهن خارج فلك المنزل. واصلت إيميلي، مع اقتراب الحرب العالمية الثانية العمل مع لوك في دراستهم المشتركة للمجتمع، ولغات الواجهة الشمالية الغربية، لكنها أيضاً عادت إلى اهتماماتها الفكرية، والعملية في الآداب والثقافة الألمانيتين. فنشرت عام 1931 ترجمة لكتاب إيرنيست كانتورويكز الحياة الجليلة للحاكم فردريك الثاني أحد حكام القرون الوسطى[4]. وأصبحت بعد مراقبتها للمشهد الأوروبي السياسي المعاصر عن كثب، أكثر

(1) ملاحظة في ملف وضعها جَ. إي. شاكبير ع، 12 مارس، 1940، وزارة المستعمرات 15/74/725.

(2) غينيس، البدوي العاشق، ص 6.

(3) إيزارد، فرياستارك، ص 50.

(4) إيرنيست كانتوروويكز، فردريك الثاني، 1144—1250، ترجمة إي. أو. لوريمير، (لندن: كونتسابل وشركاه، 1931).

رعباً نتيجة ظهور النازية، وتملكها الخوف من أن يتم الاستخفاف ببرنامج هتلر السياسي في بريطانيا. وخلال الفترة التي كانت تزود فيها مجلة التايمز بمقالات حول رحلتها إلى كشمير، بدأت ترسل إلى الجرائد أجزاء حول الإعلام النازي، ونشرت عام 1939 كتاباً مميزاً في دار النشر بنغوين اسمه «ماذا يريد هتلر». وصرحت في مقالة نشرتها في مجلة «تايم وتايد» أنها تعتقد أن كتاب «كفاحي» «أكثر الكتب انتشاراً، وأقلها صدقاً، وأكثرها إفساداً للأخلاق». إذ كان «يؤيد العنف وينادي به، هذا إلى جانب الوحشية والكراهية، والرعب، وهذا ما كان هتلر ينادي به في خطبه»[1]. وخلال الحرب، تم توظيفها كستارك تماماً، من قبل وزارة المعلومات لكتابة مقالات، تعتمد على معرفتها بالشرق الأوسط وآسيا، وخبرتها الألمانية، وسرعان ما انخرطت في العمل. وتضمن نص كان من المقرر ترجمته إلى العربية، ثم توزيعه في جنوب اليمن مقارنة بين القمع الألماني في تشيكوسلوفاكيا وبين فوائد الإدارة البريطانية في عدن. ناقش النص الموسوم بـ «المحميتين» التدخل البريطاني في جنوب جزيرة العرب، الذي دام لأكثر من قرن وجلب معه العناية الطبيّة، والتعليم، وبيئة مواتية للنمو الاقتصادي والتجاري[2].

عززت الحرب من رأي لوريمير القاضي بمنح النساء مزيداً من التشجيع لتوظيف مواهبهن، وطاقاتهن خارج الوطن، وداخله. وخطت في خريف عام 1941، رسالة مقذعة نشرت في (تايم وتايد) حول النساء، والخدمة الحربية، وعدد النساء اللواتي كُن توقات للانضمام إلى الفروع النسائية من القوات المسلحة، غير أن أزواجهن كانوا قد أخبروهن أن هذا العمل خشنٌ بالنسبة لهن. كانت تعتقد أنه من المدهش جداً أن الشباب في أربعينيات القرن المنصرم قد ارتكسوا للاعتقاد بهذا «الموقف الفكتوري المتقادم» السخيف. وهو موقف لا يخدم سوى إخفاء «الغرور بالتملك، الذي كان يدفع الرجل إلى الاعتراض، وبشكل غريزي على أن يكون لدى زوجته واجبات، أو مصالح لا تتمحور حوله»[3].

(1) عرض لايميلي كانتور ويكز حول ترجمة «كفاحي»، التي قام بها جايمس ميرفي، تايم أند تايد، 1 إبريل 1939، المخطوطات الأوروبية، اف 75/177.

(2) المخطوطات الأوروبية، إف 76/177.

(3) رسالة إلى الوقت والمد، 11 أكتوبر، المخطوطات الأوروبية، ف 84/177.

وبعد ثلاث سنوات كتبت إلى إيرنست بيغن، الذي كان حينها يشغل منصب وزير العمل والخدمة الوطنية؛ للمطالبة بإجراءات حكومية، لتحرير المرأة من الواجبات المنزلية، وتتضمن دفع أجور ضمن خطة للعمل المنزلي، يتم من خلالها دفع قسط مباشر لنساء يُستخدمن في المساعدة المنزلية، بينما تخصص المستفيدة نفسها للحياة العمليّة[1].

أكملت الحرب العالمية الثانية عملية سياسية بدأت في ثلاثينيات القرن العشرين، وأفضت إلى تفكيك تدريجي للقوة الإمبريالية البريطانية، التي لطالما سيطر عليها الرجل. استقلت الهند عام 1947، وأصبح الخليج العربي على الرغم من بقاء البريطانيين لعقدين بعد استقلال الهند مكانا مختلفا تماماً عن «واحة البريطانيين» التي زارها كورزون، وزوجته في أثناء تقدمهم الإمبريالي عام 1903. وقد ظلت النساء الغربيات على هامش الوجود الغربي في شبه الجزيرة العربية، لكن التغييرات التي طرأت في الثلاثينيات، والأربعينيات من القرن العشرين دفعت إلى المنطقة بأعداد ضخمة من المعلمات، والطبيبات، والممرضات المتهنات، وزوجات دبلوماسيين ورجال أعمال، مما أوجد حافزاً لقبول عرض، أو على الأقل لتحمل مجيء مزيد من النساء إلى عولمة المنطقة المتزايد. ومع هذا، استمرت جزيرة العرب، و«الشرق» تسرق ألباب الناس، الذين سافروا إليها حتى لفترات قصيرة. عاشت إيميلي لورمير في الخليج لما لا يقل عن عشر سنوات وعلى الحدود بين الهند والخليج لخمس سنوات أخرى، لكنها ظلت مهتمة في المنطقة بقية حياتها.

وفي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، كثيراً ما كانت إيميلي لورمير تراجع عندما كان الوقت يسمح، باندفاع وانضباط كتب معاصريها «المستعربين» من أمثال فيلبي وبيرترام تومس، وغيرهم من الكتاب الأقل شهرة. وتم منحها هي، ولوك في مايو من عام 1948، خلال الاجتماع العام، الذي صادف الذكرى السنوية للجمعية الأسيوية الملكية، ميدالية بيروتون التذكارية، وأشار رئيس الجمعية اللورد سكاربور إلى أن عائلة لوريمر، قد ارتحلت في العالم الإسلامي إلى حدود لم يصلها السيد ريتشارد بيروتون ذاته. وتم ذكر عمل

(1) إيميلي لوريمر «معدل الولادة ومكانة المرأة» مقالة مطبوعة أرسلت إلى إيرنيست بيفين، 30 يونيو 1944، المخطوطات الأوروبية ف 71/177.

إيميلي في جزيرة البصرة تايمز خلال الحرب العالمية الأولى، كواحدة من إنجازاتهم العديدة. وأجابت إيميلي نفسها بتواضع وبطريقة يمكن وصفها بالملتوية:

لا أستطيع أن أخبركم بسهولة كم أشعر بالرضا كونكم قدرتم أن روجي الطيب، يستحق أن يذكر إلى جانب مجموعة متميزة من الحاصلين على الميدالية، من أمثال آرنولد ويلسون، وهارولد إنغرامز وإس. ت جون فيلبي. لكني لا أعتقد أن ما سأقوله سيكون فظاً. أود أن أعترض بشدة على زجي في هذا العمل. لطالما أحببت العهد البسيط، الذي كانت الفتاة الرومانية تقطعه على نفسها يوم زواجها «حيثما كنت يا غوييس، سأكون أنا كذلك». وأجد عليّ لزاماً أن أعترف، أنه إذا أراد زوجي أن يجمع الفَراش أو الحيتان، أو أن يحفر بحثاً عن الذهب، أو النفط، ينبغي عليّ أن أبذل قصارى جهدي؛ لأكون ذات فائدة متواضعة له. لكن لسوء الحظ أنه كان يميل إلى اللغات، والفولكلور والأنثربولوجيا، وهي مواضيع تهمني كثيراً رغم عدم معرفتي بكلمة واحدة من أية لغة شرقية[1].

كانت هذه العبارة عبارة زهو بالنفس مدهشة على لسان امرأة تعد قدرتها الفكرية، وتعليمها، وطاقاتها، نداً مطلقاً مطابقاً لدراسات زوجها ومهاراته الدبلوماسية. ذلك الزوج، الذي توضح حياته وكتاباته، وبشكل مفعم بالحياة، الصعاب التي واجهت المرأة الغربية في لعب دورها الإمبريالي في منطقة الخليج العربي.

(1) مجلة جمعية آسيا الوسطى الملكية (1948)، تقرير الاجتماع السنوي العام، 13 مايو، 1948، وكلمة لايميلي لوريمير أمام الجمعية وسط آسيا الملكيّة، 13 مايو، 1948، المخطوطات الأوروبية ف 91/177.

لاحقة ختامية: تتمة القصة

ما زالت قصة المرأة الغربية في الخليج العربي في بدايتها. فهذا الكتاب، من مختلف الآراء، ليس سوى عملية استرجاع لتواريخ مختلفة. عندما بدأت البحث، بدا أن ليس هناك على الأرجح مادة كثيرة يمكن الرجوع إليها حول نشاطات المرأة الغربية، ومواقفها في الخليج العربي. وكنت محقة بعض الشيء في هذا الاعتقاد. فالآراشيف الرسمية للحكومة، والإدارة الإمبرياليتين لم تكن تحوي سوى مادة قليلة جداً. وسرعان ما أصبح واضحاً أن التاريخ، والسياسة الاعتياديتين اللتين يرسهما الرجل في العادة، يضمّان الكثير من المعلومات التي تمت بصلة؛ لمشاركة المرأة الغربية في المشاريع الإمبريالية، والاستعمارية في هذا الجزء من الشرق الأوسط. كانت بعض هذه المعلومات سهلة الوصول إليها، وبعضها الآخر يتطلب بحثاً، وتحرياً، ومثابرة؛ لاكتشافه. وسرعان ما ذهبت أدراج الرياح مخاوفي من أنه لن يكون هناك مراجع لأتعامل معها غير تلك الرئيسية، التي تتحدث عن الرحّالات المعروفات أمثال غيرترود بيل وفريا ستارك. ووصلت إلى استنتاج أن المشكلة الرئيسية لا تكمن في عدم توافر المادة، وإنما في عدم رغبة المؤرخين البحث عنها، أو بحثهم في المكان غير الصحيح. وكان واضحاً أن النساء ومشاركتهن في الحياة الإمبريالية، والاستعمارية لشبه الجزيرة العربية، لم تكن جزءاً من جدول أعمال التأريخ التقليدي.

تستحق بعض النساء في هذا الكتاب، سيراً قائمة بذاتها. وهناك نساء أخريات، بعضهن متميز، لم يكن هناك متسع من المكان أو الوقت لذكرهن في هذا الكتاب، وهن جديرات بمزيدٍ من البحث. وخير مثال على هؤلاء دورين إنغرامز، ماربوري بيلغراف، ومريام بلارد، وغيرهن الكثير من زوجات الموظفين السياسيين المتعاقبين كالمقيمين والمحافظين، والوكلاء والمستشارين، والقائمة تكبر كلما ظهر مصدر جديد. نستطيع، بل علينا، القيام بالكثير؛ لإيجاد أوراقٍ حول تدخل المرأة في علاقة الغرب بمنطقة الخليج العربي، من خلال البحث في الآراشيف الحكوميّة، والمنظمات غير الحكومية، والساحات، التي عشن ووثّقن حياتهن فيها. وفي الوقت نفسه، لم يتم معرفة رد النساء والرجال المحليين تجاه

الوجود الأنثوي الغربي، وسيبقى سرداً بديلا وصعب الإدراك رغم كونه أساسيا للإلمام بمشاركة النساء في العلاقات الإمبريالية، والاستعمارية المعقدة في المنطقة. هناك الكثير من القصص الفردية التي علينا سردها، والصورة الجمعية على وشك الظهور الآن.

وفي سياق الجدل المحتدم حول نظريّة الإمبريالية وممارستها، أصبح واضحاً خلال البحث عن قصص النساء قراءة الإمبراطورية، كمشروع سياسي ذكوري أساساً، تم فيه استبعاد النساء، وأوكلت لهن أدوار سلبية، أو عطوفة متنوعة تمت حياكتها بعناية على هوامش العلاقات الاجتماعية. ويعترف معظم المؤرخين الآن أن ردود الفعل النسائية تجاه الإمبراطورية، ومستوى مشاركة النساء في الحياة الإمبريالية، والاستعمارية هي أكثر تعقيداً وتنوعاً. ولا يجوز استثناء الخليج العربي ولا شبه الجزيرة العربية من هذا التعميم، ذلك أن أعداد النساء اللواتي وجدن هناك كن أقل بكثير من أولئك اللواتي وجدن في الهند الإمبريالية، أو إفريقيا الاستعمارية. فعلى سبيل المثال، صورت إيميلي لوريمير نفسها مشاركة فكريّة، ومثقفة سياسية فاعلة، وداعمة للمهمة السياسية الإمبريالية. ورغم أنها وصفت العديد من معاصراتها أنهنَّ حبيسات الحدود النمطية للاهتمامات المنزلية، إلا أنها، وبإصرار، قد رسمت هوية لذاتها كإمبريالية طائشة حقًّا. أما زميلتها –غيرترود بيل التي كانت موجودة في البصرة خلال الحرب العالمية الأولى– فلقد قدمت نفسها بشكل أساسي بوصفها، موظفة في الحكومة الاستعمارية، وكانت أكثر التصاقاً مع السياسة القومية العربية من معظم معاصريها من كلا الجنسين. ورأت المبشرات الأمريكيات البروتستنتيات الموجودات في الخليج في بدايات القرن العشرين أنفسهن كعضوات فاعلات وعاملات في مهمتهن الخاصة في الشرق. وعلى الرغم من أن الإرسالية التبشيرية كانت استشراقية وإمبريالية، حالها هنا كحال الوجود البريطاني، إلا أن المبشرات كُنَّ أكثر قرباً وإيجابية في ملامستهن للحقائق الاجتماعية، والاقتصادية المحليّة والحياة اليوميّة للرجال والنساء في دول الخليج. وبحلول الثلاثينيات من القرن العشرين، كانت رؤى ونشاطات تلك

النساء اللواتي كُنَّ على صلة بالخليج، ومواقف القادمات الجديدات أو المارات عبر الخليج، مختلفة تماماً عن تلك التي كانت موجودة في بداية القرن، غير أنهن كُنَّ يشتركن باليقينيات ذاتها.

لعبت الإمبراطورية دوراً بارزاً في بناء الهويات الشخصية، والأنثوية لجميع تلك النساء، والعامل المشترك بينهن، هو إيمانهن بالمهمة الغربية ذات الغايات التحضيرية. ومع أن للإمبريالية الغربية دوراً بارزاً في إضافة تماثلٍ أساسي على حياتهن، إلا أنّه كان هناك كثير من الفروق والتناقضات في تفسير كل واحدةٍ منهن لها. ويبدو أن آراء النساء الفردية في أنفسهن، وأدوارهن قد تشكلت عبر جنسيتهن، واعتقادهن الديني، وطبقتهن الاجتماعية، وأخيراً وليس آخراً، ظروف الحرب العالمية الأولى السياسيّة، والاقتصادية المتقلبة، وسنوات ما بين الحربين، فلم يكن هناك إطلاقاً رأي أنثوي موحد تجاه الإمبراطورية، لكن كان هناك مدى واسع من المواقف القائمة على الخلفيات الاجتماعية، والحضارية المحلية، التي لم يكن أي منها متأثراً بشكل كبير بالجنوسة استثنائياً. ومن ناحية أخرى، لم يكن هناك شك أن مواقف المرأة الغربية، وتصوراتها ضمن التدرج التراتبي في الإمبراطورية والتصورات الإمبريالية كانت، إلى حد بعيد، مقيدة ويتم تعريفها ضمن المعايير المنزلية للسلوك الأنثوي على الصعيدين العام والخاص. ورغم أن الغربيات كُنّ بمجملهن ملهمات للعلب دور في المشروع الإمبريالي، إلا أن حياتهن كانت تزداد صعوبة كلما ابتعدن عن أدوار الجنوسة التقليدية، وخير مثال على هذا الرحّالات المستقلات مثل روزيتا فوربس، أو النساء ذوات الصلة البعيدة بالمشروع التبشيري كفرانسيس واكفيلد وغراس سترانغ. فهولاء النسوة غالبا ما كن يُصَنّفن ويهمشّن ويتم اعتراضهن من قبل السلطات الإمبريالية البريطانية الذكورية، لأنهن حدن عن جادة الصواب، وكن غير مستقرات وهستيريات في أشنع صورهن، وصعبات وغير أنثويات في أحسنها. أما النساء اللواتي نجحن بسهولة في البيئة الإمبريالية، فلقد كُن أولئك شبيهات المسايرات مثل: فيوليت ديكسون، وإيميلي لوريمر اللتين كانتا تتمتعان بقدر من الاستقلالية والحرية الفكرية، وفي الوقت نفسه كانتا تتمتعان بحماية ارتباطهما بزوجيهما؛ الضابطين السياسيين، وعبر أدائهما الفعال كخاتونات

«متوحدات» وزوجات ومساعدات. ويبدو واضحا أن مساحة الأدوار النسائية التي أسهمت في تحضير الشعوب الأخرى، والأدوار النسائية، والمخملية في الإمبراطورية، إنما كانت نتاج بنات أفكار الرجل، وضرورة سياسية قصوى في إدارة الإمبراطورية. وتتضح هذه الأفكار في الأراشيف عبر سرديات الصراعات المتكررة بين النساء غير المنضبطات، والسلطات الإمبريالية الذكورية.

أخيراً، علينا أن نعترف أن السلطة، والمكانة متقلبتين، كما أن تحديدهما وإعادة تحديدهما تتم وفق العلاقات التراتبية مع الآخرين. حددت المبشرات الأمريكيات البروتستنتيات مكانتهن الأنثوية المتحررة عَبْرَ مقارنتها مع مكانة النساء المسلمات العربيات المتدنية، والمهيمن عليها. فجميع النساء في هذه الدراسة تقريباً أصبحن إلى حد ما، أقوى بسبب رؤيتهن النساء العربيات مغلوبات على أمرهن. لذا فقد تمكنت النساء الغربيات من خلال رؤيتهن للنساء العربيات الأقل تحرراً، من تعزيز مكانتهن عبر سبلٍ لم تكن متوافرة لهن في المجتمع المدني في مدن بريطانيا، أو أمريكا الكبرى. وفي الوقت نفسه، منحهن إيمانهن الثابت بالمهمة الإمبريالية القدرة على تقلد مناصب عامة عليا، ورسم صور شخصية ذاتية بين التركيب الخارجي للسلطة الإمبريالية.

كانت النساء اللواتي سردن قصص حياتهن على شكل مذكرات، ورسائل، وكتابات منشورة، نشطات بشكل خاص في تصوير ذواتهن. فالمؤرخون عادة ليسوا مقيدين بوجهات نظر المصادر المتاحة لهم فحسب، وإنما أيضاً بمدى كل مصدر. فتأريخ المرأة الغربيّة في شبه الجزيرة العربية خلال الفترة الواقعة بين 1890 و 1939، هيمن عليه عددٌ قليل من النجباء المندفعين، الذين تتوافر كتاباتهم للتحليل. ويصورون معا ذلك الارتباط القوي النشط بالسياسة الإمبريالية، وتظهر كتاباتهم بشكل صارخ الصورة النمطية التقليدية للشخصيات الأنثوية الصامتة، والسلبيّة التي رسموها بأنفسهم. إن الخطوة التالية في دراسة تأريخ مشاركة المرأة الغربية في المنطقة، تتطلب بحثاً مجهداً وطويل المدى عن قصصٍ لهؤلاء الغربيات، والشرقيات على حدٍ سواء، اللواتي كانت حياتهن مجهولة لدى العامة، وعكست وجهات نظرهن وعلاقاتهن المدى الحضاري والاجتماعي الواسع

للإمبراطورية. وفي هذه الأثناء، أسهمت سرديات كلٍ من ماري كورزون، وغيرترود بيل، وإيميلي لوريمر. وإيلينيور كالفرلي وروزيتا فوربس وغيرهن الكثيرات في تعميق صورة الوجود البريطاني في الخليج، مضيفة جملة جديدة من المعلومات إلى دراسة التأريخ الاجتماعي، والسياسي للمنطقة.

البيبلوغرافيا

أولاً: المصادر الرئيسية

1. المصادر المخطوطة والأراشيف

أ. مجموعة وزارة الهند والمجموعات الاستشرافية في المكتبة البريطانية

سجلات وزارة الهند

تضم مجموعات وزارة الهند، والمجموعات الاستشرافية في المكتبة البريطانية (OIOC) أهم المصادر الأرشيفية حول التأريخ الحديث لشبه الجزيرة العربية خارج المنطقة نفسها. وتغطي هذه المراجع فترة التدخل البريطاني الممتدة من بدايات اتصالات شركة الهند الشرقية، في القرن السابع عشر، إلى أواخر الأربعينيات من القرن المنصرم، وانتهاء الحكم الإمبريالي في الهند، وأهم السلاسل إطلاقاً هي: سجلات المقيمات والوكلات السياسية البريطانية في الخليج العربي(15/IOR:R)، وسجلات الدائرة السياسية في وزارة الهند :(IOR:L/PS)

سجلات المقيمية السياسية في بوشهر

1/15/IOR: R 1947–1763

سجلات الوكالة السياسية في البحرين

2/15/IOR:R 1947–1900

سجلات محكمة الوكالة السياسية في البحرين

3/15/IOR:R 1948–1913

سجلات وكالة المقيميّة في الساحل المتهادن (2)

4/15/IOR:R 1947–1825

سجلات الوكالة السياسية في الكويت

5/15/IOR:R 1947–1904

سجلات الدائرة السياسية السرية في وزارة الهند

IOR:L/PS

معجم الخليج العربي، وعُمان ووسط جزيرة العرب،الذي وضعه جون غوردن لوريمير، مجلدين، 1908–1915 كالكتا، مطبعة سوبر انتندنت الحكومية (سجلات وزارة الهند: إل/بِ. إس/20/س 90) تمت إعادة طباعة المعجم، ونشره عن طريق النسخ الإرشيفية (فارنهام كومون، 1986).

سجلات وزارة الهند: مجموعة المخطوطات الأوروبية، وهذه المجموعات عبارة عن أوراقٍ شخصيّة لأشخاصٍ عملوا وعاشوا أو سافروا إلى الهند، أو ما يحيط بها من المناطق البريطانية خلال فترة الإمبراطورية. وتشمل هذه المجموعات، المخطوطات الأوروبية، إف 111 و112. وأوراق جورج ناثانيل كوروزن، وساركيز كورزون من كيدليستون.

المخطوطات الأوروبية ف 306 أوراق الليدي ماري كورزون.

المخطوطات الأوروبية ف 177 أوراق إيميلي أوفيرند لوريمير.

المخطوطات الأوروبية د 922 و د1168 أوراق ديفيد لولئهارت/ربرتسون لوريمير.

ب. مكتب السجلات العام

– مراسلات وزارة الخارجية (FO) وملفاتها، والأراشيف المتعلقة بالسفارات والقناصل العامين، ومراسلات وزارة المستعمرات (CO) وملفاتها.

– أوراق شخصية في كلية القديس أنطوني في أكسفورد، أرشيف مركز الشرق الأوسط.

–أوراق المقدم هارولد، ريشارد باتريك ديكسون (1881–1959) GB 165–85..

– مذكرات الدكتور سِ. ستانلي (وُلِدَ 1876).

– أوراق هاري إس ت. جورن بريجر فيلبي (1885–1960) GB 165–228.

–جون تاونسيد، مخطوطة غير منشورة لحياة السير بيرسي كوكس GB 165–286.

5.الأراشيف الوطنية للولايات المتحدة الأمريكية: قسم السجلات تقارير قنصلية من موظفين في جزيرة العرب من عام 1920. كانت هذه التقارير مصدراً منيراً للمعلومات من

المنظور الأمريكي.

8.أراشيف الإرسالية التبشيرية العربية: جزيرة العرب المهملة تمت إعادة طباعة التقارير الميدانية كاملة، ومجلة للبعثة التبشيرية العربية، خلال الفترة الممتدة من عام 1892–1962 ونشرهما في ثمانية مجلدات عام 1988 (فارنهام، كومون، النسخ الأرشيفية).

ثانياً: المصادر الرئيسية المشهورة:

سير ذاتية، مذكرات كتابات ترحال، سرديات تبشيرية

2-Published Primary Sources: Autobiography Memoirs. Travel Writing and Missionary Accounts.

Allison. Mary Bruins. Doctor Mary in Arabia: Memoirs by Mary Bruins Allison MD. edited by Sandara Shaw. Austin: University of Texas. 1994

Barker. Ernest and Freya Stark. 'Women and the Service of the Empire. The Contemporary Review 141. 1932. pp.54-61.

Belgrave. C.Dalrymple. 'Bahrain' Journal of the Central Asian Society 15. 1928.

pp.440-45.

Bell. E.M.. Flora Shaw (Lady Lugard DBE). London:Constable.1947.

Bell. Gertrude. The Desert and the Sown. London: William Heinemann. 1907.

_____ Amurath to Amurath. London: William Heinemann. 1911.

_____ Letters of Gertrude Bell. 2 vols. selected and edited by Lady (Florence) Bell. London: Ernest Benn. 1927.

Al – Qasimi. Muhammad. The Myth of Arab Piracy in the Gulf. London: Croom Helm. 1986.

Billington. Mary. Woman in India. London: Chapman & Hall. 1895.

Blunt. Lady Anne. Bedouin Tribes of the Euphrates. London: John Murray. 1879.

_____ A Pilgrimage to Nejd. the Cradle of the Arab Race. 2 vols. London: John Murray. 1881.

Bradley. John (ed.). Lady Curzon's India: Letters of a Vicereine. London: Weidenfeld and Nicolson. 1985.

Bradley. Sir Reader. The Camels Must Go: an Autobiography. London: Faber and Faber. 1961.

Bullard. Sir Reader. The Camels must go: an Autobiography. London: Faber and Faber. 1961.

Burgoyne. Elizabeth. Gertrud Bell: from her Personal Papers. 2 vols. London: Ernest Benn. 1948-61.

Burton. Richard Francis Burton. Personal Narrative of a Pilgrimage to Al-Medinah and Meccah. 3 vols London: Longman& Co.. 1855056.

Calverley. Eleanor T.. My Arabian Days and Nights. New York: Thomas Y. Crowell Company. 1958.

Caton-Thompson. Gertrude. Mixed Memoirs. Gateshead: Paradigm Press. 1983.

Chamberlain. Houston Stewart. The Foundations of the Nineteenth Century. 2 vols. Lonodn and New York: John Lane. 1911.

Curzon. George Nathaniel. Lord Curzon in India. Being a Selection from His Speeches as Viceroy and Governor – General of India. 1898-1905. London: Macmillan & Co..1906.

_____ Subjects of the Day: Being a Selection of Speeches and Writings. ed. Desmond M.Chapman-Huston. London: George Allen& Unwin. 1915.

_____ Tales of Travel. London: Hodder and Stoughton. 1923.

Dickson. H.R.P.. The Arab of the Desert: a Glimpse into Badawin Life in Kuwait and Saudi Arabia. London: George Allen & Unwin. 1949.

_____ Kuwait and Her Neigbbours. George Allen & Unwin. 1956.

Dickson. Violet. Forty Years in Kuwait. London: George Allen & Unwin. 1971.

Doughty. Charles M.. Travels in Arabia Deserta. 2 vols. Cambridge: Cambridge University Press. 1881.

Egan. Eleanor Franklin. The War in the Cradle of the World: Mesopotamia. New York and London: Harper & Bros.. 1918.

Forbes. Rosita. The Secret of the Sahara: Kufara. London: Cassell. 1921.

_____ 'A visit to the Idrisi territory in Asir and Yemen'. The Geographical Journal 62. 1923. pp. 271-78.

_____ Women called Wild. London: Grayson& Grayson. 1935.

_____ Gypsy in the Sun. London: Cassell & Co.. 1946.

_____ Appointment with Destiny. London: Cassell& Co.. 1946.

Fowle. Trenchard C.. Travels in the Middle East: Being Impressions by the Way in Turkish Arabia. Syria and Persia. London: Smith. Elder & Co.. 1916.

Freeth. Zahra. Kuwait was my Home. London: George Allen & Unwin. 1956.

Harrison. Paul W.. 'Economic and Social Conditions in East Arabia'. The Moslem World 14. 1924. pp. 163-71.

_____ Doctor in Arabia. New York: John Day Company. 1940.

Henderson. Edward. This Strange Eventful History: Memoirs of Earlier Days in the UAE and Oman. London: Quarter Books.1988.

Hogarth. David George. The Penetration of Arabia: a Record of the Development of Western Knowledge Concerning the Arabian Peninsula. London: Lawrence and Bullen. 1904.

_____ 'Gertrude Bell's journey to Hayil'. The Geographical Journal 70. 1927k pp.1-21.

Hogarth. Janet. An Oxford Portrait Gallery. London: Chapman Hall. 1931.

Jersey. M.E.. 'The Hindu at Home'. The Nineteenth Centruy: a Monthly Review 25. January0June 1889. pp. 653-66.

Kaye. Sir John. A History of the Sepoy War in India. 1857-1858. 3 vols. London: W.H. Allen. 1864-76.

Lane. Edward William. An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians. 2 vols. London: 1836.

_____ The Thousand and One Nights. 3 vols. London: C.Knight & Co.. 1839-41.

Loch. It Colonel G.. 'The Persian Gulf'. Journal of the Royal Central Asian Society 25. 1938. pp. 349-64.

Lorimer. Emily Overend. Frederick the Second. 1194-1250. London: Constable & Co.. 1931 (translated from Ernst Kantorowicz. Kaiser Friedrich der Zweite. Berlin. 1927).

_____ Language Hunting in the Karakoram. London: George Allen& Unwin. 1939.

_____ What Hitler Wants. Harmondsworth: Penguin Special. 1939.

_____ What the German Needs. London: George Allen& Unwin. 1942.

Malcolm. Sir John. Sketches of Persia. from the Journals of a Traveler in the East. 2 vols. London: John Murray. 1828.

Mason. Alfred De Witt and Barny. Frederick J.. History of the Arabian Mission. New York: Board of Foreign Missions. Reformed Church in America. 1926.

Max-Muller. Georgina. Letters from Constantinople. London. 1897.

Moberley. F.J.. History of the Great War based on official Documents: the Campaign in Mesopotamia. London: Committee of Imperial Defence Historical Section. 1923.

Montgomery. Helen B.. Western Women in Eastern Lands: An Outline Study of fifty

Years of Woman's Work in Foreign Missions. New York: Macmillan Co.. 1910.

Moorehead. Caroline (ed.). Over the Rim of the World: Freya Stark Selected Letters.

London: John Murray. 1988.

Muir. Sir William. The Life of Mahomet and History of Islam. to the Era of the Hegira.

4 vols. London. 1858-61.

Murray. Gilbert. 'Satanism and the New World Order'. Contemporary Review 117.

1920. pp. 465-76.

Niebuhr. Carsten. Travels through Arabia and other Countries in the East. tran.

Robert

Heron. 2 vols. Edinburgh: R.Morison & Son. 1792.

O'Brien. Rosemary. Gertude Bell: the Arabian Diaries. 1912-1914. New York:

Syracuse University Press. 2000.

Palgrave. William G., Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia (1862-1863). 2 vols. London: Macmillan. 1865.

Philby. H.St.J.B., Arabian Days. London: Robert Hale. 1948.

_____ Forty Years in the Wilderness. London: Robert Hale. 1957.

Sommer. Annie Van and S.M.Zwemer. (eds). Daylight in the Hare: a New ditions and methods of work among Moslem women read at the Lucknow Conference. 1911. Edinburgh and London: Oliphant. Anderson & Ferrier. 1911.

Stark. Freya. The Valley of the Assassins. London: John Murray. 1934.

_____ 'Two months in the Hadhramaut'. The Geographical Journal 87. 1936. pp. 113-26.

_____ 'In defence of travel'. Journal of the Royal Central Asian Society 23. 1936. pp. 104-10.

_____ The Southern Gates of Arabia: A Journey in the Hadhramaut. London: John Murray. 1936.

_____ Baghdad Sketches. London: John Murray. 1937.

_____ Seen in the Hadhramaut. London: John Murray. 1938.

_____ 'An Exploration in the Hadhramaut and Journey to the Cost'. The Geographical Journal 93. 1939. pp. 1-17.

_____ A Winter in Arabia. London: John Murray. 1940.

_____ Traveller's Prelude: Autobiography. 1893-1927. London: John Murray. 1950.

_____ Beyond Euphrates: Autobiography 1928-1933. London: John Murray. 1951.

_____ The Coast of Incense: Autobiography. 1933-1939. London: John Murray. 1953.

_____ Dust in the Lion's Paw: Autobiography. 1939-1946. London: John Murray. 1961.

_____ Freya Stark Letters. ed. Lucy Moorehead. Salisbury: Compton Russell. 1974 (vol.1. 1914-1930). 1975 (vol.2. 1930-1935). 1976 (vol.3. 1935-1939).

Van Ess. Dorothy. Pioneers in the Arab World. Grand Rapids MI: Historical Series of Rdformed Church in America. 1974.

Van Ess. John. Meet the Arab. New York: John Day Company. 1943.

Wilson. Lt Colonel Sir Arnold T.. Loyalties: Mesopotamia. 1914-1917. a Personal and Historical Record. London: Oxford University Press. 1930.

_____ S.W. Persia. Letters and Diary of a Young officer. 19071914. London: Oxford University Press & Readers Union Limited. 1942.

Zwemer. A.E. and S.M.. Moslem Women. West Medford MA: Central Committee on the Study of Foreign Missions. 1926.

Zwemer. Samuel M.. Arabia the Cradle of Islam: Studies in the Geography. People and Politics of the Peninsula with an Account of Islam and Mission Work etc.. Edinburgh and London; New York: Oliphant. Anderson & Ferrier. 1900.

Zwemer. Samuel M. and James Cantine. The Golden Milestone: Reminiscenc-

es of Pioneer Days Fifty Years Ago in Arabia. New York: Fleming H.Revell Company. 1938.

SECONDARY PRINTED WORKS

Abu-Lughod. Lila. Writing Women's Worlds: Bedouin Stories. Berkeley: University of California. 1992.

_____ (ed.). Remaking Women: Feminism and Modernity in the Middle East. Princeton NJ: Princeton University Press. 1998.

Adams. Pauline. Somerville for Women: an Oxford College. 1879-1993. Oxford University Press. 1996.

Ahmed. Leila. 'Western Ethnocentrism and perceptions of the Harem'. Feminist Studies 8. 1982. pp. 521-34.

_____ Women ad Gender in Islam: Historical Roots of a Modern Debate. New Haven and London: Yale University Press. 1992.

Abdul- Aziz. Moudi M. King Abdul –Aziz and the Kuwait Conference. 1923-1924. London: Echoes. 1993.

Abdullah. M. Morsy. 'Changes in the economy and political attitudes. and the Development of culture on the coast of Oman between 1900 and 1940' Arabian Studies 2. 1975. pp. 167-78.

_____ United Arab Emirates: a Modern History. London: Croom Helm. 1978.

Alangari. Haifa. The Struggle for Power in Arabia: Ibn Saud. Hussein and Great Britain. 1914-1924. Reading: Ithaca Press. 1998.

Alghanim. Salwa. The Reign of Mubarak Al-Sabah. Shaikh of Kuwait. 1896-1915. London: 1.B. Tauris. 1991.

Al Rasheed. Madawi. Politics in an Arabian Oasis: the Rashidi Tribal Dynasty. London: 1.B. Tauris. 1991.

Al – Qasimi. Muhammad. The Myth of Arab Piracy in the Gulf. London: Croom Helm. 1986.

Al- Sayegh. Fatma. 'American missionaries in the UAE region in the twentieth century'. Middle Eastern Studies 32. 1996. pp.120-39.

Al- Tajir. Mahdi. Bahrain 1920-1945: Britain. the Shaikh and the Administration. Lonndon: Croom Helm. 1987.

Altorki. Soraya. Women in Saudi Arabia: Ideology and Behavior among the Elite. New York: Columbia University Press. 1986.

Amos. Valerue and Pratibha Parmar. 'Challenging imperial feminism'. Feminist Review 17. July 1984. pP. 3-19.

Badran. Margot. Feminists. Islam and the Nation: Gender and the Making of Modern Egypt. Princeton NJ: Princeton University Press. 1995.

Ballhatchet. Kenneth. Race. Sex and Class Under the Raj: Imperial Attitudes and Policies and their Critics. 1793-1905. London: Weidenfeld & Nicolson. 1980.

Barker. A. J.. The Neglected War: Mesopotamia. 1914-1918. London: Faber & Faber. 1967.

Baron. Beth. The Women's Awakening in Egypt: Culture Society and the Press. New Haven and London: Yale University Press. 1994.

Barr. Pat. The Memsahibs. London: Hamish Hamilton. 1976.

Baykan, Aysegul C., 'The Turkish Woman: an adventure in feminist historiography', Gender and History 6, 1994, pp. 101-16.

Bolt, Christine, Victorian Attitudes towards Race, London: Routledge & Kegan Paul, 1971.

Bowie, Fiona, Deborah Kirkwood and Shirley Ardener (eds), Women and Missions: Past and Present. Anthropological and Historical Perceptions, Providence and Oxford: Berg publishers, 1993.

Brantlinger, Patrick, Rule of Darkness: British Literature and Imperialism, 1830-1914, Ithaca and London: Cornell University Press, 1988.

Burrowes, Robert D., Historical Dictionary of Yemen, Lanham MD and London: Scarecrow Press, 1995.

Burton, Antoinette, 'The white woman's burden: British feminists and ' the Indian Woman', 1865-1915', in Chaudhuri and Strobel (eds), Western Women and Imperialism: Complicity and Resistance, Bloomington : Indiana University Press, 1992.

_____ Burdens of History: British Feminists, Indian Women and Imperial Culture, 1865-1915, Chapel Hill and London : University of North Carolina, 1994.

Busch, Briton Cooper, Britain and the Persian Gulf, 1894-1914, Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1967.

_____ Britain, India and the Arabs, 1914-1921, Berkeley: University of California Press, 1971.

Bush, Julia, Edwardian Ladies and Imperial Power, London: Leicester University Press, 2000.

_____ British Women's Imperial Politics and the South African War (1899-1902)'. Women's History Notebooks 7 (2). Summer 2000. pp.2-9.

Callan. Hilary and Shirley Ardener (eds). The Incorporated Wife. Beckenham: Croom Helm. 1984.

Callaway. Helen. Gender. Culture and Empire: European Women in Colonial Nigeria. London: Macmillan.1987.

Callaway. Helen and Dorothy O.Helly. 'Crusader for the Empire: Flora Shaw/ Lady Lugard' in Chaudhuri and Strobel (eds). Western Women and Imperialism: Complicity and Resistance. Bloomington: Indiana University Press. 1992.

Cannadine. David. Ornamentalism: How the British Saw their Empire. London; Allen Lane. 2001.

Carr. E. H.. What is History? The George Macaulay Trevelyan Lectures delivered in the University of Cambridge. January-March 1961. London: Macmillan & Co.. 1961.

Chambers. Iain and Lidia Curti (eds). The Post-Colonial Question: Common Skies. Divided Horizons. London: Routledge. 1996.

Chaudhuri. Nupur and Margaret Strobel (eds). Western Women and Imperialism: Complicity and Resistance. Bloomington: Indiana University Press. 1992.

Cohn. Bernard s.. 'Representing authority in Victorian India' Hobsbawm and Ranger (eds). The Invention of Tradition. Cambridge Cambridge: Cambridge University Press. 1983.

_____ Colonialism and its Forms of Knowledge: the British in India. Prin-

veton NJ: Princeton University Press. 19960

Cooper. F and A. Stoler. 'Tensions of empire: colonial control and visions of rule'. American Ethnologist 16. 1989. pp.609-21.

Cottrell. Alvin J. (ed.). The Persian Gulf States: a General Survery. Baltimore and London: Johns Hopkins University Press. 1980.

Crawford . Elizabeth. The Women's Suffrage Movement: a Reference Guide. 1866-1928. London: Routlege. 1999.

Davies. Charles L.. The Blood-Red Flag: an Investigation into Qasimi Piracy. 1797-1820. Exeter: University of Exeter Press. 1997.

Doumato. Eleanor Abdella. Getting God's Ear: Healing in Saudi Arabia and the Gulf. New York: Coulumbia University Press. 2000.

Donnell. Alison and Pauline Polkey (eds). Representing Lives: Women and Auto/biography. Basingstoke: Macmillan. 2000.

Evans. Richard J.. In Defence of History. London: Granta. 1997.

Fernea . Elizabeth. 'Ways of seeing Middle Eastern Women'. Women: A Cultural Review 6. 1995. pp. 60-66 .

Flemming. Leslie A.. American missionaries' ideals for women in North India. 1870-1930' in Chaudhuri and Strobel (eds). Western Women and Imperialism: Complicity and Resistance. Bloomington: Indiana University Press. 1992.

Foucault. Michel. History of Sexuality. vol. 1. An Introduction. London: Allen Lane. 1979 (translated from La Volonte de Savoir. Paris 1976).

_____ The Archaeology of Knowledge. London: Tavistock. 1977.

Frater. Alexander. Beyond the Blue Horizin: On the Track of Imperia Always. London: William Heinemann. 1986.

Geniesse. Jane Fletcher. Passionate Nomad: The Life of Freya Stark. New York: Random House. 1999.

Gilmour. David. Curzon. London: John Murrray. 1994.

Gordon. Peter and David Doughan. Dictionary of British Women's Organistiones 1825-1960. London Woburn Press. 2001.

Graham-Brown. Sarah. Images of Women: the Portrayal of Women in the Photography of the Middle East. 19860-1950. London: Quartet Books. 1988.

Graves. Philip. The Life of Sir Percy Cox. London: & Co.. 1941.

Guha. Ranajit. 'On some aspects of the historiography of colonial India'. Subaltern Studies 1. 1982. pp.1-7.

Haggis. Jane. 'Gendering colonialism or colonizing gender? Recent wmen's studies approaches to white women and the history of British colonialism'. Women's Studies International Forum 13. 1990. pp. 105-15.

_____ White women and colonialism: towards a non-recuperative history' in Clare Midgley (ed.). Gender and Imperialism (1998).

_____ A heart that has felt the Love of God and long for others to know it»: conventions of gender. tensions of self and constructions of difference in offering to be a lady missionary'. Women's History Review 7. 1998. pp. 171-92.

Hall. Catherine. 'Politics. post-structuralism and feminist history'. Gender and History 3. 1991. pp. 204-10.

______ Histories. cmpires and the post-colonial moment' in Chambers and Curti (eds). The Post-Colonial Question: Common Skies Divided Horizons. London: Routledge. 1996.

Hall, Stuart, «When was 'the post-colonial'? Thinking at the limit' in Chambers and Curti (eds), The post-colonial Question: Common Skies, Divided Horizons, London: Routledge, 1996.

Halliday, fred, ' «Orientalism» and its critics', British Journal of Middle Eastern Studies 20,1993,pp.145-63.

Harrison, Brian, Separate Spheres: the Opposition to Women's suffrage in Britain, London: Croom Helm, 1978.

Hatem, Mervat, 'Through each other's eyes: Egyptian, Levantine-Egyptian, and European Woman's images of themselves and of each other (1862-1920)', Woman's Studies International Forum 12,1989, pp.183-98.

Heilbrun, Carolyn, Writing a Woman's Life, New York. Ballantine Books, 1988.

Hill, Patricia r., The World Their Housebold: The American Woman's Foreign Mission Movement and Cultural Transformation, 1870-1920, Ann Arbor: University of Michigan Press,1985.

Hobsbawm, Eric, and Terence Ranger (eds), The Inventions of Tradition, Cambridge: Cambridge University Press,1983.

Howell Georgina, 'Gertrude of Arabia', The Sunday Time Magazine, May 1997.

Hunt, Nancy Rose, '»Single ladies on the Congo»: Protestant missionary tensions and voices', Women's Studies International Forum 13,1990, pp.395-403.

Hunter, Jane, The Gospel of Gentility: American Missonaries in Turn-of-the-Century China, New Haven & London: Yale University Press,1984.

Hutchison, Walliam R., Errand to the World: American Protestant Thought and Foreign Missions. Chicago IL: University of Chicago Press.1987.

Hyam, Ronald, Empire and Sexuality: the British Experience, Manchester: Manchester University press.1990.

Izzard, Molly, Freya Stark: A Biography, London: Hodder & Stoughton, 19930

James, Liz, «This me!» autobiography and the construction of identites' in Stanley (ed.) 'Lives and Works: Auto/Biographical Occasions', Auto/Biography 3, 1994, pp. 71-82 .

Johnaon-Odim, Cheryl and Margaret Strobel, Expanding the Boundaries of Women's History: Essays on Women in the Third World, Boomington and Indianapolis: Indiana University Press, 1992.

Kabbani, Rana, Europe's Myths of the Orient: Devise and Rule, London: Macmillan, 1986.

Kandiyoti, Deniz (ed.), Gendering the Middle East: Emerging Perspectives, London, I.B. Tauris, 1996.

Kaplan, Robert D., The Arabists: the Romance of an American Elite, New York: the Free Press.1968

Keddie, Nikki R.and Beth Baron (eds), Women in Middle Eastern History: Shifting Boundaries in Sex and Gender, New Haven and London: Yale University Press, 1991.

Kelly, J.B., Britain and the Persian Gulf, 1795-1880, Oxford: Oxford University Press, 1968.

Knapman, Claudia, White Women in fiji, 1835-1930: The Ruin of Empire?,

Sydney: Allen & Unwin. 1986.

Lawton. John. 'A lifelong journey (Freya Stark)'. Aramco World 44. July/ August 1993.pp.2-7.

Lewis. Reina. Gendering Orientalism: Race. Femininity and Representation. London and New York: Routledge. 1996.

Mobro. Judy. Veiled Half-Trutbs: Western Travellers' Perceptions of Middle Eastern Women. Kondon: I.B.Taruis. 1991.

McClintock. Anne. Imperial Leather: Race. Gender and Sexuality in the Colonial Context. New York and London: Routledge. 1995.

MacMillan. Margaret. Women of the Raj. London: Thmes & Hudson. 1988.

Marshall. Brian. 'European travelers in Oman and Southeast Arabia 1792-1950:

a bibliographical study'. New Arabian Studies 2. 1994.pp.1-57.

Mason. Philip. The Men who Ruled India. London: Guild Publishing. 1985.

Melman. Billie. Women's Orients: English Women and the Middle East. 1718-1918:

Sexuality. Religion and Work. London: Macmillan. 1992.

Midgley. Clare (ed.). Gender and Imperialism. Manchester: Manchester University Press. 1998.

Mills. Sara. Discourses of Difference: An Analysis of Woment's Travel Writing and Colonialism. London and New York: Routledge. 1991.

Mohanty. Chandra. 'Under western eyes: feminist scholarship and colonial discourses'. Feminist Review 30. Autumn 1988. pp.61-88.

Monroe. Elizabeth. Philby of Arabia. London: Faber & Faber. 1973.

Moorehead. Caroline. Freya Stark. Harmondsworth: Penguin Books. 1985.

Moyse-Bartlett. H.. The Pirates of Trucial Oman. London: Macdonald. 1966.

Nair. Janaki. 'Uncovering the zenana: visions of Indian womanhood in English- women's writings. 1813-1940' in Johnson-Odim and Strobel. Expanding the Boundaries of Women's History: Essays on Women in the Tbird World. Bloomington and Indianapolis: Indiana University Press. 1992.

Nicolson. Nigel. Mary Curzon. London: Weidenfeld & Nicolson. 1977.

Nourallah. Riad Atef. 'The Blunts' road to the Mu'allaqat'. Arabian Studies 8. 1990. pp.105-35.

Paidar. Parvin. Women and the Political process in Twentieth-Century Iran. Cambridge: Cambridge University Press. 1995.

Pastner. Caroll McC.. 'Englishmen in Arabia: encounters with Middle Eastern women'. Signs: Journal of Women in Culture and Society 4. 1978. pp.308-23.

Peirce. Leslie. The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire. Oxford: Oxford University Press. 1993.

Peterson. J.E.. Historical Dictionary of Saudi Arabia. Metuchen NJ and London: Scarecrow Press. 1993.

Polkey. Pauline (ed.). Women's Lives into print: the Theory. Practice and Writing of Feminist Auto/biography. Basingstoke: Macmillan. 1999.

Pratt. Mary Louise. Imperial Eyes: Travel Writing and Transculturation. London and New York: Routledge. 1992.

Ramusack. Barbara. 'Cultural missionaries. maternal imperialists. feminist allies: British women activists in India. 1865-1945' in Chaudhuri and Strobel

(eds). Western women and Imperialism: Complicity and Resistance. Bloomington: Indiana University Press. 1992.

Reynolds. Dimberley and Nicola Humble. Victorian Heroines: Representations of Femininity in Nineteenth- Century Literature and Art. London: Harvester Wheatsheaf. 1993.

Riley. Denise. 'Am I that name? Feminism and the Category of 'Women' in History. Basingstoke: Macmillan. 1988.

Rich. Paul. The Invasions of the Gulf: Radicalism. Ritualism and the Shaikbs. Cambridge: Allborough Press. 1991.

Robinson. Jane. Wayward Women: a Guide to Women Travellers. Oxford: Oxford University Press. 1990.

Rumaihi. M.G.. Bahrain: Social and Political Change since the First World War. London: Bowker. 1976.

Said. Edward. Orientalism. New York & London: Routledge & Kegan Paul Ltd.. 1978; reprinted with and afterword. Harmondsworth: Penguin. 1995.

_____ Covering Islam: How the Media and Experts Determine How we See the Rest of the World. London: Routledge & Kegan Paul. 1981.

_____ Culture and Imperialism. London: Chatto & Windus. 1993.

Sampson. Anthony. The Seven Sisters: the Great Oil Companies and the World They Made. London. Hodder & Stoughton. 1975.

Schick. Irvin Cemil. 'Representing Middle Eastern women: feminism and colonial discourse'. Feminist Studies 16. 1990.pp. 345-80.

Scott. Joan Wallach. Gender and the Politics of History. New York: Columbia University Press. 1988.

Sharpe. Jenny. Allegories of Empire: the Figure of Woman in the Colonial Text. Minneapolis: University of Minnesota Press. 1993/

Sheridan. Dorothy. 'Getting on with Nella Last at the Barrow-in-Furness Red Cross Centre: romanticism and ambivalence in working with women's stories'. Women's History Notebooks 5. 198.

Sluglett. P.. Britain in Iraq. 1914-1932. London: Ithaca. 1976.

Spivak. Gayatri Chakravorty. 'Subaltern Studies: deconstructing historiography'. Subaltern Studies IV. Delhi. 1985. pp.330-63.

_____ 'Can the Subltern speak?' in Patrick Williams and Laura Chrisman (eds). Colonial Discourse and Post-Colonial Theory. London: Harvester Wheatsheaf. 1993.

_____ A Critique of Postcolonial Reason: Toward a History of the Vanishing Present. Cambridge MA and London: Harvard University Press. 1999.

Stanley. Liz. The Diaries of Hannah Cullwick: Victorian Maidservant. New Brunswick : Rutgers University Press. 1984.

_____ 'British feminist histories: an editorial introduction'. Women's Studies International Forum 13.1990.pp.3-7.

_____ 'Recovering women in history from feminist deconstructionism'. Womwn's Studies International Forum 13. 1990.pp. 151-57.

_____ The Auto/biographical I : the Theory and Practice of Feminist Autobiography. Manchester: Manchester University Press. 1992.

_____ (ed.) 'Lives and Works: Auto/Biographical Occasions'. Auto/Biography 3. 1994.

Strobel. Margaret. European Women and the Second British Empire. Bloom-

ington: Indiana University Press. 1991.

Tidrick. Kathryn. Heart-Beguiling Araby. Cambridge: Cambridge University Press. 1981.

Tinkler. Penny. 'Introduction to Special Issue: Women. Imperialism and Identity'. Women's Studies International Forum 21. 1998.pp.217-22.

Troeller. Gary. The Birth of Saudi Arabia: Britain and the Rise of the House of Sa'ud. London: Frank Cass. 1967.

Tucker. Judith (ed.). Arab Women: Old Boundaries. New Frontiers. Bloomington: Indiana University Press. 1993.

Tuson. Penelope. The Records of the British Residency and Agencies in Persian Gulf. London: Foreign and Commonwealth Office. 1979.

_____ Sources for Middle East Studies. London: The British Library. 1984.

_____ The Queen's Daughters: an Anthology of Victorian Feminist Writings on India. 1857-1900. Reading : Ithaca Press. 1995.

_____ 'Mutiny narratives and the imperial feminine : European Women's accounts of the Rebellion in India in 1857'. Women's Studies International Forum 21.1998.pp.291-303.

Tuson. P. and E. Quick . Arabian Treaties. 1600-1060. 4 vols. Farnham Common: Archive Editions. 1992.

Vassiliev. Alexei. The History of Saudi Arabia. London: Saqi Books. 1998.

Vicinus. Martha (ed.). Suffer and be still : Women in the Victorian Age. Bloomington: Indiana University Press. 1972.

Wallach. Janet. Desert Queen: The Extraordinary Life of Gertrude Bell. Adventurer. Adviser to Kings. Ally of Lawrence of Arabia. New York: Double-

day. 1996.

Ware. Vron. Beyond the Pale: White Women. Racism and History. London: Verso. 1992.

Weeks. Jeffery. Sex. Politics and Society: the Regulation of Sexuality since 1800. London: Longman. 2nd edition. 1989.

Winder . R.Bayley. Saudi Arabia in the Nineteenth Century. London: Macmillan. 1985.

Winstone. H.V.F..Getrude Bell. London: Cape. 1978.

Yapp. Malcom. 'British Policy in the Persian Gulf' in Alvin J. Cottrell (ed.). The Persian Gulf States: a General Survey. Baltimore and London: Johns Hopkins University Press. 1980.

Yegenoglu. Meyda. Colonial Fantasies: Towards a Feminist Reading of Orientalism. Cambridge: University Press. 1998.

Yergin. Daniel. The Prize: the Epic Quest for Oil. Money and Power. New York: Touchstone. 1991.

Young. Robert. White Mythologies: Writing History and the West. London: Routledge. 1990.

_____ Collonial Desire: Hybridity in Theory. Culture and Race. London: Routledge. 1995.

Zahlan. Rosemarie Said. The Origins of the United Arab Emirates: a Political and Social History of the Trucial States. London: Macmillan. 1978.